عبد الرحمن الشرقاوي

رواية

الأرض

مكتبة علي بن صالح الرقمية

عبد الرّحمن الشرقاوي

الأرض

روايـــة

1954

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

- ١ -

لست أريد بهذه الصفحات أن أكتب رواية طويلة، ولا أنا أروي هنا تاريخ بعض الرجال أو النساء، ولا ذكرياتي.

ولست أحتال على القارئ لأسرق اهتمامه ويقظته، فأؤكد له أن الأبطال الذين يضطربون عبر هذه الفصول، لم يعيشوا أبدا إلا في الخيال.

لن أخدع القارئ إلى هذا الحد.. فخيالاتنا في النهاية لا تستطيع أن تخلق الكائنات التي تمضي مع الحياة مثقلة بالحياة: تحلم وتتعذب وتعرف المتاع واليأس والهوى والدموع والضحكات والأمل الغامض وتصنع المستقبل في إصرار حزين.

وما أنا بزاعم أني عرفت قصة الذين أتحدث عنهم، فنحن في مصر لا نكاد نعرف قصة كاملة لإنسان.. وقصة الإنسان في مصر تظهر فجأة وتمضي فاترة رتيبة يخالجها الاحتدام والغليان لبعض الوقت.. ثم تهمد وتغيض: تغيض شيئا فشيئا كمياه منسابة على الرمال.

هكذا كانت حياة وصيفة وعبد الهادي وخضرة وعلواني ومحمد أبو سويلم والشيخ يوسف والشيخ الشناوي ومحمد أفندي والشيخ حسونة، وكل النساء والرجال والأطفال الذين عرفتهم في قريتي منذ عشرين عاما.

ولست أذكر على التحديد متى بدأت أهتم بوصيفة، ولكني عدت من القاهرة في إجازة الصيف، بعد أن حصلت على الشهادة الابتدائية.. ولم أكد أخلع البنطلون القصير والجاكتة المسدودة، وألبس الجلباب الأبيض، وأنطلق مزهوا في طرقات القرية بالشبشب المفتوح الأحمر، حتى أدركت أن قريتي تتحدث عن وصيفة كما لم تتحدث من قبل عن فتاة أخرى.

وأنا أعرف قريتي تماما.

أعرفها بصفة خاصة في تلك السنوات الطاحنة منذ عشرين عاما عندما كانت القرية تقذف ببعض فتياتها وفتيانها إلى المدينة باحثين عن عمل، ليعودوا من بعد صفرا مهزولين، أكثر صفرة وهزالا مما ذهبوا، ومعهم آخرون عاشوا في المدينة طويلا، ثم عادوا كلهم ينبشون في طين الحقول عن الطعام.

أنا أعرف قريتي تماما..

وأعرف أنها لم تكن تستطيع أن تقف عند شيء أو تشغل بشيء على الإطلاق في تلك السنوات التي يلهبها دائما صراع لا يهدأ من أجل القوت.

من الحق أن فتيان القرية الذين يجدون العمل والطعام قد يشغلون أحيانا بفتاة تنضج فجأة، ولكنها ما تكاد تتزوج ويحمل إلى بيتها الصندوق الأحمر المخطط، حتى تفرغ القرية بسرعة من الهمس الشائع

المعروف عن خيبة الزوج في أول ليلة.. ثم تخرج الزوجة من بعد هذا في الصباح المبكر لتملأ الماء من النهر الصغير وهي تلوح بيدها المصبوغة بالحناء.

وأنا أعرف أن القلائل الذين يملكون أرضا في القرية، كانوا وحدهم يشغلون بالضرائب المتجمدة على الأرض، وبالصراف الذي يطالبهم بمال الحكومة، ويهددهم دائما بالحجز على الأطيان.

على أن بقية الرجال والفتيان لم يكن يعنيهم أن تنتزع الأرض من أيدي الملاك أم تظل، ما دام كل واحد منهم يجب أن يبحث آخر الأمر عن حقل يعمل فيه طول النهار.. وفي الحق إنهم يحاولون أبدا أن يخفوا ضحكاتهم الشامتة كلما شاهدوا الصراف يدخل ـ ومعه خفير ببندقية ـ إلى بيت أحد الذين يملكون أرضا في القرية.

ولكن وصيفة شغلت قريتي كما لم تشغلها فتاة أخرى، وكما لم تشغلها أبدا قصص الأيام الأولى من الزواج، أو حديث المال والصراف والمحجوزات.

وعندما عدت إلى قريتي في ذلك الصيف بعد أن حصلت على الابتدائية، خيل إليّ من كثرة ما سمعت عن وصيفة أنني لا أعرفها.

لم يسألني الصبيان كعادتهم كل صيف عن مصر وما بمصر، ولم يطلب واحد منهم ـ كما تعودوا ـ أن أتحدث أمامه باللغة الإنجليزية أو أضحك بالإنجليزية أو أفتح له كتابا ليرى فيه الكلام الذي يكتب، وإنما حدثني الجميع عن وصيفة، ونحن واقفون بعد العصر بالقرب من دكان الشيخ يوسف بقال القرية، في الطريق الرئيسي الذي يمتد من القرية إلى جسر النهر.

وسألت الأولاد الذين وقفوا معي عن وصيفة هذه من تكون؟ فشد أحدهم طاقيته الصوف الرمادية على رأسه وزام:

ـ هيه.. يعني نسيت؟ يعني مصر تخليك تنسى وصيفة؟

وابتسم الصغار ولم أكن قد تذكرت بعد، فرفع أحدهم حاجبيه وقال وهو يبلع ريقه:

ـ بقى ماتعرفشي وصيفة اللي كانت طول النهار بتنط معانا في الترعة من قيمة أربع خمس سنين.

وقال ولد آخر وهو يستند إلى عصا صغيرة من التوت كما يستند الكبار إلى الشماريخ:

ـ حاكم هيه فارت بسرعة يا جدعان، وهيه لسه راجعة من البندر في الشتا.

ثم التفت إليّ وهو يحك جسده:

ـ لكن بقى يعني ما انتش فاكرها؟!.. وصيفة مراتك يا أخي!!

وضحك الأولاد.. وتذكرت وأنا أضحك كل ما كان بيني وبين وصيفة!

كنا قبل أن نذهب إلى المدرسة الابتدائية بعام واحد نستحم في ترعة صغيرة إلى جوار دور القرية، وكنا نحن الصغار من أولاد وبنات نمرغ أجسادنا على التراب ونكسو وجوهنا ورءوسنا بالطين لنصبح شكل

العفاريت.. ثم نقفز إلى الترعة الصغيرة، ونغطس في الماء المثقل بالطمي، وزعيقنا يختلط بصياح الإوز والبط الذي يسبح إلى جوارنا ويستقبلنا مصفقا بأجنحته.

وذات يوم التقينا كلنا على هذه الترعة الصغيرة قبل صلاة الظهر كما تعودنا دائما.. وقبل أن نخلع ملابسنا قالت لنا وصيفة بتألق:

ـ تيجو يا عيال نستحمه في البحر؟

وأقسمت وصيفة أنها تعرف مكانا في النهر غير عميق نستطيع أن نستحم فيه، ونقف على أرجلنا في الماء.

ولم نكن في تلك الأيام قد استطعنا أن نقرب ماء النهر، وإن كنا لنحلم أن نسبح فيه ونعبره ذات يوم كالكبار.

كانت وصيفة هي أكبرنا، تعرف كثيرا من الأشياء التي لانعرفها نحن، تعرف النهر وتحمل جرتها الصغيرة وتذهب إليه لتملأ كما يملأ النساء.

كانت وحدها تستطيع أن تتسلق أشجار التوت، وتهزها علينا فنأكل الثمار الطيبة، وكانت وحدها تنط على أشجار «الزنزلخت» وتصنع العقود من حباته الصغيرة.. وكانت تطلع جميزة عبد الهادي المخيفة الارتفاع وتنزل مسرعة ومعها كوم من التين (الجميز) توزعه علينا لنلعب به أو نأكله وهو أخضر.

كانت هي وحدها التي تستطيع أن تصنع هذا كله.

وهكذا تعودت وصيفة أن تفتح أمامنا أسرار الأشياء فتبهرنا، وتعودت أن ترد في طلاقة على الرجال الذين يصرخون في وجوهنا ونحن نلعب.. وتشتمهم إن لزم الأمر.

ولم تكد وصيفة تقترح علينا أن نذهب لنستحم في النهر بعيدا عن الإوز والبط وعن دور القرية حتى مضينا نجري وراءها فرحين؛ لنضرب الماء بأيدينا وأرجلنا ونقفز في الماء بظهورنا كالذين يكبروننا من العمر.

وقادتنا وصيفة إلى مكان قريب من ساقية مهجورة، وبدأنا نخلع ملابسنا.كان واضحا أن وصيفة هي أكبرنا، فلبدنها شبه قوي بأبدان النساء.

وكنا قد تعودنا عندما نخلع ملابسنا عند الترعة الصغيرة أن ننظر إلى وصيفة معجبين، فلم يكن فينا ولد أو فتاة فوق الثامنة، أما هي فكانت تعبر الحادية عشرة بادية الخصر والردفين ذات جسد محدد الخطوط.. وكان يروق لنا ـ نحن الأولاد ـ أن نتحسس جسدها من على الصدر والظهر!...

وخلعنا ملابسنا وكومناها كلها تحت شجرة، ثم نزلنا إلى النهر ومشينا في الماء بخيلاء تخالجها الرهبة.. وأقبل بعض نساء ليملأن بالقرب منا ونظرت إلينا إحداهن، ثم جرت نحونا وهي تمسك ذيل جلبابها الأسود بأسنانها وانقضت على وصيفة من بيننا فقرصتها في فخذها وهي تصيح:

ـ اطلعي يامفضوحة.. أنتي محشورة ليه في وسط الصبيان؟

فصرخت فيها وصيفة متحدية كعادتها كلما شتمها رجل أو امرأة:

ـ الله!.. وأنتي ما لك؟.. أنت كنتي أمي ولا أبويا.. اوعي كده.. ماحدش له ضرب عليّ أنا بنت شيخ الغفر.

وإذ ذاك قذفتها امرأة أخرى بحفنة من الطين قائلة:

ـ ياوكستي! هو أنتي لسه صغيرة.. دا خراط البنات قرب ينيلك.. دا أنت غلبتي خضرة..

فصاحت فيها وصيفة:

ـ وأنتي مالك يا كسيفة يا باردة.. يا بتاعة» الموالد!

وعجبنا نحن لجرأة وصيفة ووقفنا في الماء ثابتين.. غير أن امرأة ثالثة هددتنا بأن تحمل ملابسنا إلى أهلنا في القرية وتتركنا عراة.

فأسرعنا بمغادرة الماء والشتائم تلاحق وصيفة.

وتبعتنا وصيفة فارتدينا ملابسنا، وهي تقول لي:

ـ تيجي نروح عند ساقية عبد الهادي ابن عمك نلعب هناك في الضل تحت الجميزة؟

وتحمست أنا للفكرة، وجريت إلى ساقية ابن عمي، وجرى من خلفي الأولاد ووصيفة.

وسبقتنا وصيفة إلى الساقية فاستلقت إلى جذع شجرة قديمة بجوار الساقية على حافة النهر حيث تقوم مصلى ذات سور منخفض تحت ظلال الجميزة.

وجلسنا حول وصيفة وبدأنا كلنا ننظر إليها متلهفين إلى معرفة اللعبة التي ستقترحها، بينما كان عبد الهادي من بعيد يهوي بفأسه على الأرض.

ونظرت وصيفة إلى عبد الهادي وهمست لنفسها: «الحمد لله لسه ما قيِّلوش».. ثم تلفتت حولها، تسأل عن خضرة، فقال لها أحد الأولاد: إن خضرة اليوم تنقي الدودة في عزبة محمود بك مع غيرها من الصغار.. فتنهدت وصيفة وبلعت ريقها، ونظرت في وجوهنا جميعا..

وانتظرنا أن تقترح علينا لعبة..

ولكنها لم تقترح علينا لعبة..

وإنما بدأت تروي لنا ما شاهدته هي بنفسها في زفاف أختها بالأمس إلى فتى من القرية يعيش في البندر ويلبس على جلبابه الجاكتة والطربوش.

فأختها دخلت إلى القاعة ومعها الداية كما تدخل العرائس، وتسللت وصيفة ومعها خضرة إلى قاعة العروسة.. وانتظر الجميع العريس.

ودخل العريس يلبس جلبابا من حرير القز وطربوشا فاقعا مائلا على جبينه، ولم يكن معه المنديل الأبيض الذي يدخل به كل عريس.

وإذ وجد العريس قاعته مزدحمة بالداية وأم العروس والصغيرات وقف في وسط القاعة غاضبا، وطرد الجميع وأصر على أن يبقى وحيدا مع عروسه..

وخرجت الداية تلطم على وجهها تروي لشيخ الخفراء والد العروس عن بدع عريس البندر.. ودخل محمد أبو سويلم غاضبا إلى القاعة وضرب العريس بالكف على صدغه، وطلب منه أن يدخل على ابنته العروس كما يدخل كل العرسان على البنات الشريفات في القرية..

وبعد قليل دخلت الداية ولف العريس حول أصبعه منديلا أبيض، وتسللت وصيفة وخضرة إلى الحجرة من جديد.

كنا نسمع من وصيفة بشغف كبير، وقلوبنا الصغيرة تدق.. واقتربنا منها ونحن جالسون حولها، وهي تحكي بلذة، وعيناها الواسعتان مفتوحتان في تألق وشفتاها تنفرجان قليلا عن لحظات صمت وابتسام.. ولكز بعضنا البعض ونحن نلتصق بها ونطلب منها أن تتكلم على طول وتكمل لنا حكاية أختها والعريس والمنديل الأبيض.

ومضت وصيفة تروي لنا كل شيء: منذ صرخت أختها حتى انطلقت الزغاريد عندما رمي على الواقفين أمام قاعة العروسين منديلا أبيض عليه نقط من الدم.. ومضى الرجال في طرقات القرية يحملون على أطراف الشماريخ مناديل بيضاء، تملؤها بقع دم قاتم وهم يزعقون: «الحلو أهه» ومن ورائهم حلقات نساء يرقصن ويصفقن بأيديهن المرفوعة، ورءوسهن مائلة، وهن يغنين في نغم سريع:

قولوا لابوها إن كان جعان يتعشى

بنت الأكابر شرفتنا الليلة

لم تترك وصيفة من القصة شيئا..

وعندما انتهت منها سكتنا، ووقف بعضنا يبحث لنفسه جوار المصلى عن قطعة من ظل الجميزة..

وفجأة نظرت وصيفة إلى المصلى وقالت:

ـ تعرفوا نلعب إيه يا عيال؟ تعالوا نعمل فرح..

واختارت وصيفة أبطال اللعبة.. فاقترحت أن تكون هي العروسة وبحثت عن فتاة تقوم بدور الداية وتمنت لو أن خضرة كانت معنا بدلا من بقائها طول النهار تنقي دود القطن في حقول بعيدة.. وعلى أي حال فقد اختارت فتاة لدور الداية.. أما العريس.. فقد اختارتني أنا لأن لي صلة بالبندر؛ فإخوتي في القاهرة يتعلمون، ومسيري للبندر في الآخر!

واختارت وصيفة المصلى لتكون مخدعا للزواج، ودخلت المصلى ودخلت وراءها الداية الصغيرة وأخيرا دخلت أنا..

وظل الصغار خارج المصلى.. البنات يزغردن ويغنين، والأولاد يمسكون عصيا صغيرة من التوت يلوحون بها وينتظرون.

غير أن اللعبة لم تتم رغم أن العروس كانت قد تهيأت تماما لإتمام اللعبة.. فقد أقبل الشيخ الشناوي فجأة!..

والشيخ الشناوي هو فقيه القرية ومفتيها، وخطيب مسجدها ومأذونها الشرعي، ومعلم الأولاد فيها، وواعظ الكبار.

وهو رجل طويل عريض ضخم الجثة، غليظ القفا، عظيم الكرش، يحب الموالد والطعام، وكنا نحسب نحن الصغار أنه يستطيع أن يضع في بطنه بقرة.. وهو رجل يحبه الجميع ويضحكون معه ولا يكاد يوجد في القرية رجل لم يذق عصا سيدنا الشيخ الشناوي عندما كان يقرأ في الكُتَّاب.

وسمعنا نحن من وراء سور المصلى غناء الصغار ينقطع، وأصواتهم ترتفع مضطربة مختلطة بحركات الأقدام على التراب.

وفي اللحظة الحاسمة انتهت إلينا أصوات الصغار:

ـ سيدنا الشيخ الشناوي.. يادي الحوسة.. اجري يا بنت.. قوم يا وله.. اجري يا واد اجرى!.. سيدنا طب يا جدعان..

وسمعنا الشيخ الشناوي نفسه بصوته المتهدج الوقور الذي يحمل إلينا ذكرى تلاوة القرآن من اللوح الصفيح في الكُتَّاب..كان الشيخ ما يزال على الجسر عند الجميزة يشخط في الصغار:

ـ انجر منك له لها.. انجروا بعيد عن المصلية أحسن تنجسوها.. يعني طهايين قوي.. اللي أهاليكو ما بتهوب ناحية الجامع!

وابتعد صوت الصغار وسمعنا رنين حبات مسبحة سيدنا وصوته يمرمر بآيات من القرآن.. واقترب الشيخ، فتمخط وبصق بعيدا.. ثم خلع حذاءه ودخل المصلى.. والهواء يحمل إلى وجوهنا رذاذ بصاقه.

وكنا نحن ـ وصيفة والداية الصغيرة وأنا ـ نشعر بأننا دوهمنا تماما.. فالتصقنا بجدار المصلى المصنوع من الحصيرة والطين، وحاولنا أن نغطي أنفسنا بالخوص المفروش على أرض المصلى ولكن لم نملك الفرصة لنصلح من حالنا.

ووقعت علينا عين سيدنا فذهل.. وحملق فينا وقد راح لونه.. واسترقت إليه النظر فوجدته يتراجع قليلا ويتلفت بسرعة وهو يتمتم بكلام لم أفهمه، ثم يميل برأسه ليتأمل كل بدن وصيفة.. ويتراجع وهو يقول:

ـ أعوذ بالله من الخبث والخباثة.. أعوذ.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. اللهم.. اللهم.. إنس ولا جان؟..﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾..

وجف ريقي، والتصقت بوصيفة، والتصقت بي الداية الصغيرة.. فصرخت وصيفة باكية:

ـ معلهش والنبي يا سيدنا.. أنا ماليش دعوة.. هه!! والنبي هو اللي ضحك عليّ وقال: تعالي يا وصيفة نلعب لعبة العروسة والعريس..

وهنا اطمأن سيدنا وارتفع صوته في انفجار:

ـ هو انتو؟! آه يا أنجاس ياخنازير.. وفي المصلى كمان؟ والله لأرميكو في البحر!!

وملأنا الرعب، وتأكدنا أن سيدنا سيرمينا في البحر حقا، فقد كان يصنع أي شيء في القرية ويروي له حديثا أو قصة ليبرر ما صنع.

واحتضنت وصيفة مستنجدا، واحتضنتني بوجل شديد، وارتمت الداية الصغيرة فوقنا، وكنا ما نزال على حالنا استعدادا للحظة الزفاف.. فانهال سيدنا بيديه الثقيلتين علينا:

ـ وكمان قدامي؟ ترقدوا على بعض قدامي يا كفرة يا فجرة؟ غوروا من هنا.. غوروا..

ثم صفق بيديه،، وهز رأسه قائلا:

ـ يا أخواتي هي البلد دي جرى لها إيه؟ كلها متنيلة بنيلة كده من مصغرها لمكبرها، أعوذ بالله يا أخواتي.. يا عبد الهادي.. تعال يا عبد الهادي تعال!!

وكان عبد الهادي يهوي بالفأس على أرضه الممتدة تحت بطن الجسر أمام الساقية على مرمى البصر.. فأقبل مسرعا على نداء سيدنا بينما سيطر علينا الفزع ولم نعد نعرف ماذا نصنع.. وظل سيدنا يقول لنفسه:

ـ يا خويا العيال دي مابتقيِّلش ليه؟! طالعين على البحر في وسط القيالة!! يعني لو خطفتكم جنية! إلهي تخطفكم جنِّيه بدل ماتطلعوا فسدانين!!

وطافت برءوسنا صور سريعة عن الجنية تظهر على النهر بأصابع حمراء في ساعات الظهر لخطف الصغار، فإذا رأت صغيرا يمشي وحده خايلته بالأصابع الحمراء قائلة: تعالوا كلوا بلح.. فإذا ذهب واحد إليها أخذته إلى أعماق النهر بلا عودة.

ولكن قصة الجنية التي أشار إليها سيدنا، والتي سمعناها من الأمهات دائما لم تكن هي التي تخيفنا بالتحديد!!

كان هناك سيدنا هو كل ما يرعشنا في تلك اللحظة.

وأطل سيدنا من جديد على وصيفة وكانت ما تزال على حالها فهز رأسه وشوح بيديه قائلا:

ـ يا سنتك سودة يا دي البنت.. دا أنتي على وش جواز!

ثم عاد يطل عليها وهي تلتصق بي وزعق:

ـ فزوا اطلعوا بره المصلية دا انتو نجستوها.. اقفوا هنا هه.. بره سور المصلية.

وسأل سيدنا وصيفة:

ـ أنت بنت مين؟

فقالت وصيفة وهي تقف إلى جواري خارج المصلى باكية:

ـ بنت شيخ الغفر.

ـ بنت محمد أبو سويلم؟ والله النار بتخلف تراب يا أولاد!

وكان عبد الهادي قد أقبل، يمسح عرق جبينه بظهر كفه.. وقال عبد الهادي:

ـ خبر إيه يا سيدنا؟

وقبل أن يجيبه سيدنا كان قد فطن إلى وجودي أنا فمصمص شفتيه وقال متعجبا:

ـ ما شاء الله!!

ومضى سيدنا يروي لعبد الهادي كل مارآه بألفاظ ملأتني خجلا وفزعًا وأضحكت عبد الهادي فأمسك بشعري قائلا وضحكاته تتوالى:

ـ يعني طالع فرخ من يومك!

غير أن الشيخ الشناوي لم يضحك، وإنما نهر عبد الهادي وتحدث طويلا عن اهتمام أبي بتأديبي بآداب الدين.. وسمعنا ألفاظا رهيبة تسقط من فم الشيخ.

سمعنا لأول مرة كلمة الفحشاء.. وسمعنا لأول مرة كلمة الزنا.. الزنا الذي قال عنه سيدنا إنه يخرب البيوت!!

وظل الشيخ يتحدث عن النار والزنا والخراب.

ورأيت عبد الهادي يلتقط عصا رفيعة من الأرض ويضرب بها وصيفة قائلا:

ـ طب هوه لسه صغير ما يعرفش الحاجات دي ولا يفهم العيب.. لكن أنت يا مقصوفة الرقبة؟ أنتي اللي تعمري دار؟ ما تعرفيش غير اللعب الأغبر ده.. هو دا لعب؟!

وإذ كان عبد الهادي يضرب وصيفة وهي تبكي، جرت الفتاة التي كانت تقوم بدور الداية.. فالتقط عبد الهادي طوبة وقذفها في ظهرها صائحا:

ـ استني جاك سخونة..

ولكن الداية الصغيرة تابعت جريها على الجسر وهي تتحسس ظهرها.. وجرت من ورائها وصيفة.. وجريت أنا..

وإذ أصبحت وصيفة بعيدا عن سيدنا وعبد الهادي، التفتت قائلة:

«جاك ضارب يا عبد الهادي أنت وسيدنا!».

وأخذتني الرهبة وأنا أجري، وما زال صوت سيدنا ينطلق وقد احمر صدغاه المنتفخان وهو يتحدث عن الفاحشة والنار وخراب البيوت!!

وفي الحق إننا لم نفهم سر ما يغضب علينا الشيخ الشناوي.. لقد كنا سعداء للغاية ونحن نلعب.. كنت أنا ووصيفة والداية الصغيرة نضحك طول الوقت في المصلى، والصغار يغنون وراء السور المنخفض فرحين.. ولم نشعر أبدا بأننا نرتكب شيئا يستحق هذا كله.. وبصفة خاصة يستحق النار..

كان أبي قد قال لي ذات مرة: «لاتكذب فالذين يكذبون يحرقون بالنار».

ولم أكذب بعد ذلك في تلك السن منذ قال لي أبي هذا الكلام برغم أني رأيت كثيرين يكذبون ويحرقون غيرهم في النار، ورأيت آخرين يكذبون فيحترق غيرهم بالنار.. وعلى أي حال فلم يكن أحد قد قال لي بعد إن الصغار حين يلعبون.. يمكن أن يلعبوا بأشياء يحرقون من أجلها بالنار!

ولم أجرؤ على أن أسأل أبي في هذا أبدا..

ولكن الشيخ الشناوي عندما زارنا في ذلك المساء همس في أذن أبي بكلمات، وارتفع صوته مطالبا بمولد لأهل الله.. وهز أبي رأسه ثم ناداني، وضربني، ولم يقل لي لماذا يضربني.. غير أني فهمت، فلم أعد إلى هذه اللعبة مرة أخرى.. وعرفت أنها كالكذب يمكن أن تجعلني أحرق بالنار، وربما لعبها آخرون فلم تحرقهم النار وإنما أحرقوا غيرهم بالنار!

ولم أسأل أبي عن تفسير لكل هذا.. ولكني حاولت أن أسأل وصيفة، فقد كانت تعرف الأسرار.

غير أني لم أعد أراها.. لم تعد تخرج إلى الترعة قبل الظهر ولم تعد تجلس على باب دارها في المساء وتضع طشتا مقلوبا على الأرض وتنقر عليه، وتغني ونحن من حولها نرد ونسمع.

ويقولون إن أهلها ضربوها بعد المغرب ومنعوها من اللعب، وإن محمد أبو سويلم شيخ الخفراء فرض على عبد الهادي أن يقيم على المصلى سورا عاليا وبابا يغلق حتى لا يتسلل إليها الصغار.

وسافرت إلى القاهرة بعدذلك بعام لأقيم مع إخوتي الكبار استعدادا لدخول المدرسة الابتدائية.. ولما عدت إلى قريتي في أول صيف عرفت أن وصيفة سافرت مع أختها إلى عاصمة الإقليم.. حيث يعمل زوج الأخت ساعيا في مدرسة الزراعة المتوسطة.

***

ومرت أربعة أعوام.. خمسة.. وانتهيت من دراستي الابتدائية وأقبلت إلى قريتي مع الصيف محملا بالكتب، وبأحلام المدرسة الثانوية وأحلام بالبنطلون الطويل والجاكتة المفتوحة ذات الجيب الصغير في داخلها، والكرافتة التي تتراقص مع الريح، والحذاء القصير.

ورجوت أمي وأنا أقبل يدها ـ أن تتوسط عند أبي ليحول مصروفي اليومي إلى مصروف شهري محترم بما أني حصلت على الابتدائية!

وأخذت أمنِّي النفس بقطع فضية تملأ جيب بنطلوني، وأنتشي بتصور نفسي أضع يدي في جيب البنطلون لأعبث بالنقود فأتمتع برنينها الجميل.

وحلمت بساعة وطلبتها من أمي ولكنها قالت لي: إن الساعة تعطل الذين في مثل سني، وإن الساعة كالشعر الطويل ميزة للذين يدرسون في السنوات النهائية من المدارس العالية كإخوتي الكبار!!

ومع ذلك فقد ظللت أحلم بالساعة وأتخيل نفسي وأنا أدرس اللغة الفرنسية وأنظر في الساعة، وعشت أياما في لحظات الحلم أدير رأسي ويدي على حركة من يلقي نظرة خاطفة على ساعة يده!

وحلمت أكثر من هذا بأنني أسير في المظاهرات التي يقوم بها طلبة المدارس الثانوية وأطلق حنجرتي بالهتافات التي تنطلق بها الحناجر.. وكنت قد سمعت من إخوتي الكبار كثيرا جدا مما صنعوه في الجامعة عندما فصل طه حسين من الجامعة.. واسم طه حسين إذ ذاك يملأ نفوسنا برهبة غامضة!!

وفي غمار هذه الأحلام كنت قد نسيت وصيفة.. وظل أصدقاء صباي في القرية يتحدثون عنها أمامي.. ولكني أقبلت أروي للصغار كثيرا مما شاهدته في القاهرة.. وفي ذلك العام بالذات شاهدت في القاهرة ما لم أشاهده في عام آخر من قبل.

ولم يسألني الصغار كما تعودوا أن يسألوا عن مصر، ولكني بدأت أنا أحدثهم عما رأيت في مصر!

وفي تلك الأيام كانت القاهرة لاتهدأ أبدا .. وكنت أعرف من أحاديث إخوتي الكبار ومن الجرائد التي يحملونها أن رجلا اسمه صدقي يحكم مصر بالحديد والنار بعد أن ألغى الدستور لحساب الإنجليز.. وكنت أراه يطلق في القاهرة جنود الإنجليز حمر الوجوه ليحموا له سلطانه على رقاب الناس!

وكنت في المدرسة المحمدية الابتدائية أسمع دوي الرصاص كل يوم وأعرف عندما أنصرف إلى البيت في العصر، أن دوي الرصاص كان يزلزل القاهرة كلها.. ومع ذلك ففي صباح كل يوم كانت اعتصامات العمال وهتافات الطلبة تهز من جديد أوتار الحياة.

وكانت المدرسة الخديوية الثانوية تخرج إلى الطريق كل صباح فتهتف بحياة الدستور والاستقلال والحرية وبسقوط صدقي والإنجليز.

واقتحم طلاب المدرسة الخديوية علينا باب المدرسة ذات صباح من مارس واضطرب الناظر والمدرسون وضباط المدرسة.. ولكننا اندفعنا مع طلاب الثانوي، وقد ألهبنا الفرح وسرنا في موكب كبير يتصايح بهتاف واحد.. وشعر كل واحد بقلبه ينبض وبجسمه يحمي والدم يغلي في العروق، ومضينا نردد هتافات الكبار في شوارع الحلمية الجديدة وازدحمت الشرفات بالنساء يصفقن لنا، وفتحت الشبابيك وظهرت الفتيات المختبئات خلف الشيش، وصفقن بحماس.

وفجأة واجهتنا جماعة من الجنود الإنجليز حمر الوجوه.. كانوا يسددون نحونا البنادق، وتعالت الصرخات من الشرفات والشبابيك.. وصاح فتى منا: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».. وطلبت النساء في ضراعة أن نرجع إلى الوراء.. ورجعنا قليلا إلى الوراء.. فوجدنا جنودا مصريين، سمر الوجوه كالرجال في قريتي وينادون بعضهم بنفس الأسماء.. أسماء الرجال في قريتي، ولكنهم كانوا يحملون العصي الغليظة، يقرعون بها الرءوس والأرض!!

مضيت أروي لزملائي في القرية كل هذا.. أحلامي بالمدرسة الثانوية وماشهدته في القاهرة.. حديث البنطلون الطويل، والإنجليز والساعة، وصدقي، والدستور، والإنجليز.. وكانوا يسكتون أحيانا ويسمعون بشغف، وأحيانا يتحدثون عن وصيفة في إكبار، وأسمع أنا بعجب.. ووجدتهم يعرفون صدقي.. وسألني أحدهم مرة:

ـ هوه صدقي قد إيه؟ يعني هو اللي يغلب ولا الواد عبد الهادي لو نزلوا لبعض لعب عصا؟

فرد عليه آخرون بأن صدقي هذا كائن عجيب يغلب مائة زي عبد الهادي ولكن في غير لعب العصا.. وأنه يأكل خبزا كله من القمح.. وهو لا يعرف خبز الذرة الذي يأكلونه في القرية.. وهو يشرب الماء بالثلج من الحنفية لا من الزير!!

وسألني ولد آخر إن كان صدقي يستطيع في المرة الواحدة أن يأكل عشرين رغيفا من خبز القمح، ويشرب ملء جرة من ماء نقي كماء طلمبة المسجد!

ولم أستطع أن أجيب..

وسألني أحد زملاء طفولتي عن هذا الدستور الذي هتفنا بحياته مع الكبار وأوشكنا أن نقتل من أجله.. ولكنني لم أستطع أن أجيب، وقلت له: «إن الكبار يعرفون».. فحدثني هو عن فلاحين سجنوا وضربوا في المركز من أجل الدستور وعن الشيخ حسونة ناظر المدرسة في القرية المجاورة وقال لي: إنه نقل إلى بلد في آخر الدنيا من أجل الدستور.

واقترب من أذني ولد آخر وهمس أن شيخ الخفراء عم محمد أبو سويلم والد وصيفة قد فصل من وظيفته في جرائر الدستور.. فالقرية قاطعت الانتخابات التي يجريها صدقي ويدخل فيها حزب الشعب، ولم يذهب رجل إلى الصناديق ليعطي صوته، وطلب المأمور من محمد أبو سويلم أن يسوق الرجال إلى صندوق الانتخابات، ولكنه رفض.. ورآهم يجمعون أصوات الموتى فتشاجر!

وأخذني ولد من يدي وابتعد بي خطوتين عن دكان الشيخ يوسف الذي كنا نقف أمامه في فضاء الطريق، ليقول لي: إن الشيخ يوسف نزعت منه ملكية نصف فدان من الفدان الذي يملكه بعد ذهاب الدستور!

ومضى زملائي يروون لي أشياء عن الدستور، وشعرت بأنهم في القرية يعرفون عن الدستور ـ بكثير من المرارة ـ أضعاف ما أعرف أنا رغم أنهم لم يشتركوا مثلي في مظاهرات من أجل الدستور.

وملأني الإكبار للشيخ حسونة الذي كان ناظرا عليَّ في المدرسة الأولية بالقرية المجاورة.

وأحسست بإشفاق على الشيخ يوسف، وعم محمد أبو سويلم والد وصيفة صديقة صباى.

وعرفت أن محمد أبو سويلم يشتغل بنفسه الآن في نصف الفدان الذي يملكه وقد عادت وصيفة من عند أختها في البندر لتساعد أباها..

فمنذ فصل الرجل لم يعد الخفراء يساعدونه كما كانوا من قبل وهو بعد لا يستطيع أن يؤجر الأنفار ليزرعوا له!

عادت وصيفة من عند أختها، وهبطت القرية بجلباب ملون كبنات البندر.

ومنذ هبطت وصيفة إلى القرية، والقرية مشغولة بها.. وهي وحدها دون بقية الفلاحات تمضي بجلبابها الملون لتملأ من على الجسر وتروح وتجيء بجلبابها هذا إلى الحقل، غير حافلة بما تثير من همسات الفلاحين.

ويقولون: إن عم محمد أبو سويلم لا يستطيع أن يشتري لوصيفة الجلباب الأسود المعهود الذي تلبسه كل الفتيات والنساء في القرية.

ويقول آخرون: يستطيع أن يشتري هذا الجلباب ولكنه لا يريد أن يكسر خاطر وصيفة فهو يتركها تلبس كأهل البندر بعد أن حرمها من الإقامة مع البندريات.

وسمعت أن وصيفة أصبحت كالشهد، وأنها تتحدث بلغة أهل البندر وسمعت أن محمد أفندي المدرس الإلزامي طلبها من أبيها، ورغم أنه يقبض أربعة جنيهات كاملة كل شهر فإن محمد أبو سويلم لا يريد أن يزوجها من أهل البلد..

وسمعت أن عبد الهادي قرأ الفاتحة سرا مع زوج أختها الذي يعمل بمدرسة الزراعة المتوسطة في عاصمة الإقليم، وهما صديقان قديمان..

وسمعت أن عبده ابن خال وصيفة طلبها من أمها، ولكنه عاد من مصر متعطلا فرفض محمد أبو سويلم.

وهكذا مضيت في دوامة من الحديث عن وصيفة.

وأقبل العصر على قريتي وأنا مع زملائي في الطريق الواسع أمام دكان الشيخ يوسف نتحدث عن كل شيء.. ومر حمار عجوز عليه شاب يلبس طاقية يبدو من تحتها شعره الطويل وقد ظهرت خصلة ترتفع على جبهته.. وكان جلبابه المخطط متسخا بعض الشيء.. وكان يقعد على الحمار ورجلاه تتدليان من ناحية واحدة، وفي القرية يسمون هذه الطريقة «بالخسروان».. وهمس ولد:

ـ أهه .. أهه.. عبده ابن خال وصيفة طول عمره في مصر من يوم أبوه ما طلع من البلد علشان يشتغل سايس.. وبعد أبوه ما مات قعد له سنتين تلاتة ورجع قال يساعد محمد أبو سويلم.. ولكن دا لا هو عارف يزرع ولا يقلع.. شوف يا خويا راكب خسروان إزاي تقولشي عنده أبعادية!!

ومضى الحمار العجوز بعيدا حتى اختفى في أحد دروب القرية وأخذت أسراب الفتيات تمضي إلى النهر بالجرار الفارغة.. ومن بعيد من جهة النهر تهادت فتيات يلبسن ثيابهن الطويلة السوداء إلا واحدة منهن تلبس ثوبا ملونا.. وكان يرتفع بينهن صوت واحد وسط الضحكات..

كن عائدات من النهر، وقد مالت الجرار المليئة على رءوسهن في اتساق واحد.. إلا جرة واحدة كانت أكثرهن ميلا..

وكانت صاحبتها أطول الفتيات قامة، وأثبتهن خطوة.. وكانت وحدها تلبس ثوبا ملونا ضيقا من على خصرها، وتضع فوق رأسها طرحة سوداء شفافة، تظهر من تحتها حمرة فاقعة لمنديل الرأس الذي يلقي على جبهتها العريضة الناصعة كرات صغيرة زاهية من القماش.

وهمس بي غلام:

ـ آهي وصيفة آهيه.. ياترى حاتفتكر؟!

واقترب سرب الفتيات.. كن يتكلمن بعضهن مع بعض وقد هدأت ضحكاتهن والرءوس متجهة إلى الأمام ونظراتهن تتجول في الطريق.. إلا واحدة كانت عيناها الواسعتان تلقيان نظرات بعيدة إلى الأمام..

وسمعت وصيفة تقول لفتاة مرتفعة الصوت:

ـ اختشي يا خضرة بقى أحسن إحنا دخلنا البلد.. بقينا في وسط البلد!

وتقدم السرب.. ولاحت لي وصيفة بيضاء شاهقة بضة أكثر مما تحتمل أرض قريتي ذات البيوت الوطيئة الداكنة.

كانت ناصعة النحر، ممتلئة، راسخة البدن، ذات نهدين متماسكين.. وكانت يدها التي تسند بها جرتها تتكشف قليلا عن ساعد رقراق به أساور من زجاج أزرق خاطف البريق!

وكانت تتقدم الفتيات وحدها..

وحدها دائما.

وكانت وحدها تلبس «الشبشب» يقرع كعبها في دقات متتابعة منتظمة..

لم تكن باهرة الحسن، ولكن وجهها كان يفيض بصفرة جميلة تختلج في بياض كاللبن الحليب، وتكسو احمرار خديها بشحوب فاتن..

وكان شعرها الأسود الكثيف المسترسل على كتفيها من تحت المنديل الأحمر، وكان فمها الواسع الغليظ الشفتين، وأنفها الصغير المكور وذقَنها العريضة المرتفعة في كبرياء.. وكان صدرها المفعم البارز.. كان كل هذا.. ونحرها المتألق.. يجعل لها بين الفتيات سحرا خاصا..

وأصبحت وصيفة قريبة منا، وانقطع حديث الفتيات..

وناديتها وهي تمر أمامنا: وصيفة!

ولم تنظر إلينا! وذهل الصبيان من حولي وسمعتهم يهمسون أن أحدا في القرية لم يعملها من قبل..

فمن يحدِّث وصيفة في الطريق لا يسلم أبدا.. وهمس غلام وهو يشير إليّ خفية أن وصيفة ستدور الآن لتصب الماء على رأسي من جرتها كما صنعت مع آخرين..

وتقدمت أنا إليها وأبديت لها عجبي لأنها كبرت إلى هذا الحد، وأحنت وصيفة عينيها قليلا لتراني فقد كنت أقصر منها بشكل واضح.. وارتفعت نظراتي إلى ذراعها العارية وهبطت على كل جسدها المليء البض.. وسألتني خضرة زاعقة:

ـ الله.. أنت جيت؟ إزاي مصر؟.. حمد الله على السلامة.. يا بختكم ياللي بتروحوا مصر!!

وابتسمت وصيفة وأبطأت في مشيتها قليلا وقالت مبتسمة:

ـ الله يا حلاوة.. هو أنت؟.. إزيك.. والله زمان!

وضحك وجهها كله والتمعت عيناها ببريق جميل، وأشاعت المفاجأة السارة في رأسها وكتفها حركات من المدينة، ولاح في خديها غمازتان تعطيان لبسمتها عذوبة حبيبة.

وتابعت سيرها وهي تقول:

ـ جبت لنا معاك حاجة حلوة من مصر؟

ولم أجب فلم أكن قد فكرت في هذا أبدا.

***

ولم يكد أول أسبوع من إجازة الصيف يمضي حتى عرفت أشياء كثيرة عن وصيفة، عرفت أن علواني وهو فتى عربي ولد في القرية، رآها يوما تسير وحدها بجرتها إلى الجسر، بينما كان هو يجلس في حقل البطيخ الذي يحرسه، والمساء ينشر أول ظلاله على الدور والحقول والماء.. وإذ مرت وصيفة أمام حقل البطيخ الذي يحرسه صفق وهو يصيح طربا:

ـ أهلا وسهلا.. اتفضل يا جدع!

كان الطريق فارغا، والفلاحون قد عادوا بالبهائم إلى الدور ووصيفة تمضي من دون أن تلتفت إلى ترحيب علواني بوجودها وحيدة في فضاء الحقول.. وشجعت وحدتها علواني.. فتقدم منها وهو يحمل بطيخة كبيرة قائلا:

ـ أنا عبد الأسياد ولو قطعوا مراسيلي.. أنا عبد الأسياد.. خدي البطيخة دي! دا النبي قبل الهدية.. خدي البطيخة الحلوة دي طري بها على قلبك في الحر ده..

وفاجأته وصيفة بقولها:

ـ جاك وجع قلبك يا عرباوي يا صايع.

وأطلق علواني ضحكة متكسرة قصيرة وحك قفاه:

ـ يه؟.. مقبول منك.. حلوة قوي المهارشة دي.. حاكم ضرب الحبيب زي أكل الزبيب.

وسد عليها الطريق ومد إليها يديه بالبطيخة، فدفعته بيد وأسندت جرتها بيد صارخة:

ـ أنت فاكر نفسك إيه يا واد يا عرباوي أنت يا واد؟.. دا أنت حتة خدام بتحرس بطيخ شيخ البلد! سارق لي واحدة منه ياخطاف؟ ياما جاب الغراب لأمه!

وضحك علواني وتكسرت ضحكاته وطالت..

ومد يده قائلا:

ـ خدي بس يا شيخة!

فصاحت وصيفة وهي تبتعد عن يده الممتدة:

ـ جاتك البلى في خطافينك..كن إيدك دي باقول لك.. ابعد إيدك دي عني.. وإلا يعني علشان ما بتخوف العيال الهبل اللي زيك.. أنا لا أسعرك لا أنت ولا حتى شيخ البلد بتاعك.. أمال يا أخي لو كنت تحتكم على قيراطين أرض!

على أن علواني لم يتركها تذهب فقد ظلت يده ممدودة بالبطيخة وهو يقول:

ـ كله مقبول منك بس اقبلي الهدية.. دي العبارة بسيطة برضه وأنا شيخ عرب يا وصيفة.. خدي يا بت!

فانفجرت وصيفة:

ـ اخرس قطع لسانك.. بتة تبتك أنت واللي جابوك! دا أنت مررت عيشي يا واد يا عرباوي.. بت؟ قال بت قال؟! دانا ستك وتاج راسك، وست أسيادك كمان، هو أنت يا واد يا خطاف فاهم أنني مش عارفة شغلك وملاعيبك؟.. دا أنت حرَّمتني أنزل البحر.. قال إيه ألاقيك طالع على جميزة عبد الهادي زي عفريت القيالة وعمال تبص علينا من بعيد واحنا بنستحمه.. والنبي والنبي دا لو أبويا عارف ولا عبد الهادي ولا محمد أفندي ولا أيها واحد من اللي رايحين جايين يقولوا عليّ لكانوا قطعوا رقبتك دي اللي واقفة على عرق!

ـ كلامك حلو.. والنبي كلامك حلو.. طيب وأيمان النبي أنت عمرك ما تكلمت مع حد في البلد قد ما اتكلمت معايا دلوقت! قولي كمان قولي.. قولي أيها حاجة..

ثم مد يده بالبطيخة حتى لامِست يده صدرها وهو يكمل:

ـ طيب يا ستي ولا تزعلي.. خدي البطيخة دي حق عرب ونصطلح بقى..

وهنا وضعت وصيفة جرتها على الأرض بسرعة وقالت له بحنق:

ـ طب هات.

وأمسكت البطيخة فقذفتها بكل قوتها في وجه علواني!

وتركته يترنح، واندفعت إلى النهر.. إلى المكان الذي تملأ منه القرية الماء، ويستحم فيه النساء غير بعيد من جميزة عبد الهادي، وراء دغل من البوص المرتفع يحجب النهر عن الجسر.

شاعت هذه القصة.. ومنذ شاعت لم يجرؤ واحد من فتيان القرية أن يتعرض لوصيفة.. فعلواني رجل تهواه غير واحدة من نساء القرية، ويهابه بعض الرجال، فهو كأبيه الذي نزح إلى القرية، شجاع يتقن ضرب النار، خفيف اليد في لعب العصا.. وقد ورث عن أبيه مهنته فهو أحيانا يرعى أغنام الملاك الكبار في القرى المجاورة، وأحيانا يحرس حدائق البرتقال أو حقول البطيخ هنا أو هناك..

وكان يملك بندقية قديمة يسميها «المقروطة» ورثها عن أبيه الذي أقبل إلى القرية ذات شتاء.. ورث علواني عن أبيه البندقية، وورث معها شجاعة القلب، والجرأة ولا شيء بعد.

وعلى أي حال فقد كان رجال الليل الأعراب وصعاليك القرية يحسبون له ألف حساب.

وقد أصبحت قصة وصيفة وعلواني على كل لسان حتى غدا فتيان القرية وأطفالها عندما يتندرون يقولون: «دي يعني ولا بطيخة علواني!!».

وحمتها قصة البطيخة من معاكسة الفتيان الآخرين.

وانصرف عن وصيفة كل الذين فكروا في خطبتها منذ أعلن أبوها أنه لن يزوجها من أهل البلد.

أما عبد الهادي فلم ييأس أبدا.. وقال للشيخ يوسف بقال القرية:

ـ أبوها لاراضي يديني حل ولا عقد.. كل ما آجي أقول له اديني عقاد نافع يقول لي تتعدل، يعني هو رايح يجوزها لابن السلطان.. بكرة أخدها من جوز أختها..

وقال له الشيخ يوسف وهو يسلم عليه ليدخل باب الجامع قبل صلاة العشاء ذات ليلة:

ـ والله ما له حق أبدا محمد أبو سويلم في العمايل دي.. هو أنت تتلوع كده.. دا الناس كلها تتمنى تناسبك يا عبد الهادي.. دا لولا أن بنتي نجية ما يلزمهاش إلا واحد أفندي كنت أجهزها لك وأجيبها لحد الدار.

وانصرف عبد الهادي شاكرا للشيخ يوسف عواطفه.. ومضى إلى داره يفكر في أنه سيأخذ وصيفة من زوج أختها.. وزوج أختها صديقه القديم.. عاشا معا طفولة واحدة وقرآ معا في كتاب الشيخ الشناوي وفي المدرسة الأولية في القرية المجاورة وذهبا معا لزيارة أخت وصيفة أيام الخطبة، وأنفقا معا شبابا جميلا ملآه بالمواويل.. وعُنِي عبد الهادي في أول أيام زواج صديقه باستحضارحجاب من أحد العارفين المقيمين بقرية مجاورة ليعصمه من السحر الذي ينقشه الحساد في مخادع الأزواج الجدد!

وحل الحجاب عقدة الزوج بالفعل، وسافر بزوجته سعيدا إلى البندر، ولم ينس صديقه عبد الهادي فكان يرسل إليه أحدث ما تصدره المدينة من كتب المواويل، وأرسل إليه نسخة كاملة من ألف ليلة، وسيف بن ذي يزن.

وكانت وصيفة تعرف هذا كله وتعرف أن عبد الهادي هو وحده الذي يستطيع أن يصلح بين أختها وزوج أختها كلما زار عاصمة الإقليم ووجد في البيت مشاجرة.

وكانت وصيفة تنظر إلى عبد الهادي في حيرة، وتعرف أنه يريد أن يخطبها، وتفكر أحيانا في أنها يجب أن تتزوج رجلا يلبس الطربوش كما تزوجت أختها، ومع ذلك فقد كان يسرها أن ترى عبد الهادي يجلس مع الرجال وهي تغني في أي فرح في القرية.

وما زالت وصيفة كما كانت وهي طفلة تحب الغناء والرقص وتمسك العصا، وتضع على وجهها طرحة سوداء، وتدخل في حلقات الرجال الذين يصفقون كف العرب فترقص محتشمة وهي تغني في نغم سريع:

«وفرش منديله..»..

فيرد الرجال: «عالرملة...»..

وتعود تغني:

«والحلوة تيجي له» عالرملة..

جدع ياللي ورا الحيط..

أنت حلو ولا ضيف..

أنا ضيف ومعايا سيف..

أقطع رءوس الظالمين..

فيردد الرجال:

«الظالمين.. الظالمين»..

ما زالت وصيفة ترقص وتغني وتفتن الجميع، ويخشاها الجميع.

وكنت أنا مولعا بغناء الفتيات بقريتي.. وكان عبد الهادي يعرف هذا.

وذات يوم جاء عبد الهادي إلى دارنا قبل العصر وطلب مني أن أذهب معه إلى فرح كبير.. وكان يلبس جلبابا فضفاضا من الكشمير الكحلي، ويمسك بيده الشمروخ الطويل ذا الشهرة الواسعة بين هواة لعب العصا في قريتنا والقرى المجاورة.

وبعد العصر تقدم الطبل البلدي زفة الفرح، وسرت مع عبد الهادي مزهوا به ومن ورائنا زغاريد النساء، وغناء مختلط.. ووقف الطبل فجأة في فضاء واسع، واتخذ الناس شكل حلقة، وبدأ عبد الهادي يلعب العصا مع رجل مشهور ماهر من قرية مجاورة.. وضرب عبد الهادي الأرض بعصاه ووثب.. وفعل الرجل الذي كان يقف بعيدا نفس الشيء، وأخذ عبد الهادي يدور حول نفسه ويقرع عصا زميله ثم يرقد ويقوم ويلف ويتلوى وزميله يصنع نفس الأشياء.. وأخيرا انقض عبد الهادي في ضربة مفاجئة على عصا زميله اللاعب الماهر.. وضج الناس فرحين:

«يدوم الحماس يا عبد الهادي.. براوه يا جدع.. تسلم إيدك!»..

ولم يضرب عبد الهادي زميله.. إنما عانقه في سماحة. وكان الرجل الآخر مرتبكا، ولكنه لم يملك إلا عناق عبد الهادي.. ومشى الطبل بالناس مرة أخرى ثم توقف للعب العصا..

وظل عبد الهادي يلعب العصا ويقفز ويرقد ويقوم ويدور.. وفي كل مرة كانت الزغاريد تتصاعد والفتيان يصيحون في حماس وتعصب لعبد الهادي.

وفي آخر موكب الرجال كان الصبيان يلعبون العصا بأعواد رفيعة من التوت ويقلدون حركات عبد الهادي.. وانتهت الزفة فعدت إلى بيتي.

وعندما أقبل الليل جاء عبد الهادي وأخذني لأسمع غناء وصيفة.. وأمسك عصاه الطويلة بيد وأمسكني بالأخرى.. وانطلقنا إلى درب طويل في القرية، وأمام إحدى دوره كانت الدكك الخشبية قد صفت وجلس عليها بعض الرجال.. بينما جلس على الأرض عدد كبير من النساء والفتيات.. وجلسنا في

آخر الدكة بجوار الفتيات.. ورأينا وصيفة في الصدر، وقال لي عبد الهادي: إن العريس هو ابن خالها الذي كان يعمل بالقاهرة.

وكانت الطبلة الصغيرة أمام وصيفة، وقد وقفت خضرة ترقص وبعض الفتيات ينظرن إلى حركاتها في خجل.. وانطلق صوت وصيفة بالغناء، ورأسها مائل، وحاجباها يرتفعان قليلا ووجهها مشرق مبتسم حالم، ونظراتها الغائمة المفترة تتجه إلى الناحية التي أجلس فيها أنا وعبد الهادي.

كانت تربط عنقها بمنديل، وصوتها الدافئ يفيض أحيانا في بحة فيمنحها جمالا خارقا، وما برحت وصيفة ترفع يديها عن الطبلة وتحرك ساعدها المشمر البض فتُحدث الأساور الزجاجية رنينًا يملأ الأسماع.

ولم تتوقف وصيفة عن الغناء أبدا.. حتى عندما كانوا يأخذون منها الطبلة ليشدوا جلدها على النار.

وبدأت تغني:

أنا كل ما أطلب وصالك بدك تمَضْيَعْنِي

علشان ما انت الحليوة والجميل يعني

كان النغم حزينا هادئا يتساقط من بحة صوتها في جلال عميق، كمأساة.. ودار رأسي وأنا أحاول بنظراتي المقتحمة أن أواجه عينيها الغائمتين في رأسها المائل بنشوة النغم.. وسمعت عبد الهادي يوشوش «أضيعك ليه يا وصيفة.. دا أنت تضيعي بلد!.. طب قولي لأبوكي».

وأخيرا سكتت وصيفة عن الغناء فقامت تهز كيانها الطويل، وترتب شعرها بيدها، وتمسح وجهها بكمها.. وجلست مكانها خضرة تلقي أغنية خليعة بصوت متحشرج:

على السرير ودلعني ليه ليه يا مناه

وترددت الفتيات في الرد عليها، بينما مشت وصيفة حتى أصبحت قريبة مني، وأشرت إليها برأسي ضاحكا فرحا ووجهي يتضرم.. وداست في طريقها على بعض الفتيات وتلقت الاحتجاجات عليها بابتسامة.. وعندما بلغتني ضربتني على صدري بيدها ضاحكة، وسحبت نفسا قويا من أنفها وزفرت قائلة وهي ما تزال تضحك:

ـ عجبك الغنا؟.. والنبي ما تضحك علينا أصل إحنا فلاحين.. ما نعرفشي غنا مصر!

ومسحت أنفها بيدها، ثم أخفت بها فمها الضاحك..

ولم أجبها، وشعرت بسعادة قوية تغمرني ويدها الطرية تربت صدري..

وقلت لها فجأة في شبه همس:

ـ إنتي مش سألتيني جبت لك إيه من مصر؟ أنا جبت لك حاجة حلوة.. قزازة ريحة!!

كنت أهمس في حذر، وعبد الهادي إلى جواري يتحدث إلى رجل وقف وراء الدكة الخشبية.

وسألتني وصيفة في همس لاهث فرح:

ـ صحيح.. والنبي.. قزازة عطر.. هيه فين؟

ـ تعالي خديها مني دلوقت عند ساقية عبد الهادي.

فقالت بنفس الهمس:

ـ طيب.. دلوقت أشحت جلابية سوده واطلع لك على طول.. بس نرجع علشان نسمع المواويل.. فيه اتنين مغنواتية.. واحد يقول والتاني يغطي..

وسكتت قليلا ثم قالت وهي تغمز بعينها:

ـ قابلني في المصلية دلوقت.

وضحكت وترجرج وجهها بغمزات البشر، وتألق كله.. ثم انصرفت وشعرت بقلبي يخفق وأنا أحاول أن أنتزع نفسي من مكاني.. وانسحبت بعد قليل من دون أن أقول كلمة لعبد الهادي.. وكان هو ما يزال يتحدث إلى الرجل الواقف من خلفه في موضوع لم أتبينه.

وعندما خرجت من الدرب الضيق الذي كنت فيه، شعرت بالدنيا تتفتح أمامي.. وبكل رحابة الكون تفيض على نفسي بالسكينة.. ومضيت في الطريق إلى الجسر.. إلى الجميزة.. ومصلى الذكريات!

- ٢ -

ظللت أمشي على الطريق المترب إلى الجسر.. كان الطريق خاليا.

أنا وحدي.. والليل!

وكان الجو حارا في تلك الليلة من الصيف، وبدأ الطريق أمامي موحشا طويلا لا نهاية له.

لم يكن في السماء قمر، والحقول لا ترسل النسمات.. وكانت النجوم فوق رأسي تلمع كعيون عفاريت في ظلمات من فوقها ظلمات!

وانتهى الطريق المترب، وصعدت إلى الجسر، بجوار النهر، الذي يحجبه غاب البوص من حين إلى حين.

وملأتني صور عن الجنية، التي تخرج في الليل وتجلس على الجسر في شكل امرأة فلاحة بيضاء طويلة الشعر إلى جوار بلاص مليء بالماء.. وتنادي من يمر على الجسر ليساعدها على رفع البلاص فإذا ذهب إليها إنسان جذبته من فورها إلى الموج الساكن المظلم إلى حيث لا يسمع عنه أحد بعد شيئا!

طالما سمعت عن هذه الجنية في قريتي، وإن كنت لا أعرف أحدا على الإطلاق مضى إليها.

تذكرت أسماء الذين قتلوا على الجسر قبل أن أولد.. وفي طفولتي الأولى.

متى يا ترى تخرج عفاريتهم إن لم تخرج في هذه اللحظات السوداء من الليل؟!

وثقلت عليّ دوامة من الأشباح والمسوخ التي سمعت عنها من أهل قريتي، مختلطة بصور المومياء وفرانكشتين التي رأيتها في دور السينما بالقاهرة.

وكدت أصرخ من الرعب والوحدة، ولكني خفت من صوتي.. وحاولت أن أرجع إلى عبد الهادي أو إلى بيتي، غير أني كنت قد قطعت معظم الطريق إلى جميزة عبد الهادي.

ولاحت لي الجميزة من بعيد كشبح هائل له ألف ذراع يقف شامخا في الليل المظلم.

وأخيرا رأيت وجه وصيفة تحت الجميزة تجلس في ثوب أسود تائهة وسط الظلام.. وجهها كان يضيء وتبدو ملامحه الوسيمة واضحة في الظلام.

وعجبت لأنها لا تخاف، وخجلت من نفسي بعض الشيء.. ولم أكد أقترب منها حتى توالت دقات قلبي، وشعرت في الأعماق من صدري بمثل قرع الطبول.

فقد اكتشفت فجأة وأنا أتقدم لأقف إلى جوار وصيفة، أننا لم نوجد وحدنا من قبل أبدا، وحتى عندما كنا صغارًا!! فقد تعودنا أن نلعب مع صغار آخرين، وكان الكبار يثورون ويقولون أشياء رهيبة إذا عثروا

بطفل وطفلة يلعبان منفردين، فقد علمهم سيدنا الشيخ الشناوي أن الشيطان يدخل بين كل أنثى تخلو إلى ذكر.. حتى الأطفال!

وهكذا تعودنا نحن الصغار أن نلعب في جماعات، وحين لعبت مع وصيفة لعبة العريس والعروسة لم نكن وحدنا فقد كانت معنا الداية الصغيرة وجمع كبير من صبيان وبنات.

على أن الأمر لم يكن لعبا هذه المرة..

وأنا لم أعد بعد صغيرا لأجهل أسرار اللقاء بين فتى وفتاة، ومع ذلك فما كنت أدرك على التحقيق كل أسرار هذا اللقاء.

كنت في الثانية عشرة، وقد سعيت بأعوامي القليلة الغضة لأكون وحدي مع فتاة تضطرم في أعماقها أنوثة ألف امرأة، ومن حولنا الليل الساخن العريض!

ورثيت لنفسي، فقد كنت قبل هذا اللقاء بخمسة أعوام، أثب في الترعة مع وصيفة وأجذبها بيسر من أي مكان في جسدها، وأتحسس في دهشة واستطلاع قوامها العاري الطفل الذي ينضج يوما بعد يوم.. وكانت هي تصنع نفس الأشياء.

كنت أعرف كل جزء في بدنها، وكانت هي الأخرى تعرف كل شيء فيّ، ولم يكن أحدنا يرتجف من الآخر.

أما في هذا اللقاء تحت جميزة عبد الهادي، فقد أخذت أنظر برهبة إلى صدرها المليء وبدنها المفعم البديع، نفس البدن الذي عرفته وتحسست كل جزء فيه، عندما كنا أطفالا..

ظللت أنظر إلى هذا البدن نفسه، وأنا أعاني من هذا كله دوي النبضات في قلبي وأشعر بخفايا عديدة كالأسرار الهائلة تستلقي في جسدها الرائع.

ومدت وصيفة يدها إليّ وقالت في ثبات وبساطة:

ـ واقف تبص لي ليه؟.. أنت خايف؟.. تعال اقعد ريحي.

كان الليل يلقي كل ظلاله الداكنة الزرقة على المصلى والجميزة والساقية والنهر والحقول، ويسكب على كل الأشياء لونا واحدا لا يتغير.

ولم يكن للنهر صوت، ولا للحقول..

لاشيء غير سمكات تتواثب من حين إلى حين وتلطم وجه الماء بذيولها الرفيعة، ونقنقة رتيبة تتصاعد من الحقول، والفضاء بعد هذا راكد مثقل بالحرارة، وبأصداء خافتة لكلاب تنبح في القرية من بعيد، ثم دقات قلبي وصوت أنفاسي، وهمس الراحة توسوس به حنجرة وصيفة في رسوخ..

ورفعت طرف جلبابي الأبيض من الخلف لأجلس على جذع الجميزة إلى جوار وصيفة ويدي على صدري أحاول أن أخفي بها دوي النبضات..

واقتربت وصيفة بوجهها من وجهي، وشعرت بأنفاسها تتراسل هادئة.. وسألتني في همس مبحوح إن كنت أذكر آخر لقاء كان بيننا.. هنا في هذا المصلى!!

وباغتني الخجل، ولكني ضحكت، وضحكت هي وأخذت تسترجع حالة الشيخ الشناوي حين دخل المصلى علينا في لحظة الزفاف بالتحديد!

لم يكن في صوتها اضطراب.. فقد كانت تضحك بيسر، وتريد أن تتحدث بلا انقطاع.. ولاحظت في كلماتها خليطا من لهجة قريتي ولهجة عاصمة الإقليم..

ولم أقل لها شيئا..

ومدت وصيفة يدها فوضعتها على ذراعي، ونهضت طالبة مني أن أمضي معها إلى المصلى بعيدا عن طريق الجسر.

ووقفت منتشيا، واستدرت إلى النهر المثقل بالليل، ورأينا من بعيد شعاعا أصفر يخفق على صفحة المياه السوداء.

وحمل إليّ المنظر صورا من قصص غرام نشرتها المجلات التي كان إخوتي الكبار في القاهرة يغالون في إبعادها عني وقرأتها أنا خفية.. وظلت صور من خارج القرية تلح عليّ، وازدحم رأسي بالأفلام الغرامية التي كنت أشاهدها في دور السينما بالقاهرة، وتذكرت كلمات قرأتها في الترجمة العربية لفيلم أمريكي غرامي، رأيته في سينما أجنبية ـ خلسة من وراء إخوتي فقد كانوا ككل الطلاب الكبار في ذاك الوقت يتشددون في مقاطعة السينما الأجنبية، والبضائع الأجنبية وكل ماهو أجنبي.

واقترب منا الشعاع الخافت، فألحت عليّ صور مما قرأته أو رأيته في السينما.. واستجمعت شجاعتي وحاولت أن أمسك وصيفة من كتفيها لأقول لها كلاما ملتهبا ثم أغيب معها في عناق حار حتى الصباح.. تماما كما رأيت في الأفلام وقرأت في القصص التي كانت تنشر في مجلة الفكاهة والجامعة والصباح وروايات مسامرات شهرزاد.. ولكن يدي أحاطت بجزء من خصر وصيفة، ولم تبلغ كتفيها.. قلت لنفسي «حسنا» يجب على وصيفة الآن أن تنثني إلى الوراء وتتنهد وتقول: «يا دنياي»! تماما كما كانت تقول القصص الشائعة التي قرأتها في القاهرة.

إنها كما قرأت تماما، طويلة مليئة.. في جمالها كبرياء كأميرة هندية.. ولكنني لسوء الحظ لم أكن بعد قد أصبحت كفارس من فرسان العصور الوسطى،كما كانت تقول القصص التي قرأتها!

ومع ذلك فقد بادرت فأمسكت وصيفة من خصرها بعنف، وشددت حولها ذراعي، وفي صوت هامس حاولت أن أجعله حنونا.. وقفت أقول:

ـ يا غرامي.. أحبك..

ووقفت وصيفة وأمسكت ذراعي بيدها الخشنة، وقالت:

ـ آه.. زعق شوية.. عَلِّ حسك حبة!

وانتظرت منها أن تغلق عينيها في ذهول، أو تنظر إلى المجهول بعين نصف مغلقة على الأقل، وانتظرت من شفتيها الدسمتين أن تختلجا وأن تنفضا الدفء، وانتظرت منها أن تزفر أو تشهق، وانتظرت من صدرها أن يعلو أو يهبط وتسألني: أصحيح.. يا حبيبي!.. وانتظرت منها بعد هذا كله أن تستلقي برأسها على كتفي وينسدل شعرها الأسود الكثيف كالأجمة المعطرة على وجهها، فأرفع رأسها بين راحتي، وأنظر في عينيها بهيام شديد، ثم ينقض كل واحد منا على الآخر في قبلة.. وأحدثها عن جمالها، وتحدثني عن جواها.. ولا نفترق إلا مع الفجر!

انتظرت أن يحدث هذا كله كما قرأت في القصص المصرية ورأيت في الأفلام الأمريكية.. ولكن وصيفة لم تصنع شيئا على الإطلاق من كل هذا، بل سحبت نفسا سريعا من أنفها، ودعكت وجهها بيديها، وفتحت عينيها الواسعتين المكحولتين قائلة:

ـ يا أخي بلا وكسة!! أنت بتتكلم كده ليه يا اخويا؟.. والنبي ما أنا فاهمة منك حاجتن تخلق! أصل أنا ما أعرفش الكلام الإنجليزي اللي أنت بتقوله ده.. ما تقول يا أخويا كده بالمفتشر.. عايز إيه.. عايز إيه ياضناي!

ولم أقل شيئا.. فمشت وصيفة بعيدا عني لتبصق في ماء النهر وهي تقول:

ـ تعال هنا نقعد على حرف البحر..

ولم تنتظرني فجلست هي على الساقية، وأعطتني ظهرها، ونظرت بوجهها إلى النهر الصغير، وأخذت تتمتم بأغنية سمعت منها:

قدام بيت اللي باحبه

شجرة وظلة ومغنى وهوا

إن كنت خايف من أبويا

دانا أبويا يحبك زي أنا

وإن كنت خايف من عمي

دا أنا عمي يحب الصهينا

وإن كنت ما حاتعديني

لأقلع خلجاتي وأعوم أنا..

وقبل أن أفرغ من نشوتي بصوتها، قطعت غناءها لتسألني:

ـ أمال فين اللي قلت عليه.. فين قزازة العطر يا اخويا؟!

ولم أعرف كيف أقول.. وأخذت أنظر إلى الضوء الشاحب الذي يتقدم من بعيد على صفحة المياه السوداء ومن حوله همهمة رائقة.

وتعثر صوتي في حلقي، وأنا أحاول أن أقول أي كلام.. وباغتتني سخونة مليئة بالوخزات حتى الأذنين، وابتلعت ريقي وأخذت أتنحنح وأنا أحاول أن أطرد الكلمات الغائصة في حلقي.

واستطعت آخر الأمر أن أعترف لوصيفة أني لم أحمل إليها زجاجة عطر، ولكني حملت لها عشرة قروش ثمن زجاجة تستطيع أن تشتريها عندما تذهب إلى أختها في عاصمة الإقليم.

وتناولت وصيفة قطعة النقود من يدي بسرعة كأنها تخطفها، ووثبت فجأة، وقد تهلل وجهها وأشرق، ورقصت فيه الغمازات.. وأوشكت أن تتعثر بحافة بئر الساقية، فوثبت إليها أسندها، وقلبي يثب معي في إشفاق كبير، ووقعنا على الأرض معا إلى جوار البئر.. فقبلتني من رأسي ضاحكة.. ثم وقفنا وأخذت تنفض لي جلبابي، وجرت بعيدا عن ظلال جدار الساقية إلى الفضاء على حافة النهر تتأمل القطعة وتقبلها في يدها في حرص وفرح وهي تقول:

ـ حلاوة يا أمه.. بريزة! بريزة بحالها!

وعادت بسرعة فوقفت عند سور المصلى، وارتكنت عليه وهي تطلق ضحكات متكسرة سعيدة..

وفي بطء واعتزاز وحذر فتحت الجلباب من على صدرها ثم وضعت قطعة النقود تحت نهدها.. وارتمت نظراتي على صدرها الوضيء الساطع ومنبت نهديها، واختلجت وشعرت بلذة غريبة تدب في كل بدني..

وشدتني وصيفة بيديها في قوة، وهي ترتكن إلى سور المصلى وقالت:

ـ فاكر لما لعبنا في المصلية آخر مرة ،آخر مرة لعبنا فيها واحنا صغيرين كانت في المصلية.. وأول مرة حانلعب فيها واحنا كبار حاتكون برضه في المصلية.

وأخذت وصيفة تضحك وتهز نفسها، فقلت لها: إن سور المصلى قد ارتفع اليوم، فقالت لي والغمازات على خديها وعيناها تتألقان: إننا نحن أيضا قد كبرنا..

وسكتت قليلا قبل أن تقول لي: إن سيدنا الشيخ الشناوي لا يستطيع الليلة أن يفسد علينا اللعب.

كانت تتراقص وهي تتكلم وقد سرت فرحة جديدة في كل عروقها، والتمعت منها العينان بنور غريب أخاذ..

وامتلأت إحساسا بأني رجل رغم سنواتي الاثنتي عشرة..

ولكن وصيفة ظلت وهي تتراقص تحدثني بسخرية عن الشيخ الشناوي وتتقصع وتبرز نهديها المترعين.

وملأني هذا كله بالرعب.. وخيل إليّ أن لديها هي في بدنها الفائر الذي يرعشني أشياء كثيرة تستطيع أن تتحدى بها الشيخ، وكل شيوخ الأرض.. أما أنا فلم أكن قد أصبحت بعد مالكا لشيء أتحدى به..

وكان ذكر الشيخ الشناوي ما زال يحمل إليّ صور النار والفاحشة وخراب البيت، ويحمل إليّ بصفة خاصة غضبة أبي، ويثير في نفس الوقت ألوانا من الرعب تزلزلني حتى النخاع.

وخيل إليّ أن أبي ربما أرسل إليّ من يبحث عني في الفرح.. فماذا لو لم يجدني.. وخيل إليّ أني ربما رأيته أمامي فجأة، يقف بيني وبين وصيفة وغضبته تحمل إليّ شيئا كاللعنة.

وقلت لوصيفة وصوتي يرتعش:

ـ اسمعي يا وصيفة.. أنا لازم أروّح دلوقت.

فقالت باستخفاف:

ـ خايف من إيه؟!.. دا أنا اللي حقي أخاف أكتر منك!.. أهو أنت اسمك راجل.. لكن هوه فيه حد من البلد يقدر يطلع البحر دلوقت؟.. السواقي بطالة والناس مشغولة في الفرح والدنيا كحل.. ما تخافش يا عيني.. حتى الواد علواني اللي دايما مغروس على الجسر يحرس البطيخ طول الليل راخر متلقح في الفرح.. ما تخافشي أبدا..

وسيطر عليّ طغيان رغبة جارفة في أن أحتضن وصيفة.. وأن أقبلها في صدرها المليء ونحرها الساطع، وذقنها وشفتيها المليئتين، وخدها المكور ذي الغمازات.

ومددت يدي إليها فأمسكت بي، ولفت ذراعيها حولي، وشعرت بدفء بدنها ينفذ من جلبابى.

وسألتني عن فتيات مصر وما يصنعن وما أصنع بهن!

ولم أقل لها شيئا فلم أكن أعرف ماذا تعني وصيفة!

فمضت تلاحقني بالأسئلة عن نساء المدينة: كيف يلبسن.. كيف يأكلن.. وكيف يصنعن مع الرجال؟ هل تستحم الواحدة منهن بزجاجة عطر؟ هل تملك كل واحدة منهن نقودا.. وأين تضع نقودها.. هل تنفق «بريزة» في كل يوم.. ففي القرية لا يكاد شيخ البلد نفسه يملك «بريزة».. ورفعت ذراعيها عني وانتظرت مني جوابا عن هذا كله.. ولم أجب فما كنت أعرف شيئا عن كل هذا، وأنا أعلم من إخوتي الكبار أن الدنيا كلها أزمة، وأنهم في أمريكا يرمون الذرة والبن في البحر وفي الصين يموتون من الجوع.

وكنت أسمع من أبي أن الأزمة هزمت الناس.. فالقطن يباع بالتراب.. والفلاحون يسقطون في أيدي المرابين، والذين يملكون أرضا تحجز عليها الحكومة من أجل ضريبة اسمها المال.. والذين يبيعون القمح في الأجران المحجوز عليها يسجنون ولو أنهم باعوا القمح الذي يملكونه..

وكنت أعرف من المدرسة أن كثيرا من التلاميذ يقبلون بأحذية ممزقة، وكنت أرى زملائي في المدرسة المحمدية يدارون جواربهم المثقوبة في أحذيتهم.. وكان بعضهم يسير بحذر حتى لا تبدو آثار الثقوب في البنطلونات، وكان أبي في أول كل عام يصلح لي بدلة أحد إخوتي الكبار، ولم يعد أحد من التلاميذ يعرف البدل الجديدة في أوائل الدراسة أو في الأعياد.. إلا القليل..

وحدثت وصيفة عن بعض هذا وقلت لها: إن الناس في شوارع مصر يسيرون: رءوسهم منحنية وعلى الوجوه وجوم.. حتى لقد حسبتهم لايضحكون.. أما النساء في القاهرة فلا يكاد أحد يرى وجوههن من تحت الحجاب ولكن النحور العارية والفساتين ترتفع إلى مافوق الركبة لتكشف أول السيقان.

وتنهدت وصيفة قليلا، ثم دست يدها في صدرها وتحسست القطعة الفضية وعادت عيناي تستلقيان على منبت نهديها الراسخين.

وسكتنا..

وشردت أنا بفكري في الطريقة التي أحصل بها على نقود.. إنني أظل أصرخ ساعات كاملة وأمي تناقشني فيما أصنع بالنقود ما دمت آكل وأشرب، ويمتلئ البيت كله بالضجيج لبعض الوقت.. وعجبت لنفسي لأنني بعد المجهود الشاق الذي بذلته لأحصل على هذه القروش العشرة تنازلت عنها بيسر وأعطيتها لوصيفة.. غير أني على الرغم من كل شيء شعرت براحة عذبة لأنني استطعت أن أصنع مسرات صغيرة، لصديقة قديمة ما زلت أستمتع بذكرى حلوة من شعاع هادئ بريء التمع في عينيها ذات مرة ونحن أطفال فملأ قلوبنا الجديدة إذ ذاك ببهجة حب عجيب.

ولبثت أنظر في الفضاء من حولي وأنا سعيد.. وابتعدت عن وصيفة، واقترب منا النور الذي كان يسري على صفحة النهر.. ووضحت لنا أصوات رجال ونساء يتحدثون في سفينة كبيرة بشراع وأقبلت وصيفة ووقفت بجواري ونظرت إلى النهر قليلا..

ثم قالت:

ـ المركب دي رايحة مصر.

وتتابعت زفراتها في هدوء.

وقلت لها: إنني أتمنى أن يحملني زورق إلى مكان بعيد في هذا الليل.. فلم تقل شيئا.. ومرت لحظة صمت ورأيت وصيفة ترفع يدها وتلف جسدي بذراعها في قوة وتحضنني وتضع خدها على رأسي قائلة:

ـ مش بنات مصر بيعملوا كده؟

ولم أجب أمام المفاجأة وأخذت أفكر فيما صنعت قروشي بوصيفة.

وبدأ اللوم يزحف إلى قلبي لأني أعطيت وصيفة نقودا وخيل إليّ أنني اشتريت منها لحظات سعيدة.. وكأنما أنا واحد من الذين يخدعون الفتيات الفقيرات بالمال..

واحد من الذين تتحدث عنهم القصص التي قرأتها..

وغاظني هذا التصور فنحيت وصيفة بعيدا وأوشكت أن أصرخ في وجهها بما في نفسي، فلو أنني لم أعدها بزجاجة عطر لما أقبلت إلى الجميزة في هذه الساعة من الليل ولو لم أعطها القروش العشرة لانصرفت منذ حين.

غير أن وصيفة لم تكن تشعر بأنني اشتريت منها شيئا أو حاولت شراء شيء، فعندما دفعتها ضحكت وقالت:

ـ ما تخافش..

وعادت تعانقني.

ثم جذبتني من يدي إلى داخل المصلى فوقعنا معا على الأرض وهي تحتضنني بقوة وتلهث بصوت واضح بينما كانت صور النار والفاحشة وشراء فتاة فقيرة تملأ مني القلب بالندم وترهق إحساسي بالعار.

وأخيرا وقفت وصيفة في ضيق ودفعت يدها في صدري بقوة وهي تقول بألم:

ـ دا أنت باين عليك لسة صغير قوي.. أمال مطلعني البحر ليه.. يا خويا بلا نيلة!!

وانسحبت أنا بلا كلمة إلى خارج المصلى وأنا أعاني وخزا شديدا في كل جسدي.

وشرحت لها ما كنت أعاني وحدثتها عن العار الذي يرهق إحساسي لأني أشتري منها لحظات جميلة.. فهزت رأسها قائلة باستخفاف:

ـ والنبي ما أنا فاهمة حاجة من الكلام اللي انت بتقوله.. حاكم أنا ما أعرفشي كلام المدارس والأفنديات.

وتحركت بعيدا عن المصلى لأصعد إلى الجسر فاستوقفتني لتقول في ضراعة:

ـ اسمع.. وحياة أبوك وحياة ربنا وحياة النبي وحياة ترب الميتين بتوعك اوعى تقول لحد على اللي حصل ده.. اوعى وحياة أبوك وأمك وأخواتك.. اوعى تقول لأيها واحد.. هه.. خلي عشقنا كده في السر.. دا أنا عمري ما عملتها.. وبعدين أولاد الحرام يطمعوا فيّ.. آه يا نايبتي.. اوعى يا ضناي.. حاكم بلدنا دي بلد خباصة.

ثم قبلتني في رأسي وهزت كتفي في حنو وتأثر وهي ما تزال تقول:

ـ اوعى والنبي وحياة غلاوتي عندك.

وشعرت أنا بأنني أريد أن أبكي إشفاقا على وصيفة وتمنيت لو أجد نفسي في تلك اللحظة رجلا قويا يستطيع أن يحميها.

وأكدت لها أنني لن أقول لأحد.. وتابعت سيري وهي ورائي وغادرنا الجميزة وبدأت خطانا تنغرس في تراب الجسر أمام حقل عبد الهادي.

ولكننا توقفنا معا واستدرنا إلى الوراء دفعة واحدة وكانت ترتجف.

كان أرغول من ورائنا قد أطلق نغماته فجأة.. وبعد قليل رأينا الضوء الشاحب في النهر يحاذينا والسفينة تمضي، محملة بالتبن.

وزفرت وصيفة كأنها تخرج من ذعر مميت:

ـ يوه قطيعة.. ده أنا افتكرته عبد الهادي.

وهزتني كلماتها ورجفتها.. ولكن أنغام الأرغول في الليل الصامت امتلكتنا تماما.. وجرت وصيفة عائدة إلى الساقية وهي تقول:

ـ تعال.. تعال نقعد على حرف البحر.. تعال نشد عليهم المسخرة.

وجريت وراءها وجلست إلى جوار المصلى عند منحدر إلى النهر يتوضأ منه المصلون، وحاولت وصيفة أن ترفع صوتها لتنادي «ياريس البحر» فنهرتها ولكزتها بقوة.

كنت أعرف نوع الكلمات التي يتبادلها الملاحون مع الجالسين على البر باسم «شد المسخرة» كانوا يسخرون بكل شيء: بالآباء والأمهات وكل العلاقات ويقولون ألفاظا مكشوفة.

وخجلت وصيفة فلم تحاول أن تشد المسخرة بعد، وأنصتت إلى الأرغول في صمت وانطلق من على السفينة صوت جاف مرتفع يغني:

غليون واسق جمالات على المينا الشرقية

أيا عاشق البنات البيض تقتل ولا ليك دية

أيا عاشق البنات السمر .. خضر بلا ميه

وملأتني النشوة.. وأحسست بطاقات هائلة بالقدرة على أن أصنع كل شيء ومِلْتُ على وصيفة وقبلتها في خدها.

فضحكت وهزت نفسها دون أن تلتفت إليّ..

وابتعد الصوت قليلا قليلا.. حتى ذاب في صمت الليل.

ووجمت وصيفة وزحفت على نفسها المرارة والأحلام فقالت بصوت يشبه البكاء:

ـ لو كانت الواحدة تلاقي الأكل والشرب قدامها، وتقعد طول عمرها كده تغني وترقص ولا تحملشي هم حاجة في الدنيا؟

وسكتت قليلا ثم خلعت الشبشب من قدمها وغيرت من جلستها ومدت قدميها إلى الماء وتركت قدميها تعبثان في الماء.. وسرت في الماء مرمرة جميلة تحت قدميها واستمرت تقول:

ـ لو كنت أصبح ألاقي في دارنا زلعة مليانة برايز.

ثم التفتت إليّ.. ومالت بخدها نحو فمي وقبلتها مرة أخرى فضحكت ورفعت قدميها من الماء وجففتها بطرف ثيابها ونهضت قائلة: إن أباها يروي الشراقي في حقله البعيد في حوض الترعة الكبيرة ويجب أن تذهب إليه الآن بالعشاء.

وأبديت لها مخاوفي من أن تذهب وحدها فالطريق بين القرية وحوض الترعة طويل مخيف.

غير أنها قالت باستخفاف واعتزاز:

ـ هوه فيه حد في البلد يقدر يهوب ناحيتي؟ دانا بنت وراجل كمان يا جدع! هو يعني علشان محمد أبو سويلم ما اترفد من مشيخة الغفر تقوم الطير تأكل لحمه.. يا أخي لا..

وتحركت في طريق العودة.. وطلبت مني أن أسبقها وأبتعد عنها حتى لايرانا أحد.

وسألتها وأنا أمضي إن كانت تخاف من علواني الذي يجلس الآن في حقله بلا ريب، فقالت غاضبة: إنها لا تخاف أحدا في القرية كلها ولا يهمها أحد.. لقد عاشت في البندر خمسة أعوام مع أختها فعرفت هناك أشياء كثيرة: فعلواني وشيخ البلد الذي يشغّله وحتى العمدة نفسه لايساوون في البندر شيئا، وقد حدثها زوج أختها أنه رأى المأمور الذي يهز الدنيا يرتجف أمام الحكمدار ورأى الحكمدار يرتجف أمام المدير ورأى المدير يكاد يقبل يد وزير كان في زيارة مدرسة الزراعة بعاصمة الإقليم.

إنها لا تخاف من علواني ولا من سيده شيخ البلد ولا من المأمور.. وقد رأت بنفسها طلبة مدرسة الزراعة يخرجون في مظاهرات إلى الشارع ويضربون المأمور الذي يحمل الرعشة إلى قلب أكبر رجل في المركز.

وسكتت لحظة ثم قالت: إنها ضربت علواني في الصباح بطشت الغسيل عندما دخل دارها ووقف صامتا ينظر إليها وينقرها بعينيه وهي تغسل ملابس أبيها فمشى بلا كلمة.

وقلت لها: إن علواني يريدها زوجة.. وهنا ضحكت وصيفة وقالت لي: إن علواني يصلح أجيرا عند أبيها يرعى له الغنم إن اشترى غنما أو يحرس له بطيخا، وإذا كان علواني يريد أن يتزوج فعليه أن يتزوج إحدى الفتيات اللواتي يشتغلن في الحقول بالأجرة لأنهن لا يملكن حقلا يشتغلن فيه.

ثم تحسست صدرها ورأسها المعصوب واستمرت تقول: إن الذي لا يملك في القرية أرضا لا يملك فيها شيئا على الإطلاق حتى الشرف، وهذا النوع من الفتيات هو الذي يشجع علوانى.

وسكتت قليلا ثم عادت تقول وقد تغيرت نبرة صوتها: إن هؤلاء الفتيات مسكينات يعشن على اللقمة، ويذهبن في التراحيل إلى البراري وهناك يعشن يوما بيوم ولا يبلغ ثمن الواحدة منهن عند رجل مثل علواني أكثر من كوز ذرة يسرقه الرجل من حقل يحرسه.

ولم أفهم جيدا كل ما قالته لي وصيفة ولكنها كانت متأثرة.. ومشيت أنا وسمعتها تمصمص شفتيها وهي تقول:

ـ عيني عليكي يا خضرة.. أهو انتي ماتسويش في أي مولد أكثر من كف حلاوة سمسمية.

ومضيت في طريقي أمام وصيفة وسمعت رنة شبشبها من بعيد وهي ورائي يشق الظلمات بدنها الفارع مهيبا كأنه يتحدى قوى الخفاء.

- ٣ -

لم أستطع أن أنام في تلك الليلة فقد سهرت في فراشي أفكر في وصيفة وتمنيت لو أني أستطيع أن أجعلها واسعة الغنى.

لو كنت كبيرا بعض الشيء لتزوجتها.. أتزوجها؟..

إن فكرة كهذه تقلب عليّ الدنيا.. فأبي وأمي وأهلي كلهم لايمكن أن يوافقوا على ذلك، فأنا لا أستطيع بعد أن أكون زوجا، فلا أزواج في الثانية عشرة.

وعندما أصبحت، أحسست بشوق جارف إلى رؤية وصيفة، وتمنيت لو أني لقيتها كل ليلة تحت الجميزة.. وأخذت أستعيد الكلمات التي قلتها لها، والكلمات التي قالتها لي.. وأسرعت أدير في رأسي كلمات كثيرة كان يجب أن أقولها وصممت على أن ألقاها وأقول لها هذه الكلمات..

ولكني لم ألقها.. وعندما كنت أفكر في أن أذهب إلى دارها ناداني أبي وطلب مني أن ألبس حذائي لأذهب معه إلى عاصمة الإقليم لأمس عيني عند طبيب العيون..

كنت أعرف جيدا هذا العذاب الذي ألقاه في كل صيف عند طبيب العيون ولكني لم أستطع أن أرفضه.

وكان دكتور العيون رجلا يلبس المنظار الأسود ولا يبتسم، وكان صارما حاد الصوت، يتحدث إلى أبي كلما ذهبنا إليه عن الدستور والانتخابات والأزمة وما يصنع الإنجليز.

وكان واضحا لي أن أبي يعجب بأحاديثه ويوافق على كثير جدا من آرائه.

وذهبنا في ذلك الصباح إلى الدكتور مع أبي في العربة الحنطور إلى عاصمة الإقليم.. وبعد أن فرغت من زيارة دكتور العيون طلبت من أبي نظارة سوداء فاشتراها لي وتركني على مقهى يملكه رجل أرمني وأخذت آكل قطع البقلاوة وحدي وأقلب الصحف حتى عاد أبي..

وجلست إلى جواره في العربة وأنا صامت..

وخشيت وأنا جالس إلى جوار أبي أن أفكر في وصيفة.. وظللت لحظة مضطرب التفكير، ثم شرد فكري في المدرسة الثانوية وفي أحلامي بالبدلة المفتوحة ذات البنطلون الطويل وطلبت من أبي البدلة الجديدة.. واهتز أبي قليلا، فقد كانت البدلة الجديدة تكلفه أكثر مما يطيق، كغيره من الآباء في تلك الأيام.. وكان الرجل منهم يداري عن أولاده انهياره المالي ويحاول جاهدا أن ينقذ مظهره أمام الناس.. وهو لا يملك نقودا يضعها في جيبه لأيام طوال.. وبعد قليل ابتسم أبي وطلب مني أن أنتظر فما زلنا في أوائل الإجازة، وربنا يسهل قبل دخول المدارس.

وكانت العربة قد قطعت الطريق من عاصمة الإقليم على جسر النهر إلى قريتنا ولم يعد إلا الطريق الضيق الذي يصل بين الجسر والقرية.

ودخلت العربة في هذا الطريق، فلمحت من بعيد ثوبا ملونا مع ثلاثة جلابيب سود.. إنها هي وصيفة.

كان أثر «مرهم المس» ما يزال في عيني، ورفعت منظاري الأسود الذي اشتراه لي أبي فطلب مني أن ألبسه وألا أخلعه إلا في الليل.

وخجلت واضطربت وخشيت أن يكون أبي قد لاحظ أني حاولت اختلاس النظر إلى وصيفة..

وسارت بنا العربة الحنطور وتنحت الفتيات عن الطريق وأدرن رءوسهن المحملة بالجرار المليئة.. ولكن وصيفة لم تدر رأسها تماما فقد كانت ترشق نظراتها إلى داخل العربة.. إليّ أنا، وكانت تبتسم.

وقفز قلبي بين ضلوعي.. وكدت أنا أقفز من العربة، وعندما وقفت العربة أمام بيتنا التفتُّ إلى الوراء فوجدت وصيفة تقبل مع زميلاتها.

وصعد أبي إلى البيت وأبطأت أنا قليلا فقال لي:

ـ بتتلكع كده ليه؟!.. اطلع ريح عينيك من الشمس.

وطلعت أريح عيني من الشمس، ومن شباك الطابق الثاني وجدت وصيفة أمام البيت في الطريق وهي تديروجهها قليلا إلى الباب.. وتأكدت أنها تبحث عني وتمنيت لو أقفز إليها وأقع أمامها تماما وأطلب منها موعدا آخر عند الجميزة.. ولكنها مرت إلى دارها ولم أفارق الشباك منتظرا أن تعود وصيفة فتخرج إلى الجسر لتملأ مرة أخرى.. ولكنها لم تخرج ولم تمر أمامي من الطريق.

وبعد العصر استطعت أن أتسلل.. وأقف أمام باب البيت في انتظار قدومها. ولم تكد تقبل حتى ناديتها أمام الفتيات.. وضحكت وابتسمت الفتيات، وقلت لها هامسا:

ـ قابليني زي امبارح.. بعد العشاء.

وخرجت بعد صلاة العشاء مباشرة أبحث عنها عند الجميزة.. لم أشعر بالخوف من الطريق هذه المرة، ولم أشعر بالوحشة من حولي في الفضاء الساكن.. كنت أفكر في وصيفة وفي أشياء لم أقلها ولم أصفها يجب أن أقولها وأصفها.

ومررت بحقل البطيخ الذي يحرسه علواني، فلم أجد أثرا له..

وانتهيت إلى الجميزة ولكني لم أجد أحدا.

وأخذت أبحث عن الساقية وداخل المصلى.. ولكن بلا جدوى..

وعدت محنقا وأنا أتلفت ورائي في كل خطوة أبحث عن وصيفة..

وقطعت الجسر كله وبدأت أنحدر في الطريق الضيق إلى القرية وما زلت أتلفت ورائي.. فربما رأيت وصيفة..

ولمحت خيال امرأة تلبس السواد..

أخيرا فهذه وصيفة بلا كلام.. ورجعت مسرعا إلى الجسر.. ولكني وجدت الخيال يدخل حقلا.. ثم يختفي في الظلام.

كان هو حقل البطيخ الذي يحرسه علواني.. وهزني غيظ مخيف.. أن وصيفة تسخر بي لأني ما زلت طفلا.

وسيطرت عليّ فكرة أن وصيفة لم تكن مخلصة أبدا حين حدثتني عن علواني.. ربما كانت تلقاه خفية وترجوه هو أيضا ألا يروي لأحد قصة اللقاء، تماما كما صنعت معي منذ ليلة واحدة.

ربما كان لها مع علواني عشيق آخر، في السر وفي المصلى بالذات.

واضطرمت بالحنق، ولم أدر كيف أصنع.

ولكني مضيت في الطريق حتى وصلت باب داري، وأمام باب البيت وجدت عبد الهادي.

وتلقاني مرحبا كأنه كان يبحث عني وقال لي: إن أبي قلب البلد بالسؤال عليّ.. وهمس في أذني أن أدخل، وسيتطوع هو بالقول لأبي إنني كنت في داره ألعب ويضمنني ألا أخرج مرة أخرى في الليل.

وألح عليّ عبد الهادي أن أدخل إلى البيت مسرعا لأنه يريد أن يروح إلى الساقية..

كنت أعرف أنه يصعد إلى الجسر عندما تدور ساقيته، ليسهر عندها طول الليل يقطع الوقت بغناء المواويل الطويلة التي تروي قصصا بأسرها عن أبطال الحياة والحب، بينما الماء يجري في قناة صغيرة تمر من تحت الجسر إلى حقله.. ثم تطوف بالحقل كله، تاركة الماء ينسكب منها عبر فجوات شقتها الفأس.. وكنت أجلس مع عبد الهادي على ساقيته أحيانا في النهار أسمع المواويل والحكايات، ثم يصحبني إلى البيت في مهبط الليل ويعود هو لينفق الليل كله وحيدا مع الفأس والماء والزرع وأبطال المواويل..لكم تمنيت أن أسهر معه، ولكن أحدا من أهلي لم يسمح لي بهذا أبدا، حتى عبد الهادي نفسه، كان يرى السهر على الساقية لا يليق بي، أنا الذي أتعلم في مصر.

على أن ساقية عبد الهادي لم تكن تدور في تلك الليلة المظلمة الحارة من الصيف، ولم أكن خالي البال لأسأل عبد الهادي إلى أن يمضي، فاختفاء وصيفة أمام الحقل الذي يحرسه علواني كان داهية كبيرة.. وهذه داهية أخرى تأتي إليّ أسخم من الأولى، فقد اكتشف أبي أنني خرجت من البيت دون إذن منه بعد صلاة العشاء.. وبينما كنت أفكر في طريقة أتسلل بها إلى المنزل لأضع بدلتي وكل مالدي من ملابس تحت جلبابي قبل أن ألقى أبي، لأخفف عن جسمي وقع عصاه الرفيعة إن لم تفلح شفاعة عبد الهادي في تخليصي من الضرب هذه المرة.. وبينما صورة العصا تختلط أمامي بشبح وصيفة، إذ بعبد الهادي يسألني:

ـ أنت كنت عالبحر بتعمل إيه دلوقت..

لم يكن عبد الهادي عندما قابلني يحمل على وجهه أي تعبير.. غير أنه عندما سألني شاعت الابتسامة الماكرة في قسماته، كأنما هو يعرف جيدا مع من كنت..

واحتدم في نفسي الحنق وقلت له وأنا أكاد أبكي:

ـ أنت مش عاوز تقرأ فاتحة وصيفة؟ طب اطلع البحر بقى شوفها مع مين؟

واهتزت العصا الطويلة في يد عبد الهادي وقال مبهوتا:

ـ إيه؟!..

ثم انفلت مسرعا في الطريق إلى الجسر، وقد نسى شفاعته التي وعدني بها عند أبي..

وهبطت السلالم أمام منزلي، لأعود معه، ولكنه كان يمضي مسرعا.. التفت إليّ قائلا:

ـ ارجع..

ورجعت أنا مثقل القلب، وتسللت إلى حيث وضعت كل ما لدي من ملابس فوق جسدي تحت الجلباب.. وقابلت أبي كأنني كرة.. فابتسم أول الأمر، ولكنه أخفى ابتسامته.. وقام إلى عصاه..

وأنذرني ألا أخرج من البيت مرة أخرى بعد صلاة العشاء.

وبت ليلتي وأمامي وجه أبي في غضبه الذي يخالجه الابتسام، وفكري هناك على الجسر.. حيث اختفى شبح وصيفة.

أكانت هي وصيفة بالتأكيد؟..

ربما لم تكن هي.. ولكن لابد أنها كانت هي..

من يدري؟

إن علواني وحده يعرف.. وسيعرف عبد الهادي كل شيء.. وأعرف أنا في الصباح عندما أقابل عبد الهادي..

وزحفت إلى رأسي من جديد أحلام المدرسة الثانوية التي سأذهب إليها بعد شهور والبنطلون الطويل الذي سألبسه لأول مرة وأعود إلى القرية به وبصوت غليظ فأبهر وصيفة وأحميها.

أما عبد الهادي فقد ظل يندفع في الطريق إلى الجسر حتى غاب في الليل تماما، وعصاه تقرع الأرض بعنف فتثير الدوي في الصمت الحالك، وغبارا كحبات الظلام.

وبلغ عبد الهادي حقل البطيخ الذي يحرسه علواني فوقف لحظة على رأس الحقل، وفتح عينيه ثم زر جفنيه، وحاول أن يخترق بنظراته الحادة الغاضبة ظلمات الليل التي كانت تمتزج بسواد الأرض.

ولم يستطع عبد الهادي أن يرى شيئا.. ولم يستطع حتى أن يسمع صوتا أبعد من صوت أنفاسه التي ترددت في أنفه بقوة..

وأمسك بعصاه، وهزها في الفضاء، ثم أمسك بذقنه، وشمر ساعديه ووضع العصا على كتفيه، وأسند إليها مؤخرة رأسه، وأرخى عليها يديه، ودخل حقل البطيخ.

ومشى عبد الهادي قليلا في تحفز، ثم توقف عند مكان من الحقل تعود أن يجلس فيه علواني، وينام.. ولم يجد عبد الهادي غير بقايا بطيخة مفتوحة على الأرض ركلها بقدمه.. ثم وجد قلة بها ماء بارد، فشرب بصوت مرتفع، ومصمص بلسانه وشفتيه وأطلق نفسا ثقيلا ثم وضعها إلى جوار كوب غليظ للشاي، وبراد أسود.

ولمح عبد الهادي الحرام الصوف الذي يتغطى به علواني من ندى الفجر.

كان متكوما.. فتتابعت أنفاس عبد الهادي، واضطرم، وانقض على الحرام بيد، ويده الأخرى تحكم مسك العصا، ورفع الحرام المتكوم بسرعة وتوثب.. ولم يجد تحته شيئا غير الأرض السوداء فرماه بغيظ يغشاه الارتياح.

وعاد يضع عصاه على كتفه وراء قفاه، ويرخي على العصا ساعديه، وأخذ يذرع حقل البطيخ من أوله إلى آخره وينظر في الأرض ويركل بقدمه الكتل السوداء، ولكنه كان دائما يركل البطيخ.

لم يستطع أبدا أن يسمع شيئا غير أنفاسه الثائرة.

وصعد إلى الجسر، وأخذ ينظر في الفضاء من حوله وهو ينادي في تحرش وتحد:

ـ يا علواني.. يا واد يا عرباوي..

ولكنه لم يظفر بجواب.

وتذكر عبد الهادي فجأة أنه ترك علواني عند الشيخ يوسف بقال القرية.. ذهب إليه بعد انصرافه من الفرح.

فعلواني العربي الذي يعيش في القرية بلا أعمام ولا أخوال وبلا أرض ولا شيء على الإطلاق.. غير البندقية، والمهارة في التحطيب، والأجرة التي يأخذها على الحراسة.. علواني هذا لا يجد شيئا يملأ وحدته

إلا مجلس الشيخ يوسف.. فهو يهبط إلى القرية بعد كل مغرب ليشتري الشاي والسكر والدخان ويسمر قليلا مع بعض فتيان القرية أمام دكان البقال ثم يعود إلى الحقل بعد أن تنام القرية.

وتذكر عبد الهادي أنه رأى علواني بعد المغرب يضحك مع خضرة وهي تفتح يديها وراء ثور تنتظر ما يسقط منه لتضعه فوق رأسها مع ماجمعته من روث البهائم.. إنه يذكر الكلام الخارج الذي قالته خضرة عن الثور..

وخضرة فتاة ترقص في كل فرح، وتتحدث عن العلاقات الجنسية بلا تحرج وتبيع نفسها في الموالد والأفراح ومواسم الذرة والقصب والأعياد والقطن بقطعة من الملبن أو بكف من الحلاوة السمسمية، أو ربما بكيزان خضراء من الذرة وأعواد من القصب..

وارتاح عبد الهادي قليلا.. وهمهم لنفسه أن علواني يشبه خضرة تماما.. وأن ما جمع بينهما وفق حقا.. فهي أيضا تعيش في القرية بلا أرض ولا أهل.. وأقاربها قد تنازلوا عنها منذ تركوها «للبيه الأعزب» تخدم في ضيعته الصغيرة ذات الثلاثين فدانا.. وطردها «محمود بيه» بعد أن خدمته سنتين.

كانت إذ ذاك سمراء نضرة راسخة النهدين.. وعادت إلى القرية لتعيش على عملها في الحقول، أو لتغسل القمح في البيوت الثلاثة الذي يختبئ نساؤها.

ومضى عبد الهادي يهمهم بأغنية حزينة، واتجه إلى ساقيته مارا بالمكان الذي تملأ منه النساء، ويرتفع منه صوت خضرة في النهار بالكلمات الخارجة، وحركات الذراع التي تثير خجل النساء من حولها، كلما رأت محمد أفندي المدرس الإلزامي يمر بمنشته الخوص، وجلبابه المخطط الإفرنجي، وشبشبه الفاقع، وطاقيته الطويلة البيضاء.

وظل عبد الهادي يمشي على الجسر ومر بساقيته وعاد في الاتجاه الآخر.. وأخذ يذرع الجسر.

وفجأة قطع الأغنية عندما وجد نفسه أمام مكان مهجور، كان ماكينة طحين يملكها محمود بك ثم احترقت وتعطلت ولم تعد تصلح لشيء إلا لمقابلات خضرة ومن يدفع لها.

ودق قلبه بعنف.. أتكون وصيفة هنا مع أحد.. مع محمد أفندي!!

أتكون خضرة قد جلبت وصيفة هنا!!

وحمى رأسه، وأخذ يفتش كل ركن في المكان، حتى الجحور التي تسكنها الثعابين.. لم يعثر بشيء، ولم يسمع نفسا..

وعاد يمشي على الجسر، ويتابع الهمهمة بغنائه الحزين حتى اقترب من ساقيته وقد انتهت الأغنية الحزينة.

وهاجت نفسه في الصمت والظلام والفضاء.. وشعر بالحاجة إلى أن يحدث أحدا..

إن هذه الأرض الواسعة التي تمتد إلى جواره لتملؤه إحساسا بالثبات والرسوخ والشرف.. لم يكن يرى منها شيئا في الليل، ومع ذلك فقد كان يعرفها.. يعرفها جيدا، يعرف وجهها وقنواتها وكل مسلك فيها.. ويعرف شكل أعواد الذرة الغضة التي بدأت تنبثق من الأرض على مهل.

إنه الآن ليقف إلى جوار الأرض التي يملكها هو، والتي ورثها عن أبيه، وحمل الفأس الصغير عليها وهو طفل.. إنها نفس المنقرة التي حملها أبوه عندما كان طفلا.. حتى إذا كبر عبد الهادي ومات أبوه، كبرت الفأس معه!

إنه ليعرف قصة هذه الأرض كلها منذ كان يدق الوتد للجاموسة.. وهو في الثامنة من عمره لترعى البرسيم بحساب.. إنه ما زال يذكر قصة هذه الأرض.. ولن ينساها أبدا، وسيحفظها عنه ولده من بعده.. لقد أدرك أنها تنبت الذرة والبرسيم والقطن مع أول الأشياء التي أدركها في الحياة.. وزرعها أبوه حديقة ثم قلعها بعد سنوات.. وزرع فيها هو القلقاس فرمت له الكثير.. وزرع فيها القصب فرمت له الكثير.. وزرع فيها الحلبة والفول فلم تخيبه أبدا، ورفعت رأسه على الدوام.

اشترى لها أنواع السماد، وظل يبرها ويرعاها ويعزها، ولم يفرط فيها يوما واحدا ولم تفرط هي فيه.

فدان؟! فدان قطعة واحدة..

إن هذا الفدان ليجعل له مكانا خاصا في القرية، ويسمح له إذا ذهب إلى عاصمة الإقليم أن يجلس على مقهى الخواجة الأرمني الذي يجلس عليه معه عمه، وعمدة البلدة الكبار هناك.

فدان؟!

كم من الناس في القرية يملك فدانا مثله؟

إن العمدة نفسه لايملك أكثر منه، وقد أكملت له عائلته زمام العمودية بعقود صورية.

إنه واحد من عشرة رجال في القرية يملكون هذا القدر أو أكثر منه.. ومع ذلك فلو أن أخاه الكبير الموظف في مصر ترك له الفدان الآخر!!

ولكن لا يهم.. فليسعد أخوه وزوجة أخيه وأولاد أخيه بإيجار الفدان.. فعبد الهادي هنا في القرية، وأقدامه مغروسة في أرضه، يشعر بقوة لا يعرفها أخوه الموظف في مصر مدينة الحكومة!

وجلس عبد الهادي قليلا على أرض الجسر أمام الجميزة، ولف سيجارة.. وألح عليه الشعور بالحاجة إلى أن يحدث أحدا.. وتمنى لو أن معه وصيفة ـ زوجة له ـ تجلس إلى الساقية أمام ثور كبير يدور بالساقية، وهو يروي أرضه من بعيد: هي تغني على الساقية، وهو يغني هناك وسط الماء المنسكب..

وهز عبد الهادي رأسه بجوى، وتنهد ورمى سيجارته.. وبدأ يهمهم:

يا ولدي.. يا ولدي.. يا سيدي.. آه..

وشعر بحب مباغت لكل شيء: لوصيفة ولعلواني وخضرة ولكل ما في القرية.. ثم انطلق صوته حزينا هادئا:

مسكين محتار، مقصوص الجناح، ولا طار

حط الحمام يوم على أرض الحبيب ولا طار

وارتفع صوته قليلا، وتردد في الفضاء الواسع الحالك واستمر يغني..

***

كان الليل الهادئ يحمل رنين صوته الجاف الحزين مختلطا برجع ساقية تدور على الشاطئ الآخر.. وسمع من بعيد صوتا يقول في طرب:

ـ آه.. يا حلاوتك يا عبد الهادي.. أي والنبي قول موال أخضر قول .. يا حبيبي أنت يا أبو قلب أخضر!

وتوقف عبد الهادي وصاح:

ـ سلامات يا شيخ العرب..

ومضى من فوره على الجسر حتى بلغ حقل البطيخ الذي يحرسه علواني، ورأى نارا صغيرة تتوقد، وسمع كركرة الشاي فوق النار.

ووقف علواني ومشى إلى عبد الهادي يستقبله وهو يصطنع اللهجة البدوية:

ـ يا مراحب يا زين الفتيان.. مراحب بالجدعان.. اتفضل شاي..

وأمسك بيده، وسار عبد الهادي مع علواني وجلسا قرب النار، وشد علواني الحرام الذي يتغطى به من ندى الفجر، وفرشه لعبد الهادي قائلا بنفس لهجة البدو:

ـ ريح هنا يازين العرب، والله شرفتنا.

فنحى عبد الهادي الحرام بقدمه، ولكز علواني بشدة وقال مبتسما:

ـ جاتك الغم، يعني خواجات ياخي؟! حانقعد عالحرام يعني الواد خواجة قوي.. والأرض ما لها؟ دي واخدة منا راقات يا جدع.. والا يعني شايفنا فارقين شعرنا..

ثم جلس على الأرض إلى جوار علواني وهو يضحك، فضحك علواني وأكمل كلام عبد الهادي دون أن يصطنع اللهجة البدوية:

ـ أيوه.. ولا يعني متربيين في مصر.. ولا بنشرب سجاير مكنة؟ دهدي.. ولا يمكن بهوات!!

وأطلق الاثنان قهقهات سريعة متلاحقة قصيرة، والشاي يكركر على النار.

وتحرك غطاء الإبريق الأسود، واندفعت من ورائه دفقات بخار الغليان فرفعه علواني بيده، وأبعد الكوب السميك المضلع عن الإبريق، وصب فيه الشاي، فانسكب في خيط طويل..

واستنشق عبد الهادي رائحة الشاي، وتابع خيطه الطويل المنسكب، وتلذذ بمرمرته.

وقال علواني وهو يقدم الكوب الساخن:

ـ خد يا عبد الهادي.. خد شاي بيضحك زي العروسة أهه.

فتناول عبد الهادي الكوب مرحبا، ورشف منه بصوت مرتفع وفي بطء، ثم وضعه أمامه على الأرض وهو يرسل من حنجرته صوتا مبحوحا راضيا:

ـ إحم.. إحم.. شاي عرب صحيح.. تسلم!

وعرض علواني على عبد الهادي أن يحضر له بطيخة.. فلديه بطيخ استوى وطلب الأكالة.. فاعتذر عبد الهادي شاكرا..

وساد الصمت..

وعاد علواني يحدث عبد الهادي، فسأله ما إذا كانت ساقيته تدور، فقال عبد الهادي باقتضاب:

لا...

كان صوت عبد الهادي قد انخفض، ونكس رأسه قليلا.. ولكن صوته ارتفع فجأة كعادته ليسأل علواني أين كان.

وأجابه علواني بأنه كان في الفرح، وبعده راح يشتري الشاي من عند الشيخ يوسف.

ثم انفجر علواني يشكو لعبد الهادي سوء معاملة الشيخ يوسف، وقلة الرحمة في قلبه، فهو بقال القرية الوحيد، وهو يكسب من البقالة كسبا طيبا، وهو أيضا يقرأ الموالد أحيانا مع فقهاء البلد، فسيدنا الشيخ الشناوي لا ينساه، ومع ذلك فقد كان لا يريد إعطاء علواني الشاي، وظل علواني يتحايل عليه، وأخيرا رمى في وجهه بورقة الشاي وأقسم أن هذه هي آخر مرة، فلن يعطيه شيئا حتى يدفع ما تأخر عليه من ثمن الشاي والسكر وورق الدخان، وعلواني لا يعرف شكل القرش إلا عندما ينتهي الموسم فيأخذ أجره عن الحراسة، وحتى هذا الأجر لن يكفي الشيخ يوسف.

وحين انتهى علواني من شكواه قال له عبد الهادي بشرود.

ـ تتعدل يا علواني..

فقال علواني بحسرة:

ـ تتعدل إزاي.. تتعدل منين.. دانا على ما يخلص الموسم أكون جرّيت زيادة عن اللي حاقبضه كله..

ولم يعلق عبد الهادي وظل شاردا وكأنه نسى الشاي..

فصب له علواني مزيدا من الشاي في الكوب، وسأله إن كان يستغني إلى آخر الموسم عن ريال.. فهز عبد الهادي رأسه:

ـ ريال!.. هوه حد لاقي ريحتهم.. هوه حد لاقي اللضى يا علواني؟ ماحدش عنده فلوس غير اللي نفسه في بطنه، لكن اللي زيي نفَسه مكروش.. يا دوبك الحكاية مستورة!

ومصمص علواني شفتيه في حسرة، ثم انفجر صائحا:

ـ يا دي السنة السودة يا رجالة! يا خواتي الدنيا جرى فيها إيه؟!.. بقى انت كمان مش لاقي يا عبد الهادي!.. يا سنة منيلة وزي الهباب.. دانا حتى سمعت أن البيه حجزوا على عزبته..

فقال عبد الهادي بهدوء:

ـ الكلام ده كان زمان من قيمة سنة.. لكن وحياتك يا خويا دا من يوم الوزارة دي ما جت وأشيته بقت معدن هو وخاله الباشا.. يا عم دا لهم رجل في الحكومة.

ـ طيب ما أنت كمان لك رجل في الحكومة يا عبد الهادي، ما أخوك مستخدم في مصر.. في عز الحكومة..

وابتسم عبد الهادي وسكت قليلا ثم قال:

ـ يا جدع دي الحكومة حكومتهم والكلمة كلمتهم.. دا الباشا في حزب الشعب اللي ماسك البر وحارقه بولعة! الله! خبر إيه يا علواني مش تاخد بالك.

وهمس عبد الهادي ساخرا:

ـ ليه رجل في الحكومة؟ هئ؟ دا الحكومة كاسرة رجلنا يا عم!..

وهز علواني رأسه وعاد يمصمص شفتيه في حزن، ثم استطرد يحكي بتحسر عن أيام خدمته القديمة في عزبة محمود بك.

كان علواني يرعى غنم «البيه» وهناك كان يحمل في جيبه حافظة كبيرة للنقود، فقد كان يجد شيئا على الدوام.

وفي أيام السوق ـ مرة على الأقل في كل شهر ـ تعود علواني أن يروح إلى السوق بالغنم فيبيع بعضها ليصرف «البيه».

وفي السوق كان علواني يجد فرصته: فالأمر لا يخلو من عنزة أو نعجة صغيرة يدعي علواني أنها تاهت وماتت في الطريق.. وأحيانا يستطيع علواني أن يحجز من ثمن كل رأس خمسة أو سبعة قروش.

ولكن البيه تعب من الغنم، رغم أنها كانت ترعى على هواها في أي أرض بلا حساب أو اعتراض.. واحتاج مرة إلى مبلغ كبير بعد عودته من إقامة طويلة في مصر فباع كل الغنم ولم يعد لعلواني عنده مكان، ورجاه علواني أن يبقى ليحرس له حديقة البرتقال إذا جاء الشتاء.. وفي حديقة البرتقال كان علواني يجد فرصا أخرى.. فالفتيات والنساء بائعات البرتقال كن يقبلن بلا انقطاع ليشترين السقط من البرتقال وكان هو يكسب من هذه الصفقات مبالغ طيبة، ولكن خضرة فضحته.. وكانت تخدم إذ ذاك عند «البيه» ولا يستطيع أحد الأنفار أن يفتح عينيه فيها أو يرد لها طلبًا ..وطلبت يوما من علواني برتقالة كبيرة من على شجرتها فرفض علواني وأعطاها برتقالة من السقط قائلا:

ـ خدي الحبة دي.. برتقان الشجر دا ما ينقطعشي حتى ولا للبيه نفسه، أنتو حاتطفحوه حبه ورا حبه؟! أمَّال يبيع إيه؟.. اللي ييجي يشتري الجنينة حايشتري إيه؟

وقذفت خضرة البرتقالة في وجه علواني، وقامت بنفسها فقطعت برتقالة من على غصنها! وهاج علواني فقذفها بقطعة من طين الحديقة فبكت خضرة وشتمته فضربها علواني، وهبت مقصوفة الرقبة إلى «البيه» فشكت علواني وفضحت كل أسراره، وراقبه «البيه» خفية دون أن يدري.. حتى ضبطه يضحك مع فتاة بيضاء أثناء إحدى الصفقات، فأمسكه البيه وفتشه وأخذ محفظته بما فيها وظل يضربه بالكف والرجل.

وعندما انتهى علواني من رواية هذه الحكاية لعبد الهادي، صفق متعجبا وهو يقول:

ـ شوف الظلم يا عبد الهادي.

وصب علواني كوب الشاي لنفسه وسكت، وبعد أن رشفه هز رأسه وهو يتنهد قائلا:

ـ والله يا عبد الهادي لولا أن شيخ البلد بيبعت لي الأكل.. لكان الواحد ياكل من الغيطان زي الديب..

وقال عبد الهادي، وهو ما يزال شارد الفكر:

ـ مسيرها تتعدل.. ربك يستر يا شيخ العرب.. ربنا يستر..

كان عبد الهادي يفكر في وصيفة.. ربما قد ذهبت إلى «البيه» الذي يتخايل في ضيعته بجلبابه الكشمير الفاخر وشعره اللامع المفروق..

ولكن لماذا تذهب إلى البيه؟..

إن محمود بك يخرج أحيانا في الليل على ظهر حصانه الفاره القوي الأبيض.. وكثيرا ما رآه عبد الهادي في طريقه إلى عاصمة الإقليم أو عائدا من هناك أو من عزبة خاله الباشا بالقرب من عاصمة الإقليم.. ولا طريق له غير الجسر.

ربما كان قد قابل وصيفة فعاد بها إلى العزبة.. إنه يفعل هذا أحيانا في الليل عندما تروقه فتاة على الجسر والبلد كلها تعرف هذا جيدا.

ولكن أيمكن أن يصنع شيئا كهذا مع وصيفة بنت محمد أبو سويلم شيخ الخفراء السابق..

ووصيفة نفسها أمن الممكن أن تقبل هي مثل هذا الشيء؟!

ولم يحتمل عبد الهادي التفكير في كل هذا..

وحين كان علواني يشرب الشاي ويفكر في حياته التعسة، فاجأه عبد الهادي بالسؤال عن محمود بك، هل مر على الجسر؟ فهز علواني رأسه ونفى الأمر بطقطقة متكررة من لسانه.

وعاد عبد الهادي يسأل بضيق:

ـ ما حدش فات عليك من أصله؟

فقال علواني باقتضاب وهو ساهم:

ـ أبدا من أصله..

وانتهى الشاي، ولم يجد عبد الهادي كلاما يقوله فنهض مستأذنا، وعلواني يلح أن يبقى للدور الثالث في الشاي ولكن عبد الهادي كان قلقا موزعا.

قال علواني متمسحًا بلهجة بدوية:

ـ وبعدين نزردك، حكم الشاي كده، اقعد.. اقعد.

فابتسم عبد الهادي بلا استعداد للضحك وبدأ يتحرك، ووقف علواني وسار قليلا بعد عبد الهادي يودعه في صمت.

غير أن علواني توقف فجأة ومال رأسه يصغي فسمع همهمة من بعيد.

وطلب علواني من عبد الهادي أن يتوقف وأن يجلس في مكانه..

وركز عبد الهادي انتباهه، بينما قفز علواني راجعا إلى الوراء ثم نبش قليلا تحت الحرام ونزع بعض الحجارة بخفة والتقط بندقيته القديمة ذات الماسورة المقصوصة ثم كسرها ووضع فيها الطلقتين وهمس لعبد الهادي:

ـ معاك الفرد بتاعك.. عَمَّره إن كان معاك وتعال هنا بشويش نلبد تحت بطن الجسر.

فقال عبد الهادي باستخفاف:

ـ ليه بأه!..

فأجاب عليه وقد امتلكه الاهتمام:

ـ باين فيه رجالة انسقطوا على البلد.

ـ فقال عبد الهادي بصوت مرتفع:

ـ رجالة!.. رجالة إيه وهباب إيه.. ورجالة الليل ييجوا بلدنا يزروطوا إيه؟!.. يعني حايسرقوا الأبعدية ولا يعني هنا الوسية.. دا البلد تسرق اللي معاهم.

وضحك علواني وعبد الهادي. واقتربت الهمهمة وأصبحت أصواتا واضحة تلتقط منها الآذان كلمات كاملة تجري إليها بسرعة.

كانت اللهجة غريبة عن القرية واتضح في الظلام شكل بسكليت يجري ومن ورائها بسكليت آخر، وقال علواني هامسا باطمئنان:

ـ دول راكبين حمار السكة.. الحمار الحديد.. دي لغوتهم لغوة أهل البندر. ثم ضحك مستطردا ساخرا بنفسه:

ـ بقى رجالة الليل حاينسقطوا علينا راكبين حمير حديد.. هئ.. دول لازم رجالة خواجات.. هئ هئ.. دول لازم من لندرة..

وضحك عبد الهادي وهو يلتقط كلمات الرجلين المقبلين وقال:

ـ دول ناس من البندر.

ووضع علواني البندقية مكانها، وظهر الرجلان بوضوح، كان أحدهما يلبس البدلة والطربوش والمعطف الأبيض والآخر يلبس جلبابا من حرير القز وجاكتة بيضاء وطاقية من الصوف.

وأصبحا على الجسر أمام عبد الهادي وعلواني.. تماما.

ونزل الرجل ذو الجلباب عن البسكليت وأمسكها بيده، فقال الرجل ذو الطربوش وهو يهبط عن البسكليت ويتركها للرجل الآخر:

ـ السلام عليكم..

ورد عبد الهادي، وهو يصعد إلى الجسر وراءه علواني:

ـ اتفضلوا.. اتفضلوا.. نجيب عشا..

وزاحمه صوت علواني مصطنعا لهجة بدوية:

ـ اتفضلوا يا عرب نجيب عشا.. العشا جاهز يا عرب.. ننحر لكم الضأن يا عرب..

وقال الرجل ذو الجلباب:

ـ اسمع يا أخينا أنت وهوّه.. مين فيكم معلق ساقيته؟. مين فيكو طالع يعلق الساقيا؟

فهمس عبد الهادي لعلواني ساخرا من لهجة الرجل:

ـ الساقيا!!

ثم استمر يقول لعلواني في همس:

ـ دول بتوع الهندزة.

وأجاب علواني بصوت مرتفع:

ـ ساقية.. محدش هنا معلق سواقي.

كان عبد الهادي قد أدرك بتجربته أنهما من رجال هندسة الري في عاصمة الإقليم وتقدم إليهما.. إنه يعرف وجه المهندس ومساعد المهندس، ووجوه بعض عمال الهندسة.. ورأى وجها غريبا.. لم يكن هو المهندس، والمهندس على أي حال لا يأتي على بسكليت..

وأدرك أنه مساعد مهندس نقل حديثا إلى الإقليم.. ولكنه عرف وجه العامل الذي يلبس الجلباب.. إن هذا الرجل نفسه يعود إلى السواقي بعد أن يعطلها المهندس أو مساعده فيديرها مقابل عشرين قرشا للساقية.. ولكن لا أحد في القرية يستطيع أن يدفع هذا الريال في هذه السنة السوداء.

ونظر عبد الهادي إلى العامل وقال له:

ـ أنتو فتشتم بنفسكم.. لقيتو حاجة؟

فاندفع الأفندي يقول بصرامة:

ـ بتوشوشه ليه؟.. اسمع يا جدع أنت وهوّه.. أنا عارف لماضة الفلاحين وشغلهم ولؤمهم.. فين الساقيا اللي كنتوا طالعين تعلقوها؟..

فقال علواني (تاركا اللهجة البدوية التي اصطنعها):

ـ لا والنبي يا جناب الباشمهندس، وحياة مقامك ورقبتك.. والله ما فيه حاجة من دي أبدا يا حضرة الهندزة واحنا أصلنا قاعدين هنا كده يعني.. أصل الحكاية يا حضرة الحكومة...

فقاطعه الرجل ذو الجلباب:

ـ أمال إيه البنت اللي شفناها عالجسر من قيمة ساعة وجريت تستخبى في الغيطان.. إيه دي.. مش باعتنها تدور الساقيا؟

فقال علواني:

ـ بنت؟ وهيه البنت حاتجر الساقية.. طب وفين البهيمة؟ هو عدوك أهبل أنت وهوه؟!

فصاح فيه الأفندي:

ـ اخرس!

وهمس عبد الهادي كأنه يخرج من حلم:

ـ بنت؟.. شفتها فين؟.. هيه فين؟..

ولم يهتم أحد بما قال.. وعاد الأفندي يقول:

ـ هو إحنا ما عندناش شغل غيركم.. إيه دا.. حانسهر لكم طول الليل علشان نضبط السواقي دايرة، يعني نكسر لكم سواقي الجسر كلها من دي الوقت ونخلص؟..

فقال عبد الهادي محنقا:

ـ ليه؟! تكسروا سواقي الجسر؟ ليه.. وحتى إن لقيتوها دايرة؟ ده لسه قدامنا خمسة أيام ري يا جدع.. خمسة أيام بلياليهم نروي فيهم على كيفنا وتدور سواقينا على كيف كيفنا ولا حدش له كلمة عندنا.. واللا وحشكو الريال..

وثار الأفندي على عبد الهادي والتفت إلى الرجل ذي الجلباب يسأله عن مسألة الريال. فهمس في أذنه أن الذي كان قبله كان يأخذ ريالا من الفلاحين ليغمض العين.. ولكن الحالة الآن تستحق خمسين قرشا عن كل ساقية.

اضطرب الأفندي وشتم العامل وتوعده عندما يعودان إلى الهندسة.

فضحك علواني بشماتة وصاح:

ـ دهده.. دي الحكومة وقعت في بعضها..

بينما أخذ عبد الهادي يزعق، ويحاول أن يناقش الأفندي.. وزام الأفندي محاولا أن ينهى المناقشة التي دخلها متأففا متقززا.. ثم صاح في عبد الهادي أن دورة الري ليست ككل سنة فقد أصبحت خمسة أيام بدلا من عشرة، وأن المغرب كان آخر موعد يحق للسواقي فيه أن تدور وعند العمدة إشارة بهذا المعنى منذ أيام.

فصاح عبد الهادي:

ـ عمدة؟.. عمدة إيه يا جدع؟ صلِّ ع النبي.. أنا حدورها بعد بكره وجميلة العمدة على اللي في رجلي.. خليه ييجي يحوشني وأنا أرمهولك في البير.

وضج الأفندي وعاد يصيح أن هذه هي أوامر الحكومة.

فقال عبد الهادي:

ـ حكومة؟ سلامات يا حكومة.. ما إحنا برضه لنا رجل في الحكومة.. خد عندك.. أخويه مصطفى مستخدم في مصر في المساحة مابعتشي يقول لنا كده ليه؟ قال الحكومة قال! تعطشوا الأرض وتقولوا الحكومة..

وتلطف الرجل ذو الجلباب وقال لعبد الهادي:

ـ راجل أنت.. دانا عارفك.. راجل طيب وبتفهم.. كلام الحكومة أهه كده.. دورة الري في الزمام هذا تكون خمسة أيام فقط لا غير.. وبعد كده لا فيه ري من البحر ولا من الترعة.. بلاش مناكفة بقى.. بلا كتره.

فقال عبد الهادي متحديا:

ـ لا ياشيخ .. خمسة؟.. خمسة أيام.. يا جدع قول كلام غير ده.. يعني نعطش الدرة.. يعني تموتوه لنا من العطش.. طب دا فيها خلق لسه ماطفتشي الشراقي يا ليلة غبرا يا أخواتي.. هو جرى إيه السنة دي؟..

وهمس علواني محاولا أن يتدخل:

ـ يا عبد الهادي دا الحكومة بتقول كده.. خلاص بقى.

فصاح عبد الهادي بأعلى صوته وهو يضرب الأرض بعصاه:

ـ حكومة إيه دي يا وله؟ حكومة إيه دي بس ما تفلقونيش يأخي؟ تاخد منا نص الميه إزاي؟! مين دا اللي ياخد منا خمسة أيام من العشرة بتوعنا.. ليه.. وبقية الميه رايحة فين؟ هه.. بقى يبطلوا السواقي هنا ويقفلوا الترعة الكبيرة هناك؟.. ليه بقى.. مين اللي فوقنا حياخد الميه؟.. المخروبة أرض الباشا اللي اشتراها جديد وما تسواش كلب ياكلها.. يا سلام يا سلام؟!.. يا سلام كده على الحكومة.. وحياة النبي الميه ما هي منحاشة منا أبدا.. تقفلوا الترعة وتبطلوا السواقي والنبي لتجري دماها قبل مياها.. وسع يا جدع..

وضرب عبد الهادي الأرض بعصاه واقتحم الطريق وتحرك الأفندي وزميله، وعبد الهادي يمشي مسرعا إلى القرية وعصاه تشق صمت الظلام وهو يزعق:

ـ سلامات يا حكومة.. هيه دي بقى أوامر الحكومة.. سلامات سلامات.. طب وأيمان النبي لأدَوَّرها بعد بكره.. من بكره.. هه.. خلي حد ييجي يكسرها بقى وأنا أكسر رقبته وأدفسها في الطين.

وكان الرجلان قد ركبا.. وانطلقا على الجسر في الطريق إلى المدينة عاصمة الإقليم..

وتحرك الغاب الطويل على حافة النهر وبرزت منه فتاة تلبس السواد.. وقالت لنفسها بهمس:

ـ رجلي اتهرت من جدور الغاب.. قطيعة يأهل البندر.. مشوار إيه الأغبر دا اللي كانت بعتاني فيه وصيفة لحتة ولد ما يحصلش طول رجلها؟.. هوه علشان ما بيتعلم في مصر وفي البندر.. طب ودا ينفع في إيه؟.. آه لو كانت هيه اللي طلعت الليلة دي كمان زي ما طلعت ليلة إمبارح، وشفوها رجالة البندر دول!..

ولم يشعر بها علواني.. فقد كان ما يزال ينظر في ظهر الرجلين، وحين اطمأن إلى أنهما ابتعدا تماما.. بصق على الأرض قائلا:

ـ هيه خلاص الحكومة ما عندهاش شغلانه غير بلدنا؟!.. مرة ترفد ومرة تحبس وجاية الآخر تحوش عنا الميه.. ياللا انجر منك له.. حكومة نجسة!..

وضحكت الفتاة .. وأحس بها علواني.. فالتفت إليها مدققا بينما خرجت هي تتقصع وتقلد لغة الرجلين بسخرية:

ـ دا!. كدا! أنا.. انتا! قطيعة يأهل البندر وأنتو لسانكو معووج كده زي الغوازي.. رجالة إيه دول يا أختي.. دول باين عليهم..

وقاطعها علواني:

ـ هس .. إيه اللي جابك دلوقتي يا خضرة؟ طب تعالي بقى.

ثم قال مغازلا:

ـ حاديكي بطيخة يا للي تنزغدي..تعالي..تعالي ياللي تنحشي..

وجرت إليه خضرة فرحة وهي تقول:

ـ جايالك يا شيخ العرب أهه..

وقفزت إلى حقله، وهي تتراقص وتهز ثدييها المترهلين، وتمسح وجهها الجاف المقدد.

ولكن خضرة وقفت مكانها متباطئة ثم قالت مترددة:

ـ بس اوعى يا خويا تعمل فيّ زي ما عملت في ستهم بنت شعبان ابن خالتي.. اوعى تضحك عليّ زي ماضحكت عليها..

فقال علواني:

ـ دهدي.. وما لها ستهم دلوقتي؟ مابيقولوا عليها بقت حاجة كبيرة في مصر.. وأنا كنت ضحكت عليها يا خضرة؟

ثم سكت قليلا قبل أن يقول:

ـ وحياة النبي كنت حاسرق لها كيلة الدرة لكن ما ملكتش .. تعالي.. تعالي يا مقصوفة الرقبة.. غيط البطيخ كله قدامك اختاري اللي يعجبك.

وسكت علواني قليلا وأخذ يتحسس بقدمه الحافية الحجارة التي تغطي البندقية وأدار رأسه إلى حيث كان عبد الهادي يسير قائلا:

ـ والله من يوم شعبان ما مشي والواحد ما عارف يسلك ماسورة البندقية.

والتفتت خضرة إليه ورمت ببصرها إلى حيث كان عبد الهادي يمضي وقالت بزهو:

ـ يا سلام عليك يا عبد الهادي.. راجل بالدنيا..

فقال علواني بزهو:

ـ أيوه.. دكر صحيح.. يضرب بلد لوحده..

ثم شد يد خضرة وجلس وأجلسها بجانبه وهو يقول ضاحكا:

ـ الأكادة أنتي حلوة.. زي الحلاوة الطحينية ياللي تتزغدي في قلبك.. وشد الحرام عليها، فقالت خضرة وهي تضربه على صدره بكفيها:

ـ هات البطيخة الأول..

ولكزها علواني وهو يقول:

ـ لو كنا نصبح نلاقي الغيط دا كله بتاعنا!

وضحكت خضرة قائلة:

ياريت.. آه..

وشدت الحرام.. بينما كان عبد الهادي يدخل القرية راسخ الخطوات، الثورة يغلي بها دمه، وعصاه تحرك صمت الظلمات.

- ٥ -

عندما عاد عبد الهادي إلى داره في تلك الليلة لم يفكر في وصيفة بعد ـ فقد شغله حديث الري ـ ورجال الهندسة وما يصنعون وأمر الحكومة.

وأخذ يلف السجائر ويشعل سيجارة من سيجارة حتى فرغت علبة الدخان.

كان يفكر في الساقية والترعة ودورة المياه التي نقصت إلى النصف ويحاول تدبير أمر الذرة الصغيرة الغضة التي بدأت تظهر وتكسو الأرض بالخضرة الحلوة التي أحبها عبد الهادي دائما وتمرغ في طراوتها منذ كان طفلا.. إنها أول ذرة خضراء تظهر في صفرة الشراقي الواسعة من حوض الجسر.

أتراها تذبل وتموت لمجرد أن الحكومة أرادت هذا؟..

أيترك عبد الهادي ذرته المبكرة لتحكمات رجال هندسة وهو الفلاح الشاطر الذي لم تخب منه زرعة من قبل؟..

وصمم عبد الهادي على أن يحافظ على زرعه مهما كلفه الأمر.. لن يترك الذرة تموت.. سيدير الساقية بعد عصر الغد ليشرب زرعه ويروي على مهل..

وعندما أشرقت الشمس على القرية وبدأت البهائم تزحم الدروب في طريقها إلى الحقول كانت النساء الذاهبات إلى النهر يتحدثن عن كل ما جرى بين عبد الهادي ورجال الري.

وأخذ رجال القرية يقولون الحكاية بعضهم لبعض وهم يسوقون الحمير والمواشي.

فعلواني قد ملأ القرية بالقصة.. وروتها خضرة أيضا من دون أن تقول لأحد لماذا كانت على الجسر في الليل.

ومحمد أبو سويلم هو الآخر كان يحكي ما حدث له لكل من قابله.. إذ فاجأه رجال الهندسة في حوض الترعة وأمروه أن يسد الترعة، وعندما اعترض هددوه بعقاب شديد ولمحوا بأن المركز كله يعرف أنه رجل مشاغب.. ضد الحكومة..

وسد محمد أبو سويلم الترعة بالفعل ليقصر الشر.. وترك بقية أرضه الشراقي عطشى تتحرق إلى الماء..

ولكن محمد أبو سويلم عزم على ري الأرض..

وخرج محمد أبو سويلم بالفعل إلى حوض الترعة قبل أن تلتهب شمس الضحى وفتح السد.

وصنع مثله رجال آخرون.

وخرج عبد الهادي إلى الساقية فأدارها..ومضى يخوض في حقله بأقدامه العارية ويهوي على الأرض بفأسه ليفسح الطريق أمام الماء، وترك على الساقية ولدا صغيرا استأجره بقرش ليدور وراء البقرة المغماة

ويدفعها بيده أو بالنداء كلما توقفت من الإعياء.

وظل عبد الهادي في حقله إلى ما بعد العصر ومر رجال الري ورأوا ساقية عبد الهادي تدور فعطلوها وكتبوا اسمه في ورقة معهم كما كتبوا اسم محمد أبو سويلم من قبل.. وجرى الولد الصغير الذي كان يحرس الساقية باكيا مرتعشا من الخوف.. جرى إلى القرية يقول: إن الحكومة كسرت كل السواقي على الجسر.

وكان محمد أبو سويلم قد عاد إلى داره من الضحى وشاع في القرية أن رجال الري كتبوا اسمه في ورقة.

والقرية تعرف بتجربتها أن الحكومة حين تكتب اسم رجل في ورقها.. فهو رجل لا سلامة له أبدا..

وذهب رجال من القرية إلى عم محمد أبو سويلم يسألونه ويخففون عنه..

وكانت ابنته وصيفة في وسط الدار تجلس أمام الرحى.. وتديرها على حبات من الذرة. وقامت وصيفة ورفعت الرحى على رأسها ثم دخلت بها إلى القاعة وعادت تختلط بالناس.. وماجت دار محمد أبو سويلم بالذين يسألونه عما حدث له مع رجال الحكومة.

وازدحم وسط الدار بالنساء والفتيات وجلس الرجال على المصطبة خارج الدار.

وأمام المصطبة ثنى بعض الرجال ركبهم وجلسوا مستندين على سيقانهم.

ووقف الأولاد يزاحمون النساء والرجال، ويدسون رءوسهم كلما انتظم حديث.. وكان بعض الرجال ينهر الأولاد ويبعدهم لبعض الوقت ولكنهم يعودون ليتمسحوا كالقطط ويصغوا لما يقال بذهول ووجل..

وسأل أحد الفتيان عمه محمد أبو سويلم عن هؤلاء الرجال الذين كتبوا اسمه في ورقة: أجاءوا يطالبونه مرة أخرى بأن يرسل أسماء الأموات لتوضع أصواتهم في انتخابات جديدة يجريها حزب الشعب؟

ولم يبادر محمد أبو سويلم بالرد عليه.. بل أسرع الشيخ يوسف بقال القرية فقطب حاجبيه وصاح فيه:

ـ جاتك داهية في زناخة عقلك .. إحنا في إيه.. وأنت في إيه.. أنت يا واد أنت ابن مين؟..

ـ ابن أخت شعبان..

ـ ولدٌ لخاله.. جاتكو شوطة.. مرحتش معاه ليه مطرح ما راح؟.. هي البلد دي مش حاتخلص من البلاوي.. اشمعنى بتفهم قوي في الحساب.. ناكفتني ساعتين في طلعة النهار على سعر ورقة الدخان.. أقول له بخمسة كيزان درة يقول لي: لا بتلاتة.. طب بأربعة.. يقول لي: بتلاتة.. بقى دي بلد؟.. تقول على بتوع الهندزة إنهم بتوع الانتخابات؟.. لا.. جايين ياخدوا المال بدل الصراف.. هه.. انبسطت.

وتدخل محمد أبو سويلم وبدأ يشرح بصوت هادئ فارقته الرعشة التي سيطرت عليه عندما عاد من الترعة.

وأحس شيخ الخفراء السابق بلون من الامتياز الفائق الذي مارسه طويلا عندما أخذ يؤكد للذين من حوله أن رجال هندسة الري يقبلون من أجل الماء لا من أجل الانتخابات أو المال.

على أن حكومة حزب الشعب التي أرسلت رجالا يغصبون الفلاحين على انتخاب رجالها.. هي نفسها التي تحرم أرض الفلاحين من الماء وترسل مستخدمين من أقارب الفلاحين لينفذوا أوامرها على الرقاب.

وتهامس بعض الفتيان أن محمد أبو سويلم سيلقى الليلة في السجن ما داموا قد كتبوا اسمه في أوراق الحكومة.

واختلطت غمغمة الناس لبعض الوقت..

كانوا يجلسون من أول الضحى.. منذ عاد محمد أبو سويلم من حوض الترعة ولم يقم منهم واحد إلى بيته ليأكل.. ولم يأكل محمد أبو سويلم نفسه.. وكان المغرب قد أوشك أن يهبط على القرية.. وهم ما زالوا يتحدثون ويفكرون في طريقة ومحمد أبو سويلم يحنق ويهدأ ويتحدث ويسكت وهو دائما يخبط كفا على كف ليقول في حيرة وغيظ:

ـ ياخدوا منا نص دور الميه.. ياخذوا منا خمسة أيام بزيهم.. ليه.. ونروي الأرض إزاي؟..

وأقبل عبد الهادي مندفعا قبل أن يهبط المغرب.. كان حافيا قد ترك مداسه وجلبابه عند الساقية وجاء بقميصه، وقدماه مثقلتان بطين الحقل.

وسلم عبد الهادي وقام له أحد القاعدين فجلس مكانه على المصطبة أمام الدار.. وما زال وسط الدار يعج بالنساء.

وتهامست النساء باسم عبد الهادي، وارتفع صوت خضرة تعيد رواية ماجرى بين عبد الهادي ورجال الري..

كانت خضرة تروي وهي تتقصع وتقلد لهجة الأفندي.

والتفت محمد أبو سويلم إلى عبد الهادي وقال:

ـ قل لي بقى يا عبد الهادي.. إيه الخبر وإيه السيرة.. طب والميه اللي حاياخدوها كلها حايهببوا بيها إيه.. حا يدردعوها في بطنهم؟ الميه دي رايحة لمين قول لي؟! يا نهار أغبر ياولاد.. خدوا منا مشيخة الغفر وسكتنا لهم.. ورموا لنا الشيخ حسونة في آخر الدنيا وسكتنا لهم.. وحجزوا على نص البلد وسكتنا لهم.. الله.. ويموتوا لنا الأرض من العطش كمان؟!.. هو إحنا خلاص كده بقينا هفية.. هي البلد خلاص كده بقت كلها حريم.. مفيش رجاله؟!

سكت عبد الهادي وعضلات وجهه تهتز في توتر.. وعيناه تومضان بالشر.. ودعك صدره العاري المكسو بالشعر الكثيف الأسود المترب.. وترددت الأنفاس قوية في خياشيمه.

وهمس أحد الأولاد لجاره:

ـ شوف شعرة الأسد اللي في صدر عبد الهادي.. بيدعك الشعرة اللي من الأسد..

وأجابه زميله همسا:

ـ دا شراني خالص.. بص له بص كده! يا نهار أسوح.. دا العفاريت بتنط قدامه.. دا بعون الله يابني يضرب الهندزة كلها.. يسوقهم بالعصا.

وضج الولد الأول بصوت مرتفع:

ـ يا ولد!..

فالتقط أحد الرجال الجالسين عصا صغيرة وهش بها على الأولاد وهو يصرخ فيهم:

ـ روح يا واد عند أمك.. روح أنت وهوه..

وارتفع صوت الشيخ الشناوي طالبا من الجالسين أن يصلوا به على النبي.. بينما كانت وصيفة في الداخل بقامتها المديدة.. ترفع رأسها في تطلع.. وتختلس نظرات إلى الرجال الجالسين.

ولم تستطع أن ترى أحدا..

كانت ظهورهم جميعا إلى الحائط بحذاء الباب.. ولم يكن تجاه الباب غير أولاد يتسللون إلى الرجال بعد أن أبعدوا..

وترددت على الأفواه همسات الصلاة على النبي..

وأمسك الشيخ الشناوي سبحته.. ورفع يديه بالمسبحة.. وقربها من عينيه وطلب من الموجودين أن يقرءوا «عدية يس» على من قصر مواعيد الري وأن ينتقم الله منه بحق جاه النبي!

فانفجر عبد الهادي يعارض الفكرة ويطلب من سيدنا أن يفكر في غير هذا.. أو فليسكت هو.. ويترك أصحاب الشأن يفكرون..

فاحتقن وجه الشيخ الشناوي وصاح فيه:

ـ يه.. يه.. أنت حاتخوض يا عبد الهادي؟!.. أنا عارفك ضلالي ومبتركعهاش.. طب.. قوم بنا قوم.. قوم بنا دا المغرب قرب يوجب.. قوم بنا عا الجامع.

فقال عبد الهادي:

ـ صلاة المغرب قاعدة يا سيدنا.. ما تخلينا بس نشوف تصريف للمصيبة اللي حطت علينا دي.. وهي صلاة المغرب حاتروح فين؟.. لازم يعني نصليها حاضر في الجامع دلوقت؟

ونهض الشيخ الشناوي مغضبا وهو يتمتم:

ـ روح الله يلعنك.. ما أكفرك!..

ثم استدار إلى الرجال الجالسين:

ـ قوم فز يا واد أنت وهوّه.. صلوا لكم ركعة.. إياك ربنا يبارك في رزقكم..

وقام بعض الفتيان الذين يعملون في الحقول بأجر.. وكانوا في هذا الموسم من كل عام لا يجدون عملا منتظما.. فقد انتهى حصاد القمح وما زال القطن صغيرا في الحقول.

وهمس أحدهم في أذن زميله وهو ينهض:

ـ قوم يا خويه قوم.. اخبط لك ركعتين.. يمكن نلاقي شغلة.. يمكن ربنا يطلع القطن بدري ويجري فيه الدودة.. خلينا نهيص..

ونهض كل الجالسين على الأرض أمام المصطبة.. وبعض القاعدين على المصطبة.

وصاح أحد الرجال ـ وهو ينصرف ـ في النساء:

ـ ياللا روحوا بقى يا نسوان..

وبقي محمد أبو سويلم جالسا وإلى جواره الشيخ يوسف وعبد الهادي ومحمد أفندي الذي ظل طوال الوقت صامتا يفكر في طريقة.

وتفرق النساء.. ولم يعد في وسط الدار إلا وصيفة وأمها..

وأمام الطاحونة التي كانت تقابل بيت محمد أبو سويلم جلست فتيات صغيرات يغنين ويرقصن.

وشرد عبد الهادي قليلا.. لقد كانت وصيفة هي الأخرى تغني وترقص في هذا المكان بالذات.. ومن قبلها كان جيل آخر يصنع الشيء نفسه.. كانت هناك أختها الكبيرة التي تزوجت في عاصمة الإقليم.. وسيأتي من بعد وصيفة جيل جديد يغني نفس الأغاني الجميلة الحزينة.. ويرقص بنفس الحركات السريعة.. ويدفع الدقات على طشت صغير مقلوب.

وحاول الشيخ يوسف أن يتكلم ولكن ضجة الصغيرات غمرت صوته فزعق في البنات:

ـ هو أنا سايب الدكان عشان أسمع غناكم يا غجر.. فزي منك لها.. هيه البلد دي يا خويه بقت بلد غوازي ولا إيه؟..

وتحرك الشيخ يوسف إلى ناحية الفتيات فقامت فتاة صغيرة وحملت الطشت وجرت.. وأسرع وراءها الأخريات..

وقام عبد الهادي طالبا قلة ليشرب..

وفي وسط الدار رأى وصيفة فقال لها بصوت مرتفع:

ـ اسقينا.. عندكوش قلة ساقعة..

وانخفض صوته وهو يقول مداعبا:

فايت على حيِّكم عطشان سقيتوني

يا قلة الشوم.. وأنا الخالي شبكتوني

وضحكت وصيفة في حذر.. فسألها هامسا.. لماذا صعدت إلى جسر البحر منذ ليلة.. فاضطربت وصيفة وأنكرت..

ولكنه عاد يسأل هامسا.. عن سر وجودها على البحر ليلة مجيء رجال الري لأول مرة.

فتنهدت بارتياح.. وقالت بإهمال وأمن: إن التي كانت على الجسر في تلك الليلة هي خضرة..

ثم ذهبت لتحضر القلة.. وعندما ناولتها له قالت بشجاعة ولم تعد تبالي:

ـ أنت حاتقعد تتهمني في كلام فارغ؟!.. اسمع يا عبد الهادي.. لما أقولك.. بقى أنت لا أنت جوزي.. ولا أنت أبويا.. ما لك وما لي بقه!..

وتضايق عبد الهادي من ارتفاع صوتها.. وعاد إلى الهمس:

ـ الله.. بس.. حد يسمعك.. هو أنت برضه مش تهميني ياللي تنحشي في رقبتك.. يعني لو كنت طلعت البحر بالليل وحد من بتوع الهندزة اتعرض لك ـ يعني كده واللا كده ـ مش برضه في وشنا كلنا؟..

واهتزت وصيفة وشعرت بالندم لأنها أغلظت القول لعبد الهادي.

وفي القرية يتحدثون في خشونة على الدوام.. وبصوت مرتفع.. حتى عندما تحتدم منهم العواطف.. وهم يستعملون دائما كلمات قاسية فلم يتح لهم أبدا أن يعرفوا لين الحياة الذي ينسكب لينا في الطبع والمعاملة.. لم يتح لهم أن يكونوا رقاقا.. عذابا!.

ورفعت وصيفة يديها لتضرب بها صدر عبد الهادي.. كاعتذار.. ولكن صوت محمد أبو سويلم ارتفع من الخارج:

ـ دهدى يا عبد الهادي.. أنت رحت فين؟..

فأجابه عبد الهادي باستنكار وخشونة:

ـ يعني ما أشربش؟.. الله يابا محمد؟..

فقال أبو سويلم بضيق:

ـ ودا كله شرب يا جدع!.. دا شيء كان يسقي غيط بحاله.

ورفع عبد الهادي القلة عن الأرض وأفرغ منها بين شفتيه ثم عاد يجلس إلى المصطبة.. وهو يمسح فمه.. ويزوم في رضا.. واستقبله محمد أفندي بنظرة استنكار.. وهز رأسه وضرب الهواء بالمنشة الخوص وقال:

ـ عطلتنا يا جدع..

وصاح عبد الهادي بضيق:

ـ عطلتكوا.. عطلتكوا عن إيه؟.. عن قطر سكة الحديد؟ بقى من ساعة أنا ما جيت وأنت قاعد ساكت.. أول ما تنطق تقول عطلتنا.. عطلتكوا عن إيه بس؟.. هو مفيش تصريف عند حد غيري.. ما

بتشوفش أنت تصريفة ليه يا محمد أفندي.. ياللي معاك شهادة..

فقال محمد أفندي متحديا بعدم اكتراث:

ـ هو أنت اللي حاتصرف لنا أمورنا؟.. هو أنت عندك تصريف؟!.. أنت تعرف تتصرف؟ دا أنت سيئ التصرف..

فتلفت عبد الهادي حوله وقال مصطنعا الحِلْم:

ـ لا إله إلا الله.. جرى إيه يا واد يا محمد أفندي!..

فوقف محمد أفندي مضطربا.. وأمسك المنشة تحت إبطه.. ولوح بذراعيه قائلا:

ـ واد؟! بتقولي يا واد؟.. لا.. أنت اللي واد.. وواد.. وستين واد كمان.. هه..

ووضع عبد الهادي يده على ركبته في غيظ ولكنه وقف فجأة وتقدم إلى محمد أفندي الذي كان يقف متأهبا مرتعدا من الحنق والمنشة الخوص تحت أبطه.. ووقف بينهما الشيخ يوسف بجسده.. وتحرك محمد أبو سويلم قليلا في محله وصاح:

ـ اقعد بقى أنت وهوّه.. إحنا في إيه وأنتو في إيه.. إيه كلام العيال ده؟..

ودفع الشيخ يوسف يده في صدر كل من عبد الهادي ومحمد أفندي وهو يقول:

ـ الله.. الله.. اضربوا بعض اضربوا.. حاكم البلد فالحة قوي.. اضربوا بعض وبلاش نتكلم..

وصاح محمد أبو سويلم بضيق واستصغار:

ـ خلصونا بقى.. اقعد يا عبد الهادي.. اقعد يا محمد أفندي.. واهدأ..

وكمل الشيخ يوسف وهو يجلس محمد أفندي:

ـ يا سيدي ما كل مولود ولد.. أنت ولد وعبد الهادي ولد.. وأنا ولد.. وكل مولود ولد.. يا سيدي حقك عليّ يا سيدنا أنت وهوه.. يا أخويا اقعد بقى..

وجلس عبد الهادي.. وانشغل بلف سيجارة بينما كان محمد أفندي يقول وهو يهز المنشة:

ـ أي نعم.. لكن ما يقولش يا ولد.. محدش يقول لي يا ولد..

وأشعل عبد الهادي سيجارته.. وتفل قطعة صغيرة من التبغ وهو يقول بصوت هادئ كاظما غيظه:

ـ طيب حقك عليّ يا محمد أفندي.. حقك عليّ.. ما تطولش في الكلام بقى..

وتمتم محمد أبو سويلم:

ـ بس بقى يا عبد الهادي.. العقل زينة.. أدي أنت انحقيت وخلصت.. بس يا محمد أفندي..

وعاد الشيخ الشناوي من صلاة المغرب.. وراءه بعض الرجال.. واتخذوا مكانهم على المصطبة..

وبدأت الأصوات تختلط وهم يبحثون عن طريقة.. يدفعون بها قضاء الحكومة النازل بهم على غير ميعاد..

واقترح أحد الرجال أن يذهبوا إلى العمدة.. فضج الشيخ يوسف:

ـ دا وحي الجامع.. هبط عليك الوحي بكده في الجامع.. الله يخيب مقامك يا شيخ.. عمدة إيه يا راجل؟!.. وحياة النبي دا ما يركب ذمتي بكوز دره.. عمدة.. عمدة قال.. بعد اللي عملوا فينا؟! بقى دي بلد؟!

وقاطعه محمد أبو سويلم قائلا:

ـ العمدة!.. ما هي كل المصايب جاية من تحت رأس النيلة.

وتأذى كثير من الجالسين.. وأدهشهم أن يتحدث الشيخ يوسف ومحمد أبو سويلم عن العمدة بهذا الأسلوب. وهز الشيخ الشناوي رأسه مستنكرا هذه اللهجة.. ولكنه لم يعترض صراحة.

وقال عبد الهادي يقطع الهمهمة:

ـ إحنا مش اللي بيتكلموا على عمدة.. عمدة إيه؟..

وكان علواني قد أقبل يسأل عن الشيخ يوسف ومال على أذنه.. صاح فيه الشيخ يوسف:

ـ الدكانة مقفولة دلوقتي.. استنى بعد صلاة العشا.. ساعتها أشوف رأي وياك.. هو أنت ما بتلحقش تلهف الشاي والسكر..

وجلس علواني على قدميه دون أن يمس جسده الأرض.. في مواجهة المصطبة وأرخى يديه على ركبتيه إلى جوار أنفار جلسوا مثله..

وقال متمتما بسخط:

ـ النفر منا ما فيهشي إلا لسان!.. ما فيش قلب ولا رحمة ولا حنية؟!.. يعني ما فيش رحمة؟!

وعاد محمد أبو سويلم يؤكد للناس أنه لن يستشير العمدة ولن يشركه مع رجال القرية.. في أمر يهم القرية.. فهذا العمدة يعرف أن الحكومة أمرت بإنقاص مواعيد الري من عشرة أيام إلى خمسة.. ولكنه لم يقل لأحد في القرية.. ولم يطلق خادم الجامع بطبلة.. لينبه القرية.. كما تعود في مثل هذه الحالات.. ولم يخطر حتى الشيخ الشناوي.. وكل هذا لكي تفاجأ القرية ـ وهي تخالف أوامر الحكومة ـ فيحكم على رجال فيها بالغرامة.. رجال يعنيهم هو..

وأكمل الشيخ يوسف قائلا:

ـ إن هذا العمدة هو الذي ساعد الحكومة في الانتخابات بعد أن قاطعتها الدنيا كلها.. وكان يكتب بنفسه الأسماء كما يريد، وخدع بعض الرجال وقال لهم بثقة: إن دستور حكومة الشعب سيجلب معه البركات.. فإذا بالدستور الجديد يحرم القرية من البقالة المفتخرة.. ويجعل أهلها يرهنون الأرض من

الفقر، ويسمح للحكومة بأن تضع يدها على أرض الفلاحين باسم الحجز من أجل الضرائب المتأخرة.. وأخيرا.. إذا بهذا الدستور يحرم القرية من ماء الري..

وتدخل علواني متملقا.. وصاح:

ـ يا سلام على كلامك اللي كله حكم يابا الشيخ يوسف!..

وقطب الشيخ يوسف محاولا أن يخفي اغتباطه وهمهم:

ـ أم..

وساد الصمت..

وبعد قليل وضع محمد أفندي المنشة على حجره.. ورفع راحته قائلا: إنه وجد الفكرة الصائبة..

وتنحنح قليلا وبصق على الأرض.. وهوت بصقته إلى جوار قدم أحد الفلاحين ثم أخرج منديلا أبيض حال لونه في الزهرة الثقيلة.. ومسح فمه.. وهز رأسه..

واقترح محمد أفندي أن يكتب عريضة إلى وزير الأشغال وقال: إن محمود بك يستطيع أن يحملها إليه فهو من معارفه.. وربما استطاع أن يقابل بها رئيس الحكومة إسماعيل صدقي نفسه..

واعترض محمد أبو سويلم على كتابة عريضة إلى الحكومة.. وقال: إن التجربة علمته أن الحكومة تخاف ولا تختشي..

فحاول محمد أفندي أن يشرح فكرته من العريضة ولكن محمد أبو سويلم صاح مقاطعا:

ـ خلي الحكومة تقول يا جدع.. خليهم يقولوا.. مش نقصوا مواعيد الري.. حاضر.. خليهم يقولوا بس.. واللي في القلب في القلب.. خليهم يتكلموا على كيفهم واحنا نروي على كيفنا..

ورد محمد أفندي أنه لا مانع أن تروي القرية كما تشاء دون أن تحفل بكلام الحكومة.. ولكن كتابة عريضة بلهجة شديدة أمر مفيد جدا إنه يهز الحكومة.. وربما عدلت عن رأيها الجديد في مواعيد الري..

واهتزت الرءوس لهذه الفكرة.. وأبدى عبد الهادي طربه الشديد.. وقال لمحمد أفندي متحمسا كأنه يسترضيه.. وقد فاضت نفسه بالراحة والحماسه:

ـ قوم يا محمد أفندي اكتبها على طول.. قوم اكتبها وهاتها لنا نختم ونبصم عليها.. كده التصاريف ولا لأ يا جدع.. وحط فيها كلمتين من اللي بتقولوهم لبعض يا خوجات المدرسة.. قول فيها.. لا سيما.. وعندما.. وقبلما.. هه.. وحط فيها حاجات من اللي قريتها لنا مرة في جريدة الجهاد..

ولكن علواني وقف معترضا:

ـ طب وعم الشيخ يوسف ما له؟ ما هو عارف الكلام اللي يعجبك ده يا عبد الهادي وعارف أكتر منه كمان.. ما يكتبها.. اكتبها أنت يا عم الشيخ.. ونلم لك من داير الناحية قيمة ريال ولا تلات برايز.. أتعاب كتابة العريضة..

وابتسم عبد الهادي قائلا لعلواني ضاحكا.. وقد فهم نوع الرشوة التي يريد تقديمها للشيخ يوسف:

ـ يا شيخ العرب.. يا جدع.. اطلع مالدرة، وخد لك قرقرة.. الشيخ يوسف مستغني.. بس حل عنه أنت.. أهو محمد أفندي حا يكتبها خدمة للبلد.

ولكن محمد أبو سويلم قال بهدوء:

ـ والشيخ الشناوي ما يكتبهاش ليه؟.. يحط لنا فيها آيتين نستبرك بيهم.. يمكن يجيبوا داغ الحكومة..

فاعترض عبد الهادي مازحا بعبث:

ـ يه.. سيدنا دا بقى حيحط لنا فيها النار والحساب والعقاب.. تعند الحكومة وتحوش الميه كمان وكمان.. وتقول طب خلي الملايكة بتوع سيدنا تنزل لهم الميه من السما.

واضطرب الشيخ الشناوي واهتز كرشه وصدغاه.. ورفع عصاه الغليظة القصيرة.. وانهال على عبد الهادي يشتمه ويتهدده بعذاب أليم.

وكان عبد الهادي وكل شباب القرية.. قد تعودوا أن يتلقوا على رءوسهم مبتسمين كل شتائم الشيخ ووعيده في بعض الأحايين.

ووقف الشيخ الشناوي ومحمد أبو سويلم يجذبه.. وعبد الهادي يضحك خلسة.. واستمر الشيخ يقول:

ـ وبتضحك كمان.. يا ضلالي.. يا قليل الدين.. يا منجوس.. بتتمسخر على الملايكة.. بقى لا بتصلي.. ولا حتى تلم لسانك عن الملكوت الأعلى.. دا أنت حتى بطلت الجمعة.. دانا بقالي تلات جمع ما شفتكش في الصلاة..

فقال عبد الهادي وهو ما يزال يضحك:

ـ ندرن عليّ يا سيدنا والندر أمانة إن العريظة دي لو فلحت ورجعوا لنا الميه تاني زي ما كانت لأعمل مولد لأهل الله يا شيخ.. مبسوط بقي.. والله لاقلب له فيه جِدْي.. مش بتحب لحمة اللبلوب.. خلي أهل الله ياكلوا وينبسطوا.. وأنت كمان تأكل وتنبسط..

وهدأ الشيخ قليلا وبدأت الابتسامة تتسلل إلى وجهه المليء الأشيب.. فقال وهو يقعد:

ـ الله يجازيك يا شيخ.. طب اقلب لنا خروف..

ـ خروف! هه.. زي بعضه.. بس يرجعوا لنا الميه زي ما كانت..

ـ طب الفاتحة على كده يا عبد الهادي قدام الرجالة..

وقرأ عبد الهادي الفاتحة بين راحتيه.. وعندما انتهى منها مسح وجهه براحتيه تماما كما فعل سيدنا.. والآخرون..

قال محمد أفندي بهدوء:

ـ خلاص بقى حا أكتب أنا العريظة.. حا أكتبها مقنعة.. تجمع الرجاء الهادئ والاستنكار الصارخ.. حا أكتبها بأسلوب المنفلوطي..

وبهت الناس وهم يسمعونه.. كلهم حتى عبد الهادي. وتهامسوا عن هذا المنفلوطي، وهذا الأسلوب من يكون؟! وماذا يكون؟..

ومحمد أفندي رجل هادئ الصوت.. قصير.. نحيل.. رقيق الجسم.. طويل الرقبة.. يحلق ذقنه بانتظام، ونصف شاربه بطريقة لا يفعلها أحد غيره في القرية..

وهو يقرأ الصحف أحيانا.. ويقرأ لرجال القرية بعض المقالات التي تعجبه بصوته الهادئ العميق.

له جلباب نظيف على الدوام، مخطط، واضح الخطوط، وشبشبه الأصفر فاقع اللون.. والطاقية المربعة البيضاء على رأسه تميل عن منبت شعره الطويل المنسق: هو الشعر الطويل الوحيد المنسق بين رجال القرية..

وكان محمد أفندي يملأ وجهه بالعطر.. ويهتم باختيار أنواعه الفاقعة من عاصمة الإقليم.. ويضع في جيبه زجاجة صغيرة محكمة الإغلاق نفاذة الرائحة..

وأخذ محمد أفندي يتأمل وقع الكلمات التي قالها في الوجوه المحملقة المتعجبة..

ثم تساءل إن كان يبدأ الآن بكتابة العريضة.. فوافق الجميع.. وقام محمد أفندي إلى بيته ليحضر الورق..

وقال عبد الهادي:

ـ قوم بقى يا شيخ يوسف هات لنا الريشة والدواية..

وعندما عاد محمد أفندي والشيخ يوسف بأدوات الكتابة.. كان محمد أبو سويلم قد انتقل إلى داخل الدار.. وأمسك بنفسه اللمبة رقم عشرة.. التي لا يوقدها إلا في المناسبات الكبرى..

وقف محمد أبو سويلم باللمبة على رأس محمد أفندي الذي كان يجلس وحده على دكة خشبية فرشت بحصير مزركش.. وبقية الرجال يقفون أمامه.. وهو يقرأ كل كلمة يكتبها.. وقد أسند الورقة إلى ركبته والمحبرة بيد أحد الرجال الواقفين أمامه..

وعندما انتهت العريضة قرأها محمد أفندي كلها كلمة بعد كلمة.. وتوقف مزهوا وهو ينطق بعض الكلمات.. ونظر طويلا في وجوه سامعيه..وشرح الكلمات التي اعترض عليها بعض الرجال الواقفين.

ولقد طلب الشيخ الشناوي من الناس الذين لا يفهمون أن يسكتوا.. وسكتوا حتى انتهى محمد أفندي من قراءة العريضة كلها..

ثم قام الشيخ الشناوي وخرج من الدار، وأخذ حفنة من تراب الأرض.. ووضعها على العريضة.. التي مددها محمد أفندي على ركبته بحرص..

وعندما تشبع المداد بالتراب.. وجف.. قال محمد أفندي:

ـ خلاص يا رجاله..

فقال محمد أبو سويلم بظفر:

ـ خلاص العريظة يا جدعان..

وأمسك محمد أفندي بها.. وبدأ الشيخ يوسف يوقع في بطء واحترام، واستعاذ الشيخ الشناوي من الشيطان، ودعا بالبركة.. ومال على ركبة محمد أفندي ووقع على العريضة وهو يكرر الدعاء.

وأخرج الشيخ يوسف من جيبه علبة بها حبر جاف وفتحها بعناية.. وطلب من الموجودين أن يحضروا أختامهم وأصابعهم.. وأخذ هو بنفسه يمسك كل أصبع أو خاتم ويضعه على العريضة في صرامة.. وسط الضجيج الضاحك..

وعندما انتهى الناس من توقيع العريضة وبصمها طلب الشيخ الشناوي منهم أن يقرءوا الفاتحة للبركة فقرءوها..

وأمسك محمد أفندي العريضة وطواها في عناية.. ثم غلفها بورقة أخرى.. وهمَّ بالانصراف وهو يقول: إنه سيذهب بها إلى محمود بك في الصباح الباكر.. ولكن يجب أولا أن يحدث العمدة فربما ذهب معه..

واعترض محمد أبو سويلم طويلا وناقشه الشيخ الشناوي وبعض الرجال واختلطت أصواتهم وصمم محمد أفندي على أن يذهب إلى العمدة بالعريضة ويعرضها عليه.. وأخيرا سكت محمد أبو سويلم مذعنا.

وتحرك محمد أفندي إلى الباب بالعريضة.. وكانت خضرة تقف مع وصيفة ونساء قليلات فزغدت خضرة وبدأت تغني:

مين يعاندنا واحنا السبوعة

وسيوفنا ذهب واحنا السبوعة

وصاح محمد أبو سويلم فيها ينهرها فسكتت.. وسط تفاؤل الرجال بنجاح العريضة..

ومشى محمد أفندي إلى باب الدار وهو يقول بصوت مرتفع: إنه الآن ذاهب إلى العمدة وغدا من الفجر.. سيكون عند محمود بك..

فقال محمد أبو سويلم:

ـ بس إياك العمدة ما يعملش فيها ملعوب..

وسكت قليلا ثم أكمل:

ـ حاكم هوّه أبو الملاعيب..

فقال الشيخ يوسف:

ـ ملعوب؟ ما يمكنش.. ما يمكنش أبدا.. ودي تبقى بلد إيه دي بقي..

وبدأ الرجال يخرجون وراء محمد أفندي..

ولاحظت خضرة أن وصيفة تابعت محمد أفندي بنظرة إعجاب.. فهمست في أذنها بكلمات.. أضرمت في وجهها النار..

وخرج عبد الهادي فاضطربت وصيفة.. وألقى عليها التحية في نظرة سريعة مليئة..

وازداد اضطرابها..

وعادت خضرة تهمس في أذنها..

فغاض لون وصيفة وابتسمت..

كانت هذه هي أول مرة تشعر فيها وصيفة بشيء مجهول يزحف إلى قلبها، ويكاد يعصره..

وهمست لها خضرة وهي تحسس قلبها معاتبة:

ـ عبد الهادي..

فتنهدت وصيفة وسكتت، فقالت خضرة:

ـ يبقى سي محمد!.. يبقى محمد أفندي.. عبد الهادي والا محمد أفندي.. مش تقولي؟..

فانتبهت وصيفة على نفسها فجأة.. وتضرم وجهها.. ونهرت خضرة بعنف.. وارتعش بدنها ورأسها في حيرة وتلاحقت أنفاسها وكادت الدموع تخنقها.

- ٦ -

مر أسبوع كامل على كتابة العريضة، والقرية تنتظر.. وبعد صلاة الجمعة، رفع الشيخ الشناوي من على أرض المسجد كتابه العتيق الأصفر الذي يقرأ منه كل جمعة خطبة، ودسه في جيبه.. وقف في مكانه من المسجد عند القبلة وطلب من الناس أن ينتظروا..

وسار في خطوات بطيئة.. وهو يمسح كرشه الضخم ولحيته الشيباء تهتز على وقع تمتمات التسبيح.. حتى بلغ الدكة التي يجلس عليها قارئ الجمعة في قلب المسجد.

ووقف الشيخ الشناوي على دكته بقامته المديدة وجلبابه النظيف الذي لا يلبسه إلا كل جمعة، وأمامه على الحصير الممزق المتآكل جلس الفلاحون: بعضهم يحك القدم بالأظافر والآخرون يمدون الرءوس متطلعين.

وقال الشيخ الشناوي: إن الله ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها..

وسكت الفلاحون.

إنهم منذ أيام ينتظرون هذا الماء بالتحديد.. ولم يحدث بعد شيء على الإطلاق يطفئ الأرض المسكينة من العطش: لا أمر من الحكومة، ولا معجزة من السماء.

واستمر الشيخ الشناوي يلوح بيديه ويتحدث عن حكمة الله وعن لعنته التي أنزلها على القرية لأنها تعصاه فلا تصلي.. كما أنزل لعنته على عاد وثمود.

وفي كل مقطع قبل أن يستريح كان يذكر الفلاحين بأن الله قادر على أن ينزل من السماء ماء فيحيي الأرض..

وتحرك أحد الفلاحين في ضجر وتساءل آخر في همس.. ماذا يعنيهم الآن من عاد وثمود.. إن كل ما يعني القرية هو الماء وما تصنعه حكومة حزب الشعب بالأرض.

وتململ رجل في آخر الجامع ووقف قائلا:

ـ ده كلام إيه ده يا سيدنا؟ بقى يعني هو ربنا حاينزل النطرة في الصيف علشان خاطرك؟ وهوه ربنا يعني كان هوه اللي حاش الميه؟ هوه خلاص مفيش حد فسدان غير بلدنا؟

وهاج سيدنا ومد يده في الفراغ.. كأنه يبحث عن عصاه.. ولم تكن معه عصاه بالطبع فأمر الجالسين بأن يخرجوا هذا الولد الكافر الذي ركبه إبليس فوجوده في الجامع نجاسة.. ولم يتحرك أحد من الفلاحين.. وقام الفلاح الشاب وحده وهو يكتم ضحكة قائلا:

ـ يا سيدي بركة يا جامع.. أنا كان حاينوبني إيه من الوعظ ده غير قطع الرزق دا أنا مستأجز من البيه قيمة ما أهف الركعتين وأرجع على طول..

وأسرع خارج الجامع وركض إلى عزبة محمود بك.

أما الشيخ الشناوي فقد اشتد حنقه وصاح:

ـ إياك تتهف بالمرزبة في جهنم وبئس المصير.

ثم تتابعت من فمه آيات العذاب والنار وأحاديث لا نهاية لها تصف الجحيم وحكايات عن فرعون وموسى.. كان يروي الأحاديث بلغة أهل القرية ولا يعنى أبدا بأن يقول الكلمات الصحيحة التي أوردتها كتب الأحاديث.. وكان مولعا بقصص موسى وفرعون وعاد وثمود يرويها كما لو أنها كانت قد وقعت في القرية تماما بنفس اللغة ونفس الإشارات.

وتململ عبد الهادي وهو يسمع. وانسحب في هدوء فازداد غضب الشيخ ولم يقل شيئا.. لم يكن عبد الهادي خالي البال ولم يكن لديه وقت للصلاة أكثر مما راح في المسجد.

وعندما التقى الشيخ الشناوي بعد صلاة العشاء على مصطبة محمد أبو سويلم ـ كما تعود ـ عاتبه سيدنا لأنه ترك الجامع قبل أن ينتهي الوعظ.. ولم يجبه عبد الهادي ولم يحاول استرضاءه.

وعاد سيدنا على المصطبة يكرر ما قاله في الجامع وما قاله على نفس المصطبة منذ أيام:

ـ إن اللعنة تحل على القرية لأنها لا تصلي وتعصي أوامر الله.

على أن عبد الهادي لم يحاول أن يناقشه.

لقد تعود أن يسمع نفس الحكايات والأحاديث في كل ليلة وهو صامت.

وعبد الهادي مشغول بمسألة الماء حقا.. ولكنه قد بدأ يشغل بشيء آخر جديد..! لاحظ أن خضرة التي تعيش في القرية بلا أرض ولا أمل ولا سمعة والتي تستطيع أن تقول أي كلام وتصنع أي شيء.. خضرة هذه الضائعة قد بدأت تتردد على منزل محمد أبو سويلم أكثر مما ينبغي وتهمس في أذن وصيفة وتطلق ضحكات يسمعها الرجال الجالسون على المصطبة..

وعبد الهادي يعرف أن محمد أفندي يستعمل خضرة أحيانا لتدبر له لقاء مع بعض الفتيات والنساء المخبآت.

وقد لاحظ عبد الهادي أيضا أن وصيفة تحرص على أن تحمل القهوة بنفسها إلى الرجال حين يكون محمد أفندي جالسا معهم، أما عندما لا يكون محمد أفندي موجودًا فهي ترسل خضرة بصينية القهوة.. أو تنقر على الصينية بفنجان فيقوم أبوها ويعود بالقهوة. ومع ذلك فعبد الهادي ليس فارغ القلب تماما ليراقب هذه الأشياء ويتابع ما يمكن أن يقع بين وصيفة وخضرة ومحمد أفندي.. إن مسألة الماء الذي قطعته الحكومة عن القرية تطارد فكره بالنهار وبالليل.

وكان عبد الهادي يسمع ما يقوله الشيخ الشناوي ويعجب.

من الحق أنه لم يحاول على الإطلاق أن يناقشه ولكنه كان يفكر دائمًا في كل ما يقوله سيدنا.

إن الشيخ الشناوي هذا يتحدث بلا انقطاع عن اللعنة التي حلت بالقرية لأن أهلها لا يصلون، والشيخ الشناوي أحيانا يتحدث في إجلال عن أمر الله الذي قضى بأن تحرم القرية من الماء خمسة أيام لينعم به الباشا قريب محمود بك جزاء وفاقا لأنه يؤتي الزكاة والقرية تمنع الزكاة..

ولكن الباشا لا يصلي تماما كالقرية.. ولئن كان يخرج الزكاة فما ذلك إلا لأنه يملك الكثير، أما القرية فكم من الرجال فيها يملك ما يدفعه للزكاة؟! إنها ليست كالقرى البعيدة التي سمع عنها عبد الهادي.. هذه القرى التي لا يملك أهلها من أرضها شيئا وإنما يشتغلون أنفارا لحساب مالك الأرض.. الذي يملك أحيانا أراضي عدة قرى.

ومع ذلك فإن أهل قرية عبد الهادي لا يملكون ما يدفعونه للزكاة.. وفي تلك القرى البعيدة التي سمع عنها لا يدفع صاحب الأرض زكاة ولا يؤدي صلاة.. ومع ذلك فالماء يجري في أرضه والحبوب تتكدس في مخازنه وغضب الله لا يعرف طريقا إليه.. وهذا الرجل يسرق من الأنفار ويشرب الخمر في نهار رمضان.. ويغتصب الفتاة التي تعجبه ويظل بعد كل هذا بعيدا عن غضب الله.. ولا تحجز الحكومة على أرضه.. وتغدق عليه الماء..

ظل عبد الهادي يفكر في كل هذا.. ويعجب لهذا الذي يقوله سيدنا الشيخ الشناوي.

ولقد همس عبد الهادي لنفسه ذات ليلة قبل النوم بأن الشيخ الشناوي لو كان يملك أرضا في القرية لما قال هذا الكلام.

لو أن للشيخ أرضا يختلط عرقه بترابها.. ولو أنه رآها تتشقق من الجفاف تحت عينيه بعد أن شقي فيها.. ورأى أعواد الذرة الصغيرة الغضة تذوي كأطفال يموتون.. لو عرف الشيخ الشناوي كل هذا.. لسكت.

لو كان سيدنا يملك قيراطا واحدا على الأقل.. ولو أنه أعمل فيه الفأس، وانحنى عليه وحفر له القنوات.. لما اعتقد أن أمر الله هو الذي حرم القرية من الماء لينعم الباشا ولروى أحاديث أخرى.. ولآمن أن الحكومة ـ لا الله ـ هي التي تحرم أرض الفلاحين من الماء وتميت أعواد الذرة الغضة.. ولتأكد أن الحكومة وحدها ـ لا الله ـ هي التي تصنع المصائب.

إن سيدنا هو الآخر كخضرة: لديه شيء يبيعه للذين يملكون المال والجاه والكلمة.. ولا يعنيه إلا أن يبيع الشيء الذي يملكه.. ولتهلك بعد هذا أرض القرية.

إن الذين يملكون أرضا في القرية يضعون أيديهم في النار.. أما سيدنا فهو كخضرة يده في الماء.. ولهذا فهو يقول كما يشاء ولو كان له أرض لانتهى!

وهكذا كان عبد الهادي يفكر فيما يقوله الشيخ الشناوي وألحت عليه أفكاره هذه عن الشيخ.. ويوما بعد يوم لم يعد يحتمل أن يسمع من الشيخ حديثا عن الجنة والنار والصلاة واللعنة والعقاب والزكاة والزنا والخراب والجزاء الوفاق.

كان كلما استعاد وحده كلام سيدنا تخايلت أمامه صور فاجعة من الأرض الملتهبة من العطش والذرة التي اصفرت، ويزحف على صدره كابوس ثقيل.. وتملأ الأفكار المخيفة رأسه وترهق منه الأعصاب..

ومع ذلك فقد ظل عبد الهادي يجلس مع الشيخ الشناوي بعد كل عشاء على مصطبة محمد أبو سويلم ومعهما محمد أفندي وكان عبد الهادي يختلس النظرات إلى وصيفة حينما تقدم لهم القهوة.. نظرات فيها القلق والبحث عن الطمأنينة، والحلم الواسع بأن يزرع أرضه في أمان ويملك زوجة وأولادا.

وذات ليلة قدمت وصيفة صينية القهوة إلى أبيها ليوزع القهوة على الرجال فأسرع محمد أفندي في خفة رشيقة وتناول منها الصينية وعطره يفوح أمام المصطبة.

وابتسم عبد الهادي.. وسأل محمد أفندي في صوت مرتفع واضح الضيق عن مصير العريضة، وعيناه تلمعان في مكر..

وسكت محمد أفندي قليلا قبل أن يقول: إنه سمع من العمدة أن محمود بك ثار عندما قرأها واتهم لغتها بقلة التهذيب ووعد البيه أن يكتب بنفسه عريضة أخرى.. فقاطعه عبد الهادي بصوت أكثر ارتفاعا:

ـ ما احنا عارفين ده كله.. أنا باسأل عن العريظة اللي حيكتبها محمود بك.. ما احنا عارفين حكاية العريظة الأولانية يا سي محمد.. وعارفين أن محمود بك قال: إزاي الفلاحين يقولوا كلام زي ده ع الحكومة.. وقال كمان مين ابن الحمار اللي كتب العريظة؟.. عارفين يا خويا عارفين.. وراسيين قوي على الدور كله..

وامتقع وجه محمد أفندي واختلج..

كان صوت عبد الهادي يصل إلى داخل دار محمد أبو سويلم حين عادت وصيفة لتجلس بثوبها الملون على قالب الطوب إلى جوار خضرة وتصغي إلى همساتها المتلاحقة العابثة.

وأحس عبد الهادي بحرج محمد أفندي فامتلأ بنشوة غامضة وهو يراه مرتبكًا أمامه.

فعبد الهادي قد فطن إلى أن محمد أفندي ربما كان قد أرسل خضرة إلى وصيفة لتقودها إليه.. وفضل عبد الهادي ألا يتكلم وظل يراقب وصيفة وكل شيء من بعيد.

لم يتح عبد الهادي لوصيفة أن تخرج من دارها في الليل.. فقد تعود أن يظل جالسا على المصطبة بعد أن ينصرف الشيخ الشناوي وحتى بعد أن ينصرف محمد أفندي إلى أن يغلق محمد أبو سويلم باب داره عليه هو وابنته وزوجته.

وشعر عبد الهادي أن محمد أفندي يوشك أن يتزايل من الخجل والضيق فهجم مزمجرا في ضحكة باردة:

ـ يعني لسه ما عرفتش أن محمود بك قال عليك ابن الحمار.. والا يعني ما عرفتش.. ده العمدة حكى للدنيا كلها.. وألبت ما حكى لك كمان والا إيه؟.. يا محمد أفندي أنا فاهمك قوي.. فاهمك قوي يا أخويه وفاهم الدور.. أنا فاهم الدور.. فاهم قوي وحياة النبي.. قوي قوي.. حاكم المسألة طينت..

وأكمل عبد الهادي لنفسه هامسا:

ـ دول ما كانوش أربعة جنيه.. بيقبضها كل شهر.. ويدوس بها على الدنيا.. ابن الحمار ده كمان..

وقبل أن يجيب محمد أفندي.. وقبل أن ينتهي عبد الهادي من همسه لنفسه تدخل الشيخ الشناوي في الحديث.

وعاد الشيخ الشناوي يقول نفس الكلام الذي ما برح يقوله عن اللعنة والحساب والجزاء الوفاق..

وانفجر عبد الهادي:

ـ دهدي يا سيدنا؟ ما بلا وجع دماغ بقى.. فلقتنا من الكلام ده.. هو ربنا كان هو اللي حاش الميه عنا.. والا المهندز والحكومة هم اللي حاشوها؟.. طب ما هي بتجري في أرض الباشا زي الحلاوة.. اطلع كده لحد المركز وأنت تشوف أرض الباشا على طول السكة بتروي بالراحة.. من غير ما يدور ساقية ولا يشقي بهيمة ولا يشغل وابور الميه.. هو ربنا مش فاضي إلا لأذية بلدنا؟.. اسكت.. اسكت.. بقى والنبي يا سيدنا.. قطعت سبحنا بالكلام بتاعك دا اللي لا بيودي ولا بيجيب.. حاكم أنت بتمرح في قتة محلولة زي بغل الوسية.. لا مال ولا عتبة.. باكي على إيه كده؟..

وانفجر الشيخ الشناوي يشتم عبد الهادي ويلعن قلة حيائه ويتهمه بالكفر والمروق.. بينما ارتفع صوت محمد أبو سويلم:

ـ دهدي.. هيه.. ما تصلوا بينا على النبي يا جدعان.. وتقولوا لنا بس نعمل إيه؟.. البيه محمود لا هو اللي خد العريظة وسافر بيها مصر.. ولا هو اللي كتب واحدة جديدة.. والدرة أهوه حايموت والحمد لله.. حانقعد كل مرة نخطف الميه ونستحمل رزالة شيخ البلد؟ عايزينها تنحل قبل دور الميه الجاي.. والشيخ يوسف أهوه مرزي في دكانه من يوم البيه ماهاج ع العريظة.. باين عليه خايف.. كانت شورته غابرة.. وشورتك يا سي محمد.. قلت لكم بلاش العمدة.. نطيت لي يا محمد أفندي أنت والشيخ يوسف، أقول لكم العمدة راح يعمل فيها ملعوب.. ده أبو الملاعيب.. وأنا عارف.. تقولوا ما يمكنش أبدا.. أدي أخرتها.. ما قولك بقى ياسي محمد أفندي.. أديك طلعت ابن الحمار.. أهو قالوا عليك ابن الحمار.. ويا عالم.. يمكن العمدة هو اللي مطلعها من عنده.. تلاقي العمدة الكهين هو اللي قايلها من عنده علشان يهزأك في وسط البلد.

وسعل محمد أفندي واستكثر أن يقول العمدة عنه شيئًا كهذا وبدأ يشرح سر غضب محمود بك على العريضة.. وأخذ محمد أفندي يقول: إنه كتب العريضة بفصاحة وإنه من فرط الفصاحة قال: «إن الفلاحين إذا قطعت منهم خمسة أيام ري سيفترشون الغبراء ويلتحفون السماء».. وهذه الجملة من أساليب المنفلوطي البليغة.. غير أن محمود بك لم يفهمها كما يجب فاعتبر الجملة تحديا للحكومة وإهانة لوزير الأشغال ونشرا للفوضى.

اعترض محمد أبو سويلم:

ـ أساليب من؟.. من؟.. وإيه اللي قالك تكتب بأساليب؟..

واسترسل محمد أفندي يشرح ما دار بين العمدة ومحمود بك فقال: إن محمود بك قذف بالعريضة في وجه العمدة وشتمه لأنه يحمل ورقا فيه كلاما كهذا.. ثم تساءل إن كان الفلاح ينام على الأرض أم على السرير، وهل يلتحف بلحاف؟..

وعندما وصل محمد أفندي في شرحه إلى هذا المدى قاطعه عبد الهادي في شماتة ساخرة:

ـ هي الغبراء دي اللي أنت كتبتها في العريظة.. يعني الأرض؟.. يا عيشتك غبرا يا محمد أفندي.. طب على كده بقى.. ده محمود بيه له حق في اللي قاله عنك.. ده أنت تبقى صحيح كده بقى.. زي ما قال محمود بيه.. هو الله يرحمه عم رضوان كان بينام عالسرير؟ احنا بنام على سراير يا سي محمد يابو رضوان.. يا بتاع السيما..

وضحك محمد أبو سويلم وقال الشيخ الشناوي ضاحكا:

ـ جاتك الغم يا واد يا عبد الهادي في طولة لسانك..

ثم التفت إلى محمد أفندي مستمرا في ضحكاته وهو يحاول أن يصنع نكتا من القرآن:

ـ أيوه يا محمد أفندي صحيح.. هو إحنا يعني ننام على سراير.. على سرر مرفوعة.. والا على نمارق مبثوثة.. والا يمكن على أرائك مصفوفة؟ داحنا نبقى في الجنة بقى..

وغمرت ضجة الضحكات زفرات الضيق التي أطلقها محمد أفندي في صمت..

وتحرك محمد أفندي واستدار رأسه كأنما يريد أن يقتحم بعينه دار محمد أبو سويلم ليطمئن إلى أن وصيفة لا تسمع.

وكانت وصيفة من داخل الدار تتابع أحاديث الرجال موزعة النفس..

لقد روعها أن عبد الهادي ظل يلوح لمحمد أفندي بأنه يفهم الدور كأنما هو يعرف سرا خاصا مفزعا.. لا يريد أن يبوح به..

وخشيت وصيفة أن تكون خضرة قد باحت لعبد الهادي بشيء، وسألتها فأجابت خضرة مسرعة وهي تدق صدرها في استنكار:

ـ يا حوستي! ينقطع لساني إن كنت قلت لعبد الهادي حاجة عن محمد أفندي والا حتى اسمه جه على لساني.. وأنا بكلم عبد الهادي.. إن شاء الله يا رب ينقطع لساني من اللغلوغة إن كنت قلت حاجة لعبد الهادي.. يا حسرتي يا وصيفة دي تبقى فتنة والفتنة حرام.. دي الفتنة أشد من القتل..

واطمأنت وصيفة إلى ما قالته خضرة..

وكانت خضرة تعطي نفسها حقا لفتيان القرية بأي ثمن يقدمونه حتى بخيارة طرية في يوم حار، وكانت تقوم بخدمات كثيرة لمحمد أفندي ولعبد الهادي مع أخريات.. ولكنها مع ذلك كانت تعرف أن الفتنة أشد من القتل وتحرص إلى آخر حد على أسرار الفتيات والنساء اللواتي تتوسط عندهن لمحمد أفندي أو لغيره من شباب القرية..

وفي الحق أن عبد الهادي هو الذي فطن وحده إلى شيء ما بين وصيفة ومحمد أفندي.. ربما لأنه أحس بانصراف وصيفة.. واهتمامها المفاجئ بمحمد أفندي.. هذا الاهتمام الذي كان يتخذ مظهره دائما في عنايتها بالقهوة وخروجها بالصينية إلى الرجال حين يكون معهم محمد أفندي..

واستطاع عبد الهادي أن يخمن كل ما حدث.

أدرك أن خضرة فهمت بممارستها للنساء والرجال أن وصيفة معجبة بمحمد أفندي.. ويمكن أن يكون محمد أفندي حدثها عن وصيفة فكلمت هي وصيفة عنه فنهتها وصيفة عن الخوض في حديث كهذا.. فمالت عليها خضرة وقالت لها كلمات مفضوحة صريحة عن علاقات الرجال والنساء ومست في يسر كل الرغبة التي تعانيها وصيفة والاضطرام الذي تخفيه وراء ستار ثقيل من الحياء والخوف والجزع.. ربما حدث هذا فتلعثمت وصيفة وهزتها المباغتة واضطربت وهي تجد روحها عارية تماما أمام خضرة فطردت خضرة من دارها.. غير أن محمد أفندي كان قد وعد خضرة بخمسة قروش لو أنها نجحت في تدبير خلوة بينه وبين صفية وأعطاها بالفعل قرشين كمقدم أتعاب.. وعادت خضرة تحتال على وصيفة.. وما زالت بها تحدثها وتقلب دماغها حتى تعترف لها وصيفة بأنها تريد محمد أفندي ولكن في الحلال.. وفي الحلال وحده.. فإن عاز محمد أفندي الزواج منها فهي تحب أن تلقاه في خلوة.. ولكنها تخاف من عبد الهادي ومن أبيها.. وقالت خضرة كل هذا لمحمد أفندي فبدأ يشعر بضيق من عبد الهادي ويفكر في طريقة مأمونة للقاء وصيفة دون أن يتورط في خطبتها من أبيها.

كان عبد الهادي قد أدرك هذا كله من معرفته الخاصة لطريقة خضرة مع نساء أخريات أرادهن هو.. ومن مراقبته الخاطفة لمحمد أفندي وخضرة ووصيفة.

وأدرك عبد الهادي مع كل هذا ضيق محمد أفندي به وحرجه كلما تكلم إليه ولم يكن عبد الهادي على أي حال يخفي عن محمد أفندي نفس المشاعر.

غير أنه في تلك الأيام كانت القرية لا تستطيع أن تفكر طويلا في شيء غير الماء الذي منعته الحكومة.

وفي تلك الأيام بالذات كان أهل القرية جميعا قد عرفوا أن مياه الأيام الخمسة أخذت منهم لتعطى لأرض الباشا القريبة من المركز عاصمة الإقليم.

ومع ذلك فقد كان الفلاحون يحاولون أن يرووا أرضهم من النهر الصغير أو الترعة الكبيرة بطريقة ما في ساعات الظهر التي لا يمر خلالها رجال الري متعرضين أثناء هذه المحاولات لإهانات شيخ البلد الذي أقسم لهم أنه بصفته «نائب الحكومة» سيوقعهم كلهم في مصيبة ويكتب أسماءهم في ورقة ويرسلها بإشارة تليفونية إلى المركز ليحبسهم الحكام هناك.

وعلى الرغم من هذه التهديدات فقد كان الفلاحون يضحكون ساخرين بنائب الحكومة ويسألونه: لماذا تأخذ الحكومة منهم ماء النيل لتعطيه للباشا الذي يملك ماكينات تجلب الماء من بطن الأرض؟!

وفي تساؤل الفلاحين عن سر تصرف الحكومة معهم لم يصدقوا أبدا ما كان يقوله الشيخ الشناوي عن اللعنة والجزاء والوفاق.

إنهم يعرفون بتجاربهم وحدها أن الحكومات التي تقبل فتعتمد في الانتخابات على رجال المركز وأصوات الموتى والغائبين وتفصل عمدة من قرية وشيخ خفراء من أخرى وتنقل مدرسا من هنا وناظرا من هناك.. هذه الحكومات نفسها هي التي تمنح الباشا دائما كل ما يريد.. ولقد أوشكت إحدى هذه الحكومات منذ أعوام قلائل أن تنتزع الأرض من أيدي الفلاحين في عشرين قرية لتنشئ طريقا يمر بعزبة الباشا القريبة من المركز ويصل بين المركز وطريق القاهرة رغم أن الجسر هو الطريق الطبيعي القديم الذي

تأتي منه عربات الحكام في أيام الانتخابات وحينما تقع الجرائم ولو أنهم أصلحوه لما نزعوا سهما واحدا من فلاح.

الفلاحون يعرفون هذا كله.. ويعرفون أن الباشا قد بنى لنفسه قصرا كبيرا على حدود أرضه على الطريق الذي كان يريد شقة.. ولكن تلك الحكومة سقطت فلم يفكر أحد في شق هذا الطريق مرة أخرى.. وعاد التفكير القديم في إصلاح طريق الجسر.. وانزوى الباشا ولم يكمل بناء قصره.. ولم تعد له كلمة في القاهرة.. وانزوى قريبه محمود بك هو الآخر ولم تعد له كلمة عند الحكام في المركز عاصمة الإقليم.

ويعرف الفلاحون مع كل هذا أن الحكومة التي لم يكن للباشا عليها كلام نافذ.. قد أجرت الانتخابات معتمدة عليهم، هم الأحياء لا على أصوات الموتى ورجال المركز.. ولكنها ذهبت لأن الإنجليز أرادوا أن تذهب.

الفلاحون يعرفون هذا ويعرفون أن الحكومة الجديدة قد جاءت فصنعت حزب الشعب وبدأ العمدة يعد كشوف الانتخابات ويكتب أسماء الأموات والغائبين عن القرية ويحشد الرجال بالقوة.. وعلى الرغم من أن القرية قاطعت الانتخابات فقد أصبح لها نائب هو الباشا.. وأصبح من رجالها أعضاء في لجنة الثلاثين التي كانت تختار النائب. ورغم أن البلاد كلها قاطعت الانتخابات ولم يدخلها إلا حزب الحكومة والمنتفعون به، فالحكومة تقول إنها تمثل مصر وإن حزبها يمثل الشعب.. والفلاحون يعرفون أن الشيخ يوسف كان من بين الأعضاء الثلاثين ومع هذا فقد كان يسخط على العمدة في النهار والليل ويسخط في سره على البيه محمود وعلى الحكومة والنائب وحزب الشعب.. ولقد ندم على اشتراكه في الانتخابات وظل شهورا طوالا يشعر بالخجل وعاد يقف مع القرية.. وعندما امتنع عن دفع المال.. كما امتنع أهل القرية، وحجزت الحكومة على بعض ما يملك.. أعلن سخطه وتعود أن يجلس في دكانه ويشتم حزب الشعب والعمدة والباشا النائب والحكومة جميعا.. وأخذ يعدد الفظائع والبشاعات التي ترتكبها الحكومة.

وكان الفلاحون يدركون أنه في غمار كل هذا فصل محمد أبو سويلم ـ الرجل الشهم ـ من مشيخة الخفراء.. ونقل الشيخ حسونة خال محمد أفندي وأصبح مدرسا في آخر الدنيا.. بعد أن كان الناظر المحترم في المدرسة الأولية بالقرية المجاورة.. بينما ارتفع صوت العمدة من جديد وعاد محمود بيه يزعق ويخبط في الناس من يمين وشمال ويضرب الفلاحين بالكف والرجل ويرسل من لا يروقه من أهل القرى المجاورة إلى المركز ليذوق العذاب..

وما زالوا يذكرون أن رجالا من قرى أخرى مروا عليه في عزبته الصغيرة وهم يركبون الحمير قائلين «دستور» دون أن ينزلوا فلم يقل لواحد منهم «دستورك معك» كما هي العادة وإنما أرسلهم إلى المركز وأقام كل واحد منهم أيامًا في الحبس حيث شرب بول الخيل بعد أن حلقوا له نصف شاربه وظل يضرب ويضرب.. ثم ما برح بعد ذلك يضرب.. حتى قال لهم كما طلبوا منه إنه امرأة.

كان الفلاحون يعرفون هذا.. ويعرفون أيضا أن الباشا قد شرع يتمم بناء قصره الكبير وبدءوا يتوقعون منذ انضم هذا الباشا لحزب الشعب أن يشق الطريق الزراعي الذي يريده وأن ينزع لأجل هذا الطريق ما بقي لهم من الأرض.. الأرض التي هي عندهم كل الأمس واليوم وكل الغد.

وكان الفلاحون حين يتذكرون كيف بدأ الأمر بحرمانهم من الماء من أجل الباشا يهزون الرءوس وفي النفوس منهم تختنق الحسرات وقلوبهم تخفق بالوجل وبخوف حزين قلق من المخبأ في الغيب.

ظل الشيخ يوسف في دكانه لايبرحه وكلما حاول بعض الفتيان أن يقفوا أمامه نهرهم الشيخ يوسف.

حتى الأولاد الذين كانوا يلعبون أمام الدكان في الفضاء كان الشيخ يوسف يضيق بهم ويلعن آباءهم ويصرفهم..

ولم يعد يحتمل أن يجلس أحدهم على جذع الجميزة الملقاة أمام دكانه مستندة إلى التراب المتراكم على مر السنوات.

كان الشيخ يوسف خجلا من نفسه فقد عرف أن محمود بيه مزق العريضة..

وفي الحق إنه مع خجله هذا كان مسرورا لأن محمود بك قال عن كاتب العريضة محمد أفندي ابن الحمار! لقد كان هو يشعر في أعماقه بأنه أجدر من محمد أفندي بكتابة العريضة فقد درس في الأزهربضع سنين بينما لم يذهب محمد أفندي إلى مصر أم الدنيا أكثر من مرة.. لأنه درس في عاصمة الإقليم وأبوه ـ أبو محمد أفندي ـ لم ير مصر على الإطلاق.

وكان الشيخ يوسف يشعر بضيق هائل من محمد أفندي فهو منذ حين يلوح له بأن يتزوج من ابنته ولكن محمد أفندي لايهتم بهذا الأمر.. ثم إن محمد أفندي هذا قد أقرضه مرة عدة جنيهات ليواجه بها حاجات التجار الكبار في عاصمة الإقليم.. ولم يشأ محمد أفندي أن يقرضه لله في لله كما كان الشيخ يوسف يريد وإنما صمم على أن يرتهن جزءا من أرضه.. وبالفعل ترك له الشيخ يوسف حيازة الجزء الباقي من أرضه وركبها محمد أفندي بلا حياء..

وسمع الشيخ يوسف رجالا في القرية يهمسون بأن محمد أبو سويلم كان على حق عندما تخوف من العمدة وألاعيب العمدة.. وسمعهم يلومونه هو ومحمد أفندي والشيخ الشناوي لأنهم صمموا على أن يذهب العمدة بالعريضة إلى محمود بك.. فمحمود بك لا يمكن أن يسعى في إلغاء قرار لهندسة الري صدر لفائدة أرض الباشا!.. فما مصلحته هو في إلغاء هذا القرار؟ إن كان من أجل أرضه التي تقع في زمام القرية فيمكن أن تروى على الرغم من قرار الهندسة.. وكذلك أرض العمدة والبركة في كلمة محمود بك التي لاترد..

هكذا كان الفلاحون يتحدثون ويرن كلامهم في أذن الشيخ يوسف فيملؤه بالندم والحسرة، والفلاحون يعرفون أن العمدة هو رجل محمود بك ورجل حزب الشعب.

والشيخ يوسف نفسه مقتنع بكل هذا.. وبكل ما يقوله الفلاحون.. ومع ذلك فلم يستطع أن يذهب ليلقى محمد أبو سويلم ويعترف له بغلطته.. لقد خاف أن تذله البلد كلها لهذه الغلطة..

وذات مساء ذهب عبد الهادي للشيخ يوسف يسأله عن الخبر والسيرة وسر انقطاعه.

وتردد الشيخ يوسف قبل أن يتكلم.. فقد كان علواني إذ ذاك واقفا يحاول أن يشتري منه الشاي والسكر..

ولكن الشيخ يوسف اعترف بأنه محسور وأن حسرته قوية.. وسكت قليلا.. ثم قال: إنه جر البلد إلى مصيبة.. وأنهم أخطئوا جميعا حتى اطمأنوا إلى العمدة ومحمود بك.. ثم أقسم أن محمد أبو سويلم رجل مجرب يفهم ـ رغم أنه لايقرأ ـ أكثر من الذين قرءوا.

وصمت قليلا ثم أكد أن قرار الهندسة لم يطبق على محمود بك بالطبع.. وأن محمود بك لا يمكن أن يسعى إلى إلغاء قرار صدر من أجل الباشا.. تماما كما يقول الفلاحون..

فقال عبد الهادي متحمسا:

ـ يا أخي إذا كنا إحنا قدرنا ناخذ شوية ميه لحقنا بهم الأرض.. وشيخ البلد أهه.. هاص له شوية وانخمد.. يبقى محمود بك والعمدة ما يقدروش.. بقى ده كلام يخش عليك يا شيخ يوسف؟.. دول ياخدوا الميه من عين الجن يا عم.. طب هي الهندزة رايحة تعمل إيه لمحمود بيه؟.. قول لي كده.. ما تقول.. واهو محمود بيه يداري العمدة والعمدة راجله.. يا راجل ده من يوم الحكومة الغبرا دي ماحكمت البر.. ومحمود بيه تقولشي مدير المديرية.. جاب عربية بجوز خيل داير بها من العزبة للمركز ومن المركز للعزبة وقاعد لك مجعوص كده.. ركبة.. ركبة صحيحة.. ركبة ميتين فدان.. مش تلاتين فدان عُمْي.

ولكن الشيخ يوسف كان شاردا بعض الشيء.

ولم يكد عبد الهادي ينتهي من حديثه حتى انقض الشيخ يوسف يقول وكأنه وجد طريقا للخلاص من ندمه:

ـ واحنا بس مشينا ليه ورا محمد أفندي ابن الحمار ده؟.. يا راجل سيبك من ذوات الأربع دول.. ولو أنهم من يوم ما جه صدقي بقوا ياخدوا اتنين جنيه مفيش غيرهم.. اسألني أنا اللي عارف.. سيبك من الأفندية.. كل الموظفين ماهياتهم قلت.. اللي كان بياخد ١٥ بعد مايطفح الكوتة في التعليم ويتخرج من المدارس العليا بقى ياخد ١٢ مفيش غيرهم..

وهز الشيخ يوسف رأسه قليلا في رضا عن الكلام الذي قاله ثم استمر يقول:

ـ إلا قوللي.. محمد أفندي جاب الفهم منين؟.. من أبوه وإلا يعني جاب الفهم من أبوه.. يا راجل والله ده أبوه قلبه انقطع من أكل المش والعيش الدرة لحد ما مات.. وقال إيه جاي حضرته يشتري من عندي حلاوة طحينية.. يا سلام يا أولاد.. والله يا شيخ ده أنا لو كملت في الأزهر لكنت فقت عليه خالص يا جدع.. كنت بقيت لك مفتش عليه.. وإلا ناظر.. ده أنا زملائي اللي جاوروا معاية وفلحوا كلهم دلوقت نظار ووعاظ ومفتشين ومدرسين في الابتدائي الميري.. وقال محمد أفندي.. قال.. يكتب عريظة واحنا نمشي وراه.. يا أخي قول له يروح يدور على بنت صايعة يدخل عليها بقرش..

واهتز عبد الهادي إلى أعماقه وتذكر كل المشاهد التي اختلسها من خضرة وهي تضحك مع وصيفة..

ولم يقل عبد الهادي شيئا..

ونظر طويلا إلى الشيخ يوسف وأخذ يرفع عينيه من صدر الشيخ وراء بنك الدكان إلى عمامته الصغيرة ذات الشال الأبيض المتسخ.. ووجهه المقدد السقيم المتغضن الذي لا يبتسم وكأن عليه غبار سفر طويل..

وعاد الشيخ يوسف يقول:

ـ حاكم إحنا بلد خايبة..

وهز عبد الهادي رأسه موافقا.. وشعر الشيخ يوسف بأن عبد الهادي راض عنه وأنه من الممكن أن يعود فيتحدث مع محمد أبو سويلم ويسمع منه محمد أبو سويلم وعبد الهادي والآخرون.. فطاب نفسا.. وابتسم..

وشاع في وجهه النحيل الأسمر المليء بالغضون سرور طارئ ومسح شاربه الرمادي الذي يغطي شفته العليا المتقوسة في اشمئزاز دائم..

وانتهز علواني الفرصة وشجعته ابتسامة الشيخ يوسف فانفجر بعد طول الصمت ليقول وهو يلوح بذراعيه:

ـ يا سلام يا عم الشيخ يوسف.. كلامك حلو.. كله حكم.. بس يا خسارة.. يا أبا الشيخ يوسف لو كنت أنت.. يعني آه.. يا أبا الشيخ.. لو تبطل.. يعني لو تخليني..

وقاطعه الشيخ يوسف ضاحكا قائلا لعلواني: إن المعاملة لا علاقة لها بكلامه الحلو، هو لن يعطيه الشاي والسكر على كل حال ما لم يدفع المتأخر عليه.. فالكلام نقرة.. والدفع نقرة..

وضحك عبد الهادي وأخرج قرشا رماه على البنك الذي كان الشيخ يوسف يقف أمامه من داخل الدكان.. ثم ضرب عبد الهادي كتف علواني بيده مطمئنا وقال للشيخ:

ـ إدي لشيخ العرب طلباته..

ومضى الشيخ يوسف يفتح الأدراج ليحضر لعلواني الشاي والسكر بينما تهلل وجه علواني وانبسطت نفسه وأخذ يروي كيف أخذه مخدومه شيخ البلد وأمره أن يسحب معه البندقية المقروطة ومرَّ معه على السواقي التي تدور خلسة.. وبعد أن انتهى شيخ الخفراء من الطواف على سواقي الجسر أمر الناس أن يوقفوها وشتم وهدد.. ثم مضى إلى الترعة الكبيرة يفتش.. وفي الطريق قال لعلواني: إنه يرى الناس معذورين.. وطلب منه آخر الأمر أن يذهب وحده ليقطع الترعة التي أجرت هندسة الري الماء فيها لتسقي أرض محمود بك وحده.. فتمر المياه المثقلة بالطمي في الترعة عبر أرض القرية دون أن يسمح للقرية بالري منها..

وهنا انخفض صوت علواني ثم أوشك أن يهمس وهو يروي كيف انتفض شيخ البلد حين طلب منه أن يذهب دون أن يراه أحد فيقطع جسر الترعة حتى إذا ارتوت أرضه سدها كأنها لم تنقطع.

وهز الشيخ يوسف رأسه وزفر وهو يسمع هذا الكلام.

ولم يقل شيئا لبعض الوقت وظل يدير نظره بين عبد الهادي والفراغ.

ثم رفع عمامته ذات الشال المتسخ وحك الشعرات الرمادية القصيرة في مقدمة رأسه وهو يقول:

ـ سامع يا عبد الهادي؟.. سامع.. شايف شيخ البلد بيعمل إيه..

فأجاب عبد الهادي ساخرا في مرارة:

ـ والا العمدة اللي بيفتح الترعة عيني عينك.. حاكم الميه دي مية أبوه.. هوه والبيه وارثينها..

ولم يعلق الشيخ يوسف وإنما وضع عمامته ونظر بعبوس إلى رجل يقف وراء عبد الهادي وقال له بغضب ودهشة وخوف:

ـ عايز إيه يا وله.. لابس رسمي كده وجاي هنا تهبب إيه!.. إيه يا واد يا عبد العاطي؟..

والتفت عبد الهادي وراءه فوجد أحد الخفراء يلبس طربوشه الأسود الطويل وجلبابه الغامق ويقف مشدودا: البندقية على كتفه وقدماه عاريتان..

ورفع الخفير وجهه وعيناه تنظران في غير شيء وطلب من الشيخ يوسف وعبد الهادي أن يكلما حضرة العمدة لأمر مهم.

فقال عبد الهادي في استخفاف:

ـ طب غور يا عبد العاطي.. غور أنت..

ولكن عبد العاطي لم يتحرك وظل يلح في ثبات ورجاء أن يذهبا إلى الدوار معه ليكلما حضرة العمدة..

وتردد الشيخ يوسف قبل أن يجد كلاما..

ولكنه قال آخر الأمر إنه لا يستطيع أن يذهب الساعة ويترك الدكان.. غير أنه بعد أن يغلقه سيذهب إلى الدوار على الفور..

ثم تساءل عما يريده العمدة.. فقال له الخفير عبد العاطي إنه لا يعرف عن الأمر شيئا.. وعاد يلح عليهما أن يذهبا إلى الدوار ومع كل واحد ختمه.. ووقف كأنه مسمر أمام الدكان.

فصاح الشيخ يوسف مستنكرا:

ـ ختم؟!.. ختم إيه يا عبد العاطي؟.. ده أنا قاري في الأزهر أكثر من العمدة بتاعك.. بقى دي بلد؟.. ثم تعال هنا قوللي يا وله.. هو جنابه عايز الأختام ليه.. رايح يختم البلد على إيه؟

وترك عبد الهادي دكان الشيخ يوسف ومضى في صمت إلى محمد أبو سويلم.

أما الشيخ يوسف فقد ظل يصفق بيديه متعجبا.. ويشتم الخفير.. بينما الخفير يلح عليه في أن يذهب إلى الدوار..

وانصرف الخفير بعد قليل، وبقى علواني يسأل الشيخ يوسف عما يريده العمدة منه.. ويلمح له بخدمات يمكن أن يؤديها ليريح الشيخ يوسف من العمدة.. والشيخ يوسف صامت ترتفع يده إلى عمامته فينحيها إلى أمام ثم إلى خلف ويرفعها أحيانا ليحك رأسه ثم يعود فيضعها وهو صامت على الدوام.. وفي الحق إن الخفير عبد العاطي كان يعرف من الأمر شيئا ولكنه لم يكن يعرف الأمر كله..

فقد مر رجال هندسة الري في منتصف الليلة البارحة فوجدوا آثار مياه في القنوات الممتدة تحت بطن الجسر وتأكدوا أن الحقول حديثة عهد بالري فعادوا إلى عاصمة الإقليم واتصلوا بالمركز.. ولم يكد الصباح يصبح حتى كان المركز يتصل بالعمدة في التليفون وسمع العمدة كلاما قاسيا من المأمور بعد أن سمع من ملاحظ البوليس تعريضا صريحا بطراوته وليونته وأبيه وأمه أيضا..

وامتلأ العمدة بالحنق.. ولكنه حمد الله بينه وبين نفسه لأن أحدا لم يسمع ماقاله له الملاحظ أو المأمور..

كان العمدة رجلا أصفر صغير الجسد، دقيق التكوين، خفيض الصوت.. وكانت لحيته القصيرة بيضاء نظيفة.. تضفي مهابة خاصة على ماحفرته الشيخوخة في وجهه.. وكانت الابتسامة تشيع دائما على محياه، حتى عندما يغضب.

والعمدة هو أحد الذين ذهبوا إلى الأزهر قبل أن يذهب إليه الشيخ يوسف بسنوات طوال وأقاموا في القاهرة حينا حتى إذا لحق بهم جيل آخر عادوا.. وتركوا أحلامهم في القاهرة المدينة الضخمة.. وأقبلوا ـ في هذه القرية أو تلك ـ على حياة تلهبها المطامع ولكن بلا أحلام..

ولم يكد العمدة يستريح من حمد الله لأن أحدا لم يسمع شيئا من كلام المأمور أو الملاحظ وبصفة خاصة الملاحظ حتى وصلته إشارة تليفونية فيها تنبيه إلى وجوب مراعاة لائحة الري الجديدة وإلى أنه سيكون مسئولا عن المخالفة في المرة القادمة مالم يقدم أسماء الذين خالفوا.. وقام العمدة من فوره متحمسا ليذهب إلى محمود بك في عزبته المجاورة ليشكو له ملاحظ البوليس وليوسطه عند الحكام في المركز فلا يحملونه مسئولية مخالفة القرية للوائح الري.

ركب العمدة إلى محمود بك ووراءه عبد العاطي الخفير المفضل.

وعندما عاد العمدة كان يدس في جيبه ورقة ويضع في قلبه رضا كبيرا..

إن العمدة رجل يعرف كيف يعيش في أي زمان.. ومنذ عين في مكانه وهو ينحني للحكام في المركز وللذين يملكون الكلمة على هؤلاء الحاكمين.. ويسمع أي شيء وهو يبتسم..

وكان هم العمدة كله هو أن ينفذ أوامر الحكومة مهما تكن.. أما ما يمكن أن يصيب القرية من هذه الأوامر فلم يكن يعنيه على الإطلاق.. فهو كما تعلم في الأزهر ـ يطيع أولي الأمر ويؤمن أن هذا من أركان الدين.

ولئن طلبوا منه أن يسلمهم أهل القرية جميعا لضربهم بالرصاص لما تأخر لحظة.. ولقدمهم بنسائهم ورجالهم.. وضميره مطمئن إلى أنه أرضى ربه.. ولانتظر من ربه بعد هذا أن يرضيه..

وهكذا دفع بكثير من الفلاحين إلى المركز ليعذبهم عندما قاطعوا انتخابات حكومة حزب الشعب وامتنعوا عن دفع ضريبة الأرض.

وهكذا تسبب في فصل محمد أبو سويلم من مشيخة الخفراء.. وكان العمدة في عهد الحكومات التي تستخدم رجال المركز وأصوات الموتى في الانتخابات.. كان يعتمد على محمود بك.

وفي عهد الحكومات الأخرى كان ينحني لمحام كبير في عاصمة الإقليم تنتخبه الدائرة نائبا عنها عندما يذهب الفلاحون إلى الصناديق أحرارا لا يسوقهم العساكر ولايزيف إرادتهم أحد.

وفي عهد الحكومات التي لايعرف لها العمدة لونا بعد.. كان يعتمد على الله. وفي الحق إن العمدة حين وصلته أول إشارة لتحديد مواعيد الري لم يسكت وإنما أرسل عبد العاطي ليطوف على الذين يملكون أرضا ويبلغهم أوامر الهندسة.. غير أن عبد العاطي لم يعقل الأمر وظل يقلبه بينه وبين نفسه، وقال للعمدة كذبا إنه أبلغ الناس.. بينما مضى يؤكد لنفسه أن العمدة شاخ وخرّف.. وأصبح يقول كلاما غير معقول.. فقد أتعبته زوجته الشابة السمينة البيضاء..

وحين رجع العمدة من عند محمود بك أمر الخفراء أن يلبسوا الزي الرسمي وأن يقفوا صفا واحدا في الفناء المتسع أمام سلالم الدوار، واستعد الخفراء بالفعل ووضعوا الفوانيس الكبيرة ورشوا أرض الحوض بالماء وانتظروا العمدة حتى إذا فرغ من عشائه خرج عليهم بالجبة والقفطان والشال الشاهي والحذاء الأسود وكل هيئته التي يقابل بها الحكام.. ووقف العمدة على سلم الدوار ووراءه عبد العاطي ببندقيته وأمامه الخفراء بالطرابيش السوداء الطويلة: البندقية على الكتف والأقدام الحافية تدب التراب المبلل بماء الرش..

وأخذ العمدة يشتم الخفراء لأنهم لم يبلغوا أهل القرية أول إشارة حددت مواعيد الري الجديدة.. ولاحظ أن عبد العاطي وراءه يكرر كلامه وشتائمه فالتفت إليه ونهره قائلا بصوته الهادئ وكلماته البطيئة:

ـ هو أنت الوكيل بتاعي؟!.. انجر من ورايه.. خش في الصف.. هو انته العمدة والا أنا؟..

وقفز عبد العاطي إلى الصف وحشر نفسه وسط الخفراء وقد سرت فيهم همهمة التغامز والضحك المكتوم..

واحتدم غضب العمدة وتزايدت شتائمه وأخذ يتهم الخفراء بأنهم تركوا الفلاحين يسرقون الماء، فالري في غير مواعيده يعتبر عند الحكام سرقة للماء.. وسكت العمدة قليلا.. ثم عاد يقول في صوت رهيب: إن اللوائح والقوانين وشئون الضبط والربط تعتبر الري في غير المواعيد المحددة جريمة.. جريمة سرقة..

وتعالت همهمة الضحك المكتوم والعجب.. فانفجر العمدة قائلا ببطء وهو يمط الكلمات:

ـ طب روحوا كلكم مرفودين..

وانطلقت الضحكات المكتومة وقال أحدهم وهو يحاول أن يخفي ضحكه:

ـ ده ده.. طب ما احنا روينا أرضك يا حضرة العمدة.. دي برضه اسمها سرقة عند الحكام وعند اللوائح والقوانين اللي بتقول عليها؟.. والا الميه لما تروح أرضك مايبقاش اسمها سرقة.. ما دام في أرض الحكام؟!..

وقبل أن يتكلم العمدة استطرد خفير آخر يقول منفعلاً بلا ضحك:

ـ سرقة إيه وهباب إيه ياجدع؟.. الميه ما هي ماشية في البحر والترعة.. يعني حاتخلص؟.. هو احنا كنا نقبنا عليها حيطة؟.. إلا سرقة دي يا جدعان.. سرقة ليه.. ما هي مية ربنا.. هي السرقة في الميه كمان.. هي نقب حيطة؟..

واضطرب صف الخفراء ونزل العمدة سلالم الدوار وصوته يرتفع صارخا:

ـ الله .. الله.. إياك تنحط عليكو حيطة.. يا بلد غجر.. يا بلد مالهاش شيخ خفر.. هيه بلد من غير عمدة يا واد أنت وهوه.. كلام إيه ده يا خويه.. يا واد الميه دي بتاعت الحكومة والحكام بس.. الحكومة تدي منها زي ما هي عاوزة وتدي اللي هي عاوزاه كمان.. مفهوم؟..

ولم يكن هذا مفهوما..

ووضح أن من المستحيل أن يصبح هذا مفهوما.. فقد وجم الخفراء وتطلعت عيونهم في إشفاق إلى هذا الذي يقوله العمدة.. وتلفتوا بعضهم إلى بعض كأنما يتساءلون إن كان هذا حقا.. وإن كانت حياتهم نفسها يمكن أن تصبح ملكا للحكومة والحكام.. إنهم يعرفون أن الماء ملك للأرض وللزرع الذي يأخذ منه.. وله أن يأخذ منه كما يريد بلا حساب حتى يروى تماما..

وأخذ العمدة يقلب عينيه في الوجوه وهو يلهث من تعبه.. وانسكبت قطرات العرق في فجوات الشيخوخة من وجهه.. بينما تقدم عبد العاطي.. يتساءل إن كانت الشمس والهواء أيضا ملكا للحكومة؟.. وماذا عن ماء المطر؟.. وانبثق من الوجوم ضحك مجلجل.. واضطرب الصف وأخذ الخفراء في ضحكاتهم يضربون الأرض الموحلة بأرجلهم وتطاير منها الطين.. وابتعد العمدة قليلا كيلا يصيبه رشاش من تحت أقدام الخفراء.. وصاح.. وظل يصيح حتى سعل ونظرت امرأته الشابة السمينة من الشباك ووقفت قليلا تبتسم.. وهزت رأسها وتحسست وجهها وهبطت يدها على ذقنها ونحرها وصدرها وانصرفت إلى داخل الدوار.. وعندما هدأت الضجة قليلا تقدم العمدة من الخفراء واستعاد هدوء صوته وهو يقول في بطء وعمق:

ـ الله .. الله.. يا سي عبد العاطي.. طب على رأي الشاعر.. ومن أنباك أن أباك ديب؟.. هه هه.. قل لي يا عبد العاطي يا ربابة محمد أبو سويلم: بقى يا واد بعد ما نزلتك في الغفر وعملتك خدام خصوصي وكشفتك على حريمي تيجي تتمسخر قدامي على الحكومة؟..

فقال عبد العاطي بثبات:

ـ ما أنت كل حاجة يا حضرة العمدة تسألنا مفهوم؟.. يعني حايبقى مفهوم من غير ما هو مفهوم.. قصدنا نعرف.. يعني إيه قول الحكومة في الشمس لما تسوي الزرع تسويه باللوائح رخره وإلا إيه؟.. يعني الشمس وضحاها اللي يقراها سيدنا الشيخ الشناوي دي.. دي يعني مش هي اللي بتسوي الزرع؟..

وعاد الضحك من جديد وحاول العمدة أن يتكلم ولكن صوت عبد العاطي ارتفع قائلا:

ـ وكمان يعني النطرة حكمها إيه؟.. المطر يعني اللي بيقول سيدنا عليها إن ربنا هو اللي منزلها يعني.. يعني..

وأخذ العمدة يصيح فيه:

ـ أنت ياواد بتلحقني.. تتكلم وأنا باتكلم.. وتعلى حسك على حسي.. الله.. الله.. يا بلد..

ولكن عبد العاطي ظل يتحدث.. وعندما هدأت ضجة الضحك المختلطة بتعليقات الخفراء سمعه العمدة يقول:

ـ والميه بتاعة البحر والترعة دي.. بتاعة أنهي حكومة؟.. مش بتقول بتاعة الحكومة.. يعني بتاعة أيها حكومة بتحكم البر إن شاء الله حتى تكون حكومة خواجات.. وإلا بتاعت الحكومة اللي راحت والا بتاعت الحكومة الجديدة دي اللي اسمها حزب الشعب؟.. ويعني الحكومة دي يعني كانت جابت الميه من دارها..

وصاح العمدة:

ـ بس يا بهيم.. أنت بتتمهزأ؟..

وشعر العمدة بأنه يهان أبلغ إهانة.. وكان يغلي وكل بدنه النحيل يرتجف.. فتهدج صوته وهو يكاد يزأر:

ـ الله.. الله.. الله يا بلد.. ارقد يا ولد.. انجر هات العصايا من جوه.

وذهب عبد العاطي إلى داخل الدوار وعاد بعصا من الخيزران وقد لفت عليها أسلاك محكمة ووضع عبد العاطي بندقيته على السلم ثم هبط ببطء وهو يزفر ومن حوله الصمت ووقف ينظر إلى الأرض المبللة في احتجاج صامت ثم انفجر قائلا:

ـ الأرض هنا مبلولة.. بدلة الحكومة تتطين.. والا أقلع لك؟

فضحك الخفراء وأجابه العمدة بضيق:

ـ ارقد مطرح ما ترقد.. إياك ترقد ما تقومش..

وذهب عبد العاطي إلى أعلى السلم ورقد على البلاط ومشى إليه العمدة ببطء ثم أمسك العصا بإحكام ورفعها وهو ينظر إلى ظهر عبد العاطي، وانهال عليه بالعصا وظل يضرب وعبد العاطي يتلقى العصا في سكون.. وشعر العمدة بيده تؤلمه ووقف الخفراء ينظرون إلى عبد العاطي بإشفاق ونفوسهم تجيش بالألم.. ولم يصرخ عبد العاطي أبدا.. ورأى العمدة يرمي العصا بعيدا ويصيح:

ـ قوم بقى غور.. نازل فيك ضرب وكأني بألف لك سيجارة!.. كأني باهرش لك في حتة بتكلك.. جاتكو الغم.. روحوا كلكم مرفودين..

وابتسم عبد العاطي ثم قام ووقف مع زملائه منتصبا.

وعادت الضحكات تتردد في الحلوق دون أن تنطلق..

ومشى العمدة قليلا ليدخل الدوار وتحسس جيبه وأخرج بحرص بالغ ورقة مطوية.. كانت هي الورقة التي عاد بها من عند محمود بك وكأنما تذكر أنه جمع الخفراء ليقول لهم شيئا من هذه الورقة فالتفت إليهم وناداهم بغضب:

ـ تعالوا هنا.. روحوا لموا أختام البلد.. ختم.. ختم.. إياك تنسوا ختم.. وهاتولي الشيخ الشناوي.. ياللا.. انجروا من قدامي.. اخفوا من وشي.. وإياك تغيبوا والا ترجعوا من غير الشيخ الشناوي.. والا تنسوا ختم.. وهاتولي عبد الهادي والشيخ يوسف كمان.. وأبو سويلم.. وكل رجالة البلد.. مفهوم.. هاتوا الأول شوية دكك.. دخلوهم الحوش.. مفهوم.. وغور معاهم يا واد يا عبد العاطي..

ودخل العمدة إلى الدوار..وأخذ الخفراء يتغامزون ثم ذهبوا متضاحكين وأخذوا يجمعون من الدور بعض الدكك الخشبية وكل الأختام.

حمل الخفراء دكة من منزل محمدأفندي ودكة أخرى من منزل الشيخ الشناوي وثلاثة من دور الناحية البحرية.. ولم يفكر واحد منهم أن يطلب دكة من محمد أبو سويلم أو عبد الهادي أو الشيخ يوسف.

ولكن عبد العاطي وهو يجمع الأختام ألح على الشيخ يوسف وعبد الهادي أن يذهبا لمقابلة العمدة.

وانصرف عبد الهادي إلى محمد أبو سويلم وترك علواني مع الشيخ يوسف وعاد الخفراء بالشيخ الشناوي وببعض الذين يعرفون القراءة.

وقال العمدة للشيخ الشناوي:إن محمود بك أعطاه عريضة جديدة وهي أحسن ألف مرة من العريضة القديمة التي مزقها..ومحمود بك يطلب توقيعات أهل القرية على هذه العريضة..ثم ترسل بعد هذا إلى محمود بك ليجمع عليها توقيعات كل القرى التي يؤذيها نظام الري الجديد.

وبعد هذا يحملها محمود بك بنفسه إلى مصر ويقابل بها الحكام هناك.

وأضاف العمدة أن محمود بك يطلب أن تفرغ القرية الآن من التوقيع ووضع الأختام لتصل إليه العريضة على الفور ليستطيع تعديل المواعيد قبل دور الري الجديد.

ووقع الشيخ الشناوي على ورقة بيضاء دون أن يسأل.. ووقع وراءه بعض الذين يعرفون القراءة وأخذ الفلاحون يضعون الأختام تحت إمضاء الشيخ الشناوي.. والشيخ الشناوي يستعجلهم ويشتم من يطلب قراءة العريضة.. وبعد أن جمعت عدة أختام على العريضة قام الشيخ الشناوي من عند العمدة وانطلق في القرية بجسده المليء المكرش وسبحته يهمهم بالدعوات ويزعق في كل من يقابله أن يسرع بختمه إلى دوار العمدة للتوقيع على العريضة الجديدة.

ومر بمنزل محمد أبو سويلم فلم يجد أحدا على المصطبة ولم يلحظ نورا من شباك المندرة، ووقف على الباب نصف المغلق يقول:

ـ يا ساتر.. يا أهل الله.. يا ساتر.. يا أهل الله..

وصر الباب عندما دفعه الشيخ الشناوي وتقدم إلى ظلمات وسط الدار وهو ينادي على محمد أبو سويلم..

ومن باب في ركن الدار خرجت وصيفة وهي تحمل على رأسها لمبة الصفيح الصغيرة بلهبها الهزيل الأصفر الذي يتراقص مرسلا مع الشعاع الباهت خيطا من الدخان وطلبت من سيدنا أن يتفضل بالدخول إلى المندرة لتعمل له القهوة ولكنه سألها بعجب عن أبيها فقالت له وصيفة: إن عبد الهادي أيضا فات يسأل عنه.. يمكن أن يكونا معا في دار عبد الهادي أو دكان الشيخ يوسف.

فقال سيدنا بضيق: إن الدكان مغلق، ودار عبد الهادي بعيدة وهي على كل حال مظلمة، فأطرقت وصيفة لحظة وأسندت بيدها لمبة الصفيح على رأسها واقترحت عليه أن يتفضل بالجلوس في المندرة لتذهب هي تنادي أباها من جرن عبد الهادي..

وتردد سيدنا قليلا ولكن وصيفة سبقته إلى المندرة فأوقدت المصباح الكبير وأحكمت عليه وضع الزجاجة.

وجلس سيدنا وهو يقول:

ـ دي ليلة بحق وحقيق.. ليلة ما يعلم بيها إلا ربنا.. دوري عليهم يابنتي وهاتيهم.. والله أنا ما أنا قادرألف بقى.

وخرجت وصيفة من المندرة وهمست لأمها بكلمات ثم تركت الدار.

وعندما خرجت إلى السكة سمعت الشيخ الشناوي يقول: إنه لا يطيق المندرة في الحر والهواء على المصطبة أحسن..

وقعد خارج الدار في انتظارهم وهو يهمهم:

ـ دي ليلة بحق وحقيق..

وابتعدت وصيفة ومصباح الصفيح على رأسها يسكب على وجهها وكل بدنها شعاعا هادئا يخالطه ظلال الدخان..

كان قلبها يدق بخوف غامض وهي تسمع كلمات الشيخ «دي ليلة بحق وحقيق!»..

وفي الحق إنها كانت ليلة!..

- ٨ -

سارت وصيفة تقرع أرض القرية بشبشبها وترسل رناته المتوالية الرتيبة في الليل الصامت، ورأسها يرتفع فوق بدنها المنتصب محملا في حذر باللمبة الصفيح.

وكانت الأنسام هادئة فاترة والطريق بين البيوت المغلقة لا يغمره غير نباح الكلاب.. لم يكن في الطريق أحد من الخفراء..

ومن حين إلى آخر لاحظت وصيفة من دون أن تحول رأسها مرور بعض الفتيان.

وكانوا يتهامسون عندما صادفوها وهم عائدون من دوار العمدة إلى دورهم بعد أن وضعوا الأختام..

وتتبعها بعضهم بنظرات وهمس أنها تمضي إلى دار عبد الهادي وربما كانت قد خطبت له بالفعل، بينما قال رجل ثان إنها ذاهبة لتقابل محمد أفندي عند المقابر القديمة المخيفة.

فقال آخرون إن هذا لايمكن..

وانتهى الطريق الضيق الذي كانت وصيفة تمشي فيه بلا تفكير.. بين الدور المنخفضة الداكنة المغلقة الأبواب.

وانفسح أمامها الطريق ومال.

وبدأت تمشي في صف واحد من البيوت وعن يسارها الحقول..

وتمهلت وصيفة وهي تستقبل هواء الحقول بالمصباح على رأسها وهبت نسمات طلقة فأطفأت المصباح..

وفوجئت وصيفة قليلا ولكنها التفتت حولها فوجدت القمر يغمر المكان بضوء قوي باهر وسخرت من نفسها في ضحكة مكتومة لأنها حملت المصباح!

وسمعت همهمة تأتي من ناحية دار عبد الهادي فلم تمل إلى الجرن وواصلت سيرها إلى بيت عبد الهادي الذي تترامى أمامه حقول حوض الترعة المؤدية إلى المقابر القديمة والمقابر الجديدة.

وعلى كوم مستو من التراب وجدت عبد الهادي يجلس على حصير ومعه أبوها محمد أبو سويلم والشيخ يوسف.. وسمعت أباها يقول بضيق:

ـ دهدي.. كل حبة تقول لي كل لقمة.. جاك زقمة.. ما قلت لك اطفح أنت بالهنا والشفا..

وسمعت وصيفة ضحكات عبد الهادي تختلط بصوت البصلة التي يقضمها ورغيف الذرة الجاف يتكسر في يده..

واقتربت وصيفة فشمت رائحة المش والجبن القديم..

إن أم عبد الهادي بارعة في صناعة الجبن القديم ولجبنها ريح قوي يثير الشهية..

لو كانت أم عبد الهادي تبوح لها بسر الصنعة!!

وأخذ محمد أبو سويلم ينظر إلى الحقول الممتدة أمامه في ضوء القمر.. كانت تترامى وراء النخيل تحت الضوء الأزرق الداكن وفي وسطها تقوم القبور السوداء.

وهز محمد أبو سويلم رأسه وهو ينظر إلى الأديم الواسع العريض الذي يخفق بعيدان صغيرة من الذرة والقطن.

وقال في حزن:

ـ بقى عايزين يعطشوا لنا العيدان دي؟ دي لسه صغار ومحتاجة للميه!

ولكن محمد أبو سويلم قطع التأملات، واستأنف حديثا كان قد بدأه عن العريضة الجديدة التي سمع أن العمدة عاد بها من عند محمود بك، وأخذ يجمع لها الأختام والتوقيعات.

وبلغت وصيفة باب بيت عبد الهادي ووقفت على حافة الكوم تقول في حياء:

ـ سالخير.

واهتز عبد الهادي، والتفت الشيخ يوسف ومحمد أبو سويلم على المباغتة.

فلم يكن أحد قد شعر بها وهي مقبلة.

وحين سألها أبوها عما جاء بها في هذا الوقت المتأخر بعد صلاة العشاء، قالت له: إنها خرجت من لحظة لتبحث عنه، فالشيخ الشناوي ينتظره في الدار.

ورفع عبد الهادي يده عن الطعام، وحرك ضروسه ببطء وهو يقضم، ليخفي ارتفاع صوت الخبز الجاف ويسمع كل كلمة تقولها وصيفة.

ورآها وضاحة الوجه،وضيئة، لدنة العود.

وأخذ عبد الهادي ينظر إليها، وقلبه يدق، وفي أعماقه يسيل النغم.

كانت تقف أمامهم بقامتها المديدة، وشعرها الأسود الحالك الكثيف، ومحياها الناصع تشيع فيه الحيرة.. ومن ورائها ظلال النخيل والشجر الداكن عند الأفق، والشعاع الهادئ الأزرق ينسكب في هدوء حزين!

وجاشت نفس عبد الهادي وارتفعت نبضاته وتمنى لو دخلت وصيفة إلى داره ولم تخرج منها أبدا.

ليتها تعيش معه إلى آخر الزمان!

وقال في صوت حنون:

ـ اتفضلي يا وصيفة.. اتفضلي العشا.

فقالت بحياء:

ـ بالهنا لك.

وأشرقت نفس عبد الهادي على الفور بأشياء عديدة، ودهمته الرغبة التي لا تقاوم بأن يعيش سعيدا يملك أرضه بلا قلق، ويملك في داره امرأة حانية كوصيفة.. وصيفة.. لا أي امرأة أخرى!

وأوشك أن يقوم فيكوم جسدها البديع، ويضعها في الأعماق من صدره أو يلقيها في داخل داره لتظل فيه ولا تخرج من عنده.

وقام محمد أبو سويلم مستأذنا ليلحق بالشيخ الشناوي، ولكن عبد الهادي اعترض في ضيق وطلب من وصيفة أن تدخل إلى داره لتستريح، ويروح هو ليحضر الشيخ الشناوي.. وتردد محمد أبو سويلم قليلا ثم طلب من وصيفة أن تدخل لتسلم على أم عبد الهادي وتعود.

ودخلت وصيفة إلى دار عبد الهادي، فترقرقت أمامه الأحلام من جديد، وشعر في دمه بثمل لذيذ، وأضاء وجهه بغمرة من السعادة.

وتحرك عبد الهادي ليحضر الشيخ الشناوي ولكن محمد أبو سويلم اقترح أن يذهب هو، فقد تأخر الوقت.. وألح عبد الهادي عليه في البقاء فصمم محمد أبو سويلم أن يرجع إلى داره بعد أن تسلم وصيفة على أم عبد الهادي.

وقطع الشيخ يوسف المناقشة بسؤال لا مناسبة له عن محمد أفندي.. أين اختفى الليلة؟

وبهت عبد الهادي وتسمر في مكانه!

ولكن محمد أبو سويلم قال ببساطة: إن محمد أفندي في الدوار بلا شك.

وقال الشيخ يوسف: إنه ليس في الدوار، والخفراء كانوا يسألون عنه في كل ناحية.

واحتقن وجه عبد الهادي.

وخرجت وصيفة من عند أمه فبدأ يتأمل في كل بدنها ووجهها.. أيمكن أن تكون مقبلة من عند محمد أفندي؟ أيمكن ليده الثقيلة الناشفة أن تكون قد عبثت بجسدها هذا النقي الشريف؟!

وتمنى عبد الهادي لو أن كل لمسة من يد رجل لبدن امرأة تترك في مكانها حفرة شائهة واضحة كيلا ينخدع بها رجال آخرون بعد، أو يتعذب قلب عاشق طيب من الظنون!

لماذا لا يصنع الله شيئا كهذا.. بدلا من أن يسمح بحرمان الفلاحين من الماء؟!

ووقفت وصيفة أمام الرجال تنتظر أن يقوم أبوها.. وتحرك محمد أبو سويلم لينهض، ومن وراء وصيفة ينسكب نور القمر بالسكينة على الحقول، ويلقي على وجه وصيفة هدوءا نبيلا رائعا يهز القلوب.

وسألها عبد الهادي منفجرا عن محمد أفندي.

وروعت هي من لهجته التي تحمل اتهاما مخيفا، فأجابت بغضب واستنكار أنها لا تعرف ولا يهمها أن تعرف!

وشعر بها عبد الهادي تكاد تتزايل، وأحست هي بما يملؤه.

فعاد يسأل إن كان محمد أفندي لم يمر على أبيها بالدار.

أصحيح أنها هي كانت في الدار؟!

فلم تجب.. ورد محمد أبو سويلم في غلظة أن ابنته قالت مرة إنها كانت في الدار فلا داعي للكلام الكثير..

ومضى، ومن ورائه وصيفة.

ولم يستطع عبد الهادي أن يجلس في مكانه، وأحس الشيخ يوسف بقلقه، فطلب منه أن يقوم معه إلى دار محمد أبو سويلم ليقابل الشيخ الشناوي ويعرف ما حصل في «العريضة» الجديدة.

ولكن عبد الهادي كان مثقل النفس فقال باسترخاء:

ـ يعني حايحصل إيه؟! على كل حال أنا مش ماضي عالعريظة، وأهو الصباح رباح بقى..!

***

وفي الصباح كانت العريضة ما زالت في دوار العمدة يجمع عليها ما بقى من الأختام والتوقيعات.

وكان عبد الهادي يمشي في الطريق من حقله إلى القرية، فقابل بعض الفتيان، وسمع منهم أن العمدة ثائر يتعجل بقية الأختام ليذهب بالعريضة إلى محمود بك.. فقد أوصاه محمود بك أن تنتهي التوقيعات كلها ليلة البارحة وألا تبيت العريضة، ومع ذلك باتت العريضة و «البيه» غضبان من أجل ذلك.

وكان الشيخ الشناوي يطوف بنشاط، يطالب الناس أن يذهبوا بأختامهم إلى الدوار، والخفراء يجمعون من الحقول كل الفلاحين الذين لم يختموا بعد..

ورأى عبد الهادي جماعة من الفلاحين يشتمهم الشيخ الشناوي لأنهم لم يذهبوا بأختامهم وما زالوا يتساءلون في شك عن هذه العريضة الجديدة.

وقال عبد الهادي للشيخ الشناوي في استنكار:

ـ دهدي؟! مش تقرأ لهم العريظة في الأول؟

فصاح فيه الشيخ الشناوي:

ـ أعوذ بالله منك يا واد يا عبد الهادي! بقه أنت مناكف في كله؟ مالكوش دعوة بعبد الهادي يا أولاد.. انجروا انتو عا الدوار.

ومضى عبد الهادي إلى دار محمدأبو سويلم، وترك الشيخ الشناوي يجادل الواقفين.. ولكن بعضهم تباطأ، وبعضهم انسحب وراء عبد الهادي على الرغم من شتائم «سيدنا».

وظل «سيدنا» واقفا في الطريق يهز عصاه على الرءوس، ويلتقط أي رجل ذاهب إلى الحقل أو عائد منه، ويأمره بالذهاب إلى الدوار، ويأمر بعض الرجال بإحضار أختام النساء اللواتي يملكن أرضا.

وكان دائما يقول:

ـ اللي يحب الله ورسوله يروح بختمه عاالدوار.. ياللا يا كفرة! يا بلد زنادقة.

واستطاع الشيخ الشناوي أن يجمع عددا من الرجال ودفعهم بعصاه وشتائمه إلى الدوار.

أما عبد الهادي فقد ذهب إلى محمد أبو سويلم ووجده جالسا على المصطبة وحده يفكر.

وقبل أن يجلس عبد الهادي إلى جواره لمح وصيفة وحدها جالسة أمام الزير في وسط الدار تملأ القلة، فنادى عليها أن تسقيه..

وهمهمت وصيفة لنفسها:

ـ بقى أنت يا عبد الهادي دايما عطشان كده، وعايز تشرب من إيدي على طول!

وأقبلت وصيفة بالقلة، وعيناها تلتمعان بضحكة خفية وفي وجهها تختلط الانفعالات المبهمة.

ووقفت في فتحة الباب، ومدت يدها بالقلة، وأخذها عبد الهادي، ورفعها إلى فمه.

وقبل أن يشرب سأل محمد أبو سويلم إن كان قد وقع على العريظة.. فقال له محمد أبو سويلم: إنه لا يوقع ما دام لا يعرف ما بها..

وبدأ عبد الهادي يكرع الماء إلى حلقه ومحمد أبو سويلم يتساءل إن كان أحد في القرية يعرف شيئا عما في العريظة.

ومد عبد الهادي يده بالقلة إلى وصيفة، وأخذتها وصيفة بينما ارتفع صوت عبد الهادي:

ـ صحيح! ماحدش عارف إيه اللي في العريظة..

ثم أكمل متحديا بصوت مرتفع مشحون غليظ ونظراته تتدحرج إلى وصيفة: لكن يعني مش حاتبقى أحسن من اللي كتبها ابن الحمار؟

وانثنت وصيفة بقامتها المديدة المليئة البضة، وحملت القلة إلى داخل الدار.

وعاد محمد أبو سويلم يتعجب لأن أحدًا لا يعرف ما في العريضة.

ومع ذلك فكثيرون يوقعون ويرسلون الأختام.

وأخذ يفضي بمخاوفه من ملعوب جديد يعده العمدة.

ثم قال فجأة:

ـ اسمع يا عبد الهادي.. البيه محمود حايروح بيها مصر.. تروحش أنت معاه؟ أي والله حقك تسافر أنت معاه، وأهو أخوك مصطفى أفندي هناك وتبقوا تشوفوا العبارة سوا.. تسافرش يا عبد الهادي؟ أنا

أصلي ما أحبش العرايظ المرفوعة للحكومة أبدا..

فقال عبد الهادي بهدوء:

ـ دانا وحداني يابا محمد! وأسيب أرضي لمين؟ داحنا داخلين عاالشهر اللي في رقبته سنة.

وأجابه محمد أبو سويلم:

ـ طيب يا جدعان.. شوفوا لنا العريظة الجديدة دي فيها إيه حتى! هوه محمد أفندي اتخفى فين من امبارح العشا؟ حاكم أنا ما أحبش أروح ناحية المخروب دوار العمدة ده.. بت يا وصيفة اجري شوفي لنا محمد أفندي.. اجري.

وتململ عبد الهادي بينما نصبت وصيفة طولها، وأقبلت من داخل الدار ووقفت على الباب.

ونظرت وصيفة إلى عبد الهادي في اضطراب، واختلجت وظهرت عليها الحيرة.

وأخيرا لوت رأسها وبدأت تسير في الطريق.

وصاح عبد الهادي يستوقفها وهو يقول في حنق:

ـ خبر إيه يابا محمد يا أبو سويلم؟ يانهار أزرق يا جدعان! تبعت وصيفة لمحمد أفندي؟ دي العشا قربت تِدَّن! دي دهولت إيه دي اللي أنت بتدهولها، وزرواط إيه ده اللي أنت بتزروطه؟! يا سنة سودة!!

ودهش محمد أبو سويلم لانفعال عبد الهادي المفاجئ، وقال متعجبا:

ـ عشا؟ عشا إيه؟ سلامتك! إيه يا عبد الهادي؟ أنت حصل عندك لطف؟! أنت...

كان الضحى يملأ القرية.. ولكن الكلمات انفجرت من فم عبد الهادي بلا حساب.. وقبل أن يفرغ محمد أبو سويلم من كلامه، قال عبد الهادي بصوت أقل ارتفاعا:

ـ خليكي أنت مرزية يا وصيفة.. لما أروح أنا أشوف الخبر إيه.

وعادت وصيفة إلى دارها.. وهي ما تزال مضطربة وقد امتزج في نفسها سرور خفي بخيبة أمل غامضة.

وقام عبد الهادي ومشى قليلا وهو يتلفت وراءه.

كان أمامه في الطريق من بعيد ولد يركب حمارا ويجري به، وناداه عبد الهادي فلم يسمع الولد..

ورأى عبد الهادي خلفه ولدا آخر يسوق حمارا محملا بالسباخ فأمسك بالحمار وجره إلى جوار الحائط وطلب من الولد أن يذهب إلى الدوار لينادي محمد أفندي من هناك.. وجرى الصبي مسرعا، وعاد عبد الهادي يجلس في مكانه على المصطبة صامتا لا ينظر إلى أحد.. وبعد قليل كان الصبي أمامه يلهث قائلا: إن محمد أفندي ليس في الدوار، والعمدة يسأل عليه أيضا، والخفراء لم يجدوه لا في الغيط ولا في البيت.

وصاح عبد الهادي وعيناه تقتحمان مدخل دار محمد أبو سويلم وتستقر على كيان وصيفة:

ـ أمال راح فين سي محمد أفندي دلوقت؟! راح فين يا ناس؟!

وأخذ يصر على أسنانه.

وشحب وجه وصيفة وازداد اضطرابه.

وخرجت بطة سمينة تتهادى على عتبة الدار، ومن ورائها إوزة.. ونقرت قدم محمد أبو سويلم.. وتبرم ودفعها بقدمه وطلب من وصيفة أن تأتي لتأخذ البطة والإوزة.. وقام عبد الهادي فهش البطة والإوزة وأدخلهما الدار.. وألقى نظرة ثابتة على وصيفة وهي ترمي كل ثقلها على يد الرحى، وتديرها طاحنة بين شقيها حبات من الذرة، وكان طنين الرحى يملأ أذنيه، بمثل ما يملأ صدره من طنين.

وكاد يصرخ بأعلى صوت ليسألها إن كانت أمس قد خرجت من بيتها بعد العشاء لتلقى محمد أفندي، وإن كانت على موعد معه هذا الصباح.. ولكن عبد الهادي وقف محتدما في صمت وظل واقفا في الباب خارج الدار.

ونهضت وصيفة من أمام الرحى ثم اختفت عن عيني عبد الهادي في ركن من الدار وعبد الهادي واقف إلى جوار المصطبة!

وطلب محمد أبو سويلم من عبد الهادي أن يجلس فلم يسمع كلامه، وقال وهو ما يزال واقفا يحملق داخل الدار:

ـ يمكن خضرة تعرف.

فزعق فيه محمد أبو سويلم:

ـ الله! ما تقعد!. ما لك مش على بعضك كده!.. طب روح أنت شوف إيه اللي في العريظة!

ورد عليه عبد الهادي بغيظ:

ـ أصلك ما انتش عارف يابا محمد.

ثم مضى في الطريق مسرعا دون أن ينتظر كلمة من محمد أبو سويلم.

***

وأمام دكان الشيخ يوسف، رأى علواني يستند على بنك الدكان والشيخ يوسف ينهر بنتا صغيرة ويؤكد لها أنه أعطاها زهرة غسيل بما يعادل خمس بيضات لا ثلاثا..

وانصرفت البنت مستسلمة، وارتفع صوت الشيخ يوسف ينادي عبد الهادي وهو يفوت أمام الدكان مندفعا في طريقه.

ووقف عبد الهادي، واتجه إلى الدكان فبادره الشيخ يوسف قائلا:

ـ البلد ما خلاص كلها ختمت عاالعريظة! والعمدة استغنى عن أختامنا وإمضانا وبعت العريظة لمحمود بيه! العريظة راحت ولا حد يعرف إيه اللي فيها! عجبي عليكي يا بلد!

وقبل أن يجيب عبد الهادي قال علواني متحمسا في عتاب:

ـ يعني يا عبد الهادي لو كنتو سمعتو شورتي من الأول وخليتوا عم الشيخ يوسف كتب العريظة، مش كان أحس؟ أهه كتابة محمد أفندي ما لدتشي على البيه! شوفتو بقى؟ وأهه العريظة طلعت من البلد ولا أحد عارف إيه اللي فيها.. ده عم الشيخ يوسف محسور قوى! والله يا عم الشيخ يوسف ماحد عارف مقامك ومقدارك في البلد دي غيري أنا!

فقال الشيخ يوسف غاضبا:

ـ بس يا واد أنت يا عرباوى! اخرس جاك حسرة في بطنك ما تقوم.. مقامي إيه ياولد؟ ياواد دا البلد كلها عارفاني وعارفة مقداري.. وأنا مفهوم ومعلوم في العب ده كله.. يا واد دا اللي قروا معايه في الأزهر...

ثم سكت قليلا، وبلع ريقه، وارتفع صوته ليكمل:

ـ اللي قروا معايه في الأزهر، واللي أنا قريت أكثر منهم، بقوا دلوقتي كلهم قضاة ومفتشين ومدرسين وأخيبها واحد فيهم بقى عمدة!

وحاول علواني أن يعتذر وأن يوضح وجهة نظره، ويؤكد احترامه له ولكن الشيخ يوسف لم يلتفت إليه، واتجه إلى عبد الهادي يسأله:

ـ فين يا اخويا محمد أفندي؟ الواد دياب أخوه فات من قيمة شوية يسأل عليه هنا، والغفر قالبين الدنيا عليه.

فقال عبد الهادي بغيظ:

ـ أهوه انخفى! إياك أمال ينخفي من البلد قبل ما يشطب عليها!

وضحك الشيخ يوسف طويلا، فنظر علواني بدهشة ورضا وضحك هو الآخر..

والشيخ يوسف رجل لا يكاد يضحك، وإن كان يقول كلاما تضحك له القرية في بعض الأحايين.

وعلى أى حال فقد هزه غضب عبد الهادي على محمد أفندي..

ومحمد أفندي هو في القرية الرجل الوحيد الذي يقبض أربعة جنيهات في الشهر، ومع ذلك فلا ينفق منها شيئا.. فهو يذهب إلى الحقل مع أخيه دياب الذي يشاركه في معاش واحد ويعملان معا ويأكلان معا مما تنتجه الأرض ويدخر محمد أفندي بعد هذا مرتبه كاملا: الجنيه على الجنيه، حتى أصبح مشهورا في القرية بأنه يملك مالا!

وقد تعود محمد أفندي أن يقرض الفلاحين عندما تلح عليهم الحاجة، أو يشتد الصراف في طلب المال، ولكنه يرتهن الأرض في مقابل الدين ويركبها، حتى إذا عجز مدينه عن السداد اشترى الأرض المرهونة.

وهكذا اقتنى باسمه واسم أخيه فدانا وعشرين قيراطا غير القراريط الخمسة عشر التي ورثها عن أبيه هو وأخوه.

وما زال محمد أفندي يرتهن تحت يده نصف الأرض التي يمتلكها الشيخ يوسف.

والشيخ يوسف يضع القرش على القرش من أرباحه القليلة لاستخلاص أرضه من تحت يد محمد أفندي بعد أن ضاع من أرضه جزء كبير أخذته الحكومة لعدم دفعه ضريبة المال.

وفي الحق إن قلبه امتلأ بالمرارة منذ أخذت منه الحكومة هذه الأرض ولكنه يمتلئ بالكبرياء، فقد هز الحكومة حقا حين امتنع ـ كآلاف غيره من الفلاحين ـ عن دفع ضريبة المال لحكومة تصنع الأزمة للمصريين وتضعهم في السجون وتصنع الجوع لتتعاون مع الإنجليز..

أما عن الأرض التي أخذها محمد أفندي فللشيخ معه شأن آخر، وهو يحلم بأن يستعيد ذات يوم حيازة ما أخذه منه محمد أفندي، ولكن محمد أفندي معجب بهذه القطعة، وهو يعلق الآمال عليها ويلح كل يوم على الشيخ يوسف أن يبيعه هذه القطعة!

ولم يشْك الشيخ يوسف لأحد أبدا، وإن كان ليحتفظ في أعماقه بحنق هائل على محمد أفندي وأخيه دياب.. ومن أجل ذلك فلم يكد عبد الهادي يتحدث بغيظ وصراحة عن محمد أفندي حتى شعر الشيخ يوسف بأنه يرسل ـ على الضحكات ـ زفرات متراكمة من كابوس ثقيل.

وقال الشيخ يوسف من خلال ضحكه:

ـ آه يا أخي! ده بارد برود! أبوه مات من أكل المش والعيش الدكر وهوا قال داير ياكل ملبن ويشتري أرض! لو كان أمال يخفى من البلد خالص قبل ما يشطب عليها على رأيك! بقى يا ناس ينقلوا خاله الشيخ حسونة في آخر الدنيا، الشيخ حسونة الراجل العاقل الأمير يتنقل، والمخفي ده يقعد لنا؟ صحيح ما يقعد عا المرابط غير شر البقر! أنا عارف برود إيه ده ياخواتي؟ نصايب إيه دي؟!

ثم قطع ضحكاته قليلا وزفر بشبه همس:

ـ ده يا عبد الهادي عايز يسرقني سرقة! ناوي يخطفني خطف! والله يا اخويا عايز ياخد بنتي علشان يركب على الأرض كلها! داوشني كل يوم، قال عايز يتجوزها من بكره! عايز يورثني ابن الحمار!

وكان الشيخ يوسف يعرف أنه يكذب! فمحمد أفندي لم يفاتحه أبدا في الزواج من ابنته.. وعلى العكس كان الشيخ يوسف دائما يلف حول الموضوع ويدور ويغري به محمد أفندي، ولكنه لم يكن يجيبه إلا بابتسامة تحمل كل الخيلاء والزهو والاعتذار!

على أن الشيخ يوسف عندما قال هذا الكلام لمح الراحة تشيع في وجه عبد الهادي، وانبسطت نفسه لأن عبد الهادي صدق كلامه عن محاولات محمد أفندي للزواج من ابنته!

وقال عبد الهادي وهو يبستم:

ـ حِكَم!...

فتدخل علواني، ومال على الشيخ يوسف قائلا بعد طول الصمت، كأنه وجد الحل:

ـ تحب أضربه لك يا عم الشيخ يوسف؟

ـ وانزعج الشيخ يوسف من الفكرة.. وباغته روع كبير أن يفكر علواني ـ أو واحد من أمثاله الضائعين ـ في ضرب رجل له مقام كمقام الشيخ يوسف، وله في القرية أرض، وكلمة! فصاح في علواني مشمئزا:

ـ اخرس يا عرباوي يا خطاف يا بتاع السكك! هيه يا واد كلابها سابت على ديابها؟.. تضربه؟ تضربه ازاي؟ أعوذ بالله من الشيطان!.. يا واد سيبك بقى من شغل العرب ده ياواد!

ودهم الشيخ يوسف استنكاف مفاجئ لأنه ترك علواني يقف معه، ومال إلى عبد الهادي يطلب منه أن يدخل الدكان ليجلس قليلا فشمس الضحى أخذت تحمى.

ولكن عبد الهادي اعتذر لأنه منصرف إلى الغيطان، فألح الشيخ يوسف.. وقطع علواني حديث الشيخ فاعتذر عما قاله عن محمد أفندي، وألح على عبد الهادي أن يدخل دكان الشيخ يوسف.

وسكت الشيخ يوسف ووقف يتأمل علواني..

ولاحظ عبد الهادي حيرة علواني وخجله وضعفه أمام الشيخ يوسف فباسطه ضاحكا وهو يقدم إليه سيجارة ملفوفة:

ـ خد! خد محروقة يا شيخ العرب! خد عفر الهبابة دي..

وتناول علواني السيجارة وهو يطلب من عبد الهادي في تأثر أن يؤكد للشيخ يوسف أنه شيخ عرب حقا وليس خطافا وأنه من نسل الإمام علي.

وخبط الشيخ يوسف كفا بكف، وصاح في علواني:

ـ آه؟! انته؟! أنت من نسل الإمام علي؟! بقى أنت من الأشراف يعني؟ يا أخي إياك تنشرم في قلبك!

وضحك عبد الهادي فابتسم علواني وقال للشيخ يوسف متملقا:

ـ والنبي يا عم الشيخ يوسف دا أنا عايز أخدمك وبس.. ده كل مقصودي.. أنا أحب اللي تحبه وأعادي اللي تعاديه بس! طب هات سيجارة.. هات علبة دخان علشان خاطر عبد الهادي، وحياة النبي ده أنا لما الميه انقطعت مابقتش حامل هم حد في البلد قد همك انته.. هات أمال! ده أنا اللي رحت رويت أرضك ومهمنيش.. ما تجيب ورقة الدخان أمال!.. ربنا يزود لك القيراطين اللي فضلوا لك ويخليهم لك فدانين.. متجيب الدخان بقى.

وابتسم الشيخ يوسف وأعطاه علبة الدخان، وأخذ يكتب في دفتر الحسابات الطويل وهو يقول:

ـ أيوه يا واد اتدحلب! اتدحلب زي التعلب!

وضحك علواني برضا، وهو يضع علبة الدخان في جيبه..

وعاد عبد الهادي يحاول أن ينصرف، ولكن الشيخ يوسف استبقاه، فقد كان يريد أن يتكلم معه في الحالة التي أصبحت لاتطاق.. وحدثه طويلا عن القطن الذي بدأت لوزاته تترنح على الأعواد القصيرة الغضة.

وأخذ الشيخ يوسف يبدي مخاوفه من أن تعطش حقول القطن على الترعة كما عطشت حقول الذرة على النهر الصغير فإن حدث هذا فهو الخراب!

ثم هز رأسه وأكمل:

ـ والبلد مش ناقصة خراب! القطن ما راح ياولاد! ده التراب بقى أغلى منه يا عبد الهادي! ومن يومها وسوق البنات وقف.. البنات حاتبور، والأرض رخره حاتبور! يادي السنة اللي زي بعضها يا اخواتى!

وأحس علواني بأن الحديث لا يعنيه ولا يحتمله ـ وكان يقف شاردا في صمت ـ فتحرك دون أن يشعر به أحد، وانصرف إلى حقل البطيخ الذي يحرسه.

وشعر عبد الهادي بقلق غريب يلفحه، ولم يجد كلاما يرد به على الشيخ يوسف.

وكان كل ما قاله الشيخ يوسف صحيحا: فالقطن كالتراب بلا قيمة، ولو ظلت مواعيد الري كما حددتها الحكومة فمن الممكن أن تبور الأرض وتبور البنات!

وسيطرت عليه الكآبة الغامضة ولبث في مكانه بعض الوقت بلا كلام، ثم تحرك لينصرف فلم يقل الشيخ يوسف شيئا.. وكان هو الآخر جالسا داخل الدكان ينظر في دفتر الحسابات بشرود.

ومضى عبد الهادي، ووجد نفسه يتجه إلى دار محمد أبو سويلم..

وفي الطريق فاجأته فكرة أزعجته، فلربما كان محمد أبو سويلم قد أرسل ابنته وصيفة لتبحث عن محمد أفندي.

وعلى الرغم من أنه يصدق أن محمد أفندي تكلم في زواج ابنة الشيخ يوسف، فقد زحف الحنق في دمه.. وكانت الشمس تلفح قفاه، وأحس بضيق واضطراب.. وتوالت دقات قلبه وأسرع في مشيه.

وعلى مصطبة محمد أبو سويلم وجد الرجل جالسا ومعه محمد أفندي ووصيفة تصب القهوة.

وذهل عبد الهادي!

كان يلاحظ منذ زمن أن وصيفة حينما تقدم القهوة إلى الرجال، لا تظهر أمامهم، وإنما تمد يدها من الباب بالصينية، وكل جسدها داخل الدار.. ولكنها هنا بنفسها! بكل جسدها تقدم القهوة، وتصبها أيضا!

وكانت هذه أول مرة يرى فيها وصيفة تصب القهوة على المصطبة لرجل غير أبيها، ومن الواضح أنها إنما تصنع هذا لمجرد أن محمد أفندي موجود..

وسعل عبد الهادي بشدة وألقى السلام باقتضاب..

واهتزت وصيفة عندما رأته أمامها فجأة، ومال منها الفنجان، فتركته يقع على جلباب محمد أفندي، وأسرعت إلى داخل الدار تهرب من وجه عبد الهادي..

وضحك محمد أفندي بتؤدة وهو يدفع بيده الفنجان المنسكب قائلا:

ـ خيرا! طب وانكسفتي ليه؟ ده معناها إننا حننكسي إن شاء الله!

وشعر عبد الهادي بثقل يهبط على قلبه، ولاح له محمد أفندي مرهقا إلى آخر حد ونظر في وجهه بضيق وكأنه اكتشف أنه ثقيل الظل معذب.

وتمنى أن يطرده!

ولم يكن عبد الهادي قد جلس بعد، فقد ظل واقفا في الشمس أمام المصطبة المغمورة وحدها بالظل بينما أشعة الشمس تتوقد في كل مكان.

وطلب محمد أبو سويلم من عبد الهادي ألا يقف في الشمس، وأفسح له مكانا بينه وبين محمد أفندي، وابتسم محمد أفندي وهويقول متلطفا لعبد الهادي إنه يقف في الشمس لأنه يمكن أن يكون عليه ذنب.

ولم يبتسم عبد الهادي ونقرت نظراته وجه محمد أفندي.

كان معطرا حليقا وشعره يلمع تحت طاقيته البيضاء المتأخرة إلى الوراء عن منبت الشعر.

وانحط عبد الهادي على المصطبة بين محمد أبو سويلم ومحمد أفندي وتنهد، وأمامه مع الشارع يرتفع صهد النهار.

وفجأة ارتفع صوته جافا غليظا:

ـ كنت فين يا محمد أفندي من ليلة امبارح؟ بتغطس فين كده؟..

لا امبارح بالليل ولا النهاردة من صباحية ربنا حدّ شافك والدنيا كلها بتدور عليك!

ولم يرد محمد أفندي.. وارتعدت يده وهو يمسح صدره بحركة تحاول أن تكون مطمئنة..

وتوالت الدقات في صدر عبد الهادي حتى خيل إليه أن محمد أفندي الجالس إلى جواره يكاد يسمعها دقة بعد دقة..

وأوشك عبد الهادي أن يصرخ في وجه محمد أبو سويلم ليسأله إن كان قد أرسل وصيفة فعادت بمحمد أفندي..

ولكن محمد أبو سويلم كان يشرب قهوته في هدوء.. دون أن يلتفت إلى عبد الهادي.. وسكت محمد أبو سويلم لحظة ثم قال:

ـ تعرف يا عبد الهادي عترنا فيه إزاي؟ في دكانة المزين! البت خضرة جت هنا من قيمة ساعة قلت لها انجري دوري لنا على محمد أفندي، غطست شوية وقبت به.. يا أخي البت دي زي العفاريت الزرق..

وتمتم عبد الهادي:

ـ خضرة؟!

وسكت عبد الهادي، والتفت بهدوء إلى محمد أفندي فوجده يحك ذقنه المعطرة بحركة رشيقة..

وهز عبد الهادي رأسه، وبدأت الظنون تثقله: إن معرفة خضرة بمكان محمد أفندي، وظهور وصيفة على الباب لتصب بنفسها له القهوة.. كل هذا جعل عبد الهادي يفكر في أشياء مرعبة..

ثم خروج وصيفة في ليلة البارحة بحجة أنها تنادي أباها.. ما هذا؟!

ألم يكن بينها وبين محمد أفندي موعد دبرته خضرة ـ وخافت أن يعود أبوها إلى داره فجأة فلا يجدها ـ فلفقت حكاية اللف على أبيها لتقول له في النهاية إنها غابت عن الدار لأنها كانت تبحث عنه؟!

وفكر عبد الهادي أن يترك الدنيا وما فيها، ويقوم إلى عاصمة الإقليم فيزور أخت وصيفة، ويحكي لها، ويتكلم مع زوجها في الموضوع.

وتحرك في مكانه بالفعل.. ولكنه عاد فشعر بنفسه مقيدا.. إنه لا يستطيع أن يترك الدنيا وما فيها هذه الأيام، والشغل كثير، وأعواد القطن والذرة مهددة بالجفاف..

وقرر أن يدخل الآن دار محمد أبو سويلم فيمسك بيد وصيفة ويسألها عن سر خضرة، ويظل يضربها بالكف على صدغها، وبالرجل في بطنها حتى تتوب وينعدل حالها المائل!

ـ تتوب؟! تتوب عن ماذا؟..

إنه لا يعرف بالضبط إن كانت خضرة قد سحبتها إلى محمد أفندي، أم أن محمد أفندي كان مع بنت أخرى أمس!

وعلى كل حال فالشيخ يوسف يقول: إن محمد أفندي يخطب منه ابنته.. فهل يخطب محمد أفندي من هناك ومن هنا؟

ومد عبد الهادي رجله على المصطبة وهو يقول في زفرة قوية:

ـ هيه.. دوَل! دول يا سيدي دول! الأيام دول..

ونظر إليه محمد أبو سويلم ليقول له: إن محمد أفندي وافق على السفر إلى مصر مع محمود بك حين يذهب بالعريظة إلى مصر.

ولم يجب عبد الهادي.

ومات الحديث شيئا فشيئا على شفاه الرجال الثلاثة..

وتحرك عبد الهادي فجأة ليقول بصوت مرتفع:

ـ حاجات!! أنا غويط يا سي محمد أفندي! فاهم حاجات كتير قوي، الناس اللي يخطبوا هنا وهناك ويعشموا البنات هنا وهناك! حاجات باردة.

ودهش محمد أفندي ومحمد أبو سويلم، وتساءل عن الحكاية، ولكن عبد الهادي لم يقل شيئا..

وأحس بندم كبير لأنه لا يستطيع أن يقول شيئا..

وقال له محمد أبو سويلم متعجبا:

ـ خبر إيه يا عبد الهادي؟ أنت جرى لك إيه الأيام دي! زي ما يكون جالك لطف.. باقول لك محمد أفندي مسافر مصر مع البيه علشان العريظة، بعد البلاد اللي حوالينا ما تختم عليها.. باقول لك كده تقوم تقولي بنات وهبابات؟؟.. قطيعة تقطع البنات وخلفة البنات يا شيخ!..

وألح الندم على صدر عبد الهادي.

وارتاح محمد أفندي بعض الشيء حين سمع هذا الكلام من محمد أبو سويلم.

ولكن عبد الهادي وقف وهو يصطنع الابتسام وقال متحديا شامتا:

ـ لكن محمد أفندي حايسافر إزاي مع البيه؟ حتسافر معاه إزاي بعد ماقال عليك ابن الحمار يا سي محمد؟

وارتعش محمد أفندي من الغيظ والمفاجأة ووقف يصرخ في صوت يائس جريح:

ـ اسمع بقى يا عبد الهادي؟ أنت داير تعمل لي شنعة بالكلمة دي من زمان، يعني غرضك إيه يعني؟ قوللي كده غرضك إيه؟ غرضك تخليني مسخة؟ أما برود!

ـ أنت اللي عامل نفسك مسخة وداير ورا خضرة!

ـ سامع الكلام يابا محمد؟ غلطش أنا في حقه دلوقتي؟.. سامع يعني؟ بقى ده مرجلة دي واللا دي مسخرة وقلة حيا كمان؟!

وزعق محمد أبو سويلم في ضيق، وهو يقف بينهما يأمرهما أن يكفا عن هذا الكلام الفارغ.

وبدأ يؤنب عبد الهادي على طريقته في الكلام مع محمد أفندي، وهزهما وأجلسهما وهو يقول:

ـ خبر إيه؟ مالكو مع بعض كده زي الديوك! هو فيه تار بايت؟..

ـ هوه اللي عامل ديك!! هو اللي عامل في البلد ديك.. على رأي لغة العريظة المنيلة اللي كتبها! العريظة اللي قال البيه على اللي كتبها دا ابن...

وعاد محمد أفندي إلى هياجه فشخط محمد أبو سويلم في عبد الهادي مقاطعا وطلب منه أن يصفي قلبه من ناحية محمد أفندي.. ولم يكن في قلب عبد الهادي شيء..

وقال عبد الهادي: إنه لا يحمل شيئا لمحمد أفندي ولكنه لا يرضى عن سيرته.. وأكد محمد أبو سويلم لعبد الهادي أنه يغلط في حق محمد أفندي كثيرا وطلب منه أن يعامله كأخ.

ومال على محمد أفندي وطلب منه أن يصفي ما في نفسه، وأكد محمد أفندي أن نفسه صافية وأنه يحب عبد الهادي ويفخر به، ولكن عبد الهادي الذي تعمد إهانته من حين إلى حين.

وقال محمد أبو سويلم لعبد الهادي:

طب قوم يا عبد الهادي حب على راسه قوم.. جاتكو الغم.. دانتو أخوات!

وقام عبد الهادي متثاقلا..

وظل محمد أبو سويلم يكرر:

ـ العبارة بسيطة.. دانتو أخوات!

ورن كلام محمد أبو سويلم ونبراته الحانية المفعمة في أعماق عبد الهادي.. ووقف بعض الوقت حائرا لا يعرف ماذا يصنع، وتقدم منه محمد أفندي، وعينه تفيض بشعاع حزين.. ومال عبد الهادي على رأس محمد أفندي فقبلها معتذرا..

وقال محمد أفندي في طيبة وهدوء:

ـ أستغفر الله! أنت اللي حقك عليّ؟ أنا اللي محقوق لك..

والتصق الجسمان وتعانقا.

وإذ كانا يرتميان على بعضهما في اعتذار متبادل، شعر عبد الهادي بحب مفاجئ لمحمد أفندي يغمره، وأحس محمد أفندي كأن قلبه لم يحمل لعبد الهادي غير الحب أبدا.

وكانت شمس الظهر قد غمرت المصطبة، والصهد يتوهج في كل مكان..

فاستأذن محمد أفندي قائلا: إنه سيذهب إلى العمدة الآن وبعده إلى محمود بك من فجر اليوم التالي ليعرف موعد السفر.

وقال عبد الهادي بصوت رقيق مشحون بالعطف والأمل:

ـ تروح وتيجي بالسلامة يا محمد يا خويا.

وانصرف محمد أفندي، وراءه عبد الهادي.

ودخل محمد أبو سويلم إلى داره، ونفسه تفيض بشعور حنون..

وعندما ابتعد الرجال الثلاثة عن بعضهم كان في أعماق كل واحد منهم إحساس كبير بأن قلبه عامر بدفء خارق يمنحه القوة والكرامة، والأمن، والسلطان، والمقدرة!

في الصباح.. لم تكد الشمس تشرق، حتى كان محمد أفندي يسير إلى محمود بك في عزبته المجاورة.

لم يأخذ طريق الجسر الطويل الذي تسلكه الحمير عادة وإنما مشى على رجليه في طريق ضيق، خلال الحقول المحصورة بين حوض الجسر وحوض الترعة..

وعلى جانبي الطريق الضيق كانت بقرة هزيلة أو ثور أعجف يجر المحراث متثاقلا ببطء فيهوي المحراث بسكينه الكبير على الأرض السوداء ويقلبها.. ومن وراء المحراث امرأة أو رجل ينثر الحبوب، وفي القلب دعاء وأمل يخالجه الخوف من المجهول!

وفكر محمد أفندي بأسف أن هذه الحبوب يمكن أن تموت في الأرض إن لم تعدِّل الحكومة مواعيد الرى!

أتموت هذه الحبوب قبل أن تتمدد في الأرض، وتخرج منها الأعواد الجميلة الخضراء المثقلة بالكيزان والخير؟!

ولكن العريضة التي يحملها معه ربما سمحت لهذه الأعواد بأن ترى الشمس وتنمو وتزدهر وتمتلئ بالكيزان الجديدة.

إن حياة القرية وحياته هو نفسه الآن في يد محمود بك..

أيمكن أن تكون حياة الناس والزرع كلها في يد رجل واحد؟ هكذا؟.. حكم!!

وهز محمد أفندي رأسه وقلب يديه وخطواته تبطئ على الأرض، ولكنه تذكر فجأة أنه يجب أن يكون عند محمود بك قبل أن يقوم البك من نومه..

وأسرع محمد أفندي.. وكان يعدو في الطريق الضيق بين الحقول، وأوشك عدة مرات أن تقع قدمه في الأرض المبذورة فتماسك حتى لا يفسد بزلة من قدمه؛ مستقبل عدة حبات ستصبح فيما بعد أعوادا تحمل الكيزان..

ولم يكد محمد أفندي يصل إلى العزبة حتى استقبله محمود بك..

وقبل أن يسأله محمد أفندي عن موعد السفر قال محمود بك:

إنه جمع عددا طيبا من التوقيعات طوال نهار أمس، ومن الممكن أن يسافر اليوم في قطار الظهر لتقديم العريضة إلى رئيس الوزراء في مصر..

واهتز محمد أفندي وهو يتخيل نفسه ذاهبا مع محمود بك لمقابلة رئيس الوزراء! واستهال الأمر، فعاد يسأل محمود بك إن كان سيقابل رئيس الوزراء حقا! فرد عليه محمود بك بجفاء مؤكدا أن العريضة مقدمة لرئيس الوزراء.

وسكت محمود بك قليلا قبل أن يطلب من محمد أفندي أن يدبر له أجر السفر والأتعاب، فما دام سبب سفره هو قضاء مصلحة لعدة بلاد، فعلى كل بلد أن تدفع شيئا وعلى بلد محمد أفندي أن تتحمل عشرة جنيهات من مصاريف الرحلة..

وتردد محمد أفندي قليلا قبل أن يقول شيئا.

وظل يفكر ومحمود بك يكلمه بتردد تقطعه الخشونة ولهجة الأمر في بعض الأحايين..

وبعد قليل نهض محمد أفندي من عند محمود بك، بعد أن اتفق على المقابلة في محطة سكة الحديد بعاصمة الإقليم في موعد قيام قطار الظهر.

وأسرع محمد أفندي بالعودة إلى قريته وأخذ يجري هذه المرة بالفعل، فإذا تعب استراح على المشي السريع.. ومر على أخيه دياب وهو يعزق القطن في الحقل بحوض الترعة.. وصاح فيه بعجلة:

ـ هات الركوبة يا واد والحقني عالدار.

وتابع محمد أفندي سيره إلى القرية مستعجلا، وأمام عينيه تتخايل صور غريبة مبهمة عن القاهرة التي لم يرها منذ سنتين، وعن رئيس الوزراء الشبح الذي يصب الموت على الآلاف وهو جالس في مكتبه بهدوء يأكل «الساندوتش» لفرط ما لديه من أعمال.

أما دياب فقد ترك فأسه، وهرول إلى رأس الحقل، ودخل الزريبة التي يبيت على ظهرها يحرس البهائم في الصيف، ففك رباط الجحشة الصغيرة البيضاء بحذر واهتمام، وأمسكها من رقبتها في رفق، وأخرجها من الحظيرة.

ودياب يدرك تماما إلى أي حد يهتم أخوه محمد أفندي بهذه الجحشة.. فمحمد أفندي يشتري لها الفول من البندر، ويقدم إليها العلف بنفسه، وهو أحيانا يضع في فمها قطعا صغيرة من رأس السكر! ومحمد أفندي يأخذها بنفسه كل أسبوع فيغسل ظهرها في النهر بالصابون.

وما زال دياب يذكر لنفسه ـ بخجل ـ أنه منذ سنوات حاول أن ينشئ بينه وبين هذه الجحشة علاقة من هذا النوع الذي ينشأ في القرية أحيانا بين بعض المراهقين والطيور والحيوانات الصغيرة.. وضبطه محمد أفندي مع الجحشة فضربه بالكف والرجل وصاح فيه أن الجحشة ليست كحمير السباخ!

وعلى أي حال فلم يعد دياب يحاول شيئا كهذا الآن.. فقد كبر، ووفرت عليه خضرة كثيرا من هذا العناء! ولم يعد منذ دخلت خضرة معه الزريبة يفكر في الطيور أو الحيوانات الصغيرة.

ساق دياب أمامه الجحشة البيضاء، فقفزت في حركات رشيقة وركضت، وهو وراءها يركض.

لم يحاول أبدا أن يركبها.. فقد كان يعرف أنها ليست كحمير السباخ..

وكان يعرف أن مشيتها الجميلة ربما خسرت لو تعدد على ظهرها الراكبون فقد رباها أخوه وهي طفلة على مشية تريحه ودرجت عليها..

ولم يكد دياب يصل إلى الدار حتى وجد محمد أفندي يغلق على نفسه باب الحجرة التي بناها فوق سطح الدار، منذ اشتغل مدرسا، بعيدا عن الزريبة التي تلم البهائم في ليل الشتاء وعن القاعة التي تعيش

فيها أمه ودياب.. وكانت أمه تسمي هذه الحجرة «مقعد الأفندي».

ونادى دياب على محمد أفندي فقالت له أمه:

ـ اطلع يا واد أخوك فوق في مقعده.. اطلع له المقعد.

ولكن محمد أفندي ناداه من وراء الباب المغلق قائلا:

ـ شد عالركوبة يا واد يا دياب وروح ناديلي أبوك محمد أبو سويلم قول له أنا مسافر مصر مع البيه دلوقتي.. قل له السفر النهاردة دلوقت أهه..

ووضع دياب قطعة من اللباد على ظهر الجحشة وحط عليها بردعة من القطيفة، وأدخل في فمها اللجام، وثبت طرفه الجلدي الأنيق في حلقة دقيقة من النيكل على رأس البردعة، وشد خيطا من التيل المفتول في أرجل الجحشة وربطه قائلا لها بصوت خفيض وهو ينصرف:

ـ خليكي واقفة هنا يا مديوبة انتي.. اوعي تتنقلي ولا ترمحي بقى كده ولا كده!

ثم صاح وهو يخرج من الباب:

ـ خلي بالك من الجحشة يا أمه.

ومضى يهز طوله الأعجف إلى محمد أبو سويلم، تاركا أمه تحاول أن تمسك الديك البلدي لتذبحه.

وفوق السطح كان محمد أفندي قد فرغ من ارتداء ملابسه، وأخرج زجاجة العطر من أول درج في «البوريه» وسكب من الزجاجة على رأسه ويديه، وأخذ يدعك ذقنه وكل رأسه ووجهه..

وتناول محمد أفندي طربوشه ووضعه على رأسه في عناية بميل قليل على الجبهة.

واتجه إلى دولاب خشبي صغير غائر في الحائط وفتحه ورفع كومة من الأوراق البيضاء، ثم طاقية من الصوف، ورفع من تحتها كتابا كبيرا، ودس يده في داخل الدولاب، فأخرج كيسا كبيرا من الجلد وأخرج منه ورقة مالية.

وتوقف وهو يقول لنفسه:

ـ كفاية الجنيه ده..

وفكر قليلا ثم سحب ورقة مالية أخرى.

ـ برضه الواحد ينزه نفسه في مصر شوية!

ثم أخرج ورقة كبيرة ذات عشرة جنيهات، وتأملها طويلا.. ثم فك قميصه الإفرنجي، وحشر الورقة المالية في جيب الصديري البلدي المخطط، وأحكم إغلاق زراير القميص ثم زراير الجاكتة، وهو يقول بزهو:

ـ آدي يا سيدي فلوس محمود بك بس إياك نعرف نحصلها من البلد!

ودس الجنيهين في محفظته ووضعها في جيب الجاكتة الداخلي وهو يكمل:

ـ وآدي يا سيدي فلوسك أنت.. ياللا بر نفسك!

وبعد أن أعاد كل شيء إلى مكانه بالدولاب أغلقه بالمفتاح، وامتحنه جيدا، ثم وضع مفتاحه في جيب البنطلون، ومشى مطمئنا.

وقبل أن يغادر حجرته، تحسس صدره وبدلته وجيوبه وطربوشه برضا، وتنفس بصوت مرتفع، واتجه إلى باب الحجرة فأغلقها بالمفتاح وخرج..

وهبط السلم المصنوع من الطين ورأى أمه تذبح الديك فقال لها، وهو يقف على إحدى الدرجات الضيقة الملتوية: إن الوقت تأخر ومحمود بك ينتظره ليقابل معه الحكام في مصر ويتحدث معهم في ماء الري.

ثم هبط الدرجات الباقية ووقف إلى جوار أمه..

وعادت أمه وسألته إن كان يستطيع أن ينتظر ليحمل معه إلى خاله الشيخ حسونة هذا الديك وبعض الفطائر والرز المعمر.

فضحك محمد أفندي وكرر لها أن الوقت راح ومحمود بك ينتظره في المحطة على قطار الظهر..

وقبَّل يد أمه.

وقالت له وهو يقبل يدها:

ـ روح يابني مع السلامة ربنا ينجح مقاصدك! ربك يجعل لك الهيبة والمال بالويبة يا محمد يابن بطنى.

وفك محمد أفندي قيد جحشته وأمسك بلجامها وخرج بها من الدار، ووقف على الباب ينتظر عودة أخيه وأمه تسأله أن يذهب إلى خاله الشيخ حسونة في شبرا ليبيت عنده.

ولَّمحت له أمه أن يطلب من خاله أن يزوجه إحدى بناته، وقبل أن يجيبها محمد أفندي مرت به إحدى جاراته وهو واقف على باب الدار بالبدلة والجحشة في يده.. فسألته جارته أن يشتري لها شيئا إن كان ذاهبا إلى المركز.. فقال لها باقتضاب وضيق:

ـ أنا رايح مصر..

وأبدت جارته دهشتها لسفره هذا المفاجئ، وطلبت منه أن ينتظر حتى تحضر زوادة.. لابنها الذي يعمل في مصر على عربة حنطور.. وبدأت تعاتبه لأنه لم يقل لها قبل السفر بوقت كاف.

وتذكر محمد أفندي أن كثيرين يمكن أن يحملوه أشياء لأولاد البلد الذين يعملون في مصر، وتصور نفسه يذرع القاهرة من بولاق إلى شبرا إلى الناصرية إلى الجيزة بأحماله هذه وملأه الارتباك وهو يفكر في أنفة محمود بك وسرعة غضبه.

كيف يسافر معه ويركب إلى جنبه وهو يحمل المقاطف والقفف؟

وكيف يستطيع أن يدبر وقته ليلقاه في مقهاه المفضل بالعتبة الخضراء ومعه كل هذه الأحمال؟

وفجأة صرخ في جارته:

ـ ياوليه هو أنا رايح أزور السيدة زينب؟ دا أنا رايح أقابل الحكام!

وبوغتت جارته وقالت في ضحكات متكسرة:

ـ شي لله ياست! أنت رايح تزور الحكام؟ الحكام اللي في مصر؟ طب وماله تاخد معاك زوادة.. إن شاء الله تصبح من الحكام يا محمد يابن قطايف.

وقالت أمه في ضراعة وتوسل:

ـ إن شاء الله يا اختي من حنكك لباب السما.

وإذ ذاك أقبل دياب ليقول لمحمد أفندي: إنه لم يجد محمد أبو سويلم.

وسكت دياب قليلا قبل أن يقول متمتما إن وصيفة لا تعرف أين ذهب أبوها، ولكنها تدعو الله لمحمد أفندي أن يبلغه مصر بالسلامة.

وتأمل محمد أفندي في وجه أخيه وهو يتكلم وحسبه يعرض به.

وكان وجه دياب منكسا، ولكنه كان جامدا.. أغبر كالأرض لايختلج بشيء!

ونظر محمد أفندي في ساعة يده بحركة متكبرة، متأنقة وهو يقول:

ـ ياه !! الساعة بقت عشرة و١٢ دقيقة والبيه حايستناني قدام شباك التذاكر.. حايكون هناك في محطة المركز الساعة الواحدة بالضبط..

وتحرك محمد أفندي مسرعا وتحرك أخوه وراءه ممسكا بلجام الجحشة، وانطلقت الدعوات بسلامة الوصول من فم أمه وجاراته اللواتي تجمعن ووقفن على أبواب الدور.

وسألته بعض النساء أن يقرأ لهن الفاتحة عند السيدة زينب أو الحسين أو الإمام الشافعي.

وفي الطريق مال محمد أفندي على دكان الشيخ يوسف، فسلم عليه وطلب منه أن يحمل السلام إلى عبد الهادي ومحمد أبو سويلم.

وتمنى له الشيخ يوسف أن يوفق في مهمته، وأن تنتج العريضة خيرا، وسأل الله له السداد بحق الست الطاهرة السيدة زينب.

وتحرك محمد أفندي لينصرف، وكان الشيخ يوسف ما يزال ممسكا بيده وقال له مداعبا وهو يترك يده:

ـ حاسب على نفسك من مصر يا محمد أفندي! أنا عشت فيها وعارفها كويس! حاسب على نفسك دي بلد باكسة وبحرها غويط! ارجع لوحدك؟.. اوعى تجيب معاك حاجة من مصر!

وأدرك محمد أفندي دعابة الشيخ يوسف، ولم يتقبلها، فقد كان يضيق بالذين يعرضون لعلاقاته بالنساء.. فقال ضاحكا وهو يتعمد أن يجرح الشيخ يوسف:

ـ يمكن أجيب عدل لبنتك يا شيخ يوسف! أرجع لوحدي ليه! يمكن أجيب لها عريس!

ولم يضحك الشيخ يوسف، وابتسم ثلاثة من الرجال كانوا يقفون بلا عمل أمام دكانه.. وعندما غادر محمد أفندي الدكان التفت الشيخ يوسف إلى من حوله قائلا في شبه همس:

ـ عجايب! بقى مش عاجباه بنتي؟ بينقرز عليها.. هو حضرته فاكر إني أنا أرضى أجوزها له؟ والله دي لو كملت حتى ٢٥ سنة من غير جواز ما أرضى أديها له!

وكان الذين يقفون أمام الدكان، يعرفون على الرغم من كلامه الكثير، أنه يحلم بأن يصبح ويمسي فيجد محمد أفندي زوجا لابنته الشاحبة الجافة العود التي تحمل سقم وجهه النحيل العابس..

غير أن أحدا من الواقفين لم يقل شيئا.

واستمر الشيخ يوسف يقول كالهامس:

ـ دي بنت متربية على الغالي يا جدعان! ده أنا مخبيها من سن ١٢.. دي متربية على الغالي قوي والله! دا أنا مخلفها أيام ما كنت بأكل ثلاثة أرطال لحمة في اليوم! أيام العز الأولانى! في الهيصة بتاعة الزمان الأولى!

كان الواقفون أمام الدكان يعرفون أن نساء بيت الشيخ يوسف لا يخرجن إلى الطريق كالقرويات بل يخرجن في الليل والحجاب على الوجوه.

وقال أحد الواقفين:

ـ آه!.. دي بنت أصول يا عم الشيخ يوسف.

وارتاح الشيخ يوسف لهذا الكلام فأكمله:

ـ أمال؟ مش تقوللي أجوزها لسي محمد أفندي بتاعكم!

ومسح وجهه النحيل براحتيه، ثم هز رأسه، وعيناه تلقيان نظرات ساخرة على الطريق أمام الدكان:

ـ جحشة معتبرة، وبردعة قطيفة، وركوبة ملوكي! والله عال: بقى أنت ياواد يا محمد أفندي يابن الحمار رايح تقابل الحكام في مصر؟ حكام إيه يا اخواتي؟ حكام؟ يقابل مين يا عم؟ بقى أنت اللي حاترجع لنا الميه؟ طيب لما نشوف آخرة العريظة دي يا بلد! هوه حد عارف العريظة فيها إيه؟ حد عارف مختمين البلد على إيه؟ يمكن مختمينها على كمبيالة؟ حد كان قرا العريظة؟ ما يمكن تكون مغرز وانعمل في البلد! آه يا بلد!..

وتلفت الواقفون على باب الدكان إلى بعضهم في رعب مفاجئ، وبدأت تساورهم الشكوك المخيفة الغامضة، والكلمات تنفجر من أعماقهم تحمل كل الحيرة والاضطراب: من يعرف؟ من؟

هل يستطيع محمد أفندي أن يقابل الحاكم في مصر؟

هل يعرف أحد ما في العريضة؟

إن أحدا في القرية لم يقرأ العريضة، وحتى الشيخ الشناوي الذي كان يجمع الناس والأختام بحماس بالغ.. لم يقرأ هو نفسه كلمة واحدة من العريضة.

إنه يعتقد فقط أنها طلب إلى الحكومة لتعدل مواعيد الري.

ولكن الشيخ الشناوي هذا جمع الناس ذات يوم من الحقول ليعطوا أصواتهم لهذه الحكومة، وقال لهم: إن بيدها الخير، وإن قدومها قدوم سعد!!

وكانت الحكومة نحسا على القرية:

فَصَلَتْ محمد أبو سويلم من مشيخة الخفراء ونقلت حسونة الرجل الفاهم وسجنت بعض الرجال وحجزت على أرض كثيرين نظير الضرائب، وأخيرا حرمت مياه الري على الفلاحين! ومن قبل امتنع الفلاحون عن إعطاء أصواتهم لها وسمعوا كلام الشيخ حسونة ومحمد أبو سويلم أنها ستمشي.. ولكنها بقيت مع هذا على قلوب الناس كالحِمل الكريه! أتراها ستظل باقية تحرم الفلاحين من ماء الري، وتميت الأعواد الخضراء التي ستحمل الكيزان والطعام ذات يوم إلى الدور؟!

على أي حال سيبين كل شيء بعد عودة محمد أفندي من مصر.. لقد أوشك دور المياه الجديد أن يقبل وستعرف القرية إلى أي حد أفادت العريضة: أيظل خمسة أيام كما تشاء الحكومة فتعطش نصف الأرض، أو يعود ـ كما كان من قبل ـ عشرة أيام.

ولئن لم تفد العريضة فماذا يستطيعون هم أن يصنعوا؟

أيمكن أن يتركوا الحكومة تأمر كما تشاء، ويبقى ما في القلب في القلب كما قال لهم محمد أبو سويلم يوم كتابة العريضة؟

ولكن.. لو أنهم رووا الأرض على الرغم من أوامر الحكومة فماذا يكون؟ أمن الممكن أن تلم الحكومة رجال القرية وترميهم في السجن؟!

وماذا بعد؟ لا أحد يعرف!

ماذا يصنعون إذن؟

لا الشيخ يوسف، ولا عبد الهادي، ولا محمد أبو سويلم، ولا أحد على الإطلاق يعرف ماذا يجب أن تصنع القرية!

أتترك لوزات القطن تذبل أمامها بالآمال، وأعواد الذرة الغضة تصفر وتموت عودا بعد عود؟

أتترك تعبها وعناءها وعرقها كله يجف على الأرض العطشى؟

أم تراها ترفع الفؤوس على الرغم من كل شيء، وتقطع الترعة وتدير السواقي على الجسر، وتضرب رجال الحكومة حين يقبلون؟!

إن الحكومة تستطيع دائما أن ترسل رجالا آخرين! تستطيع أن ترسل رجالا يلبسون الطرابيش والبدل الصفراء المخيفة ويمسكون البنادق!

وما زالت القرية تذكر ما صنعته الحكومة في أيام الانتخابات عندما رفضت القرية أن تنتخب حزب الشعب.

وحين كان الشيخ يوسف والرجال يتحدثون في كل ذلك كان محمد أفندي قد بلغ آخر القرية وأول الطريق الضيق إلى الجسر.. وقف على حجر مرتفع في الطريق ووثب على ظهر الجحشة، وأخوه يحاول أن يسنده وأن يضع حذاءه في ركاب البردعة..

وانطلقت الجحشة بمحمد أفندي تركض متوثبة وعنقها الرشيق المليء يتثنى في اللجام ومن ورائها يجري دياب.

والتفت محمد أفندي وراءه فوجد القرية بمئذنتها وبيوتها الصغيرة السوداء تبعد عنه في بطء، فزحف عليه إحساس بالوحشة وبدأ يشعر حقا بأنه سيغترب!

وهز رأسه، وحرك قدميه، كأنما يريد أن يهرب من زحف مشاعره.. وأسرعت الجحشة تجري.

وعاد محمد أفندي ينظر إلى الوراء فرأى أخاه دياب يجري في سرعة شديدة حافي القدمين فشد محمد أفندي إليه لجام الجحشة لتبطئ وبدأ دياب يخفف من سرعة العدو.

وقابل محمد أفندي فتاة تحمل جرة فارغة في طريقها إلى النهر، فاستدارت الفتاة، وتنحت عن الطريق، ودخلت أحد الحقول، ووضعت جرتها على الأرض، وأحنت رأسها إلى الجرة، وظهرها إلى الطريق..

واغتبط محمد أفندي لما صنعته الفتاة، وتفاءل خيرا بينه وبين نفسه، ثم سأل أخاه عن الفتاة فقال له دياب: إنها ابنة الشيخ الشناوي.

فاستطرد محمد أفندي يمدح تربية الفتاة: فقد خافت أن يقابل محمد أفندي في الطريق جرة فارغة، فتكون الجرة الفارغة دليل شؤم وهو ذاهب يسعى في حاجة له وللناس..

وابتسم دياب راضيا.

كان دياب ـ كغيره من أهل القرية ـ يستشعر مخاوف كثيرة غامضة من المجهول، ويتشاءم ويتفاءل من أشياء عديدة لايفهمها.

وقال دياب: إنها ابنة سيدنا الشيخ الشناوي: تحسن الفهم، وتدرك أسرار الأشياء، كأبيها!

ولم يجب محمد أفندي، وأخذت قدماه تبتعدان عن جانبي الجحشة ثم تلتصقان بها..

وقفزت به الجحشة وهي تصعد إلى الجسر مسرعة ثم استقامت في الطريق الواسع إلى عاصمة الإقليم.. وأسرعت الجحشة في جريها إلى الجسر، ومحمد أفندي يلتفت عن يمينه وشماله ليلقي السلام على كل من يلقاه.

وقال دياب لنفسه وهو ينظر إلى الحقول وراءه:

ـ إحنا خلاص طلعنا من البلد.

كانت هذه حقيقة واضحة، فالجحشة قد جاوزت زمام القرية، وبقي أمامها خمس قرى حتى تصل إلى عاصمة الإقليم.

وارتفعت الشمس قليلا ـ وقَدَما دياب تغوصان في تراب الطريق وبدأ يلهث وهو يتابع الجحشة في ركضها المتوثب.. الذي يثير على عينه حبات الغبار.

ولم يعد دياب يقول شيئا ولم يكن محمد أفندي هو الآخر يكلمه.

نظر محمد أفندي إلى النهر الصغير: يستدفع فيه الماء موجات هادئة مترعة بالطمي.

وقال محمد أفندي لنفسه وهو ينظر إلى الماء الذي كاد يبلغ الجسر:

ـ الفيضان جامد!

فرد دياب:

ـ أمال حايشين منا الميه ليه؟ إياك تنحاش روحهم.

وسكت محمد أفندي وسكت دياب..

وأخذ دياب ينظر أمامه على الجانبين.

وكان يشعر بالارتياح كلما رأى شجرة على الطريق، فالسخونة قد بدأت تسري في التراب وتلفح قدميه، والصهد يشوي بدنه ووجهه.

وكان يتمهل كلما ظللته شجرة ويمتع قدميه بملمس التراب البارد الرقيق.

وسرح دياب يفكر في أمر طريق الجسر هذا.. إنه يشوي الأقدام لكثرة التراب الدقيق فيه! لو أن الحكومة أصلحته، واهتمت بهذا الموضوع بدلا من اهتمامها الفارغ بأخذ ماء الري من الحقول العطشانة!

وهز دياب رأسه وهو صامت.

وكان أخوه صامتا.

والشمس تلهب الطريق، ودياب مشغول بالتفكير في هذا الطريق إلى المركز.. إنه صعب كالمركز نفسه!

إنه يشعر بسخونة تؤلمه في هذا الطريق، هو الذي لا يكاد يشعر بالسخونة في أرض قريته السخية بالتراب الدسم.

ولم يكن محمد أفندي ملتفتا إليه.. كان لديه زاده من الأفكار!

وفي منتصف الطريق قال محمد أفندي:

ـ نجوزكشي بنت سيدنا يا واد يا دياب بعد ما نبيع القطن ونخلص!

فسكت دياب قليلا ثم قال بجفاف:

ـ قطن؟! وإن مابعناش القطن.. يعني مافيش جواز؟ هيه قلة فلوس؟!

ولم يجب محمد أفندي.

وعاد دياب إلى صمته، ثم أسرع في جريه وراء الجحشة حتى أصبح إلى جوارها وهو يقول:

ـ ويعني أنا لما آجي أجوز ما لاقيش غير بنت سيدنا؟ هيه حيلتها اللضى؟ دهدي!.. ماتتجوز فقي زي أبوها!

فالتفت إليه محمد أفندي قائلا:

ـ يعني حانجوزك بنت السلطان يا خَيّ؟ جاتك الغم في كبر نفسك.. ومالها بنت سيدنا؟

وسكت دياب.

وتنحنح محمد أفندي قبل أن يقول مبتسما:

ـ والا يعنيماينفعشي معاك إلا خضرة! نجوزك خضرة؟!

وزم دياب شفتيه في احتجاج، ولوى رأسه قائلا:

ـ دهدي!

وسكت دياب من جديد.

وظلت الجحشة تجري، والمراكب المحملة بالقلل والبلاليص والأحجار والتبن تخطر على صفحة النهر من حين إلى حين.

كان الصمت اللاهث يخيم على كل شيء.. والحقول تمتد تحت حرارة الشمس إلى جوار الجسر، وعلى رأس الحقول تتناثر أشجار هجرتها العصافير.

وبعد أن جاوزت الجحشة ثلاثة بلاد بدأت الحياة تدب على الجسر.. فالسواقي تدور، والأصوات المختلطة ترتفع، والرجال يعملون.. وأخذ محمد أفندي يلقي عليهم السلام وهم يمهدون القنوات للمياه فتسيل بالراحة من النهر إلى الحقول.

وقال دياب متعجبا في حنق:

ـ الله! يعني السواقي دايرة هنا أهيه بتروي أرض الباشا؟ يعني أرضنا إحنا هي اللي كفرت؟ ما هي الميه عالية ودول حتى بيرووا بالراحة من غير سواقي! اشمعني هنا؟

ولم يجب محمد أفندي وهز رأسه، وتحسس جيوبه، وهز قدميه على جانبي الجحشة، وظلت الجحشة تجري وتجري.

وعندما اقتربت الجحشة من مدخل المركز كانت الشمس تكاد تتوسط السماء وترسل وهجا يلفح الحقول وأجساد الناس وأنفاس الحر تشوي الفضاء.

وأحس دياب بتراب الجسر كأنه رماد نار ما زال يشتعل، وباعد قدميه عن الأرض وهو يثب، وارتفع صوته فجأة:

ـ ومحمد أبو سويلم ما له ياسي محمد أفندي.

فقال محمد أفندي دون أن يلتفت إلى دياب:

ـ ما له؟

وجرى دياب حتى أصبح إلى جوار الجحشة، وحاول أن يضع يده على ذيلها، واستمر يقول في صوت مرتفع:

ـ يعني ماله محمد أبو سويلم يعني؟ يعني مش نسبه أحسن من سيدنا؟ يعني لما تناسبه يجرى إيه؟ ما آخذ بنته! دي بنت بالمعنى صحيح! حلوة وزي لهطة القشطة! ما تخدلي وصيفة من دلوقتي.. وأنا لسه حا استني القطن؟ دا أنا دافع بدلية الجهادية عامنول؟ الواحد كبر وما لوش يستنى كده من غير جواز! ما تقرا لي فاتحة وصيفة يا سي محمد أفندي وأهي أرض الشيخ يوسف اللي إحنا راكبينها جنب أرض أبو سويلم سوا! ومسير أرض الشيخ يوسف تبقى بتاعتنا والواحد يعني يبقى يحرت بالطول والعرض..

وضحك دياب وهو يتكلم وأشرق وجهه على أحلامه.. أما محمد أفندي فقد فوجئ بكل ما يقوله أخوه دياب.

ونظر إلى دياب يسأله متمهلا باستنكار خفي واستكثار:

ـ عاوز تتجوز وصيفة؟..

فقال دياب ببساطة ووجهه في الأرض:

ـ أي نعم.. قشطة.. زي اللبن.. زي مترد اللبن الصابح!

وبلع ريقه وزم شفتيه ولم يقل شيئا بعد.

فسكت محمد أفندي هو الآخر وهز رأسه وشرد.

وتقدمت الجحشة، وبدأت أرجلها تقرع أرضا صلدة، وامتلأت أذن محمد أفندي بقرعات حوافر جحشته على أرض المدينة وأحس بالكبرياء والسكينة.

ولم يعد دياب يحتمل لذعات الطريق على قدميه العاريتين.

كان الطريق مسودا بالأسفلت والصهد الحارق يرتفع منه كأنه فرن محمي..

ولم يكتم دياب ضجره وأخذ ينظر في الطريق الأسود المتوهج والعرق يسيل من جبهته ووجهه وكل جسده واللسعات ترهق قدميه وصاح:

ـ دي السكة بقت ولعة! قطيعة تقطع المركز على أصحابه، أنا عارف الناس بيمشوا إزاي عالولعة دى!

ثم همس لنفسه:

ـ يا ريتني جبت البلغة!

وأخذت الجحشة تضطرب في سيرها والعربات تزاحمها.. وأربكتها أبواق السيارات وأجراس الحناطير وفرقعة السياط، وأجفلت عدة مرات وأوشكت أن تقذف بمحمد أفندي على الأرض.

واضطربت نظرات دياب بين صفوف البيوت والدكاكين على الجانبين، وامتلأت خياشيمه برائحة الطعمية، فانتشى.. وأعجبه منظر أرغفة القمح المعروضة أمام واجهة الدكاكين.

وظل يتلفت حوله وأوشك رأسه أن يدور من ازدحام المناظر.

وقطع محمد أفندي تأملات دياب فقال وهو ينظر في ساعة يده بعظمة..

ـ لسه فاضل ساعة على ميعاد محمود بك.. خد الجحشة بقى أنت وارجع يا دياب وأنا حا أكمل على رجليه.

ومال إلى أحد جانبي الطريق وهبط من على ظهر الجحشة وهو يوصي أخاه بها وبحجرته الخاصة فوق السطح.

وعندما سلم عليه عاد محمد أفندي يقول:

ـ ابقى اركب الجحشة وأنت راجع.. وما أوصكش تاني عليها وعالمقعد.. خليه مسكوك على طول وخد بالك من الشغل يا دياب.. أنت سنك عشرين سنة.. يعني مابقتش صغار.. أنا راجع بعد حسبة يومين تلاتة.. سلم على أهل البلد واحد واحد.. سلم على عبد الهادي وأبوك محمد أبو سويلم.. وخد بالك من أمك يا دياب.. اوع تزعلها والا تتخانق وياها وأنا مسافر! أوع تناكفها وأنا غايب.

ومرة أخرى سلم محمد أفندي على دياب، وقبل دياب يده.

ومشى محمد أفندي يتحسس بدلته وجيوبه..

وثنى دياب لجام الجحشة، وسحبها حتى خرج تماما من المدينة وهو يمشي على حذر.

وعندما وجد الحقول أمامه، وثب على ظهر الجحشة، وشعر بجسده يرتاح على البردعة القطيفة السخية.

وأخذت الجحشة تنطلق على الطريق الواسع.

وأدار ظهره إلى المدينة، فملأته الرهبة.. وحاول أن يتبين أخاه في شوارع المدينة ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا غير البيوت العالية ذات الطوابق والعربات والزحام..

ووجد نفسه وحيدا والمدينة تبتعد عنه فصاح فجأة كأنما تذكر شيئا مهما:

ـ الله! يعني ماخدتش منك عقاد نافع يا محمد أفندي؟ الله يعني ناوي تحوشلي وصيفة والا لأ؟ عاوزين نقرا فاتحة وصيفة يا أخواتي!

وتخايل على الجحشة في كبرياء، وعيناه تمتلئان بصورة وصيفة، وجسدها الأبيض الطويل الربراب كالقشطة، ووجهها الرائق كالفل، وفكره يسرح في أرض الشيخ يوسف التي تجاور أرض أبيها.. وأمامه يمتد الطريق الواسع إلى القرية.

وظلت الجحشة تعدو وتعدو على طول الجسر.. نفس الجسر الذي كان دياب يجري حافيا على ترابه الملتهب منذ لحظات.

وكان دياب يعيش لساعته في مشاعر سعيدة وإحساس فائق بالامتياز وهو فوق ظهر الجحشة الفارهة المطهمة التي تشبه الحصان العربي الأصيل.

ولكنه لم يكد يبتعد قليلا عن مدينة المركز، حيث ترك أخاه محمد أفندي حتى دهمه شعور مباغت بالوحدة والفراغ.

وأخذت الوحدة الداكنة تلح عليه، وهو يضرب في صفرة النهار ذي الصهد.

وتمنى لو أنه استطاع أن يمنع أخاه من السفر.

ومع ذلك فقد ظل يهز قدميه الحافيتين، ويهمز بطن الجحشة بكعبه الجاف، فتجري الجحشة وتجري.

كانت الشمس تتوسط السماء الزرقاء المفرغة من الغيوم، وفي وهجها يذوب كل شيء حتى الظلال!

ومر دياب برجال على مسافات متباعدة يستريحون تحت أشجار على الجسر، فحياهم واحدا بعد واحد وكانوا يردون التحية بفتور..

لم ينشطوا للرد عليه كما فعلوا مع محمد أفندي..

وفي تلك الساعة من النهار لا ينبض الجسر بحركة على الإطلاق، ولا يستطيع العابر الغريب أن يتلقى حلاوة الأصوات تحييه وترحب به في احتفاء، مؤكدة ـ في خشونتها وصدقها ـ أن الإنسان على الرغم من كل شيء، ليس وحيدا في عالم الحقول!

وظلت الجحشة تعدو بدياب من أرض قرية إلى أرض قرية أخرى، وما زالت الكآبة تخنقه.

وتذكر أنه في هذه الساعة الهامدة المتوهجة من سكون النهار يظهر الجن الأحمر الذي سمع عنه طويلا وهو طفل.

وحاول أن يصفر نغما من موال حزين ولكن همساته لم تنطلق، وفاضت في نفسه سكينة الموت، والجحشة تقترب به من أرض قريته.

وعندما بلغ من الجسر أول الطريق الضيق الذي يفضي إلى دور قريته شد لجام الجحشة بإحكام، فتوقفت به قليلا، وألقى نظرة سريعة على صفحة النهر التي تسطع في بريق خاطف تحت قرص الشمس، وتعبت عيناه من سطوع الضوء الخاطف على الماء، فأرخى لجام الجحشة ثم انحدر إلى طريق القرية وهو يفكر في أخيه محمد أفندي وفي وصيفة التي يستطيع أن يتزوجها على الفور لو أن أخاه قال لأبيها كلمة واحدة.. ولمح دياب من بعد فتاة تنحدر على الطريق الضيق..

لم تكن مجرد فتاة من القرية تعود من على الجسر بجرتها المملوءة. كانت تتمايل وتهز خصرها على غير عهده بنساء القرية..

وكانت على غير عهده بالقرويات أيضا: تلبس جلبابا ملونا، وتسند جرتها المائلة بيد مكشوفة بضة تلمع فيها أساور من زجاج أخضر.

وخفق قلبه، وزايلته وحشته لبعض الوقت، وهمس لنفسه بفرح:

ـ وصيفة!! يا وعدى!

وشد جسده بخيلاء على الجحشة، وفتح صدره بفروسية، ولكز بطن الجحشة بكعبه في قوة، ومد يده تحت البردعة فقرص ظهرها.

ووثبت الجحشة فجأة، ورفعت رأسها، ونهقت، وأخذت تجري كما لم تجر من قبل، وتثير الغبار الكثيف.

وشعرت الفتاة بضجة الجحشة، فاستدارت بحركة بارعة حاذقة لتلقي بعض الماء من فوهة الجرة في دلال، وغندرة.

ورفعت عينيها مبتسمة.

وإذ رأت دياب على ظهر الجحشة المطهمة، أطلقت ضحكات متوالية، ثم قالت بصوت مرتفع، وهي ما تزال تضحك:

ـ هوه أنت يا دياب؟ وجاي ترمح ورايا وترهون كده ليه يامنيل؟

يعني دياب ابن غانم ياخي؟ وإلا يعني فاكرني السفيرة عزيزة جاي كده بالهرجة والمرجة؟

وفوجئ دياب بصوتها وهو يقترب منها فقال بجفاف وخيبة أمل:

ـ الله! خبر إيه يابت ياخضرة! إيه الجلابية دى! خيلتيني داهية تخيلك؟

واستمرت خضرة تطلق قهقهات خشنة بذيول خليعة، وأمسكت لجام الجحشة وأوقفتها، لتقول لدياب: إنها أرادت أن تغسل جلبابها اليوم، وحاولت أن تقترض جلبابا تخرج به لتملأ جرة زوجة شيخ البلد فلم تجد فتاة أو امرأة في القرية ترضى بإعارتها الجلباب.. إلا وصيفة!

وسكتت قليلا وحاول دياب أن ينحي يدها عن لجام الجحشة فتمسكت به، وسألت دياب وهي ما تزال تضحك:

ـ جبت لي حاجة من البندر؟ ما جبتش رغيف قمح وإلا طعمية؟ ما جبتش حاجة؟

فهز قدميه على بطن الجحشة لتنطلق، وقال وهو ينحي يدها عن اللجام:

ـ حاجة إيه، إياك تنحوجى!

ثم ضحك، وتوقفت خضرة عن الضحك بغتة، وتركت اللجام بهدوء وتراخت يدها إلى جانبها ودهمها الكدر وغشيت وجهها صفرة وانخفض صوتها وقالت بمرارة:

ـ ليه كده يا دياب اخص عليك! ما كفاية حوجة.

وتنهدت، ولاحظ دياب تغيرها فأراد أن يصالحها وقال ببرود:

ـ تيجي العصر عند الزريبة تاخدي لك زرين خيار؟

فقالت بإهمال وما زالت المرارة في حلقها:

ـ يعني عايز مني الشيء الفلاني؟!

واضطرب دياب أمامها، وداری اضطرابه في قهقهة متكسرة جافة بلا رنين، وهز اللجام لتنطلق به الجحشة.

وعندما تحركت الجحشة أمسكت خضرة جرتها بيد ثم تقدمت من دياب مسرعة ومالت على ظهره بقبضة يدها الأخرى فضربته ضاحكة ثم تركته يمضي.

وسارت به الجحشة وخضرة تشيعه بكلمات خارجة أخجلته.. وعادت خضرة تضحك في استسلام وتطلب منه أن يحضر لها الخيار وبعض القثاء، وتابعت مشيها تهز عودها الجاف وتهز معه صدرها المستهلك الضامر المترهل، والضحكات تشيع بلا معنى في وجهها الأصفر الذابل.

وظل دياب يسمع كلماتها الجارحة والجحشة تدخل به القرية.

لم يجد في الطريق أحدا على الإطلاق إلا وهج الشمس والدجاج، لا ظل، ولا ناس!

ورأى من وراء أبواب الدور المفتوحة بعض العجائز يستلقين على الأرض تحت العتبات يتثاءبن ويعبثن في شعور نساء أخريات ويفلين الصغيرات.

وكان دكان الشيخ يوسف مغلقا والمصاطب على طول الطريق تتوقد فوقها الشمس.

وهكذا ظل دياب راكبا حتى وصل إلى داره فنزل أمام العتبة وسحب الجحشة.

وقامت إليه أمه تسأله في لهفة إن كان محمد أفندي قد ركب القطار؟ فأجابها في صوت خشن هادئ:

آه ركب! ورفع البردعة عن الجحشة، وأخذ يمسح العرق من على ظهرها بيده دون أن ينظر إلى أمه.

وقامت أمه تسأله من جديد إن كان أخوه قد ركب القطار حقا أمام عينيه، فقال دون أن يلتفت إليها:

ـ ماقلت لك ركب! دهدي؟!

فقالت أمه في سكينة:

ـ طيب يابني ربنا يكفيكو شر المخبي في الغيب.

واهتز دياب أمام كلمات أمه وأحس بالشوق إلى أخيه يلح عليه.

ووضع أمام الجحشة كمية كبيرة من الفول والتبن أكثر من المعتاد.. ووضع أمامها طشتا فيه ماء نظيف، ثم ربت على ظهرها في عطف، وتركها.

ورفع ذيل جلبابه ومسح به عرق وجهه، وطلب من أمه أن تحضر له الغداء.

وجلس على المصطبة الكبيرة في مدخل الدار فأكل في صمت.

لم يرتفع طوال الأكل غير صوت أرغفة الذرة التي تتكسر، وصوت البصل عندما يقضم.

وبعد أن أكل دياب مسح فمه بيده، وتكرع، وساق أمامه الجحشة إلى الحقل.

لم يكن دياب طفلا صغيرا بعد، ومع ذلك فقد ظل في الحقل وحده.. يعاني الخواء الرهيب الذي يعذب طفولة الصغار، عندما يغيب عنهم فجأة أب أو أخ كبير يقودهم في كل طريق، ويعرفون من خلال نظراته المشجعة الحانية كثيرا من أسرار الحياة!

وفي الحق إن دياب لم يكن يصنع شيئا غير ما يأمره به أخوه الأكبر محمد أفندي.

محمد أفندي هو الذي يفكر دائما، وهو الذي يهتدي إلى حلول تبهر دياب عندما لايستطيع فهم شيء.. حتى في سوق المدينة المليء بالمؤامرة والمناورة، يشتري هو البهائم، ويبيع بسهولة وبلا اكتراث، وهو الذي يقترح على دياب أن يزرع الفول بدلا من البرسيم أو البرسيم بدلا من القمح، وهو الذي يشتري السماد ويعرف أنواعه ومزايا كل نوع منه.

هو الذي يعرف كل كبيرة وصغيرة في الحقل والدار..

ومن أجل ذلك فقد بدأ دياب يشعر بخوف، عندما وجد نفسه وحده في البيت، والغيط، والقرية.

كان محمد أفندي هو الحقيقة الكبرى في حياة دياب: هو الذي يبر الأرض ويشتري عليها المزيد، ويعرف مزاج كل قطعة ويرضيها.

ولو لم تكن لمحمد أفندي هذه القدرة، لما استطاع دياب أن ينتج شيئا، ولما كانت زراعته هي أجود زراعة في القرية.. أجود من زراعة عبد الهادي نفسه في بعض الأحايين.

لكم تألم دياب عندما أحس فجأة بغياب أخيه..

إن محمد أفندي عند دياب هو كل شيء:

هو الكبرياء، والقدرة التي يمنحها امتلاك المال، والجاه الذي توفره المعرفة.

هو المستقبل، وهو كل مايثير الزهو في نفس إنسان!

جلس دياب بعد العصر على رأس حقله في حوض الترعة، وانتظر.

وأخذ يتأمل الطريق الضيق، وفي يده الخيار والقثاء.

وقضم خيارة وتململ.. إن خضرة لن تأتي الآن، فالبهائم أوشكت أن تعود من الحقول إلى القرية، وخضرة تعتبر هذه الساعات فرصتها للكسب، فهي تمشي وراء البهائم وتزاحم الأخريات وتلتقط ماتسقطه البهائم من روث لتصنع منه أقراصا كبيرة تجفف في الشمس وتوقد بها الأفران.. وصناعتها هذه تكفيها حاجتها من الطعام.

وانتظر دياب حتى بدأت الشمس تغيب فرمى الخيار والقثاء، وأغلق الزريبة على البهائم، وعاد إلى القرية ليبيت مع أمه.

لقد فرغ من عزق القطن، ولكن أتراه ينزع كل ما بين الأعواد من شجيرات الخيار والقثاء؟ لقد شاخ الخيار الآن، ولبلابه الأخضر يسرق طعام أعواد القطن التي بدأت ترتفع باللوز الصغير، أينزع هذا اللبلاب من الأرض؟ إنه لا يعرف!

لقد نسى أن يسأل محمد أفندي قبل أن يسافر!

ومحمد أفندي وحده هو الذي يعرف كل شيء، وهو الذي يحسب متى تعزق الأرض ومتى تحرث، وهو الذي يحسب متى تروى أرض الجسر، وحوض الترعة.

هو وحده..

ولم يحدث من قبل أن وجد دياب نفسه مضطرا إلى تدبير الأمر أو التفكير فيه.

ومحمد أفندي يصنع أكثر من هذا، فهو أحيانا يخلع جلبابه النظيف وحذاءه، ويقطع القنوات ليسيل الماء في الأرض بالقدر الذي تحتاج إليه كل زراعة، وكأن في يده ميزان المياه.

وفكر دياب في أن يسأل عبد الهادي عما يصنع بحقل القطن.

ولكنه خجل.

ولم يكد يصل إلى داره، حتى طلبت منه أمه أن يعود إلى زريبة البهائم ليبيت مع البهائم.. أما هي فلن تخاف من المبيت وحدها في الدار.

وعاد دياب إلى الزريبة بالفعل ومعه عشاؤه، وبات عليها.. وفي الصباح واصل عمله في الحقل.. وفي الظهر حين كان يفكر في أن يعود إلى الدار ليأكل لقمة، رأى خضرة مقبلة تحمل إليه الطعام من عند أمه.

وتناول طعامه مع خضرة في الزريبة، وظلت معه خضرة إلى العصر.. وقامت من عنده تحمل على رأسها ربطة من الخيار والقثاء.

ومشت مغتبطة تقضم خيارة، وقالت لدياب وهي تسير ضاحكة: إنه يجب أن يكتفي بزيارتها هي، ولايوجع دماغها بالكلام عن وصيفة فنجوم السماء أقرب إليه من وصيفة!

وابتسم دياب، وقام إلى ظل شجرة فتمدد فوق الزريبة، ولم يقل شيئا.

وعاد يشعر بالوحدة بعد أن انصرفت خضرة.

عاد يفكر في أخيه الغائب، ويحاول أن يدبر أمر الأرض.

أيقلع لبلاب الخيار أم يتركه؟ أيغيب محمد أفندي حتى تأتي دورة الأرض في الري؟ وهل يروي أرض الجسر هذه المرة أم يروي حوض الترعة؟

وأكد دياب لنفسه أن الأرض كلها لن تساوي شيئا ولن تنتج شيئا بدون محمد أفندي.

وتقدم النهار بدياب، وهو متمدد فوق الزريبة وغابت الشمس.

وسيطر على دياب في مهبط المغرب حزن ثقيل.. ونزل من على الزريبة، وأخذ يمشي أمام بابها، وأحس كأنما هو يريد أن يبكي.

وفي الحق إنه لم يحتمل مشاعره ولا أفكاره، فأغلق الزريبة على البهائم ومضى من فوره إلى القرية.

وأمام دكان الشيخ يوسف، وقف دياب يفكر في أشياء كثيرة:

إن أخاه محمد أفندي قد أمره منذ عامين ألا يقف أمام الدكان.. وهو يقف الآن لأول مرة منذ أمره أخوه، ولكنه على أي حال لن يغضب أخاه.. فلن يشرب الدخان، ولا المعسل، ولا الشاي، ولا كل الأشياء التي تعلمها هنا من وقفته أمام الدكان.

إنه قد تحدث إلى خضرة لأول مرة ـ منذ عامين ـ هنا أيضا.

ومال دياب على الدكان فوجد علواني يقف كعادته كل مساء ليأخذ نصيب الليل من الشاي والسكر والدخان قبل أن يمضي إلى حقل البطيخ الذي يحرسه، ووجد الشيخ يوسف يهز رأسه وهو يشرح للواقفين أمام دكانه مخاوف عديدة من العريضة التي حملها محمود بك إلى مصر.

كان الشيخ يوسف ما زال يتعجب لأن العمدة أعاد العريضة إلى «البيه» دون توقيعه هو وعبد الهادي ومحمد أبو سويلم.

وكان ما يزال يصرخ:

ـ بقى فيه في الدنيا كلها بلد تختم على عريظة من غير ما تعرف إيه اللي فيها؟ هي دي كانت تجرى؟ جالنا منين إنها علشان الميه؟ آه يا بلد!

وكان الواقفون يبدون موافقتهم وحماسهم لما يقوله الشيخ يوسف.

وأقسم أحدهم أنه لم يكن موافقا على إرسال ختمه إلى دوار العمدة ولكن البنت مراته هي اللي جعلته يغلط.

وأكد آخر أنه لم يذهب بختمه إلا لأن الشيخ الشناوي طلب منه الختم على حب النبى.

وقال ثالث إن الجن الأزرق كان لا يمكن أن يأخذ منه الختم، ولكنه خاب وأرسله، فكان ما كان!

سمع دياب كل هذا، فانتزعه الكلام من أفكاره المختلطة.. وفتح فمه ليقول شيئا، ولكن عبد الهادي أقبل بنشاط قائلا:

ـ السلام عليكو يا رجاله.

وضاع كلام دياب وسط عبارات الترحيب بعبد الهادي.

ونظر عبد الهادي إلى دياب طويلا ولم يقل شيئا، ولم يشعر دياب بنظرات عبد الهادي.

وكان عبد الهادي مضطربا بعض الشيء، مكفهر الوجه.

وسمع دياب رجلا يهمس بأن الشر باين في عيني عبد الهادي الليلة، فتقدم دياب إلى عبد الهادي يسأله ما له، فلم يجب عبد الهادي، ولكنه أمسك بيد دياب فجأة، وسار به بعيدا ليقول له: إن محمد أبو سويلم سمع خضرة الآن تمزح مع وصيفة بكلمات قبيحة مفضوحة واسم دياب يتردد على ضحكاتها، فقام من فوره وضرب ابنته وخبط خضرة بالكف وطردها من داره، وهددها بأن يقطع رجلها إن مدتها إلى داره مرة أخرى.

ولم يجب دياب، وظهر عليه ارتباك واضح وأخذ يبلع ريقه.

فتركه عبد الهادي وعاد إلى الدكان يسأل الشيخ يوسف بسرعة إن كانت دورة الري القادمة تحل بعد ثلاثة أيام.

فقال الشيخ يوسف بيأس: إنه قد بقي يومان لا ثلاثة، وتبدأ الدورة بأيامها الخمسة المشئومة.

وصرخ دياب من بعيد:

ـ يومين؟ يومين بس!! ومحمد أفندي يلحق يروح ويرجع في اليومين دول؟

وأقبل مسرعا يندس في وسط الرجال أمام الدكان.

وزعق عبد الهادي:

ـ والحكومة رايحة تعدل المواعيد في يومين؟ حاتلحق تقرا العريظة وتنفذ اللي فيها في يومين؟

فقال أحد الرجال الواقفين:

ـ حكومة إيه ياعم؟! داحنا لازم نعرف شغلنا إحنا.. إن ما كناش نشوف لنا تصريف لري الأرض من ورا الحكومة يبقى إن شاء الله عمرنا ماروينا! على رأي اللي بيقول: خلي الحكومة تتحكم واللي في القلب في القلب!! حانمشي وراء الحكومة والعرايظ؟

وخلع الشيخ يوسف عمامته ذات الشال الأبيض المتسخ المفعم بلون زهرة الغسيل، وأخذ يصلح من العمامة وينسق زرها الأزرق القاتم وينظف بأظافره طربوشها المغربي، وهو يقول: إنه من المستحيل أن يستطيع محمود بك ومحمد أفندي تقديم العريضة في يومين ولئن أمكن هذا فالحكومة في مصر لن تصلح الأمر قبل شهر على الأقل.

وشرد دياب قليلا ثم ارتفع صوته يسأل عن مصر هذه وماتكون، وكيف لا يستطيع محمد أفندي أن يقابل حكومتها في يومين كاملين.

أليست الحكومة هناك في دوار كدوار العمدة؟

وقبل أن يجيب الشيخ يوسف اقترح عبد الهادي حين يحل موعد دورة الري أن تدور كل السواقي على الجسر، وأن يقطع الجسر ليتدفق الماء ويروي الحوض كله في خمسة أيام.

وأضاف أحد الرجال الواقفين أن الترعة أيضا يجب أن تقطع في أكثر من مكان ليمكن ري حوض الترعة هو الآخر في الأيام الخمسة المقررة.

ووضع الشيخ يوسف عمامته على رأسه ونظر إلى دياب بعمق قائلا:

ـ سألتني عن مصر؟

ثم هز رأسه واستمر يقول: إن مصر الآن لم تعد تطاق.. لقد كانت مصر هي مصر بحق في الأيام الجميلة الماضية عندما كان الشيخ يوسف يعيش فيها يتعلم بالأزهر.. كان لا يذهب إليها إذ ذاك إلا الكبار.. أما الآن فقد هانت.. وأصبح أي إنسان يملك جنيها أو جنيهين يستطيع أن يسافر إليها ويقعد فيها!

وابتسم عبد الهادي ونقل عينيه بين دياب ـ الذي لم يفهم ـ وبين الشيخ يوسف الذي استطرد في رنة ساخرة:

ـ وعلى كل حال يا سيدي أهه على رأي الشاعر:

ولا كل من لبس العمامة يزينها

ولا كل من ركب الحصان خيال

ولا كل من قال يا فلان أنا صاحبك

فأكمل عبد الهادي ضاحكا:

ـ أي والله يا شيخ يوسف..

والسن يضحك والقلب مليان!

وحاول علواني أن يتحدث متملقا الشيخ يوسف فقال بطرب:

ـ يا أخوية عارف كل حاجة.. عارف شعر العرب كمان.. عارف كل حاجة وفاهمها زي القرد!

فغضب الشيخ يوسف وزعق في علواني:

ـ قرد لما ينططك خطاف من سلسال خطافين، امش انجر من هنا واوعى تهوب ناحية الدكان تاني! إيه الملافظ دي! قرد؟ ياك تنقرد!..

وبهت علواني ووقف يعتذر، ويحاول أن يشرح وجهة نظره غير أن الشيخ يوسف قطَّب وجهه ولم يفرجه تلك الليلة.

وابتعد علواني آسفا فجلس وحده على الجميزة الملقاة في الفضاء أمام الدكان.. وأراد دياب أن يغير الحديث.. وفي الحق إنه أراد أن يريح قلبه فسأل الشيخ يوسف، إن كان من الممكن أن يتسلم في الغد خطابا من محمد أفندي، فقال الشيخ يوسف بضيق: إن هذا مستحيل، فالخطاب يصل من مصر إلى القرية بعد ثلاثة أيام بالقليل!

فاعترض دياب على هذا، وهز الشيخ يوسف رأسه وأخذ يفسر له الأمر في عصبية وضيق.

ولكن دياب عاد يصيح في الشيخ يوسف إن محمد أفندي يجب أن يرسل إليه خطابا بسرعة ويجب عليه أن يتسلم هذا الخطاب قبل بدء دورة الري ليعرف رأسه من رجليه، ويفهم إن كان يبدأ في ري أرض الجسر أو حوض الترعة.

ولم يجب الشيخ يوسف وتململ بصوت مرتفع.

وانتهز علواني المناسبة فعاد إلى مكانه أمام الدكان واعترض على دياب قائلا:

ـ يا أخي افهم الكلام الحلو اللي بيقوله أبوك الشيخ يوسف! يا أخي اسمع الكلام!

وسكت الشيخ يوسف، ونظر علواني بحيرة...

أما دياب فلم يسمع الكلام، ولم يصدقه، ولم يرد أن يناقش فيه.

وفي اليوم التالي، لم يكد الضحى ينفض من على الحقول ندى الصباح، حتى كان دياب يقف عند صندوق البريد الكبير المثبت في سور دوار العمدة.

وبعد ساعة من الانتظار أنفقها جالسا على الأرض يلعب «السيجة» مع عبد العاطي.. رأى ساعي البريد مقبلا من بعيد.

وتحرك عبد العاطي وهو الخفير المكلف باستلام البريد ـ ووقف إلى جوار الصندوق تاركا خطوط السيجة على الأرض، وقطع الطوب الحمراء التي اختارها لنفسه ثابتة في أماكنها، وقام دياب من لعبة السيجة وهو يرمي آخر نظرة على قطع الطوب السوداء التي اختارها لنفسه، مغتبطا بقدوم ساعي البريد في هذه اللحظة بالذات، لأن كلاب عبد العاطي الحمراء، كانت قد أكلت معظم كلابه السوداء، وأوشك عبد العاطي أن يغلبه دورا يسقط مكانته في لعبة السيجة بين الرجال.

وقام الصغار الذين كانوا يشاهدون السيجة ـ باهتمام ـ فالتفوا حول الصندوق كما تعودوا أن يصنعوا كل يوم.

وتقدم الحمار العجوز الأزرق بساعي البريد، مطأطئ الرأس ونزل الرجل ببدلته الصفراء المتربة، وحقيبته الكبيرة المهلهلة، وطربوشه المتسخ المتآكل الحواف يستقر فوق منديل كبير مخطط يغطي قفاه وجبهته.

وطوى الرجل شمسيته المرقعة السوداء وأعطاها لعبد العاطي وأقبل على حقيبته المترهلة فدس فيها يده، وبدأ يتحسس الأوراق في بطء وأناة.. وسأله دياب قبل أن يخرج يده بالمظروف:

ـ ما عندكش جوابات من محمد أفندي؟

ورفع ساعي البريد رأسه، ونظر إلى دياب في غيظ.

ثم تنهد وأحنى رأسه على الحقيبة وأخذ يخرج منها بريد القرية.

كان لساعي البريد وجه معفر مليء بالغضون، وكانت شفتاه تتقوسان تحت شارب رمادي غليظ، وأنف أفطس متكور مسدود الفتحات بالشعر الكثيف، وكان كل هذا يرسم مع عينيه العكرتين وذَقَنه المعقد، صورة رجل يتألم، ويبكي بلا دموع.

وكان شكله الجاف العابس، ومقدمه كل يوم من المركز، يقيم بينه وبين الفلاحين حائطا كريها من الريبة والرهبة والحذر.

وتقدم منه دياب في وجل يسأله مرة أخرى:

ـ حضرتك يعني يا سيدنا اللفندي.. جنابك يا حضرة البوستجي.. مامعكش جواب من محمد أفندي؟

وأجابه ساعي البريد بحنق مكظوم وهو يزم شفتيه ويصر على أسنانه:

ـ والله لسه ما حطناش نفسنا جوا الجوابات كمان!

فاستسلم دياب قائلا بهدوء وبساطة:

ـ طيب..

وأخذ ساعي البريد يقرأ العناوين المكتوبة على الظروف.

وتسلم الصبيان الواقفون بعض المظاريف والخفير يتمم عليهم ودفع ساعي البريد بباقي المظاريف إلى الخفير عبد العاطي ليوزعها بمعرفته، ثم أخذ منه الشمسية، واتجه إلى حماره العجوز ذي الرأس المطأطئ، وركب.

وتضايق دياب.

ورأى الرجل يتحرك بحماره دون أن يقول له كلاما صريحا، ولم يطق أن يخطئ خطابا من محمد أفندي بهذه السهولة، فاتجه إلى ساعي البريد وأمسك بحماره وصاح فيه بغلظة:

ـ يعني ما قلتش فيه جوابات من محمد أفندي والا لأ؟ فين جواب محمد أفندي؟ اقرا.. الظروف اللي في الشنطة دي كويس.. مكتوب عالظرف يصل ويسلم لأخونا دياب.

فصرخ فيه ساعي البريد أنه سلم البوسطة كلها وأنه لا يوجد ظرف باسم دياب ولا يمكن له أن يعرف إن كان محمد أفندي قد كتب خطابا أو لم يكتب، فالخطابات داخل ظروف مغلقة، وهو يعمل ساعيا للبريد لا منجما.. ثم لكز حماره بملل وهو يكاد يعوي:

ـ ربنا يتوب علينا من الشغلة المهببة دي!! بقى لنا فيها تلاتين سنة لا عرفنا نوفر قرش ولا نربي عيل ولا..

وضاعت كلماته وهو يبتعد في صيحات دياب:

ـ دهدي؟ طب ما تزهقش قوي كده! أنت خلقي كده ليه؟ يعني ما فيش جوابات ولا هبابات؟! طب ماتقول كده من الصبح! جاتكو الغم يا بتوع البندر في كبر نفسكو ولماضتكم!

وفي مساء ذلك اليوم كانت القرية كلها تروي قصة ساعي البريد ودياب..

وعندما ذهب دياب إلى دكان الشيخ يوسف قبل صلاة العشاء قال له أحد الواقفين ضاحكا:

وبعت له جوابات.. ولا جواب جاني

خف المنزول درجات..

وضحك الشيخ يوسف طويلا..

وأضحك الناس على دياب.

وغضب دياب وتحرك لينصرف قائلا:

ـ دهدي يا عم الشيخ يوسف؟! يعني طول عمرك مقنب واشمعنى غزالتك راقت دلوقت؟.. لا ياسيدي.. أنا بقول لك أهه.. ماتشدش عليه المسخرة بعد كده وتخليني ضحكة في البلد! بقى أنت تقدر تعمل كده ومحمد أفندي هنا؟

كان يقول هذا الكلام وهو يبتعد.. والشيخ يوسف يشيعه بالشتائم وبالسخرية منه ومن محمد أفندي..

ولم ييأس دياب من وصول خطاب من محمد أفندي.. وذهب في الصباح التالي فلعب السيجة وانتظر ساعي البريد.. وسأله نفس السؤال فثار في وجهه الرجل وشتمه، ورفع عليه الشمسية فانصرف دياب حائرا، وهو يقول:

ـ دهدي! هو كل واحد يشتم فيّ من ناحية؟ جاتكو شوطة في الجوابات وسنين الجوابات.

وعندما سخر منه الشيخ يوسف مرة أخرى في مساء ذلك اليوم، صاح دياب فيه:

ـ جرى إيه يا شيخ يوسف؟ مولع مني أنا وأخويا سي محمد أفندي؟! البلد كلها مولعة منا ليه؟ يا بلد غيارة! يا بلد بتهري وتنكت وما حواليها غير الكلام الفاضي! أنا عارفك مفلوق من إيه؟ ماتشقى يا شيخ يوسف زي ما بنشقى! إنت فاكر إن الزراعة الحلوة دي جاية بالساهل.. هيه أرضنا بترمي أحسن من أحسنها أرض ليه؟ هه.. عارف ليه؟ دا شقانا يا جدع.. دي خدمة عالغالي يا جدع!! بنعرف نعزق في الأرض ونديها حقها! يا راجل دا الحتة بتاعتك اللي إحنا راكبينها كانت حتبور في إيدك لولا لحقناها

منك.. إيش عرفك أنت بالفلاحة.. وحياة النبي دا أنا بازرعها برجلي.. فالح لي بس تولع من الخلق وتتمسخر عليها.. آه يا بلد غيارة يابلد سوّ!

كان دياب ينفجر ولا يكاد يترك فرصة للشيخ يوسف وقد أخذ يلوح بيده حتى أوشكت إحدى يديه أن تدخل في عين الشيخ يوسف.

ولم يحتمل الشيخ يوسف ما يقوله دياب.

واصفر لونه، وانكمشت غضون وجهه وتتابعت أنفاسه، ووجم الذين يقفون أمام دكانه.

ورفع الشيخ يوسف كفه المعروقة النحيلة فهوى بها على صدغ دياب.

ورنت الصفعة في أذن الشيخ يوسف، فهوى بكفه على الصدغ الآخر.

وتحسس دياب وجهه وذهل لبعض الوقت، وساد الصمت تماما..

وتوترت أعصاب الواقفين.

ودارت نظرات دياب بينهم.

وزحفت على حلقه غصة فقال يغالب نفسه بصوت خفيض:

ـ بتضربني على خلقتي يابا الشيخ يوسف؟ وبتقول إنك أنت قريت في الأزهر؟ تضربني على خلقة ربنا؟ معلهش يابا الشيخ يوسف.. أنت برضه راجل كبير وزي أبويا.

وصمت قليلا.. ثم قال:

ـ الله يسامحك.

وزلزل الشيخ يوسف وانفلتت منه أعصابه..

واهتز كل بدنه على خوف مفاجئ من كلمة «الله يسامحك»، وصاح في انهيار:

ـ غور من قدامي!! إيه اللي جابك هنه؟! خدوه من قدامي يا ناس.. ربنا يسامحني؟! إنت بتدعي عليّ يا وله، إنت بتدعي عليه؟!

وجذب الواقفون دياب وأبعدوه عن دكان الشيخ يوسف، وأخذوا يهدئون من غضب الشيخ يوسف.

ولكنه أغلق الدكان على الفور، ومضى وهو يغلي ويرتعد واتجه إلى دار محمد أبو سويلم.. فوجده يجلس على مصطبته مع عبد الهادي وضوء القمر يملأ المكان بالهدوء والسكينة.

كان عبد الهادي على طرف المصطبة يجلس إلى جوار الباب.. يتسمع كل حركة ويصطنع أي مناسبة ليلتفت باحثا بعينيه في داخل الدار عن وصيفة.

كان يريد أن يراها.

وكان يعاني لفحات ألم خفي كلما تذكر أن وصيفة لم تعد تحمل القهوة إليهم منذ سافر محمد أفندي.

أيكون محمد أفندي وحده هو الذي يستحق منها أن تعمل القهوة وتقدمها بنفسها.. وتصبها أيضا؟!..

وتمتم عبد الهادي وهو ينظر إلى السماء الساكنة الرائقة في ضوء القمر:

وصاحب اتنين ما يثبت على صاحب.

وابتسم محمد أبو سويلم قائلا:

ـ آي والله يا عبد الهادي صدقت يا ولدي.. وصاحب اتنين ما يثبت على صاحب.

يا هل ترى البيه حايثبت على صحوبية البلد والا صحوبية الحكومة؟

وكان عبد الهادي شاردا عنه فأكمل تمتمته:

والصاحب اللي سبب ذلي مخاصمنى!

فقاطعه محمد أبو سويلم ضاحكا:

ـ دهدي؟.. أنت قلبته موال أخضر.. دا أنت قلبك أخضر قوي.. خلاص يعني حبكت يا عبد الهادي.. عدلنا مواعيد الري وروينا وزرعنا وجمعنا مافاضلشي غير المواويل الخضر؟

وضحك عبد الهادي، ونظر إلى الشيخ يوسف مستجديا بعينيه ضحكات منه. ولكن الشيخ يوسف لم يبتسم..

وسأله عبد الهادي عما به، فمضى يروي لعبد الهادي عن دياب وقلة أدب دياب وماقاله له دياب في وجهه.

وعندما وصل في الحكاية إلى أنه ضرب دياب كفين على صدغه، ضحك عبد الهادي، وشعر براحة صغيرة تغمره.

ولكنه شرد قليلا، ونظر في السماء وتنهد وقطب وأحس بحنان جديد وإشفاق فأكمل:

ـ بس الواد ده غلبان! مخه ضيق وغلبان ومنكسر! والله دا غلبان يا شيخ!

وأشاح الشيخ يوسف بوجهه في رفض، وتمتم بكلمات لم يسمعها أحد.. وساد السكون لحظة.

وبعد قليل أقبل الشيخ الشناوي يسبقه صوت المسبحة وتمتمة التسبيح.

وإذ رأى عبد الهادي عاتبه بغضب لأنه لم يصل العشاء الليلة، وانقطع تماما عن المسجد مع أنه بجوار داره.

فقال عبد الهادي ضاحكا:

ـ بقى يعني هو الجامع دا معمول علشاني لوحدي يا سيدنا؟ كل ما تحط وشك في خلقتي تقول لي الجامع؟ الله! ما عندك أهو الشيخ يوسف، وعم محمد أبو سويلم.

فضحك الشيخ الشناوي متحرجا وقال:

ـ بقى أنت يعني دايما محضر الجواب كده؟ الأكادة إنك لمض!

وضحك الجميع.

وقام عبد الهادي من مكانه قائلا: إنه راجع إلى داره لينام حتى يقوم قبل الفجر فيدير الساقية.. فدورة المياه تبدأ من الغد.

واقترح الشيخ يوسف أن يقوم الجميع مع عبد الهادي ليرووا أرضهم ما دامت دورة المياه لم تعدل.

وقال محمد أبو سويلم: إن حوض الترعة لا يحتاج إلى الري قبل خمسة أيام.. وبعد خمسة أيام تكون الدورة قد انتهت.

وتنهد عبد الهادي قائلا:

ـ تتعدل!

ووقف الشيخ الشناوي يسلم على عبد الهادي قائلا:

ـ تتعدل إزاي يا عبد الهادي؟ من غير صلاة؟ ابقى حود على الجامع في الفجر اخطف لك ركعتين خلي ربنا يبارك لك في الأرض.

انصرف عبد الهادي وهو يقول مبتسما:

ـ يا سيدنا دانا على ما أخطف ركعة واحدة تكون الميه انخطفت.. لما نبقى نروي الأرض الأول والصلاة أهي ملحوقة.

وانصرفوا جميعا وهم يضحكون والشيخ الشناوي يقول:

ـ والله الواد عبد الهادي ده عمره ما هو وارد على جنة.. لا بيصلي ولا لسانه بيبطل.

وأغلق محمد أبو سويلم باب بيته وهو يقول ضاحكا:

ـ يا خبر يا سيدنا؟! دا أنت خليت واقعته غبرة! بقى يعني نار في الدنيا ونار في الآخرة كمان؟!

ودخل لينام وهو يحلم بالجنة.. جنة الدنيا!

في الفجر كانت الشمس ما زالت مختفية وراء الأفق الشرقي وضياؤها يملأ العالم بالنور.

وارتفع صوت الشيخ الشناوي من على مئذنة المسجد، متهدجا حزينا متثائبا.

وفي الحقول.. كانت الأعواد الصغيرة الخضراء تتمايل مثقلة بحبات الندى والأنسام الرطبة تسري خفيفة لينة مفعمة بعطر الحقول.

كان الفضاء ساكنا بديعا، والسماء والنهر والأشجار وكل شيء يبدو كأنما هو جديد تراه العين لأول مرة.

وقبل أن ترسل الشمس أول شعاع في اليوم الوليد كان عبد الهادي يغوص بقدميه العاريتين في ماء القناة الصغيرة التي تنحدر من تحت الجسر، ويهوي بفأسه على قاع القناة، ثم يزيح طينها بيديه ليمهد الطريق للماء خلال حقل الذرة.

كانت بقرته تدور في الساقية وإلى جوارها غلام صغير يدعك عينيه.

وغير بعيد منه كان فلاح آخر يهوي بفأسه على الأرض ليفسح طريقا للمياه، وكان دياب يقطع بيديه مروى لحقله.

وهنا وهناك في حوض الجسر تناثر الفلاحون، أنصاف عراة، القامات منحنية على الماء، والأيدي تدفع به في حماس إلى الحقول العطشانة..

أما علواني الذي كان يحرس حقل البطيخ الوحيد في حوض الجسر فقد بدأ ينام بعد أن سهر الليل كله يحرس..

ووجد عبد الهادي ماءه يجري متلكئا في القناة.. ولاحظ أنه قليل لا يكاد يكفي حاجة حقله.. ورفع رأسه وجسده ما يزال منحنيا.

فوجد الساقية تدور على الجسر بلا توقف..

ونصب طوله، وفتح صدره، ووضع يديه بطينها في خصره ونظر إلى السماء..

لم يعد في السماء ظلال من الليل بعد، وقد انطلقت العصافير من على الأشجار تزقزق وتتصايح، والطيور البيضاء الرشيقة ذات المناقير الطويلة تنطلق الآن في مواكب، وتحط على الأرض فتعبث في الماء، وتنقر وتلتقط أشياء ثم تطير وتعود في أمن.

ومشى عبد الهادي إلى الساقية ليتبين السر في قلة الماء..ومر في طريقه بفلاح يجاوره فقال عبد الهادي:

ـ شد حيلك دا الشمس طلعت ودلوقتي الدنيا تولع.

فقال الرجل:

ـ الميه شحيحة قوي النوبة دي يا جدع..

فقال عبد الهادي وهو يمشي:

ـ ما أنا رايح أشوف الخبر إيه..

وانطلق عبد الهادي إلى الجسر وهو يهمهم لنفسه:

قاضي الغرام فوق جبل عالي يناديني

يقول يا مين مفارق حبايبه، قلت آديني

وكان صوته قد ارتفع منه دون أن يدري، ورنت نغماته في صمت الحقول.. فقال له رجل من بعيد:

ـ أيوه يا عبد الهادي أيوه! سلامتك من الفراق يا خويه!

واستمر عبد الهادي في سيره حتى بلغ الجسر، والشمس تنفض حبات الندى الفضية عن أوراق الشجر والنهر يجري هادئا بلا صوت ومركب صغير يجري على صفحته التي تعكس كل ألوان السماء وشباك الصيادين من بلاد بعيدة تقرع جوانب النهر من على شاطئيه.

وكان ضباب الصباح قد بدأ يذوب في حرارة النهار الجديد.

وفي الصمت أخذت أصوات مختلفة تنشر رنينها النشط، فيختلج بالأنين الذي ترسله السواقي خلال دورانها الرتيب.

وعندما وقف عبد الهادي أمام الساقية، رأى على البعد رجلا يجلس على حافة القناة التي تمتلئ من الترعة، وقد غاص حتى ركبته في الماء، وانحنى على الطنبور، وأخذ يميل إلى أمام ووراء وهو يمسك يد الطنبور الحديدي وصوته يرتفع بغناء حزين:

هدية.. يا هادي!..

وأدرك عبد الهادي أن الماء جرى في الترعة، ما دام الطنبور يدور، فهز رأسه بارتياح قائلا:

ـ عال!..

ومال إلى الساقية.

وفحص عبد الهادي الساقية جيدا..

نظر إلى البئر وفي القواديس التي تهوي إلى البئر فارغة وترتفع مشدودة إلى بعضها ممتلئة بالماء الدسم: قادوسا بعد قادوس.

ونظر إلى النهر.. ومشى قليلا إلى الجسر ليتأمل القناة التي تستقبل الماء المنسكب من قواديس الساقية، فوجد الماء ينصب بقوة من الساقية إلى القناة الصغيرة، ثم يتدفق تجاه حقله في موجة مندفعة.

وتبع القناة في سيرها تحت بطن الجسر في محاذاة حقول جيرانه حتى تصل إلى حقله فوجد موجتها القوية ما زالت تندفع.. وفجأة.. يبطئ الماء في جريه ويهبط.. ويشح ثم يمشي قليلا يتسكع إلى حقله وحقل الجار الذي يليه.

وفحص القناة جيدا فوجدها مقطوعة في أكثر من موضع والماء يتسرب منها ليتجمع في خيوط تسيل إلى بعيد.. إلى الحقل الذي تهوي عليه فأس دياب!

وتضايق عبد الهادي لأن دياب يصنع معه هكذا، إنه يسرق منه الماء لمجرد أنه يملك حقلا يمر به ماء الساقية قبل أن يمر بحقل عبد الهادي.

أيريد دياب أن يصنع معه كما فعل الباشا مع القرية؟

والنهر الصغير والترعة يمران بأرض الباشا أيضا قبل أن يمرا بالقرية.. ومن أجل هذا أباح لنفسه أن يأخذ نصف الماء الذي يحق للقرية أن تأخذه!

ولكن هذا الباشا.. باشا!

الباشا.. باشا، وراءه وحوله في عاصمة الإقليم رجال يحكمون بالسجن، ويضعون الناس في حبس المركز ليشربوا بول الخيل..

ولو فكر أحد في ضرب هذا الباشا لضربوه وأهل بلده ولم يتركهم حتى يموتوا جميعا من الضرب!

ولكن دياب هذا؟

لماذا يسرق الماء بلا إذن.. كالباشا؟

لا بد من منعه من الري وطرده من القرية أدبا له.

ووصل عبد الهادي إلى الحقل الذي يملكه دياب تحت حوض الجسر.. فسأله عبد الهادي بعنف:

لماذا يسرق منه الماء على الريق؟

لماذا يعكر له دمه على الصباح؟

لماذا يروي هذا الحقل اليوم.. ولم يحدث من قبل أبدا أن روى حقله هذا إلا في آخر دورة الري؟!

ولماذا لايروي الأرض البعيدة في حوض الترعة كما تعود حتى إذا انتهى عبد الهادي من ري أرضه في حوض الجسر أمكن لدياب أن يدير الساقية بجاموسته هو ويأخذ من الماء كما يشاء؟

ورفع دياب رأسه ويداه على فأسه وقال بغلظة:

ـ يا فتاح يا عليم.. ابعد عني يا عبد الهادي..

وانحنى على الفأس.. يضرب بها الأرض وقدماه في الماء.. وصاح عبد الهادي في دياب أن يذهب بنفسه ليسد القناة التي قطعها وسرق منها الماء.. ثم يعود إلى القرية ويترك الخلق لحالهم.

ولكن دياب رمى فأسه ووقف يلوح بيديه ويزعق في وجه عبدالهادي..

وعاد دياب يتحدث مع عبد الهادي كما تحدث مع الشيخ يوسف عن الغيرة والنار التي تأكل قلوب الناس في القرية غيظا منه ومن أخيه محمد أفندي!

وانهمرت من بين شفتي عبد الهادي شتائم عديدة لدياب ولأخيه محمد أفندي.

ثم أسرع عبد الهادي بنفسه إلى الجسر وأمسك بيده قطعة من الطين وسد القطع الذي يسيل منه الماء إلى حقل دياب.

وبعد هذا عاد إلى حقله مطمئنا وانحنى على الأرض يدير فأسه ويديه في الماء.

وانقطعت خيوط الماء التي كانت تتسلل إلى حقل دياب وإلى جاره الذي كان يقف عاري الصدر والقدمين حتى الفخذ.

وأحس الرجل ـ جار دياب ـ بالماء يشح بين يديه.. فلوى رأسه إلى دياب وأخذ يزوم.

ـ أم .. دا إيه يا أخويا ده؟ إيه الافترا بتاع عبد الهادي؟ هوه إيه أصله؟ هوه عبد الهادي حيعمل زي الحكومة؟ يعني حيفتري زي الحكومة؟ دا ناقص يكسر السواقي؟ دا إيه الشغل ده؟ يحوش عنا الميه؟

وانتصب دياب وشد جسمه، ووضع الفأس على كتفه وأقسم بصوت مرتفع أن يقطع ماء القناة بالفأس وعلى من لايعجبه هذا العمل أن يشرب من البحر أو من البرك!

وجرى دياب بلا تفكير إلى الجسر، وبلا كلمة هوى دياب بفأسه على حافة القناة فقطع منها جزءا كبيرا طوح بطينه إلى بعيد، فتدفق الماء كله إلى حقل دياب وجاره.

ووقف دياب يزعق قبل أن يتحرك من مكانه وفي صوته مغالبة للرعب:

ـ اسمع يا عبد الهادي لما أقول لك!! أنت فاكر إيه يعني؟ أنا ليه في الساقية يوم وجاري مسعود أبو قاسم يوم!! آخذ ميه على كيفي! آه! آه! باقولك أهه! اعرف كده يعني! وإلا علشان ما اسمها ساقيتك؟ ساقيتك قال! إحنا لنا فيها يوم.. ومحمد أبو سويلم له يوم، ومسعود أبو قاسم والناحية الشرقية يومين، وأنت بقية العشرة أيام! أنا حاخد يومنا في الساقية النهاردة.. ياللا حل بهيمتك وأهي مرات مسعود أبو قاسم جاية أهي ومعاها البهيمة!

هكذا كان الفلاحون قد وزعوا ماء ساقية عبد الهادي..

وهكذا كانوا يوزعون ماء السواقي القليلة على الجسر.. كل له من الأيام على قدر ما ساهم في تكاليف بناء الساقية التي صنعها نجار مشهور في البر الثاني من النهر.

ولكن هذا كله حدث عندما كانت أيام الري عشرة.

ولم يتوقع أحد أن تقل أيام الري أبدا عن عشرة!

أما الآن فلم يفكر أحد من القرية في تقسيم أيام الساقية من جديد على أيام الري الخمسة التي لم تسمح الحكومة بغيرها.

ولم يكد دياب يفرغ من زعيقه على الجسر، حتى كانت امرأة مسعود أبو قاسم مقبلة تسحب جاموسته.

وكانت تلتفت وراءها أحيانا لتشتم أو ترد على شتائم فلاحين آخرين من الناحية الشرقية سحبوا جاموسة وبقرة وجاءوا إلى الجسر ليأخذوا يومين كاملين في أول الدور..

ورآهم دياب مقبلين، فنادى عليهم كالمستغيث ليروا شغل عبد الهادي الذي يريد أن يأخذ وحده ماء الساقية.

وبدأت أصوات الاحتجاج ترتفع..

وصعد عبد الهادي إلى الجسر وما زال دياب يزعق، وعبد الهادي يبتسم متلطفا ويغصب على نفسه ويكتم غيظه.

وبلغ عبد الهادي مكان دياب، فطلب أن يصلي به على النبي، ويقصر الشر، ويرجع إلى القرية.. أو يروح إلى حوض الترعة ليروي أرضه هناك كما تعود بدلا من وقوفه هنا يسرق الماء ويجلب النكد ويعكر دم الناس!

واحتج دياب على عبد الهادي قائلا: إنه لا يسرق الماء ولا غيره ولكن عبد الهادي هو المفتري.. دائما!

وتدخل في المناقشة رجال الناحية الشرقية.. ونساؤها.. فقد سحبوا الجاموسة والبقرة ليديروا الساقية اليوم.. وهم أهل ناحية بحالها من القرية.. ويجب أن يأخذوا نصيبهم من أيام الساقية في أول أيام الري..

وحاول عبد الهادي أن يغير عزمهم، فقد كان لهم يومان عندما كانت أيام الري عشرة.. أما الآن فلو أنهم تمسكوا بيومين فلن يجد بقية الشركاء في الساقية مايكفي لري الأرض العطشانة!

وبدأت مناقشة أخرى بين أهل الناحية الشرقية وبعضهم: من الذي يروي أرضه أولا بعد أن قلبت الحكومة الحال وجعلت أيام الري خمسة؟

وعاد عبد الهادي يقول: إن الناحية الشرقية كان لها يومان من عشرة وأيام الري الآن خمسة فلها يوم واحد.

واختلطت أصوات الرجال والنساء في رفض لما يقول عبد الهادي.

وارتفع زعيق دياب في مناقشة ثانية مع عبد الهادي.. وكان دياب كلما زعق ورن صوته، وجد نفسه يقتحم الكلمات بلاخوف ويرمي بها، وقلبه تتوالى دقاته وإحساس جديد بالشجاعة يسيطر عليه.

وارتفعت الشمس قليلا والمناقشة تحمي بين أهل الناحية الشرقية وبعضهم، وبينهم وبين عبد الهادي، وبين عبد الهادي ودياب.

وأحس كل واحد من الواقفين كأنما الآخر يريد أن يسلبه الحياة نفسها!

وتذكر عبد الهادي فجأة أن ساقيته تدور وتصب الماء في حقله ولا أحد يحكم توزيع الماء على الأرض.

وخشي أن يفيض الماء فيغرق الحقل فصرخ في الناس أن يتركوه ليرى ماحصل للماء.

ولكن امرأة قالت له في صوت حاد ساخر: إن الساقية لا تدور من وقت ماجاءوا هم!

والتفت عبد الهادي إلى الساقية فوجدها معطلة، وبقرته تدلك رأسها في الجميزة، بينما وقفت امرأة وصبي وعدة رجال يتناقشون في مدار الساقية وبينهم جاموسة على رأسها غماء!

وأطلق عبد الهادي صيحة غضب واستنكار.. فقهقه دياب بشماتة وقال ساخرا:

ـ عامل دكر وناصح قوى! أهي مرة وقفت لك الساقية!

ودون أن يشعر عبد الهادي، هوى بكفه على وجه دياب، ورنت الصفعة حامية تطق الشرر!

وارتجف دياب وترنح.. واهتزت الفأس في يده لحظة ثم هوى بها فجأة على رأس عبد الهادي.

وتلقى عبد الهادي بيد ثابتة عصا الفأس الهاوية عليه قبل أن تفلق رأسه بحدها الصلب اللامع.

وفي سرعة خاطفة مفاجئة ارتفعت العصي، وصرخت النساء.

وجرى عبد الهادي إلى الساقية فانتزع منها العمود الخشبي الغليظ الذي تربط إليه البهائم في مدار الساقية..

وعاد عبد الهادي يحمل العمود المربع الثقيل بيديه، ويخبط به الرءوس دون أن يرى ما أمامه ودون أن يدري لماذا يفعل.

وفي تلك اللحظات لم يكن أحد يدري ماذا يفعل.

كانت طاقات هائلة من الضيق تنفجر من كل نفس، وتضرب كل من يتعرض لحرمان الأرض من الماء.

وباسم الدفاع عن حياة الأرض ـ عن الحياة نفسها ـ مضى كل فلاح يضرب ويضرب بلا توقف كل من يريد أن يناقش حق الأرض في الماء!

كان الرجال يضربون بعضهم بلا حساب وبلا مراعاة.. كأنهم لم يعرفوا بعضهم أبدا، ولم يحبوا بعضهم من قبل.

وكأنما قد أصبح من المستحيل أن يتحدثوا إلى بعضهم مرة أخرى.

كان من الممكن أن يصنع كل واحد بجسد أخيه أي شيء: أن يقذف به إلى أعماق الماء.. أن يقطع منه.. وحتى أن يأكله!

والنساء أيضا كن يفعلن نفس الأشياء، ويحتدمن بنفس القسوة في المعركة!

وشجت النساء رءوس بعض الرجال بالحجارة وسال الدم.. واختلط على الأجساد، وسال في عرق كل واحد دم من عروق أخيه!

وسقط رجل، وامرأة، ثم سقط دياب ورجل آخر، وامرأتان، ثم رجل ثالث، ورابع، وخامس..

والعصي ما زالت تدور، والنساء يصرخن، ويقذفن في الفضاء بكل صوت يائس رهيب.

ولاح على الجسر أطفال ورجال ونساء آخرون أقبلوا على الصراخ.

وظلت النساء تقبل من بعيد فيرددن الصراخ دون أن يعرفن السبب!

ولاح بين القادمين شيخ البلد يهرول بقامته النحيلة ويتعثر في جلبابه الطويل.

واستيقظ علواني من حقل البطيخ على صراخ النساء وزعيق الرجال فأقبل يجري مروعا..

ووقف علواني بالقرب من الرجال، وحاول أن يقنعهم أن يكفوا أيديهم عن بعضهم، فلم يحفل به أحد! ودخل وسط الرجال ليفض المعركة ولكن بلا جدوى.. فالتقط عصا.. وأخذ يضرب على العصي، ثم يثب، ويقف شاهرا عصاه على رأس عبد الهادي ليحميها ممن يحاول ضربها من الخلف.

وعندما وصل شيخ البلد لم يستطع أن يقترب من العصي والفؤوس التي تتشابك فوق الأجساد.

فأخذ ينادي على الرجال من بعيد، ويشتمهم ويهددهم.. ولكن العصي ظلت تخبط، وصوت النساء ينطلق حادا حزينا متتابعا..

ولم يستطع شيخ البلد أن يبعد أحدا من المعركة غير علواني فأمره أن يجري ليحضر الخفراء.

وجرى علواني إلى القرية من بين الحقول ليختصر الطريق.

ووصل الشيخ الشناوي يلهث من التعب وأخذ يمسح عرقه بيده وكرشه يهتز وهو يلعن كفر الرجال وافتراءهم وفجور النساء! وأمسك عصاه القصيرة الغليظة التي تعود أن يضرب بها.. وتقدم إلى المتعاركين يضربهم على الأكتاف ثم يبتعد وعيناه على العصي الطويلة المتشابكة.. ثم يعود في حذر ليضرب الأكتاف بسرعة وهو يميل برأسه بعيدا عن مواقع العصي، وما زال يصيح في الجميع أنهم يرتكبون الحرام، فدم المسلم حرام على المسلم.. ولكن العصي ظلت تهوي والنساء يصرخن.

وأخيرا أقبل الشيخ يوسف وكانت الأيدي قد تعبت وما برح الرجال يتساقطون.. ودخل الشيخ يوسف بعصاه الخيزران الرفيعة بين الرجال وهو يلعن البلد وأهل البلد ويهدد بأن يرحل من هذا البلد ويترك أهله يأكلون بعضهم كالوحوش.

وهدأت الأصوات بعض الشيء وما زالت العصي والفؤوس تهوي وتخبط وما زال الرجال يتساقطون على الأرض.

وانطلقت أصوات استغاثة من ناحية الساقية.

أصوات مروعة رهيبة كأنما هي انفجار يأس..

كانت مدوية عريضة وكانت نفاذة أليمة خاطفة كالانهيار!

والتفت الشيخ يوسف وهو يلعن هذه الصرخات التي تفزع الجن نفسه، وتقدم إلى الساقية قليلا ثم صاح هو نفسه:

ـ يادي الداهية السودة يا رجاله.. الحقوا الجاموسة.. الجاموسة وقعت في بير الساقية!!

وبغتة تراخت الأيدي بالعصي المشتبكة على الجسر، وسقطت الفؤوس والشماريخ على الأرض واتجه الرجال والنساء كلهم إلى بئر الساقية.. وهم يلهثون.

واختلط الصياح بالاستغاثة وحاول شيخ البلد أن يتقدم إلى حافة الجسر حيث وقعت الجاموسة وزعق.. ولكن الصرخات غمرت ضجيجه وبرز الشيخ الشناوي بقامته المديدة المتكرشة وهو يصيح:

ـ حاسب يا واد! حاسب منك له.. اوعوا تقربوا لها لاحسن تغرقوها.. اقروا الفاتحة إن ربنا يتتع الجاموسة.. الفاتحة لها يا أولاد.

وحاول الشيخ الشناوي أن يروي حكاية تشجعه فاستطرد قائلا:

ـ ده مرة بقرة سيدنا موسى...

ولم يكمل فقد اندفع مسعود أبو قاسم فنحى الشيخ بعيدا، وأوشك أن يوقعه في البئر، ويصيح:

ـ ما تغور بقى يا سيدنا، يا شيخ غور.. فاتحة إيه وبقرة سيدنا موسى إيه.. اجروا يا جدعان.. انزلوا يا رجالة.. حوشوا يا أولاد.. يا خراب بيتك يا مسعود يا أبو قاسم.. يا حش وسطي يانه.. يا ضياع شقا العمر كله.. يا كسرتي يانه..

وأخذ يلطم خديه في جزع هائل.. وتحدرت دموعه واختلطت بعرقه المتصبب، وصوته المتهدج يرسل أنينا فاجعا..

وقعد مسعود أبو قاسم على الأرض لايقوى على الحركة وأخذ يضرب التراب بيديه في حسرة مخيفة، ولم يستطع أن يقف كأنه انكسر حقا..

غير أن عبد الهادي قفز إلى البئر لاهثا وأسند رجليه إلى القواديس ووضع يده تحت بطن الجاموسة وهو يسند قدميه إلى غور في البئر..

وزحف الرجال الذين كانوا يرقدون على الجسر بجراحهم منذ لحظات.. ووقف بعضهم أمام البئر.. وحاول دياب أن ينزل إلى البئر فزعق فيه عبد الهادي بحنان كبير:

ـ خليك إنت يا دياب.. إنت دمك لسه سايح.

وهب من ناحية عبد الهادي رجل ثالث.. وأوشك أن يسقط في البئر، وأسنده عبد الهادي ورجاه أن يصعد هو ويستريح بعيدا.. كان عبد الهادي منذ لحظات يضرب هذا الرجل.. وكان من الممكن أن يقذفه في هذه البئر نفسها.. كان على الأقل مستعدا لهذا.. وكان الرجل هو الآخر مستعدا لأن يصنع بعبد الهادي أكثر من هذا.. ولكنهم الآن أمام ضياع جاموسة مسعود أبو قاسم يحسون فجأة أنه عندما تنزل الكارثة برجل أو امرأة فكأنما نزلت بهم جميعا.. ويجب عليهم جميعا أن يدفعوا الكارثة متساندين! وكل واحد منهم يطالب الآخرين بأن يقفوا معه ويساعدوه حين يقع له شيء كهذا الذي يقع لمسعود!

وهبط إلى البئر رجال آخرون ووقفوا كلهم يتساندون وأرجلهم إلى القواديس أو إلى غور في البئر، وكانوا كلهم يسندون بعضهم حين تقلق الأرجل.. وكانوا كلهم يشجعون بعضهم وأيديهم جميعا تحت بطن الجاموسة يحاولون دفعها بكل ما يملكون في أجسادهم من قوة لدفع الكارثة.. كانوا كلهم يعانون في وقت واحد لحظات خاطفة من نفس اليأس المخيف.. وتلمع لهم معا ومضات بهيجة من نفس الأمل.. كانوا ينحنون ويعرقون وتقدح عيونهم وتتتابع أنفاسهم داخل البئر، وخارج البئر على مدار الساقية يتدافع الرجال والنساء، وشيخ البلد يزعق بأوامر لا يصغي إليها أحد.. والشيخ الشناوي يستنجد بقوة الله.. أما

مسعود أبو قاسم فكانت عيناه على عبد الهادي ويداه تضرب الأرض وتلطم.. وهو قاعد يدير رأسه إلى الرجال في داخل البئر وإلى امرأته التي جلست أمامه صفراء كالموت، بلا حيلة ولاقوة على شيء حتى الجزع والصراخ.. ورأى مسعود أبو قاسم جاموسته ترتفع قليلا من مكانها في البئر ولكنها عادت فسقطت والرجال ما زالوا يتصايحون ويتساندون من داخل البئر والأيدي كلها تحت بطن الجاموسة تحاول أن ترفعها بلا تفكير في الفشل، وعاد مسعود يصيح وهو ينظر بين امرأته وعبد الهادي والسماء:

ـ ضاعت الجاموسة! انقسم وسطي! ضيعتيها يا مرة! يا ريتك أنت اللي وقعتي في البير، أعوض الجاموسة إزاي يا أخواتي؟ اجمد يا عبد الهادي! اجمدوا يا رجالة.

وزعق الشيخ الشناوي:

ـ اجمد إنت يا واد وقل يا رب.. اجمد الله يلعنك.. قل يا رب.

والرجال يتساندون في داخل البئر وفي كل لحظة يصعد رجل يلهث ليهبط رجل جديد.

وعادت امرأة مسعود تطل على الجاموسة وروحها في حلقها توشك أن تطلع.

وأخيرا رفعت الجاموسة على أيدي الرجال.. ونزع عن عينيها الغماء، فمدت رجليها إلى المدار وسحبها الواقفون.. ومدت رجليها الخلفيتين وتحركت ثم مشت على مدار الساقية والواقفون يسحبونها ويتحسسونها..

وردت الروح على امرأة مسعود وزغردت.

ووقف مسعود فجأة.. وانتفض كأنما صبت في عروقه دماء حياة جديدة فتية بكل الدفء والأمل.

وارتفعت زغاريد النساء.. فصرخ شيخ البلد ليسكت النساء..

وارتمى مسعود على جاموسته فتحسسها ووجهه يفيض بالندم، ثم التفت إلى عبد الهادي فجذبه بين ذراعيه وعانقه طويلا.. ثم التفت إلى سيدنا فقبل يده واعتذر.

وكان عبد الهادي يلهث.. فمشى في صمت حتى قعد تحت الجميزة على الجسر، ومسح عرقه بيديه.. ودعك وجهه.. وأخذ يهز رأسه في حزن..

وارتفع صوت شيخ البلد يأمر النساء أن ينتهين من الزغاريد والكلام الفارغ، فهو رجل جد لا يعجبه الحال المائل.. ولوح بعصاه ثم هزها ومضى إلى الجسر.

ولم تسكت النساء..

وقف شيخ البلد على الجسر واستند إلى عصاه ويده في وسطه وسيطرت عليه فكرة أنه الآن كأحد حكام المركز.. وأخذ يقول بهدوء، وفي بطء وهو يحاول أن يكون بليغا كرجال البندر:

ـ نرجع لمرجوعنا بقى.. بقى يعني ما فيش لا حيا ولا كسوف.. بقى يعني يا بلد.. ما لكيش لا كاسر ولا كسار؟! يعني تضربوا بعض قدامي كده عيني عينك!! دانا نايب الحكومة.. إنتو مش عارفين إن شيخ البلد ده يعني نايب الحكومة؟ يعني الحكومة!! يعني.. يعني كأنكوا ضربتوا بعض قدام الحكومة.

وكأنما سرت على الوجوه نسمة طيبة.

فمرت ابتسامة ساخرة بكل الشفاه.. نفس الابتسامة ونفس السخرية.

وأحس الرجال الذين وقفوا على الجسر وتحت الجميزة والذين قعدوا من إعيائهم.. أحسوا جميعا أن شيئا حبيبا يجعلهم الآن أكثر قربا لبعض.. شيئا آخر غير اختلاط عرقهم ودمائهم وهم يرفعون الجاموسة.

كانت سخريتهم الصامتة المشتركة مع شيخ البلد قد أضاءت فجأة جانبا آخر من كل نفس، واكتشف كل واحد منهم أن أخاه قريب إليه أكثر مما يظن.

لقد اكتشفوا هذه الحقيقة دون أن يقولوا شيئا وهم يرفعون الجاموسة وأكدتها لهم محاولة شيخ البلد أن يحكم ويتحكم.

وتذكر أحد القاعدين ما كان يقوله شيخ البلد وهم يحاولون رفع الجاموسة فهمس بسخرية مقلدا شيخ البلد:

ـ تعال هنا.. انزل إنت في البير من الناحية دي وإنت من الناحية دى! أيوه كده! شيل بقى!

واستطرد رجل آخر:

ـ واهو حضرة شيخ البلد لا فاهم حاجة ولا محتاجة.. ولو حد سمع كلامه ما كانتش الجاموسة طالعة في سنتها.. ولو كان هوه هوّب بس ناحية البير كان انسقط زي الجاموسة.

وتعالت ضحكة، قطعها زعيق شيخ البلد.. غير أن صوت الشيخ يوسف غمر زعيقه ورنت كلماته في دوي حاد وهو يقول:

ـ بتضحكوا كمان؟ بتضحكوا على إيه؟ على خيبتكو؟ يا بلد.. بقى دي عملة تنعمل.. حتموتوا بعض علشان الميه.. طب أمال اشطروا على الحكومة.

واحتج شيخ البلد قائلا:

ـ إنت بتوزهم على الحكومة؟ يعني كأنك بقى بتوزهم عليّ أنا!

ولم يحفل الشيخ يوسف باعتراض شيخ البلد.. واستمر يصيح بغضب صادق:

ـ انجروا، انجر إنت وهوه اغسلوا دمكم اللي سيحتوه عالفاضي..

وكان بعض الرجال يترنحون هنا وهناك في طريقهم إلى القناة يغسلون الدم من على وجوههم والرءوس.. وجر دياب نفسه قائلا:

ـ كده يا عبد الهادي! كده؟ علشان ما أنا وحداني؟! يعني تستفرد بي بعد محمد أفندي ما سافر! ما كانش العشم يا عبد الهادي!

كانت كلمات دياب جريحة معذبة.. وكانت نغمات صوته مذعنة..

وشعر عبد الهادي بطوفان حزن غامض يرتفع من أغوار نفسه، ويزحف، حتى ليملأ حلقه بالمرارة والندم والدموع.

وتنهد، ثم هوى رأسه بين يديه في بكاء العويل.

وذهل الجميع، وأسرع دياب فقعد إلى جانب عبد الهادي وحاول أن يسكته.. وأخذ يقبل رأسه، ولكن الشيخ الشناوي صاح فيه بصوت بارد:

ـ بتعيط على إيه بقى؟.. إياك يعيطوا عليك من بدري! يعني تقتل القتيل وتمشي في جنازته! قال يضرب البلد بحالها ويقعد يعيط عليها.. جاتك الغم وأنت عافيتك ما جرتش.. يكونش راكبه عفريت.. دا أقوى من فرعون.

وضحك بعض الرجال، والشيخ الشناوى.

وشعر عبد الهادي كأن ريحا لطيفة تهب على قلبه.. فابتسم.

ورأى شيخ البلد أنه يجب أن يقول شيئا وكان ما يزال متكئا على عصاه بيده ويده الأخرى في وسطه.

وتنحنح شيخ البلد قليلا ثم طلب من الرجال الذين جرحوا أن يحشوا جروحهم بالتراب، فالتراب شفاء.

واعترض الشيخ يوسف محتجا:

ـ تراب؟ يا جدع خليهم يحطوا بن.. وفيها إيه يعني لما كان واحد يشتري بكوزين ولا بيضة ويسد الجرح بشوية البن.. إلا التراب.. تراب قال؟ جرى إيه يا شيخ البلد.. خبر إيه يا بلد..

وضحك بعض الرجال واقترح أحدهم ساخرا:

ـ دهدي.. طب ما نروح للمستشفى في المركز..

فقال آخر وهو يضحك:

ـ لا ولا للدكتور..!

فرد ثالث وهو يكتم ضحكة:

ـ والاّ نجيب الدكتور هنا..!

فوقف رابع يقول وهو يقذف الجمل، جملة وراء جملة على رنة ضحكة ساخرة:

ـ يمكن حصان الباشا؟! والا يمكن ولاد البندر؟! والا يمكن فواحش مصر؟!

وانفجرت الضحكات..

وقطع الشيخ يوسف انسياب الضحكات بقوله وهو مقطب، إن من يريد أن يخفف جرحه سريعا، فعليه أن يشتري البن ليضعه في الجرح.

وبعد قليل استطرد الشيخ يوسف قائلا في تأنيب: إن عليهم الآن أن يتفقوا على توزيع الماء في الأيام الخمسة..

واقترح هو طريقة، ولكنه قبل أن يكمل شرحها عدل عنها، وعاد يقترح حلا آخر، ولكنه لم يكمله..

وفجأة تذكر اقتراح عبد الهادي أن يقطعوا الجسر.

وهز عبد الهادي رأسه مؤيدا أن يقطعوا الجسر، ويرووا الأرض كلها بالراحة ولا حاجة إلى السواقي وتوزيع الماء ووجع الدماغ..

وقال دياب بصوت مبحوح:

ـ دي أحسنها حاجة، على رأي عبد الهادي بدل مانزعل من بعض.

واعترض الشيخ الشناوي على قطع الجسر..

فقال عبد الهادي للشيخ الشناوي معاكسا إنه لا يفهم في هذا الموضوع، فهو ليس موضوع جنة ونار وهو على كل حال لا يزرع ولا يقلع ولا شأن له بالأرض.

وسخط الشيخ الشناوي على عبد الهادي وأخذ يرميه بطول اللسان وقلة الأنسنة، وأكد للجميع أن قطع الجسر آخرته سوداء، وعلى كل فسيأتي الخفراء ويمنعون الفلاحين من قطعه.

فقال عبد الهادي باستخفاف:

ـ الغفراء؟ طب وإيه يعني؟ ما ييجوا؟ يتفضلوا يا سيدنا يشربوا قهوة.

وتدخل الشيخ يوسف فقال متحمسا:

ـ اسمع يا سيدنا.. اسمعوا ياولاد.. ما دام قطع الجسر مش حرام يبقى خلاص بقى يا شيخ شناوي ما لكش كلام عندنا.. ما حدش له كلام عندنا.. وما حدش له دعوة بالغفرا! غفرة إيه يا اخويا؟! هم الغفرا عارفين يرووا.. هو حد منهم عارف يروي أرضه، ولا حتى لاقي ياكل.. ماهي الحكاية من بعضها.. ولا إيه يا شيخ البلد؟

ثم أكمل مغيظا:

ـ ما تفتي للبلد يا شيخ البلد وإنت واقف مركون على العصا كده وإيدك في وسطك ولا مدير المديرية!

واعتدل شيخ البلد، وإعجابه بفكرة قطع الجسر يغمر ضيقه من لهجة الشيخ يوسف.. وتمتم وهو ينسحب:

ـ اعملوا اللي تعملوه بقى بعيد عني.. ابعدوا عني واقطعوا الجسر زي ما يعجبكم إن شاء الله تقلبوا البحر كله عالغيطان.. أنا اللي عليه.. إني أحوش الغفر عنكم!

وصاح الشيخ يوسف في النساء اللواتي يقفن عند الساقية أن يَعُدن بالبهائم.

ومشى شيخ البلد عائدا إلى القرية ومن ورائه النساء والبهائم بينما كانت الفؤوس تضرب أرض الجسر في قوة ونشاط.. وتشق قناة كبيرة في عرض الجسر بين النهر والحقول.. وتدفق الماء من القناة الكبيرة الجديدة إلى القناة الطويلة في بطن الجسر مارا بكل الحقول، وهلل الفلاحون وهم يرون الماء يتدفق في موجات صغيرة سريعة مثقلة بالطمى.

وانصرف الشيخ الشناوي مع الشيخ يوسف وبقية النساء والأولاد والبهائم.

وبعد قليل كان كل فلاح يروي حقله بالراحة.

وقال عبد الهادي وهو يترك حقله بعد أن رواه:

ـ خليهم يكسروا السواقي على كيفهم بقى.. أهيه الميه راكبة وأبرك من عشر سواقى.

وأجابه مسعود أبوقاسم:

ـ بس هو دا حايدوم.. إحنا حنقعد ناخد رزق الميه يوم بيوم..

وانحدر عبد الهادي على الجسر.. وإلى جواره دياب الذي انتهى هو الآخر من ري أرضه.

وقال عبد الهادي لدياب في حنان كبير:

ـ اوعى تنسى يا دياب تحط شوية بن على الجرح.

فهز دياب رأسه، وظل على طول الطريق إلى القرية يقول:

ـ بس اوعى تكون أنت لسه زعلان.. آهي كانت نفس وراحت..دي المصارين في البطن بتتخانق مع بعضها.. داحنا عزوة بعض يا عبد الهادي.. والدم مش ميه يا جدع..

ـ دي البلد كلها من دم واحد برضه.. والدم مش ميه على حد قولك.

وفي الطريق الضيق بين الجسر والقرية كان محمد أبو سويلم يقبل مضطربًا وهو يسأل عبد الهادي من بعيد عن الشيخ يوسف.

كان محمد أبو سويلم يبدو منزعجا، وقد بانت عليه شيخوخة مبكرة وكآبة، وكان من الواضح أنه يغلي في أعماقه.

وحسب عبد الهادي أن محمد أبو سويلم غاضب من أجل المعركة على الجسر فبادره بقوله:

ـ ما احنا خلاص اتصالحنا يا أبا محمد.. ما هو إحنا خلاص يعني.

وأكمل دياب مسترضيا:

ـ ما هو الضفر ما يخرجش من اللحم يا أبا محمد.

ولكن محمد أبو سويلم قال في انفعال:

ـ بلا لعب صغار.. بلا ضفر بلا لحم بلا كلام فاضي.. اتصالحتوا إيه؟

وكان داه وقته.. روح يا شيخ روح.. روح يا واد يا دياب إنده لمحمد أفندي من الدار، اجري بلاش أمور صغار.

وتحسس دياب جراحه ثم قفز، وجرى مبتهجا ليلقى أخاه الذي عاد لساعته من السفر.

واستدار محمد أبو سويلم، ليعود إلى القرية مع عبد الهادي..

وسكت قليلا وهو يخبط كفا بكف ويقلب يديه في عجب.

ثم وقف مرة واحدة، وأمسك بذراع عبد الهادي بقوة.. ومضى يقول له في حسرة وحيرة إن العريضة التي سافر بها محمد أفندي مع محمود بك لم تكن هي عريضة ماء الري.. وإنما كانت عريضة للزراعية.. فالعمدة ضحك على القرية باتفاق مع محمود بك وجمع أختامها وأختام القرى المجاورة، ووضع كل هذه الأختام على عريضة جاء فيها:

إن الأهالي الموقعين يحتاجون إلى شق سكة زراعية.. تمر في أرض الذين وقعوا على العريضة، وتمزقها، وتصل بين عاصمة الإقليم وطريق القاهرة مارة بحدود أرض الباشا، حيث يكمل بناء قصره الكبير.

وفتح عبد الهادي فمه، واتسعت عيناه ولم يعرف ماذا يقول..

وانطلق محمد أبو سويلم يؤكد لعبد الهادي أن هذا الذي يسمعه صحيح كله.. وأنه علم ولا حلم.

واتقدت عينا عبد الهادي وقال كالذي يفيق من كابوس:

ـ محمود بيه؟!

فقال محمد أبو سويلم منفجرا:

ـ ما قلت لكم! شفتوا بقى ملعوب العمدة والبيه والحكومة؟ تلاقيهم متفقين عالملعوب ده، يبقى اسم الزراعية جاية برغبة البلاد مش غصبن عن حبابي عينيها! هزءونا وسكتنا لهم ورفدونا من مشيخة الغفر وسكتنا لهم.. كسروا لنا السواقي وقطعوا الميه وسكتنا لهم.. ولسه يا عبد الهادي ياما حانشوف طول ماحنا ساكتين.

وسأل عبد الهادي وقد اختلجت نبرات صوته كأنه خارج من حلم مخيف على واقع بشع:

ـ طيب وإيه العمل يابا محمد؟..

ووجم محمد أبو سويلم.. وأحس بحيرة مباغتة!

إنه هو نفسه لم يكن قد فكر في هذا من قبل..

ولم يكن يعرف ما العمل!!

أخذت القرية كلها تتحدث بإعجاب عن كل ما حدث على جسر النهر.. كيف قامت المعركة وكيف انتهت.. وكيف وقعت الجاموسة في البئر.. وأخذت تتحدث عن بطولة الرجال الذين رفعوا الجاموسة بأيديهم.. وبسالة الذين شقوا الجسر، أما الأطفال الصغار فقد ملأهم الكبرياء.. وهم يستعيدون ذكر ما صنعه عبد الهادي: فقد ضرب وحده كل رجال الناحية الشرقية، وعندما سقطت في البئر جاموسة من أهل هذه الناحية رفعها وحده من البئر.

ووقف طفل يمسك فرعا صغيرا جافا من التوت، ويحاول أن يديره ببراعة وسط زملائه كما كان عبد الهادي يصنع على الجسر، وكما تعود أن يصنع وهو يلعب العصا في الأفراح.

ومضت الفتيات يتهامسن بزهو عن عبد الهادي الذي رفع فأسه وقطع جسر الحكومة، وترك الماء يتدفق بالراحة من النهر إلى الحقول، متحديا سلطان الحكومة.. ورجالها الذين يعيشون في المركز بالطرابيش الشاهقة والبدل الصفراء.

ولمعت عينا وصيفة وأشرق محياها وهي تسمع من هنا ومن هناك قصة عبد الهادي مع رجال الناحية الشرقية والجسر والجاموسة، ولكنها حين سمعت ما حدث لدياب ازدردت ريقها واختلجت رقبتها المليئة البيضاء وهمست لنفسها في رثاء وغضب:

ـ كده يا عبد الهادي.. طيب ودياب ما له؟ هو دياب ذنبه إيه؟

على أن عبد الهادي لم يكد يعود من على الجسر، ويقابل محمد أبو سويلم حتى ذهب معه إلى داره.

كانت الشمس تملأ بوهجها مصطبة محمد أبو سويلم فدخل إلى المندرة، وتبعه عبد الهادي.

وكانت المندرة في بيت محمد أبو سويلم لا تفتح إلا لضرورة أو للضيوف الكبار، ومع ذلك فقد أدخل الرجل إلى مندرته مسرعا دون أن يفكر، فلم يكن في وسعه على أي حال أن يجلس في الشمس فوق لهب المصطبة.

وكانت وصيفة، قد فرغت لساعتها من كنس حصير المندرة، وسوت قطع اللباد فوق الدكة الخشبية، وأغلقت النافذة الوحيدة. وشعر عبد الهادي بطراوة الجو في المندرة.. فتنهد بارتياح وهو يمسح وجهه بيديه.

ونادى محمد أبو سويلم ابنته وصيفة وطلب منها قلة ماء، فأضاف عبد الهادي متلطفا أنه يريد قهوة من يديها.

وخلع محمد أبو سويلم مداسه.. ورفع قدمه ووضعها على الدكة الخشبية، ومضى يقول لعبد الهادي إن محمد أفندي مر عليه منذ لحظة مقبلا من القاهرة في أول قطار يغادرها إلى عاصمة الإقليم.

ولمح عبد الهادي خيال وصيفة..

كانت تذهب وتجيء وسط الدار بقلة فارغة.. وتتلكأ أمام باب المندرة لتسمع كل ما يقوله أبوها عن محمد أفندي بصوته المرتفع العريض.

وأحس عبد الهادي بضيق غامض فقال متململا:

ـ ما أنا عارف هو مستعجل على رجوع البلد ليه.

وازداد صوت محمد أبو سويلم ارتفاعا وهو يقول لعبد الهادي إن البلد خربت.. والحكومة ستنزع الأرض لتشق السكة الزراعية التي يريدها الباشا من عاصمة الإقليم إلى طريق القاهرة مارة بقصره الذي يبنيه على حدود عزبته.

ورفع عبد الهادي حاجبه وتضامت خطوط جبهته دون أن يقول شيئا، شعر برأسه يدور وريقه يجف.

ودخلت وصيفة تحمل القلة إلى أبيها، كانت القلة في يديها تلمع والماء مفعم برائحة الزهر.

وأخذ محمد أبو سويلم القلة من يد ابنته وكرع منها، وأعادها إليها، فمد عبد الهادي يده إلى وصيفة وحياها.. وتناول منها القلة وهي ترد تحيته بابتسام، وعيناها تلقيان عليه نظرات ثابتة.

وخطف عبد الهادي نظرة إلى قامتها المديدة المليئة البضة وشعر بالسكينة تفيض على قلبه.

وشرب ببطء وعيناه تتدحرجان إليها في نظرات إعجاب.. ثم رفع القلة بسرعة كأنما تذكر شيئا.. وتساءل: لماذا لم يحضر محمد أفندي ليعرفوا منه الخبر؟

وأعاد القلة إلى فمه..

فقال محمد أبو سويلم في ضيق:

ـ ما بعت له دياب.. روحي يابت يا وصيفة شوفي الخبر إيه.. الواد دياب اتلوا ليه كده؟

ورفع عبد الهادي القلة من فمه بغتة.. وسال على خديه خيط الماء البراق الذي كان ينسكب في كركعة من فوهة القلة إلى شفتيه.. وأوشك أن يشرق بالماء.. وسعل قليلا وهو يعطي القلة لوصيفة قائلا:

ـ استني.. استني..

كان عبد الهادي طول الوقت ينظر إلى وصيفة ولكنها لم تختلج أبدا.

ظلت ساكنة بقامتها المديدة ووجهها يشرق بالابتسام الهادئ في الحجرة المغلقة ذات الظلال الطرية.

وغاضت الابتسامة من وجه وصيفة واستدارت وهي تحمل القلة وخرجت وعبد الهادي يعيد عليها طلب القهوة.

ولم يقل محمد أبو سويلم شيئا.

وبعد قليل سأله عبد الهادي إن كانت الحكومة ستنزع بالقوة ملكية الأرض في حوض الترعة.

فرد محمد أبو سويلم إن الحكومة تفعل كل شيء بالقوة.. وعلى كل حال فالقرية تستاهل كل ما يحصل لها.. فهي تعرف أن العمدة يعمل لها في كل سنة ملعوبا جديدا ومع ذلك أرسلت إليه الأختام ليضعها على كلام لم يقرأه أحد.

وحين عادت وصيفة بالقهوة، صبتها بسرعة وخرجت، دون أن يشعر بها أحد.. حتى عبد الهادي نفسه..

وتناول عبد الهادي فنجان القهوة وأخذ يرشف منه كالمأخوذ. وعاد يسأل محمد أبو سويلم عما تستطيع الحكومة أن تصنع بالقرية لو أن القرية كلها وقفت أمام الحكومة بالعصي والفؤوس.

ولم يجب محمد أبو سويلم وإنما غمره شعور بالدفء والقوة..

وشاعت في نفسه طمأنينة مبهمة لا يعرف من أين انبعثت، والتمعت عيناه، وهز رأسه، وهو صامت لا يتكلم.

وتلفت عبد الهادي حوله وسأل في ضيق عن سر تأخر محمد أفندي.

وأجابه محمد أبو سويلم بشتائم عديدة لدياب الذي لم يرد عليه للآن.

على أن محمد أفندي كان إذ ذاك في داره ينتظر أخاه دياب في قلق وهو يصغي لأمه تروي له كل ما سمعته من أبناء الجسر.

وفي الحق إن دياب قد تأخر مضطرًّا عن محمد أفندي على الرغم من أنه كان يجري على طول الطريق في لهفة ليستقبل أخاه.. ذلك أنه وجد خضرة تقف في مدخل إحدى الدور مع بعض الفتيات تروي لهن ما حدث على الجسر، وتطلق بلا تحرج إشارات قبيحة من يديها وألفاظا لا تحتملها الفتيات.

وكانت الفتيات يتضاحكن على استحياء وهن يخفين وجوههن في ظهور بعضهن.. وواحدة منهن تجري إلى هنا أوهناك.. ثم تعود مقطبة والضحك يغالبها فتنهر خضرة، وتطلب منها أن تكن عن كلامها وإشاراتها، ولكن خضرة تجيب بإشارة أو كلمة أكثر صراحة، فتضحك الفتاة وتخفي وجهها في ظهر إحدى الفتيات.

وعندما كان دياب يركض في الطريق إلى داره ليستقبل أخاه محمد أفندي مر بخضرة والفتيات، فنادته خضرة باستهزاء يخالطه الإشفاق.

وتوقف دياب محنقا وشتم خضرة وتابع سيره، غير أنها قالت له ساخرة بعد أن شتمته:

ـ كنت أمال اشطر كده عالجسر يا سيد الرجال.

وأحس دياب بحرج هائل، فعاد إليها، وانقض عليها بيديه، ثم دفعها برجله فى بطنها، ووقعت خضرة على الأرض تتلوى وأطلقت صرخة..

وذهلت الفتيات من حولها.

بينما أفاق دياب من غيظه، وتذكر أخاه محمد أفندي، وداهمته الحيرة وشعر بندم مفاجئ لأنه يتشطر الآن على امرأة ضائعة بلا أهل ولا قوة ولا عزوة، وهي بعد امرأة التصق بدنه بجسدها واختلط منهما العرق أكثر من مرة.

ومال عليها دياب يسألها قلقا:

ـ مالك يا بت؟ مالك؟

كان صوته مضطربا، يشيع في جفافه الخوف والحنان الصادق..

ورفعت خضرة رأسها وقالت لدياب بنفس لهجتها المريرة الساخرة التي تعطي صوتها خشونة خاصة:

ـ كده يا دياب؟ تعمل كده في خضرة الشريفة..

واسترد دياب أنفاسه ليضحك، وضحكت الفتيات من حوله والطمأنينة تعود إلى القلوب.

وقال دياب متظرفا وهو يهز رأسه:

ـ شي الله يا سيد يا بدوى.

ثم همست خضرة لمن حولها وهي تكتم الضحك.. إن دياب حاول أن يجهضها.

وجرت الفتيات بعيدا عنها في خجل واضطراب وقالت لها واحدة:

ـ قطيعة! كل حاجة عندك ضحك كده.

وصاحت خضرة بالفتيات تشتمهن لأنهن تصنعن الخجل بينما هي تعرف فيهن العين الزائغة.

وحاولت خضرة أن تقف، وعيناها على دياب.. كان الدم من جراحه قد بدأ يتجمد على رأسه..فطلبت خضرة من الفتيات أن يجئن بقليل من الماء والبن.. وأخذت تشتم دياب لأنه لا يخفي جراح رأسه بالبن ويترك الجرح للشمس تبطحه.

وضحك وهي تشتمه وتمد يدها لتضربه على كتفه..

وقامت خضرة ووقفت تتعجل كوز الماء.

وأقبلت فتاة تحمل كوزا من الصفيح فيه ماء وتناولته خضرة فصبت منه على يد دياب، وأخذ هو يغسل رأسه ويدعك وجهه والدم المتجمد يتساقط..

وعادت الفتاة بالكوز فملأته وأخذت خضرة تصب على رأس دياب وهي تقول:

ـ دمك سايح ليه كده يا وله؟! أمال إيه فايدة أكل اللحمة والعيش والقمح؟!

أمال بقى اللي ما بيدوقوش اللحمة إلا من العيد للعيد جرحهم عامل إيه؟ كل لحمة كتير خلي الجرح يلم..

وأخيرا جفف دياب وجهه بطرف قميصه الطويل المزدحم ببقع الطين وتناولت خضرة بين أصابعها الغليظة الجامدة بعض البن وحشت جرح دياب.

وقالت فتاة من وراء خضرة:

ـ يا تري محمد أفندي حايقول إيه؟

والتفتت إليها خضرة وهي تملأ الجرح بالبن وقالت ببساطة:

ـ عينك من محمد أفندي ليه يا...

وقبل أن تكمل خضرة جرت الفتاة ضاحكة محمرة الوجه وهي تدعو على خضرة بقطع اللسان.

ومضى دياب.

ظل يجري ويده على رأسه فوق البن حتى بلغ داره.. فوجد أمه فرشت حصيرة نظيفة على المصطبة الكبيرة في مدخل الدار وعليها محمد أفندي الذي كان ما زال يلبس البدلة والحذاء والطربوش بينما قعدت هي على الأرض قدامه.. وتحت فخذها إوزة تلقطها حبات الذرة.

وأقبل دياب على أخيه محمد أفندي بسرعة وارتباك فشد يده وقبلها.

ووقف محمد أفندي ينظر إلى جراح دياب في ألم مباغت.. واضطربت الانفعالات في صدر دياب، فطوق أخاه بذراعيه واحتضنه.. وشعر ببدن أخيه يملأ صدره فضغط عليه وقبله ثم أبعده قليلا وعاد فاحتضنه بحرارة وعنف وشوق..

وبكى!

وجلس محمد أفندي وأجلس إلى جواره أخاه.

وفاضت نفس محمد أفندي بالحنين، وشعر برغبة جارفة في أن يظل دائما إلى جوار أخيه دياب يحميه من قوى الخفاء.

وقال دياب وهو يجهش:

ـ إلهي ما يبعدك عني أبدا يا شيخ.. إلهي يا راجل يجعل يومي قبل يومك.. يا نهار أسود.. دا الواحد من غيرك في البلد ما يساويش عود حطب.

واختلج محمد أفندي واهتزت أمه قائلة:

ـ إلهي يجعل لكو العمر الطويل يا أولادى.

وسأل دياب أخاه محمد أفندي: لماذا لم يرسل له لينتظره بالجحشة على محطة المركز.

فأجابه محمد أفندي بأنه لم يجد وقتا.. وعلى أي حال فقد استأجر حمارا من المركز وجاء به من الطريق الضيق على شط الترعة بعيدا عن جسر النهر لأن صاحب الحمار طلب هذا!!

ومضى محمد أفندي وهو يضحك متعجبا ـ يروي لأمه ولدياب حكاية رجل من المركز يتكلم بلغة أهل البندر ويفهم كما يفهمون هناك.. ويؤجر حماره في الساعة بقرشين، ولا يعرف طريقا للقرى الواقعة على جسر النهر إلا هذا الطريق الضيق الخلفي على شط الترعة!!

وضحكت أمه، وضحك دياب طويلا، وضرب ركبته بيده وهو يقاطع أخاه محمد أفندي من حين إلى حين ليقول له:

ـ سلامات كده!..

وفجأة.. التفتت الأم إلى دياب وسألته عما حدث على الجسر.

كان في لهجتها محاولة لحصار دياب وتضييق خفي..

فأجابها دياب في غلظة تداري خجله أن ما حصل خير.. ولا داعي للكلام فيما حصل لأنه تصالح هو وعبد الهادي.

فقال محمد أفندي لدياب إنه علم بكل شيء.

وأخذ يعنفه لأنه تحرش بعبد الهادي.

وفرغ من كلامه قائلا: إن دياب يستاهل ما حدث له لأنه يغلط دائما مع الناس.

ولكن الأم انفجرت تلعن دياب.. وتذكره بأن أحدا من القرية لم يجرؤ أبدا على ضرب أبيه، لأن أباه كان يعرف كيف يكسب احترام الناس.. ولقد حاول أحد الفلاحين أن يتحرش به يوما ورمى عليه كلاما غليظا.. فلم يغضب وإنما ذهب إلى العمدة وشكا له المعتدي فحبسه العمدة يومين في حجرة التليفون.

وتضايق دياب من حديث أمه. وأدرك أنه لن يخلص منها طوال النهار.. فزعق فيها لتسكت.

وتدخل محمد أفندي قائلا:

ـ صلوا بينا على النبي، بس يا دياب اخرس.. ما تزعقش في أمك كده يا وله.

وسكت دياب..

ونهض محمد أفندي إلى حجرته التي يتكون منها وحدها الطابق الثاني.. فخلع ملابسه وارتدى جلبابه الإفرنجي والشبشب والطاقية المخططة العالية.

وهبط فوجد أمه تمسك بعلبة صغيرة من الخشب الأبيض وتقول لدياب:

ـ خد افتح حلاوة مصر يا دياب.. وشوف حد يحمي الفرن علشان أعمل لكم فطيرتين تاكلوا بيهم الحلاوة الطحينية.

وفكر دياب من فوره في أن يذهب فيستدعي خضرة، ولكنه قبل أن يخرج تذكر أن يقول لمحمد أفندي إن محمد أبو سويلم ينتظره في داره ومعه عبد الهادي منذ وقت طويل.

وتحرك محمد أفندي ليلحق بهما وهو يلوم دياب على نسيانه كلاما كهذا.

وخرج دياب من الدار منكس الرأس ووراءه محمد أفندي، ولكن أمه استوقفته قائلة:

ـ اقعد شوية يا محمد أفندي يابني مع أمك.. دانت واحشني قوي.. والنبي لك وحشة جامدة قوي.. بقى خالك الشيخ حسونة قابلك في مصر؟ وجاي البلد إمتي؟ هو خلاص بقى.. والله وحشنا قوي حضرة الناظر، وهو مش عارف منزلته عندنا.

وقال لها محمد أفندي وهو واقف، إنه اتأخر عن محمد أبو سويلم وعبد الهادي، ثم أضاف أن خاله الشيخ حسونة في طريقه بعد أيام إلى عاصمة الإقليم ليجد حلا هناك لموضوع الزراعية الجديدة.. فمرورها في حوض الترعة يمزق أرضه التي تقع كلها في حوض الترعة.

والشيخ حسونة رجل في الخمسين من عمره أشرف على تعليم محمد أفندي، وعندما كان والد محمد أفندي حيا كان الشيخ حسونة يشير عليه بكل ما يصنعه، ولم يحسب محمد أفندي لأحد حسابا كالشيخ حسونة.

كان يخافه أكثر مما يخاف من أبيه.. وفي الحق إنه كبر ودخل مدرسة المعلمين ولم يعد يخاف أباه! ولم يكن يقبل يده وإنما كان يقبل يد الشيخ حسونة.. ويلقي باله إلى كل ما يقوله من كلام.

وعندما كان محمد أفندي يتعلم بمدرسة المعلمين في عاصمة الإقليم كان الشيخ حسونة يزوره فجأة.. يقف على الباب الخارجي للحجرة التي يسكنها يتنصت ويرى ماذا يصنع محمد أفندي ويحاسبه.. وكان يسأله دائما فيما يدرس.. ولا يتردد عن ضربه بلا شفقة إن وجد في سيرته ما لا يسر.. أو إن وجده متخلفا عن دروسه.

ولم يكن الشيخ حسونة مع هذا شقيق أمه وإنما كان ابن عمها وكبير عائلتها، وقد ترك الأزهر منذ زمن طويل؛ واشتغل مدرسا بالصعيد، وعاش في بلاد لم تكن القرية تسمع بها من قبل.. ونام هناك على سرير من جريد النخل تزحف من تحته العقارب.. وهو منذ زمن بعيد يعمل ناظرا للمدرسة الأولية في إحدى القرى المجاورة، وقد ظل يعمل بهذه القرية ويحظى باحترام أهلها واحترام أهل القرية.. ثم جاءت حكومة حزب الشعب، فقاومتها، وأعلنت حكومة حزب الشعب أنها ستجري الانتخابات، ودخلت وحدها الانتخابات بعد أن قاطعتها كل الأحزاب وقاطعها الناس.

وطلب الشيخ حسونة من أهل القرية أن يقاطعوا الانتخابات، وأذن للمدرسين أن يتركوا المدرسة ليشجعوا على مقاطعة الانتخابات.

ومع ذلك فقد أجريت الانتخابات ووضعت أوراق في الصناديق تضم أسماء الموتى والذين لم يذهبوا لينتخبوا.

وزار نائب حزب الشعب القرية التي يعمل بها الشيخ حسونة، فرفض الشيخ حسونة أن يستقبله في المدرسة، وصرف التلاميذ وأغلق الأبواب وانصرف هو نفسه.

وعندما قابله النائب مصادفة في الطريق، حذره الشيخ حسونة من زيارة قريته التي فيها أرضه، وهدده إن هو زارها بأن يقطع الفلاحون رقبته بالفؤوس.

وشيعت القرية المجاورة النائب الزائر بالطوب وصراخ النساء، فلم يكد يعود إلى عاصمة الإقليم حتى طالب بنقل الشيخ حسونة إلى مكان بعيد.. أو بفصله إن أمكن.

فنقل إلى بلد بعيد جدا عن قريته ليعمل مدرسا بجوار القناطر الخيرية حيث لا يستطيع أن يصل إلى المدرسة إلا في «وابور البحر».

وطالب الشيخ حسونة أهل قريته والقرية المجاورة بأن يثوروا كما صنعوا عندما نفى الإنجليز زعماءهم.. ولكن أحد رجال القرية المجاورة قال لنفسه ساخرا:

ـ يعني سعد زغلول يا خي؟! ولا يعني وليم مكرم!

وعلى أي حال ففي القريتين لم يتحرك أحد.. ولم يتجمع الفلاحون في الطرقات ليقولوا يحيا العدل كما كان يحدث في تلك الأيام المجيدة الباهرة..

وامتلأ الشيخ حسونة ضيقا بالقرية التي كان فيها، وبالقرية التي هو منها، فأجر أرضه لرجل من أعيان قرية مجاورة.. وأقسم ألا يعود إلى قريته أبدا..

وأخذ معه زوجته وأولاده الخمسة، واستأجر لهم بيتا من بابه في شبرا البلد، وأقام هو في حجرة بالمدرسة، ورتب نفسه على أن يعود إلى أهله في شبرا كل ليلة جمعة وفي أيام الإجازات.

وعلى الرغم من أن الشيخ حسونة قد نقل مدرسا، فقد ظلت قريته والقرى المجاورة تسميه «حضرة الناظر».. وحتى المدرسون في مدرسته الجديدة كانوا يطلقون عليه «حضرة الناظر» في نوع من الإصرار، والمقاومة للذين نقلوه مدرسا..

وقد استطاع محمد أفندي حين وصل إلى القاهرة مع محمود بك أن يعثر على عنوان خاله من بعض أهل القرية المقيمين في شبرا.

وعندما التقى محمد أفندي خاله الشيخ حسونة، روى له حكاية ماء الري والعريضة، وقال له أيضا: إن محمود بك أخذ العريضة ووضعها في جيبه، وأعطاه عدة مواعيد في مقهى بالعتبة الخضراء، وفي كل مرة كان يقبل متأخرا عن الموعد، ثم ينصرف على عجل، ويحدد موعدا آخر.. وهكذا عاش يومين في القاهرة دون أن يستطيع الكلام مع محمود بك، وأخيرا جلس محمود بك معه على المقهى، ولاحظ محمد أفندي أن محمود بك شخصية معروفة: «الجرسون» يحييه بترحاب، وماسح الأحذية يهمس في أذنه وهو يغمز بحاجبيه! ولقد استطاع محمد أفندي أن يلتقط من همسات ماسح الأحذية كلمة بنت تركية صغيرة.. ومرة أخرى التقط كلمة تلميذة ومرة كلمة «فرنساوية» و«بنات أفرنج» و«ست إنجليزية»!

وكان محمود بك ينصرف عن محمد أفندي تماما إلى همسات ماسح الأحذية، ولكن محمد أفندي سأله بتردد.. ووجل أن يخلصه، ليعود إلى بلده!

وأخرج محمود بك علبة سجائره، وتناول سيجارة وأشعلها ونفخ دخانها بسرعة في وجه محمد أفندي وسأله عما يريد منه!

وعاد إلى محمد أفندي وجله فطلب من محمود بك أن يقرأ له العريضة لأن أهل بلده استحلفوه أن يقرأها قبل أن تقدم إلى الحكومة، وقرأ محمود بك العريضة بإهمال وثبات.

فوجدها محمد أفندي التماسا بشق طريق زراعي..

بهت محمد أفندي وأخذ يمسح عرقه وأنفه، وينظر في عربات الترام التي كانت تسير أمامه على خطوط متقاطعة، تزاحم الناس ـ في ميدان العتبة الخضراء ـ تحت هج شمس الظهر..

وعندما حاول أن يناقش في الموضوع ثار محمود بك وأهانه وقال له:

ـ إنت عارف الحكاية كويس؟ جاي تستعبط هنا؟ عمدتك قال لي إنك فاهم! أمال دفعت فلوس على إيه؟ هو لعب عيال.

ثم انصرف محمود بك دون أن يدفع ثمن القهوة وهو يتمتم بألفاظ جرحت محمد أفندي حقا.

ولقد روى محمد أفندي كل هذا لخاله، عندما زاره بعد العصر في بيته بشبرا البلد.

وسأله خاله إن كان حقا يعرف مكيدة العريضة، فأكد محمد أفندي لخاله أنه لم يكن يعرف شيئا.

وعاد الشيخ حسونة يسأل بهدوء: لماذا أعطى محمود بك نقودا؟ وكم من النقود؟

فارتبك محمد أفندي.. وأقسم لخاله إنه لم يدفع مليما.

وضاق الشيخ حسونة، واتهم محمد أفندي بالكذب، وصاح فيه أن ذيل الكلب لا ينعدل أبدا!

وسكت الشيخ حسونة قليلا، وهو ينظر إلى محمد أفندي قاعدا في ارتباك على الكرسي المغطى بالقطيفة الحمراء الباهتة وعيناه مفتوحتان على صور كثيرة معلقة في الحجرة التي يسميها خاله «أودة المسافرين».. تماما كأهل مصر.

وخفض محمد أفندي رأسه، وتنهد عندما لاحظ نظرات خاله ترسل إليه الشرر.

وخبط الشيخ حسونة كفا بكف وهو يقول:

ـ هيه دي تجرا؟! هوه فيه حد يأمن لمحمود بن إنجه هانم؟! والله عال.. عملتوه بيه وخليتوه ريس عليكو! طيب شوفوا بقى.. ذوقوا بقى بما كنتم غافلين! بكره يذلكوا ذل الكلب في الطاحونة.. دا إن كان هوّه واللا عمدتكم، لو واحد من الجوز دول طال يبيعكوا بقرش مش حايتأخر!

ولم يستطع محمد أفندي أن يعلق على كلام خاله.. وعلى أي حال فقد شعر براحة لأن خاله لا يخصه بالكلام اللاذع.

غير أن محمد أفندي لم يسترح طويلا، فقد فاجأه خاله بقوله:

ـ وإنت ماشي إزاي في البلد؟ داير تشرب شاي هنا وهناك واللا عقلت وبقيت تحترم نفسك وتعرف قيمتك كمعلم.

وغمر الحياء وجه محمد أفندي فقال:

ـ الحمد لله يا خال!

وساد بينهما صمت قطعه الشيخ حسونة بقوله: إن الحكومة لا تستطيع أن تشق الزراعية غصبا عن أصحاب الأرض.. ولئن شقتها الحكومة، لهو الخراب العاجل للقرية والقرى المجاورة من أجل ترف الباشا عضو حزب الشعب!

ثم هز الشيخ حسونة رأسه، وعض شفته السفلى وهو يتمتم في حسرة: لو القرية والقرى المجاورة تقف في وجه الحكومة فلن يستطيع أحد أن ينزع منها أرض حوض الترعة.. ولو أن القرية والقرى الأخرى المجاورة وقفت في وجه الحكومة عندما نقلته هو إلى بعيد لما طمعت الحكومة إلى هذا الحد.. ولكن الناس سكتوا للحكومة فدخلت بحمارها!

وعاد الشيخ حسونة إلى صمته.

وأخذ يقلب كفيه طويلا قبل أن يقول: إن معظم الذين يملكون أرضهم في حوض الترعة، يصبحون بلا أرض، لو نفذت الحكومة مشروع الزراعية كما يريد الباشا!

وأخيرا.. وقف، ونصح لمحمد أفندي أن يسافر من عنده ليقول هذا الخبر الأسود لأهل البلد!.. أما هو فلاحق به بعد أيام.

وتحرك الشيخ حسونة إلى الباب يودع محمد أفندي، طالبا منه أن ينام حيث كان ينام في الأيام السابقة، لأن بناته أصبحن كبيرات، وهو لا يسمح لأحد غير المحارم بأن يبيت في بيته.

وعلى الباب الخارجي سأله الشيخ حسونة إن كان يملك أجر فندق، ثم دس يده في جيبه ليخرج حافظة النقود، غير أن محمد أفندي شكره بخجل، وأكد له أنه يملك مالا..

***

وهكذا عاد محمد أفندي إلى القرية مثقل الصدر من حكاية العريضة ومحمود بك وخاله حضرة الناظر الشيخ حسونة.

ولقد روى كل هذا لأمه باختصار وهو يتحرك ليروح إلى محمد أبو سويلم وعبد الهادي في دار محمد أبو سويلم.

وعندما حكى لها كل مادار بينه وبين خاله قالت بفرح:

ـ هم البنات كبروا! أي والله! دا بقى لهم متغربين فوق عن سنتين.. ألبت ما بقوا عرايس.

ثم أخذت تحسب على أصابعها قليلا متهامسة.. وفاجأت محمد أفندي بقولها:

ـ زينب اتولدت سنة ما بنينا الساقية.. وفاطمة فوق رأسها على طول.. هيه البكرية! ونجاح بينها وبين زينب سقط.. تبقى فاطمة عندها كام سنة بقى؟

وسكت محمد أفندي قليلا ثم قال؟

ـ أربعتاشر سنة يا أمه.

واستطرد مشيرا إلى أغنية سمعها من فونوغراف في مقهى بالقاهرة:

البنت سن أربعتاشر والوجه بدر أربعتاشر..

وهمس لنفسه:

ـ يا سلام يا مصر.. عمار يا مصر!

فقالت له متحمسة:

ـ أي والنبي طول عمرها من صغرها قمر أربعتاشر.. البنت دلوقت ما خرطها خراط البنات واحلوت حلاوة مصر، وبقت مصرية خالص! لو كنت تتجوزها.. دا تلاقي زينب رخرة عروسة.

فقال بحسرة:

ـ وهو خالي يرضى؟.. دا دايما يقول عليّ واد خسران.

فقالت له أمه بغضب وفخار:

ـ خسران؟ دا أنت تقعد على البساط وتختار ست البنات؟ طب إنوي أنت بس وأنا عليّ الباقي.. طيب والنبي إن رجع البلد زي ما قال لك لأخطبها لك منه حلاوة رجوعه البلد بعد ما طلع منها زعلان مهزوم.

وضحك محمد أفندي، وخرج إلى منزل محمد أبو سويلم.

وفي الطريق كان يفكر في خاله، وفي الجنيهات التي دفعها من ماله لمحمود بك ليعدل مواعيد الري.. إنه لا يستطيع أن يتحدث بفخر كما كان يتهيأ، لو أن ما دفعه أعاد ماء الري إلى حقول البلد.

ولم يكد محمد أفندي يصل إلى دار محمد أبو سويلم على الباب قائلا «يا ساتر»، حتى ارتفع من الداخل صوت عبد الهادي مختلطا بصوت محمد أبو سويلم:

ـ اتفضل! داحنا مستنظرينك من الصبح.. الله ينكد عليك يا دياب.

ودخل محمد أفندي فوقعت عيناه على وصيفة..

كانت قد غسلت وجهها عشرين مرة، مزدهرة ريانة.. يتهلل محياها وترقص فيه الغمازات.

وقال لها محمد أفندي وهو يمد يده إليها:

ـ إزيك كده يا وصيفة!

وضعت يدها الدسمة في يده المعروقة قائلة بصوت دافئ:

ـ الحمد لله عالسلامة يا محمد أفندي.

وانفجر عبد الهادي من داخل المندرة يصيح بجفاف:

ـ دهدي؟ ما تدخل على طول! تعال هنا يا محمد أفندي.. تعال..

وفوجئ محمد أفندي، فأسرع إلى المندرة.

واستقبله عبد الهادي مرحبا ببرود.

ولم يكد يجلس حتى بادره عبد الهادي بالاعتذار عما كان بينه وبين دياب.

وأسرع محمد أبو سويلم يتفادى المناقشة المنتظرة فقال ببساطة وسرعة:

ـ العبارة بسيطة ياجدعان.. خلينا في الملعوب الجديد.

فعلق محمد أفندي بتؤدة وتأثر:

ـ على كل حال حصل خير.. بس ما كانش العشم يا عبد الهادي! إنت برضه اسمك كبير وعاقل عن دياب.. ما كانش ظني تستفرد بالواد وتبهدله كده وتهينه الإهانة دي كلها!

وشعر عبد الهادي بحزن.. وغامت عيناه.. واختلط في أعماقه الضيق بالندم، وصر على أسنانه، وتتابعت أنفاسه.

وأوشك على أن يخلص نفسه بالانفجار في الزعيق.

غير أن محمد أبو سويلم، غمر المكان بضحكاته وهو يقول في محاولة لتغيير الجو:

ـ إلا الجدع بتاع البندر ده اللي جايبك على الحمار من ورا الغيطان، وحاكم عليك تمشي على شط الترعة في وسط الشراقي!

واسترسل محمد أبو سويلم يروي لعبد الهادي حكاية صاحب الحمار الذي استأجره محمد أفندي من محطة عاصمة الإقليم.

وضحك عبد الهادي من أفانين أولاد البندر، وراق.

ومن خلال الضحكات، ارتفع صوت محمد أبو سويلم:

ـ تشربوا قهوة؟ قهوة يا وصيفة.

ولاحظ عبد الهادي أن وصيفة أقبلت إلى الباب وقالت:

ـ حاضر..

وليست هذه هي عادتها عندما يطلب منها أبوها القهوة للضيوف، فهي عادة لا تحضر، ولا تجيب، إنما تعد القهوة في صمت

وتوقفت ضحكات عبد الهادي الرائقة، وتنهد قليلا.

وطلب محمد أفندي من وصيفة بإلحاح ألا تعمل قهوة.. ثم سكت قليلا ليقول بصوت مرتفع نشيط موجها حديثه إلى محمد أبو سويلم:

ـ حضرة الناظر بيسلم عليك.

وأشرق وجه محمد أبو سويلم بفرحة مفاجئة.

وسأل محمد أفندي إن كان قد قابل حضرة الناظر حقا في مصر وما رأيه في مسألة الزراعية.

وأكد محمد أفندي أن خاله قادم إلى القرية بعد أيام، فصاح أبو سويلم متحمسا:

ـ يا سلام يا جدعان!! أهو دا الراجل اللي ينفع دلوقت صحيح!.. جاي في وقت عوزة تمام!.. دا احنا ياما شفنا مع بعض أيام السلطة!

وزاغت نظراته ثم تاهت في ظلال الفراغ من الحجرة، كأنما يسترجع أياما جميلة لم تذهب تماما في النسيان.

وقال عبد الهادي بنبرة ترعشها الذكريات المخيفة.

ـ السلطة!!

فاستطرد محمد أبو سويلم:

ـ أيوه السلطة! كنتوا أنتوا أيامها لسه عيال.. كانوا بيلموا الخلق من السوق!. وهوه أنتو شفتوا إيه من اللي شفناه إحنا يا عبد الهادي؟! أنتو يا دوبك شفتوا العساكر بياخدوا الرجاله والجمال والحمير والبهايم.. لكن إحنا شفنا الويل يا عبد الهادي! كان معايا أيامها الشيخ حسونة وكان لسه مدرس.. خدونا مع بعض وحطوا الحديد في أيدينا ولبسونا عساكر، وقالوا علينا متطوعين! لكن هو وقف لهم قاموا حطوه في الحبس.. وبعتونا إحنا على الشام.. رحت أنا في بلاد الشام.. وفي بر الشام شفت الموت بعيني دي ألف مرة.. زحفنا على التلج.. تعرف التلج؟ كانت الأرض كلها تلج في تلج، واحنا بنزحف على بطننا ونطلق بارود.. زحفنا في الطين.. ولما كنا بنستريح ونتلفت لبعض نسأل بعض: إحنا هنا بنعمل إيه ياولاد؟ إحنا مالنا ومال ده كله؟.. ما حدش يعرف يرد.. بنحارب مين؟.. بنحارب ليه؟.. ليه الحرابة دي؟! ما حدش عارف.. يقولوا لنا العدو.. عدو مين؟ وعدو ليه؟ ولا حد منا عارف.. كان الرصاص يفوت من جنبنا ومن فوق دماغنا.. وألاقي اللي بيسألني وقع ميت بالرصاص من غير ما يحط منطق!.. يا سلام يا اخواتي على دي أيام.. الله لا عاد يعودها، ولا يكسب اللي لمونا ورمونا هناك.. ما حدش رجع من النواحي دي غيري! ولسه هناك الجتت مرمية عالجبال، اللي مات في الشام، واللي مات في بلاد معرفش اسمها إيه، واللي رجله انقطعت، واللي عينه عميت!.. أيام.. الله لا يرجعها يا شيخ! ياما لموا رجالة وحطوهم في سلاسل وقالوا عليهم متطوعين.. الله لا عاد يعودها يا أولاد!.

وسكت عبد الهادي ومحمد أفندي وسيطر على القلوب شعور رهيب.

كان صوت محمد أبو سويلم يرتعش بنبرات غريبة يحمل إلى خيال محمد أفندي وعبد الهادي ذكريات مشتركة مرعبة من تلك الأيام: عندما اختطفت «السلطة» رجال القرية وسط الصراخ والعويل.

وانتبه محمد أبو سويلم كأنه يفيق من كابوس، ودعك جبينه ووجهه بيديه.

ونظر إلى محمد أفندي قائلا:

ـ بقى كده؟ بقى حضرة الناظر جاي؟! سلامات يا شيخ حسونة!

ثم استمر يقول وهو ينظر من ظلال الحجرة:

ـ سايبنا وقاعد في مصر على طول ليه؟.. تعال شوف اللي بيجري تعال شوف!.

وشيئا فشيئا ذاب الحديث.

وانصرف محمد أفندي ليستريح، وهو يلتفت وراءه إلى وصيفة..

وعندما غادر عتبة البيت، كان وجه وصيفة يسطع في خيالاته ضاحكا بين تموجات كثيرة من وجوه حزينة باكية.. وجوه من تلك الأيام السوداء.. أيام السلطة.

مر يومان والقرية تنتظر أن يعود حضرة الناظر الشيخ حسونة.. وكل رجل فيها يبحث عما يجب أن يعمل.. لم يكن من السهل على رجال القرية أن يصدقوا أن الحكومة تستطيع أن تنزع من أيديهم الأرض لتشق فيها طريقا زراعيا لمجرد أن الباشا يريد ذلك.

كانوا كلهم يعرفون أن الجسر هو الطريق الذي يجب أن تهتم به الحكومة.. وما عليها إلا أن تصلحه فيصبح واسعا كطرقات المركز، ولا حاجة بعد إلى انتزاع الأرض من أيدي الذين يعيشون عليها! لقد عرفوا بالتجربة أن كل حكومة حاولت أن تشق السكة الزراعية وسط حقولهم، لم تعمر لتكمل المشروع!

ولكنهم يعرفون ـ بالتجربة أيضا ـ أن الحكومات التي تفكر في إصلاح الجسر ليصبح طريقا زراعيا، لم تكن تعيش.. فقد كانت البوارج الإنجليزية تقبل من البحر فإذا بهذه الحكومات تقال من الحكم!

على أن الأمر يبدو خطيرا هذه المرة.. فالباشا لا يشرع في إتمام قصره إلا إذا كان على يقين من أن الحكومة التي ستشق الطريق، باقية!

وقد أوشك قصره أن يتم، والبناءون يعملون فيه بنشاط عجيب..

وما دام البناءون ينشطون في بناء قصر الباشا، فحكومة حزب الشعب باقية!

وحكومة حزب الشعب تعيش منذ عامين، على الرغم من أن العمال والطلبة يتظاهرون ضدها في القاهرة ويضربون بالرصاص!

والقرية تتلقى من حين إلى آخر واحدا أو اثنين من أبنائها الذين يشتغلون عمالاً في مصر، وهم يروون كيف تطردهم المصانع، وكيف يمتنعون عن العمل، ويهتفون بسقوط الحكومة فتسلط عليهم الحكومة أنابيب المياه الساخنة.. وهم يتحدثون عن جزع حكومة حزب الشعب من التقاء الطلبة بالعمال والناس في شوارع القاهرة، فتصدر القوانين الحكومية باسم حماية الصحة العامة وتنشئ مكتب العمل، لتغلق بعض المصانع بحجة أنها مقلقة للراحة وتنقلها بعيدا عن المدينة وعن القرى.. حيث يفصل العمال عن أهل القرى مسافات واسعة من الأرض الخراب، ويفصلهم عن أهل المدينة عديد من الكباري التي تستطيع الحكومة أن تفتحها في وجه العمال المتظاهرين متى شاءت!

وكان بعضهم يقول: إنه لا فائدة: فحكومة حزب الشعب ستبقى على أنفاس مصر إلى آخر الزمن!

وكان آخرون يقولون: إن العمال لو ظلوا ممتنعين عن العمل والطلبة في الشوارع فالحكومة لن تعيش بعد هذا شهرا واحدًا!

أما الشيخ يوسف بقال القرية فقد كان يقول دائما: إن هذا كله كلام فارغ، وإن الحكومة لا تسقط إلا إذا هاج الموظفون ضدها وقام الفلاحون كما قاموا ضد الإنجليز!

وقد حكى له العجائز عما صنع الفلاحون الفقراء بالإنجليز أيام عرابي، وهو نفسه يذكر عندما كان طالبا في الأزهر سنة ١٩١٩، أن الموظفين في القاهرة أحسنوا البلاء وأن الفلاحين في هذه القرية وفي غيرها من القرى استطاعوا دائما أن يزعجوا الإنجليز.

ولكن الشيخ يوسف يقطع كلامه دائما ليقول: إنه عندما كان طالبا كان الطلبة طلبة بحق، وكانوا يوجهون ضربات لا تهدأ ضد أعداء البلاد، أما الآن فقد خسر الزمن!

وذات يوم وقف يناقش فتى وكان يعمل خادما بالقاهرة وعاد منها ـ فطلب منه الفتى أن يتشطر اليوم ويعمل شيئا بدلا من أن يلوم الطلبة الذين يموتون بالرصاص في مصر.

فهاج الشيخ يوسف وصفع الفتى وطرده من أمام الدكان.

ومر على القرية يوم ثالث.. ولم يقبل الشيخ حسونة.

وبعد صلاة العشاء جلس الشيخ يوسف على دكة أمام دكانه، وجلس إلى جواره محمد أبو سويلم.

وابتعد الفتيان الذين تعودوا أن يقفوا أمام الدكان، وأقبل علواني يطلب من الشيخ يوسف حصة الليل من الشاي والسكر، وكان الشيخ يوسف لا يريد أن يتحرك حتى ولو دفع علواني فورا.. كان الشيخ يوسف يريد فقط أن يتكلم طويلا مع محمد أبو سويلم..

ووقف علواني أمامهما قليلا، ثم جلس على الأرض.

ومال الشيخ يوسف على محمد أبو سويلم يسأله رأيه في أن يكتب هو عريضة من إنشائه.. وهو وحده يعرف كيف يكتب للحكام بطريقة تقنعهم!

ولم يكد ينتهي من اقتراحه، وقبل أن يهتم محمد أبو سويلم بالرد عليه، صاح علواني وهو ينهض متحمسا:

ـ أي كده!.. ما يجيبها إلا رجالها.. وأيمان النبي عريظة منك لتهز الحكومة هز يا أبا الشيخ يوسف.

ومارس الشيخ يوسف إحساسا بالامتياز.. ومسح صدره وبطنه بكفه، وهو يزم شفتيه:

ـ هم.. أمال إيه ياواد؟! ولا كل من كتب!

غير أن محمد أبو سويلم قال باستخفاف:

ـ ما كفاية عرايظ بقى.. آدي احنا جربناها... عايزين نشوف لنا سكة تانية.

وقال علواني متحمسا: إن عريظة من الشيخ يوسف ليست ككل العرايظ.. فهو يستطيع أن يكتب كلاما باردا يغيظ الحكومة، ولا أحد يجاريه في الكلام البارد!

واعترض الشيخ يوسف محتجا على علواني، وشتمه، وطرده.. فابتسم محمد أبو سويلم، بينما فوجئ علواني وبدأ يعتذر ويشرح قصده.

ولكن الشيخ يوسف طلب من علواني أن يخرس، وينزاح بعيدا عنه.. ثم التفت إلى محمد أبو سويلم، واستطرد قائلا: إن هناك الطريق الآخر الذي يبحث عنه محمد أبو سويلم، فأحد العائدين من مصر ـ كان يشتغل في شبرا البلد ـ وعرف من هناك أن الشيخ حسونة يسعى عند الحكام في مصر ليعدلوا عن شق الزراعية.

فهمس محمد أبو سويلم لنفسه: إن الحكام في مصر لن يعدلوا من أنفسهم عن شق الزراعية، ولن يصنعوا شيئا مفيدا للبلد!

يجب أن يعرف الشيخ حسونة هذا!.. وماذا يريد الشيخ حسونة أن يحصل ليتأكد من هذا بعد أن نقل هو مدرسا، وفصل محمد أبو سويلم من مشيخة الخفراء، وقطعت الحكومة ماء الري لتعطيه للباشا؟!

وحين انتهى محمد أبو سويلم من همساته هذه أقبل دياب.. فلم ينهض له أحد.

واستقبله الشيخ يوسف بإهمال.

ودس دياب يده في يد محمد أبو سويلم مسلما.. وسلم على الشيخ يوسف، ثم سلم على علواني، ووقف إلى جوار علواني صامتا ولم يطلب منه أحد أن يجلس.

وأراد دياب أن يقول شيئا، وكأنه أراد أن يشعرهم بأن له أهمية.. فقال فجأة:

ـ خالي جه!..

وتحرك محمد أبو سويلم فرحا، وهو يقول في دهشة:

ـ حضرة الناظر؟!.. هوه فين؟! في داركم؟! وساكت ليه يا وله؟

فقال دياب مستدركا:

ـ لأ.. جاي يعني.. زمانه جاي من مصر دلوقت.

وبادره الشيخ يوسف بقوله:

ـ بقى طول عمرك حمار كده! طيب ما إحنا عارفين إنه جاي.. يبقى اسمه جه؟

وضحك علواني وقال للشيخ يوسف:

ـ إنت فاهم إن كل الناس عندهم فهم زيك يا أبا الشيخ يوسف؟.. وللا يعرفوا يتكلموا زيك؟! أصل إحنا يعني زي ماأنت راسي.. يعني لا قرينا ولا حد رضي يقرينا!

ثم التفت علواني إلى دياب فوجده يبتسم، كأن الأمر لا يعنيه!

وهز محمد أبو سويلم يديه متعجبا من غباء دياب.. ثم لمح فتاة مهرولة في السواد مقبلة من ناحية داره!! ورآها تدخل مسرعة إلى دار الشيخ يوسف فصاح فيها:

ـ بت.. بت يا خضرة.. إنت كنت عندنا.. إيه اللي جابك هنه؟ أنا مش قلت لك خليكي في ناحيتكم وأوعي تخطي الناحية دي؟

ولم تجب الفتاة وغابت وراء باب دار الشيخ يوسف.

فقال دياب بحرارة: إنها ليست خضرة، ولا أحد يستطيع أن يحصل على أثر خضرة في هذه الساعة بعد صلاة العشاء، فهي دائما مشغولة مع هذا الفتى أو ذاك من فتيان مصر الذين عادوا مطرودين من أعمالهم ومعهم بقية من مال مصر، يستهوي فتيات كخضرة، وهم يقيمون في القرية بلا عمل إلا مغازلة النساء، ولا يستطيعون بعد هذا أن يمسكوا فأسا، ولا حتى أن يحمِّلوا حمارة سباخ.

وابتسم محمد أبو سويلم وهو يعجب لغيظ دياب، ويتساءل ضاحكا إن كان هؤلاء الفتيان قد أخذوا منه شيئا عزيزا..

ثم مال على الشيخ يوسف، ونصحه ألا يسمح لخضرة بدخول بيته، وقال: إنه هو نفسه منعها من دخول داره، وطردها ليلة البارحة وضربها عندما رآها في وسط الدار تسأل عن ابنته وصيفة.

وهز الشيخ يوسف رأسه باقتناع، ورأى دياب يقترب منهما بوجهه ليسترق الحديث فزعق فيه أن يغور بعيدا.

وطلب محمد أبو سويلم من دياب أن يحضر محمد أفندي ولو من تحت الأرض، وأوصاه ألا يغيب.

وانصرف دياب يهمس لنفسه:

ـ لو ما كنش الشيخ يوسف دا خلقي؟ طب وأنا عارف محمد أفندي فين دلوقتي.. أجيبه منين يعني؟!

ولم يكد يسير قليلا في تباطؤ حتى قابل عبد الهادي.

وكان عبد الهادي حزينا مضطربا.. واستوقف دياب ليسأله عن محمد أفندي، فقال دياب وهو يواصل المشي، إنه ذاهب الآن ليبحث عنه.

وأقبل عبد الهادي فقعد بين محمد أبو سويلم والشيخ يوسف دون أن يلقي السلام.. وكان واضح الاضطراب والقلق والحزن.

ولم يسأله أحد عن سبب اضطرابه.

ربما كان يفكر كالآخرين في ماء الري الذي لا يسيل إلا إذا قطع الجسر.

ربما يفكر في السكة الزراعية الجديدة التي ستأخذ الأرض من حوض الترعة.

وعاد علواني يطلب من الشيخ يوسف أن يتفضل عليه بقليل من الشاي والسكر.. وقبل أن يجيب الشيخ يوسف التفت إلى عبد الهادي في رجاء ليساعده عند الشيخ يوسف.. فطلب عبد الهادي من الشيخ يوسف أن يقوم ليحضر لعلواني ما يريد لأنه يود أن يقول كلام سر لمحمد أبو سويلم.

ونظر إليه علواني بامتنان.

وقام الشيخ يوسف متثاقلا.. ومشى إلى الدكان يسبقه علواني.

ومال عبد الهادي على محمد أبو سويلم يسأله عن محمد أفندي.. فقال محمد أبو سويلم ببساطة: إنهم أرسلوا دياب ليبحث عنه.. وتساءل إن كان هذا هو السر!

ووقف عبد الهادي واستأذن محمد أبو سويلم في أن يقوم معه ليحدثه على مصطبته.

ونهض محمد أبو سويلم وحيا الشيخ يوسف وانصرف، وإلى جواره عبد الهادي يلهث ويلقي في ظلمات الطريق الساكن بنظرات حادة.

وقال محمد أبو سويلم:

ـ خبر إيه؟ سر إيه؟! مالك؟

فسكت عبد الهادي وتابع سيره.

وعندما وصل إلى مصطبة محمد أبو سويلم قعد، وقعد إلى جانبه محمد أبو سويلم.

وقال عبد الهادي بلهجة تدل على الخطر:

ـ وصيفة راحت فين؟

فقال محمد أبو سويلم ببساطة:

ـ أهي متلقحة جوه.

ثم استطرد:

ـ لكن سؤالك دا لازمته إيه؟ لزومه إيه يعني.. هو دا السر؟

فأجاب عبد الهادي بنفس النبرات التي تحمل الخطر.

ـ لا!.. اسمه لما أقول لك يابا محمد.

والتفت إليه محمد أبو سويلم ليسمع ما يقول.

وفي كلمة مشحونة كلحظات الانقضاض، طلب عبد الهادي الزواج من وصيفة قائلا إنه يتكلم في هذا الموضوع لآخر مرة!

فأجاب محمد أبو سويلم بهدوء وصبر:

ـ ودا وقته يا عبد الهادي؟ يا أخي طول بالك شوية!! حد عارف إيه اللي حايجرى.. بقى جايبني من هناك، وتقول لي سر.. علشان تتكلم في كده؟!

ثم توقف محمد أبو سويلم قليلا بهيئة من يستعد لمتابعة الحديث.

وأخذ قلب عبد الهادي يخفق وانتظر ما يمكن أن يقوله محمد أبو سويلم..

ولكن محمد أبو سويلم لم يقل شيئا آخر.

فالتفت إليه عبد الهادي بصبر نافد وهو يقول:

ـ قلت إيه بقى يابا محمد؟

فقال محمد أبو سويلم بنفس هدوئه:

ـ طب يا سيدي بس إحنا في إيه وأنت في إيه؟! بس يعني...

ولم يقل عبد الهادي كلمة في انتظار بقية كلام محمد أبو سويلم.

ولكن محمد أبو سويلم عاد إلى توقفه عن الكلام.

ثم قال:

ـ تتعدل يا عبد الهادي.. بكره تتعدل!

ولكن عبد الهادي لوح بيديه قائلا:

ـ دهدي!! أنا عايز عقاد نافع.. إيه اللي كل ما أكلمك تقول لي تتعدل، وتقول كلمة وتاكل عشرة؟!

وابتسم محمد أبو سويلم وهو يقول لعبد الهادي بطيبة وهدوء:

ـ بس طول بالك.

ولم يقل عبد الهادي شيئا.. وظل ينظر إلى محمد أبو سويلم في انتظار كلام منه، وليس في باله طول!!

غير أن الشيخ الشناوي أقبل مروعا.

كان كرشه يهتز، وحبات مسبحته ترتطم ببعضها، وصوته يختلج بهمهمة يبين منها من حين إلى آخر كلمة:

ـ باسم الله الحفيظ.. أعوذ بالله!

واستقبله عبد الهادي بضيق، وسأله عن سبب اضطرابه، فألقى السلام وجلس قائلا:

ـ إن خضرة النجسة وجدت الآن مقتولة: ووجهها مدفون في طين القناة الصغيرة التي تروي الحقول بجوار الجسر!

واستمر الشيخ يقول: إن حياتها طين وآخرتها طين!

فقال عبد الهادي بضيق: إن الناس كلهم من طين.. خضرة كالشيخ الشناوي تماما!

ولكن الشيخ الشناوي كان مروعا إلى حد أنه لم يفطن لما قاله عبد الهادي.. واستمر يقول: إن علواني هو الذي قتلها..

واعترض عبد الهادي مستنكرا:

ـ علواني؟ علواني كان معانا دلوقت! علواني يقتلها ليه؟!

فقال الشيخ الشناوي:

ـ حاكم هو كافر وقليل الدين وقتال قتلا.. دا عمره ما ركعها.. عرباوي يا سيدي.. ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ ربنا قال كده!

واستطرد قائلا:

ـ الناس لقوها جنب الغيط اللي بيحرسه علواني.. حد عارف إيه الحكاية.. والله ماحد غيره يعملها.. ما حدش غير الواد العرباوي يعمل العملة الغبرا دي.. لا إله إلا الله باسم الله الحفيظ.. كانت بطالة صحيح لكن يا ناس القتل حرام، وأكبر الكبائر عند الله.. دي بلد إيه دي!.. أعوذ بالله من الشيطان.. قتل؟ كدهه؟ تنقتل قتل!

وتململ محمد أبو سويلم:

ـ يا ناس جرى إيه بس؟ إحنا في إيه ولا في إيه؟ ما هي غارت بقى مطرح ما راحت!

ولكن الشيخ الشناوي ظل في اضطرابه، يرسل كلمات متناثرة عن اللعنة والانتقام وسوء المصير! وعندما هدأ، تساءل أين يمكن أن تدفن خضرة هذه.. فاقترح محمد أبو سويلم أن تدفن على الفور قبل إبلاغ المركز بأن في الأمر جناية قتل.

فقال عبد الهادي متعجبا: إن أحدًا لا يعرف إن كانت هناك جناية قتل، وربما كانت خضرة قد ماتت وحدها فجأة: انكفأت على وجهها في الطين وهي تحاول أن تشرب من الماء القليل الذي تبقى في القناة.. وهي أحيانا تفعل أشياء كهذه!

ولم يعلق الشيخ الشناوي على هذا، فقد كان مشغولا بما قاله محمد أبو سويلم عن إبلاغ المركز.

وأكد الشيخ الشناوي أنه عندما كان عند العمدة، علم أن العمدة لم يبلغ المركز بمسألة خضرة.. وأنه على أي حال لم يحاول أن يعرف من القاتل.. وقد أمر العمدة بأن تبلغ الصحة بحادثة وفاتها كأنما هي أمر طبيعي، وأن تدفن بعد هذا في صباح اليوم التالي، بعد أن يأتي تصريح الصحة ـ بالتليفون ـ كالمعتاد.

وسكت الشيخ الشناوي قليلا، وقد استعاد هدوءه من كثرة ما تكلم وفضفض!

وعاد يتساءل أين يمكن أن تدفن خضرة؟..

واقترح عبد الهادي باستخفاف أن تدفن في مقابر الشيخ الشناوي، لأنه أقرب إنسان لها يملك مقبرة؟

ولم يكن الشيخ الشناوي يملك في كل أرض القرية غير المقبرة..

وثار الشيخ الشناوي على عبد الهادي، وقال: إنه نجس كخضرة.

وأقسم الشيخ إنه لن يلوث عظام الموتى بجثة خضرة التي عاشت وماتت في معصية الله، ولن يسمح لها بأن تدفن في مقابر المسلمين.

وسكت قليلا.. وعبد الهادي يغالب ضحكه.. ثم عاد يصرخ في عبد الهادي ويشتمه ويقسم إنه ليس قريبا لخضرة.

وقال عبد الهادي بهدوء: إن خضرة ليس لها أقارب في القرية الآن إلا ابن عمها الذي يشتغل طباخا عند محمود بك.. وهذا الطباخ هو ـ في الوقت نفسه ـ ابن عم من بعيد للشيخ الشناوي!

وقبل أن يسمح عبد الهادي للشيخ الشناوي بمقاطعته استرسل يقول: إن شعبان قريبها الآخر لم يعد أحد يعرف عنه شيئا منذ هاجر من القرية. أما أختها زنوبة فهي تشتغل في مصر وتملك خمارة وراء حديقة الأزبكية، وقد أصبح اسمها الآن إحسان هانم، كما يعرف الشيخ الشناوي! وهي لم تعد إلى القرية منذ غادرتها إلا مرة واحدة منذ خمسة أعوام!.. أقبلت بعد أن أصبحت امرأة سمينة تضع الأحمر على الفم والذهب على الذراع والرقبة والأذنين، وعلى وجهها لون جديد نحاسى!

جاءت إذ ذاك في عربة حنطور من المركز، فأقامت ليلة لله واشترت عجلا ووزعته على الفقراء.. وأقامت مولدا للنبي، وأعطت للشيخ الشناوي جنيهين فقرأ الفاتحة على أرواح موتاها، ودعا الله أن يوسع عليها في الرزق.. ورزقها من الخمارة كما يعرف الجميع!

ولم يكد عبد الهادي يفرغ من حديثه هذا، حتى صاح فيه الشيخ الشناوي: إن إحسان هانم ليست كخضرة، وقد غفر الله لها لأنها تصدقت وأقامت ليلة لأهل الله ومولدا للنبي، وتبرعت للجامع.. وهم الشيخ الشناوي بأن يروي حديثا عن امرأة مثلها دخلت الجنة.. غير أن عبد الهادي قاطعه وهو يضحك:

ـ فاهم!! ما دام عندها دهب ومصاغ وبتعمل مولد وبتدفع للفقهاء والجامع.. دي طبعا يبقى لها في الجنة سراية وجنينة كمان! وما فيش مانع تبقي قريبتك.. يعني لو خضرة راحت مصر وعملت زي أختها، ودارت مع رجالة مصر، كانت تبقى من التائبات الصالحات! ويا عالم كانت تبقى إيه كمان! لكن ما دام قعدت في بلدنا بقت نجسة!

وقبل أن يجيبه الشيخ الشناوي استمر يقول مستنكرا وهو ينظر إلى وجه الشيخ:

ـ يا شيخ؟ يا سيدنا.. بقى دا كلام؟ مين اللي نجسة في الأختين؟ اللي بتشقى علشان اللقمة والا اللي دايرة وفاتحة خمارة علشان تلبس دهب؟! بقى بلدنا مكتوب عليها الشقا في كله كده؟!

وضرب الشيخ الشناوي كفا بكف ونظر إلى محمد أبو سويلم وهو يداري عجزه وخجله في الضحك قائلا:

ـ الواد عبد الهادي ده كفره ماوردش! روح ياشيخ.. الله يلعنك في كل كتاب!

ونظر محمد أبو سويلم إلى عبد الهادي وقطع المناقشة.. طالبا منه أن يبحث عن حفار القبور ليرمي بجثة خضرة في أي مقبرة عندما يأتي إذن الصحة بالدفن في طلعة النهار.

وقبل أن يتحرك عبد الهادي، سأل بفروغ صبر عن سر غياب محمد أفندي.

ولم يجبه محمد أبو سويلم.

وقال عبد الهادي وهو ينصرف، إنهم يريدون الليلة أن يبحثوا في مسألة السكة الزراعية قبل أن تشقها الحكومة، وتهد الدنيا.

ومشى عبد الهادي بضع خطوات، ولكنه لاحظ قدوم موكب من الخفراء إلى دار محمد أبو سويلم.. وتقدم عبد الهادي يستوضح الأمر.. ولكن صوت الشيخ الشناوي ارتفع ـ من ورائه ـ مروعا يسأل الخفراء:

ـ خبر إيه؟ خبر إيه يا أولاد؟

وتقدم الخفراء وطلب أحدهم من عبد الهادي أن ينتظر قليلا.. وخيل لعبد الهادي أن العمدة سيتهمه بقتل خضرة!

ونهض محمد أبو سويلم من على المصطبة صائحا:

ـ خبر إيه يا واد يا عبد العاطي.. جايين كلكم تنيلوا إيه؟ هو الراجل النجس بتاعكم عامل ملعوب جديد؟.. هه؟ زق له واد صايع يقتل خضرة وناوي يتهمها في واحد منا؟ إيه يا واد يا عبد الهادي إيه؟ قول لي جايين هنا ليه؟ وشرف النبي لو حصلت لكده لاقطع رقبته.. أنا وأنت والزمن طويل يا عمدة.

غير أن عبد العاطي قال لمحمد أبو سويلم باحترام: إن خضرة ماتت لوحدها، ولم يقتلها أحد.. فقد كانت عائدة من على الجسر، ومالت على القناة تغسل وجهها من بقايا الماء فداخت، كما كان يحصل لها دائما وكما يحدث لبنات وأولاد كثيرين في البلاد.. وحين داخت خضرة على حرف القناة، انكفأ وجهها على الماء.. فانغرس في طين القناة، وكتم نفسها، وماتت على الفور..

فتمتم عبد الهادي لنفسه:

ـ يعني ماحدش زقها؟ يعني ما حدش حط رأسها في الطين؟! طب الحمد لله.. ما لكش في دي ملاعيب يا عمدة!

وتقدم خفير من عبد الهادي فقال له بتردد: إن العمدة يريده، هو ومحمد أبو سويلم.

وصرخ محمد أبو سويلم في الخفير يسأله عما يريده العمدة منه فبلع عبد العاطي ريقه وقال: إن رجالا مروا الليلة على الجسر بعد المغرب، فوجدوه مقطوعا من عدة جهات.. فأرسلوا إشارة إلى العمدة يشتمونه ويهددونه بالجزاء.. وكلمه المأمور بالتليفون وطلب منه أن يعطيه أسماء من قطعوا الجسر، فأملى أسماء الذين يملكون حقولا على الجسر.. واسم محمد أبو سويلم أيضا مع أن أرضه كلها في حوض الترعة!!

وكان الخفير عبد العاطي، يتعثر في كلماته من فرط الخجل.

ولم يكد ينتهي حتى زعق محمد أبو سويلم:

ـ حط اسمي في اللي قطعوا الجسر؟! إلهي تنقطع رقبتك يا عمدة.. طب دانا أرضي كلها في حوض الترعة ياولاد.. يعني يزور عليّ؟.. طب والله لأثبت عليه أنه بيزور وأحطه في الحديد.. آه يا عمده يا نجس.. أنا وأنت والزمن طويل.

ولم يسترح عبد الهادي لكلام محمد أبو سويلم..

فهو يعرف أن الحكومة لا يمكن أن تضع العمدة في الحديد من أجل محمد أبو سويلم.. ولكنها تسجن محمد أبو سويلم ورجال القرية كلهم من أجل العمدة الذي خدمها في الانتخابات وزور لها أصوات الأحياء والأموات في القرية.. وجمع المال باسم الاشتراك الاختياري في جريدة حزب الشعب!

ولم يشأ عبد الهادي أن يناقش محمد أبو سويلم.. فعبد الهادي يدرك هو الآخر أن العمدة والحكومة وكل رجال المركز يدبرون لهم أمرا ليرموهم في داهية!

وتمتم أحد الخفراء فقال: إن المأمور أمر بالقبض على كل من أملى العمدة أسماءهم..

وتحرك الخفراء إلى الدوار وهم يقولون:

ـ معلهش يابا محمد.. معلهش يا عبد الهادي، حكم الزمن كده.. فقال عبد الهادي ضاحكا متعمدا التظاهر بالاستخفاف:

ـ دا حكم العمدة..

ومشى محمد أبو سويلم وعبد الهادي مع الخفراء إلى الدوار.

وهناك وجدوا دياب ورجالا كثيرين..

وأمام باب الدوار أخذ المكان يزدحم بالناس ويمتلئ بالصخب والضجيج، ومحمد أبو سويلم وعبد الهادي يملآن الدنيا بالشتائم، ويوجهان إلى العمدة كلمات قاسية شجعت الآخرين على المزيد..

وبعد قليل، وقد أوغل الليل كانوا جميعا ومن ورائهم الخفراء ـ مدججين بالسلاح ـ يسيرون في طريقهم إلى المأمور في عاصمة الإقليم تحت ظلمات الليل الداجي!

وحين انصرف الرجال، تعالت صرخات النساء..

وكان الشيخ يوسف قد انصرف إلى داره منذ تركه محمد أبو سويلم مع عبد الهادي.. وفتح الشيخ يوسف باب داره في هلع وسأل النساء عن الخبر.

وعرف القصة كاملة فوقف على باب داره يقول في حسرة:

ـ ولسه يا ما حايجرى ويا ما حانشوف.. آه يا بلد!

وفي تلك الليلة باتت القرية مروعة!

وحاول محمد أفندي أن يقابل العمدة.. ولكنه رفض أن يقابل كل الناس حتى الشيخ الشناوي.

وأخذ بعض النساء يذهبن إلى الدوار، فيصرخن، ثم يعدن إلى الدور والدموع على الخدود، ليجدن الصغار يبكون وعيونهم مفتوحة بلا فهم في رعب متشنج من المجهول.!

فتح الشيخ يوسف دكانه في الصباح الباكر.. وجلس في داخله، وبيده منشة طويلة من الخوص يطوح بها الذباب.

كانت القرية قد استيقظت، وما زالت في عينيها الدموع.

لقد قبض بالأمس على كثير من الرجال، ومع ذلك فقد ذهب الآخرون إلى الحقول، لأن الأرض لا تستطيع أن تنتظر الذين ذهبوا..

وأقبل على دكان الشيخ يوسف صبي يبكي وهو يقول:

ـ أمي بتقول لك الحكومة خدت أبويا.. روح شوف خدوه ليه؟ وحا يرجع امتى؟

وأحس الشيخ يوسف بوخزات تعذب قلبه، على بكاء هذا الصغير من الناحية الشرقية.

إن الشيخ يوسف يعرف القصة كاملة.. ويعرف أن الحكومة أخذت من هذا الصغير ـ غير أبيه ـ عمه وخاله ورجالا عديدين هم أيضا آباء، وأعمام، وأخوال، وإخوة وأبناء!

ولكن الشيخ يوسف لم يكن يعرف على التحقيق ما يصنع هو نفسه!

لو أنه ذهب إلى عاصمة الإقليم فلن يستقبله أحد هناك، فلا أحد هناك يعرفه!

ولئن عرفوه وعرفوا من أي قرية هو.. فربما قبضوا عليه!

فهكذا كانوا يصنعون أيام قاطعت القرية الانتخابات.. وهكذا يصنعون دائما كلما شعروا بأن القرية تريد أن تملك الرأي أو النبضات أو الكلمة أو.. الأرض!

وزحفت على ضلوع الشيخ يوسف مشاعر مبهمة.. وأخذ يحدق أمامه في الطريق الذي يضطرب من حين إلى حين بامرأة باكية أو غلام منكس الرأس.

لقد امتلأ أمامه هذا الطريق ذات يوم بالرجال.

كان ذلك منذ أربعة عشر عاما.. عندما أغلق الأزهر في سنة ١٩١٩.

وعاد هو إلى القرية في مركب شراعي عن طريق النيل، بعد أن قطعت سكة الحديد بين القاهرة وعاصمة الإقليم.

كانت الحياة إذ ذاك أكثر بهجة، والنفس أكثر فتوة.. وكانت زوجته هي الأخرى أكثر صبا!

وفي طرقات القرية المزدحمة بالناس والفؤوس والغبار واللهثات، كان صديقه الشيخ حسونة يلوح بيده ويصرخ:

ـ وبالاستقلال أبشر رغم أنف الإنجليز..

وانتبه الشيخ يوسف فجأة على نحيب امرأة تقول من خلال وجهها المبلل المتشنج:

ـ والنبي يا عم الشيخ يوسف، تعال اقرالي عدية يس على الحكومة اللي خطفت مني الواد ابني امبارح بالليل.

ونظر إليها الشيخ يوسف كالمذهول، ولم يقل شيئا..

وظل يحملق في الطريق أمام دكانه دون أن يختلج وجهه بأي تعبير.

لكأنه ينظر إلى عالم آخر!

إنهم في تلك الأيام الرائعة من سنة ١٩١٩ لم يقرءوا أبدا «عدية يس» على الإنجليز، كانوا يعملون بلا توقف..

وفي لحظات العمل المضطرم، لا يجد الإنسان وقتا للتفكير في عدية يس!

وكانوا إذ ذاك يملئون القرية بالهتاف والعمل.. ويهزون صمت الحياة بسواعدهم..

وأوشك أن ينفجر في المرأة ويشتمها، ولكن صوته لم ينطلق من بين شفتيه..

كان حزينا.. يشعر بالوحدة والضعف، والفراغ، وقليل من الضياع.

وكان مهزوما.

وقال لها بصوت كسير:

ـ ربنا يعدلها.. روحي ربك يعدلها يا ولية.. روحي!

ولكن المرأة لم ترح، وظلت تبكي أمامه وتمسح أنفها وعينيها في كمها الواسع الأسود.. وقالت له: إنها لم تجد الشيخ الشناوي ليقرأ عدية يس على الحكومة، وإنها كنست تراب ضريح سيدي رمضان، ودعت الله ـ ويداها على عينيها ـ أن ينتقم لها من الحكومة، وممن كان السبب في رمي ابنها للحكومة.

وأضافت وهي ما تزال تبكي،أنها لا تملك مالاتشتري به الشمع لضريح «سيدي رمضان» فليترفق بها الشيخ يوسف ويقرأ لها عدية يس بلا مقابل، أو فليعرها من دكانه بعض الشموع حتى تحضر له البيض الذي يضعه دجاجها هذا المساء.

ولم يستطع الشيخ يوسف أن يغالب ضيقه بعد فانفجر:

ـ روحي بقى.. روحي يا شيخة روحي..

ولكنه عاد فارتعد، وهو يسمع صوته يدوي في أذنيه، كما ترن الخطوات الثقيلة الغريبة في بيت خرب مهجور!

وهز رأسه وهو يمص شفتيه، وتمتم:

ـ عدية يس؟! ضريح سيدي رمضان؟ الشيخ الشناوي؟!

لقد كان الشيخ الشناوي نفسه في تلك الأيام الماضية من سنة ١٩١٩ يقف إلى جانبه في طرقات القرية، ويهز يديه هو الآخر ويقول «يحيا الوطن».. كانت له نفس اللحية الشيباء والوجه الأبيض المليء.. وكان يروي نفس الأحاديث والحكايات عن الأنبياء.. ولكنه في تلك الأيام كان يروي مع الأحاديث، حكايات أخرى سمعها عن التل الكبير وكفر الدوار، ومعارك عرابي ضد الإنجليز وحتى ضد الخديو من أجل الدستور الذي كان اسمه اللائحة!

وعلى أي حال فلم يفكر أحد في أيام سنة ١٩١٩ في أن يطلب من الشيخ الشناوي قراءة عدية يس، ولم يكن أحد إذ ذاك يفكر في سيدي رمضان، ولا في الشموع.

ولم يفكر أحد في سيدي رمضان غير محمد أبو سويلم.

كان عائدا من الحرب مسرحا من الجندية.. فاقترح أن تخفي القرية كل ما تملك من سلاح في ضريح سيدي رمضان.

كان هذا كل ما اتجه به فكره إلى الضريح.

ولكن أين أبو سويلم الآن؟.. أين؟!

وتزايل الشيخ يوسف في أغوار نفسه على هذه الذكريات.

وطافت برأسه صور بشعة عن أرضه التي ستموت من العطش في حوض الجسر، والأرض التي اضطر تحت ضغط الأزمة والحاجة إلى رهنها تحت يد محمد أفندي، والأرض التي يمكن أن تنتزعها الحكومة لتقيم عليها السكة الزراعية.

وهو بعد لا يعرف كيف يرد هذا كله!

ولا أحد في القرية يعرف على الإطلاق.

وهمهم الشيخ يوسف بصوت ضعيف مختنق يراوده البكاء.

ـ ربنا يلطف..

وسرت في صوته الجاف رنة حزينة.. وأحس فجأة أنه يحب كل رجل وامرأة وغلام في القرية.. حتى الذين عادوا من «مصر» بلا عمل، وتعودوا أن يضايقوه بكلامهم أثناء وقوفهم أمام الدكان.

وشعر بالحاجة إلى رؤية علواني.

ونادى صبيا كان يسير في الطريق مطأطئ الرأس، ولكنه تذكر أن علواني ينام في مثل هذه الساعة من الصباح بعد سهر الليل كله..

وصرف الصبي..

وابتعد الصبي.. ولم يعد في الطريق أحد..!

وعاد الشيخ يوسف ينظر أمامه في الطريق الخاوي، والوحدة الهائلة تلح عليه..

ثم رمى المنشة في ضيق، وهب واقفا كأنه ينفض عن نفسه حملا، وفتح صدره.. ثم دس يده تحت صندوق، وأخرج كتابا كبيرًا من الورق الأصفر الداكن.. وأخذ يقلب صفحاته وهو يهز رأسه..

كانت قصة «عنترة».. عنترة البطل الأسود العبد الذي هزم كل السادة في مصر والشام وبلاد العرب!

وظل الشيخ يوسف يقرأ لنفسه بصوت مرتفع كيف كان عنترة يدافع عن الديار..

وعادت الحياة تهب في صوته وهو يتلو شعر عنترة الذي كان يتحدى به القضاء، ولعنة المقادير والسلطان.

وأخذت الوحشة تفارق نفس الشيخ يوسف شيئا فشيئا وبدأ صوته يتهدج بالحماس.

ورن في أذنيه صوت يقول:

ـ صباح الخير يا شيخ يوسف.

ولم يرفع الشيخ يوسف عينيه عن الكتاب، واستمر يقرأ.

وأشار بيده لصاحب الصوت أن ينتظر.

وسرت الحمرة في السمرة المعفرة من وجه الشيخ يوسف وبدأ كيانه كله ينبض بالدفء..

وعاد الصوت يقول:

ـ بأقول لك صباح الخير يا شيخ يوسف.

ورفع الشيخ يوسف عينيه وابتسم ثم أغلق الكتاب ووجهه يشرق.

وقام من مكانه مرحبا بصوت مطمئن فارقته الرنة الحزينة:

ـ صباح النور يا محمد أفندي.. يسعد صباحك يا سيدي أهلا وسهلا.

كان الشيخ يوسف في تلك اللحظة يشعر بالسكينة تغمر كل أرجاء نفسه.. وبأمل غامض يخفق منه في الأعماق.

وفاض قلبه بحب مفاجئ لمحمد أفندي، واهتز فيه إشفاق على دياب.

وتساءل الشيخ يوسف:

ـ لابس الطربوش والزكتة ورايح على فين؟..

فأجابه محمد أفندي أنه فكر أن يذهب إلى عاصمة الإقليم ليرى ما حدث لدياب ورجال القرية.. ولكنه عاد فرأى أنهم في المركز لن يسمحوا لأحد في القرية بأن يتكلم، وربما قبضوا على من يذهب ليطمئن على الآخرين.. ومن أجل هذا فهو يرى أن يزور محمود بك ويحدثه في أمر دياب ومحمد أبو سويلم وعبد الهادي وبقية الرجال..

وقاطعه الشيخ يوسف في نصح صادق:

بقى ياسي محمد مش كفاية اللي جرا من محمود بيه؟!

فقال له محمد أفندي بيأس:

ـ وحيلتنا إيه نعمله يعني؟ طب نعمل إيه؟ إيه الحيلة؟ وفيه سكة غير دي؟.. وعلى كل حال خلينا ورا الكداب لحد باب الدار..

فقال الشيخ يوسف مستنكرا وقد عاد إلى وجهه الجاف جموده المكتئب:

ـ دار إيه.. وهباب إيه؟! كلام إيه اللي بتقوله ده يا جدع.. ماخربوا الدار.. ماخدوهم من الدار للنار.

ولكن محمد أفندي مال على الشيخ يوسف ليقول له في همس: إنه أعطى محمود بك عشرة جنيهات عندما كان في القاهرة ليسعى في موضوع الري ولم يعمل محمود بك للقرية شيئا بهذه الجنيهات.

وهو الآن يحمل عشرة جنيهات أخرى يعطيها لمحمود ليطلق سراح أهل القرية وسيعطيه الآن خمسة جنيهات والباقي بعد الإفراج عن الرجال.

وابتسم محمد أفندي بذكاء وهو ينصرف، ولم يجب الشيخ يوسف.. وإنما سحب الكتاب بسرعة ووضع رأسه بين الصفحات، وعاد يقرأ قصة كفاح عنترة بصوت خفيض مرتعش كان يثبت ويرتفع، وتسري فيه الحرارة صفحة بعد صفحة.

***

انطلق محمد أفندي بالطربوش والجاكتة فوق جلبابه الأبيض النظيف، وهو يسحب جحشته الفارهة المطهمة.

ومر ببيت محمد أبو سويلم، فوجد الباب مغلقا.

لقد كانت وصيفة ليلة البارحة تبكي أحر بكاء.

ذهبت إليه في بيته تبحث عنه بعد أن أرسلوا أباها إلى المركز.. ثم ألقت رأسها على كتف أمه.. وغاض صوتها واختلج بدنها كله.. وهي تذرف الدموع.

وأمه أيضا ظلت تبكي من أجل دياب.

وهو نفسه!

إنه لم يذق النوم طول الليل.. وعندما عادت «وصيفة» إلى دارها ظلت تتراقص أمام عينيه أطياف عديدة لجلساته على المصطبة مع محمد أبو سويلم وعبد الهادي.. وأحس بالخواء الرهيب بعد غيابهما.. وأدرك أنه يحب عبد الهادي أكثر مما كان يظن، وكأنه لم يغضب منه أبدا.

ثم انتفضت في ذهنه قصة حياة دياب دفعة واحدة.. كأن دياب قد مات.. وألقى محمد أفندي وجهه على الوسادة وكتم البكاء.

كان يعرف أنهم في المركز لن يحكموا بالطبع على رجال القرية بالإعدام لمجرد أنهم قطعوا الجسر ورووا الأرض!

ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء.. وقد ظل يتشنج في أنين حزين، وهو يرى نفسه عاجزا عن استرداد أخيه من يد الرجال في المركز.. ومن يدري؟

ربما كانوا يعذبون الولد الصغير، والرجال الكبار...

ربما كانوا يضطرونه إلى أن يشرب من بول الخيل.

فهكذا كانت حكومة حزب الشعب تصنع بالفلاحين، منذ رفض الفلاحون أن يسيروا وراءها، والفلاحون يرفضون السير وراءها على الرغم من كل شيء.

وتابع محمد أفندي سيره في الطريق إلى الحقول مارا بأبواب الدورالمغلقة.. باب محمد أبو سويلم، باب مسعود، باب عبد الهادي وستهم.

كل الأبواب مغلقة في الصباح لأول مرة.. فالقرية لا تغلق أبواب دورها إلا في الليل.. ولكن الحال تغير، وأغلقت الأبواب يوم ذهب الرجال.

ومن وراء الأبواب المغلقة يعيش الرعب والقلق، وتضرم اللهفة والخوف من المصير، كل قلوب النساء والأطفال!

وظل محمد أفندي يمشي وهو يسحب جحشته حتى جاوز الدور، ووجد أمامه الحقول تمتد بأعواد الذرة الصغيرة الخضراء، وأعواد القطن.

ووثب على ظهر جحشته.. وانطلقت الجحشة تتعثر به في طريق مختنق متعرج بين الحقول والترعة.

ومن حوله حبات الندى تهتز وتلتمع فوق أطراف الزرع، والأشعة الحانية ترسلها في الفضاء العريض شمس اليوم الجديد.. وأخيرا بلغ ضيعة محمود بك.

وفي غرفة على الترعة بعيدة عن سراي محمود بك لبث محمد أفندي طويلا ينتظر، وقدمت له القهوة فشربها بعد تردد، وظل ينتظر، وهو يرتب في رأسه الكلام الذي يجب أن يقوله وشعر بنفسه يتهيب مقابلة «البيه».. وسالت أنفه عدة مرات وهو يمسحها في عناية بمنديل كبير، ويتنحنح ويراجع في عقله الكلمات التي يحسن أن يبدأ بها الحديث مع «البيه».. وتهيأ له أن أنفه تسيل من جديد فأعاد مسحها بإتقان في منديله وتحسسها بشفته العليا وأصابعه..

وطال انتظاره..

وأخيرا أقبل محمود بك عاري الرأس منفوش الشعر.. في جلباب واسع أبيض.. وكان يتثاءب، ويدعك عينيه وقال في غلظة:

ـ إيه؟! جاي لي من الفجر ليه؟

فأجاب محمد أفندي وهو يخطف نظرة إلى ساعة يده:

ـ دي الساعة بقت عشرة يا سعادة البيه.. وأنا هنا من ستة ونص..

وعاد محمود بك يسأله بغلظة عما يريد، فروي له قصة القبض على أخيه ورجال من القرية.. وكان محمود بك يسمع له بإهمال، وهو يتثاءب.. ويزفر دخان سيجارته الأمريكية..

واسترق محمد أفندي نظرة إلى باب الغرفة.. ثم سحب بسرعة من جيبه خمسة جنيهات وأعطاها لمحمود بك ولم يقل شيئا.. وقد نسى كل الكلام الذي كان قد أعده في مخه!

ونشط محمود بك ولم يقل شيئا.. ثم طلب من محمد أفندي أن ينتظر أياما.. ولكن محمد أفندي أعطاه ورقة أخرى بخمسة جنيهات وذكره بالمبلغ الذي أخذه منه من أجل ماء الري ولم تستفد القرية شيئا.. ثم قال إن الاعتماد على الله ثم عليه وحده لإخراج الرجال.. والقرية دائما مستعدة لطلباته..

وبينما كان محمد أفندي يرتب في ذهنه كلاما آخر ليشحذ همة محمود بك إلى العمل، وقف محمود بك.. وباغته بالنداء على أحد الفلاحين ليعد الفرس..

ثم التفت إلى محمد أفندي وقال بثقة:

ـ روح استناهم في البلد.. مبروك!

وقام محمد أفندي من فوره وهو يكاد يطير من الفرح.. وركض بالجحشة في الطريق المختنق بين الحقول والترعة.. ولم يبال بتعثراتها في حفر الطريق..

كان الضحى يملأ الدنيا.. والحرارة قد بدأت تلفح الحقول.

ولم يكد يقترب من دار محمد أبو سويلم حتى وجد الباب مفتوحا..

وخفق قلبه فجأة.. ونزل عن ظهر جحشته بسرعة.. وسعل وتنحنح.. وبرزت «وصيفة» في وسط الدار.

كانت بشرتها البيضاء محتقنة، وعيناها الواسعتان الصافيتان تلهبهما الحمرة، وفي جفنيها الذبول الذي يخلفه البكاء..

وحين رأت محمد أفندي قالت بصوت متهلل:

ـ اتفضل..

ثم تقدمت منه في أمل..

كانت ما تزال ريانة على الرغم من كل شيء..

وتقدم محمد أفندي داخل الدار..

إنه الآن وحده وجها لوجه مع وصيفة.. وهي على الرغم من كل ما حدث تبتسم له..

وكأنما كل ما حدث لأبيها وأخيه.. وحتى لعبد الهادي قد جعل قلبها يتفتح لاستقبال قلبه، وجعل بدنها الشهي في حاجة إلى بدن آخر شقيق يمنحه الدفء والسعادة، ويبسط عليه الحماية والأمن..

والتمعت عينا محمد أفندي وتوالت نبضاته، وتتابعت أنفاسه، وشعر بخدر لذيذ يتدفق في كل جسده..

وتقدم من وصيفة حتى بدأ يشعر بأنفاسها..

وسألها إن كانت وحدها في الدار، وأين ذهبت أمها؟..

وكان يهمس وفي صوته بحة، ومن عينيه ينبثق ومض غريب.

وتراجعت وصيفة إلى الوراء خطوة.. دون أن تدعه يفهم أنها أدركت ما يريد! وأجابته عن سؤاله الغامض اللاهث بصوت مرتفع مطمئن.. قائلة: إن أمها راقدة وسألته عما صنع لأبيها ولأخيه ولعبد الهادي وكل الذين رمتهم الحكومة في المركز.

وغامت نفس محمد أفندي قليلا.

وشعر بالخجل وبوخزات تلدغ رأسه وأنفه وأذنيه وقفاه.

وحك شعره وقفاه وذقنه، وقال ببرود: إنهم سيخرجون اليوم.. وشهقت وصيفة من الفرح.. وقفزت، ورفعت يديها وصفقت.

ورأى محمد أفندي وجهها يتألق والغمازات تتراقص فيه، وتأمل نهديها يختلجان وهي تثب وتتقدم منه، ووجهها كله يشع بالنور.. وسألته:

ـ صحيح؟ صحيح؟ والنبي؟!

وأطلق محمد أفندي ضحكات متكسرة وتقدم إلى وصيفة بلا كلمة وقد احمر وجهه ونظراته النهمة تستلقي على صدرها المليء.

وجرت وصيفة ناحية الباب.. وهي تفهم تماما ما يريده محمد أفندي وصاحت عليه ببساطة وهي تقف بالباب الخارجي للدار:

ـ إلحق الجحشة يا محمد أفندي، إلحق جحشتك جريت..

ونظر محمد أفندي وراءه في ضيق، فوجد الجحشة التي تركها واقفة في الطريق أمام الباب، تتحرك بلا حرج وتمضي في طريقها إلى الحقل..

وخرج محمد أفندي مسرعا مرتبكا.. وإذا جاوز عتبة باب محمد أبو سويلم قالت له وصيفة وهي تسير وراءه خطوة خطوة:

ـ خالك جه يا سي محمد، جه في عربية حنطور.. وحود علينا هنه! راجل عليه القيمة صحيح..

ثم ارتفع صوتها، وضغطت على الكلمات وهي تقول:

ـ راجل عليه القيمة ويعرف الأصول ويستر الحريم في غياب الرجالة.. أنا عمري ما شفته من صغري لكن لقيته راجل صحيح.. ماعونه طاهر..

وأدرك محمد أفندي أن وصيفة تعرض به، وشعر بكلماتها العالية كما لو كانت الضرب بالكرباج!

ولم يلتفت إليها ولم يقل شيئا.. وإنما مضى وراء الجحشة يتعثر في خجله.. وتابعته وصيفة قائلة:

ـ دا زعل قوي لما عرف أنك رحت للبيه محمود.. خالك برضه قال لنا إن أبويا طالع النهاردة.. طالع وغصبن عن البيه محمود وغصبن عن الحكومة اللي في المركز كمان!

وعادت وصيفة إلى دارها وفتحت الباب قليلا.. وتركته نصف مغلق..

أما محمد أفندي فقد أدرك الجحشة الهاربة وسحبها، وعاد بها إلى الدار.. ولم يحاول أن يلتفت إلى باب محمد أبو سويلم، فقد سيطر عليه ضيق مفاجئ اختلط بخجله وارتباكه.. وتقدم إلى باب داره وهو يحسب ألف حساب لزيارة خاله الشيخ حسونة..

والشيخ حسونة في القرية منذ الصباح.

وصل إليها عندما كان محمد أفندي يجلس وحده في عزبة محمود بك، يرتب الكلام، ويمسح أنفه في انتظار البيه!

ولم يقبل الشيخ حسونة من القاهرة مباشرة.. فقد تخلف ليلة في عاصمة الإقليم.

وصل في قطار العصر، فاتجه إلى الصيدلية الكبرى التي يتخذها الموظفون والأعيان ندوة لهم.

وعلى رصيف الصيدلية، جلس الشيخ حسونة مع بعض أصدقائه القدماء فوق كراسي الخيزران البالية.

كانوا كلهم في الغالب من قرى مجاورة.. وكانوا جميعا مشغولين بأمر الزراعية الجديدة التي تجنبت جسر النهر وهو الطريق الطبيعي لتخوض في الحقول وتحطم الملكيات الصغيرة.. وكان لكل واحد منهم أب أو أخ أو عم أو خال سيجد نفسه بلا أرض بعد أن ينفذ مشروع الزراعية.

وقال القاضي الشرعي وكان زميلا للشيخ حسونة في الأزهر ـ إن الباشا عضو حزب الشعب نجح في جعل الزراعية الجديدة تدور كالثعبان.. ليتفادى نزع ملكية سهم واحد من أرضه أو من أرض قريبه محمود بك أو من أرض أي مالك كبير على طول الطريق من القاهرة إلى عاصمة الإقليم، وهكذا تمر الزراعية بالضبط أمام حدود الأرض التي يملكها هؤلاء جميعا!

وتدخل في الحديث موظف شاب في المساحة من بلدة الباشا فهز رأسه توكيدا لهذا الكلام.. ثم همس بأن الزراعية ستكلف الدولة عشرة أضعاف تكاليف إصلاح جسر النهر.

ثم دارت عينا الموظف على الرصيف وإلى داخل الصيدلية كأنما هو يخشى انقضاضا مفاجئا.

وكان الشيخ حسونة قد أسلم حذاءه لماسح الأحذية، وماسح الأحذية يسمع الحديث صامتا.

وزعق ماسح الأحذية فجأة فدعا على حزب الشعب بالخراب المستعجل قبل أن يخرب الدنيا.

وابتسم الشيخ حسونة في رضا.. وضحك الآخرون.

وتوجه القاضي الشرعي بوجهه إلى ماسح الأحذية يسأله عما يضايقه هو الآخر من حزب الشعب.

فقال ماسح الأحذية على الفور:

ـ خلوا الدنيا كلها ضيق ربنا يضيقها عليهم دنيا وآخرة.

ومرت بائعة سمينة بيضاء تحمل فوق رأسها قفص التين البرشومي وهي تتراقص وتغمز بعينيها لموظف شاب في المحكمة، وتنادي على التين بكلمات مكشوفة.. وأحس بها الموظف الشاب، فتحرج قليلا ثم وضع رأسه في صحيفة.. ونهرها ماسح الأحذية.. بينما صاح موظف المحكمة فجأة وهو يلوح بالصحيفة:

ـ دول خلاص باعوا البلد للإنجليز.

فقال القاضي الشرعي بإهمال:

ـ دول شبعوا بيع..

ولكن أحد الجالسين قال بإصرار:

ـ لا.. لا.. دا بعدهم.. باعوا إيه! إذا كان يوميًّا على الله فيه مظاهرات.

وتدخل موظف آخر قائلا:

ـ هم يقدروا؟ كان غيرهم أشطر.. قول بس نوابهم يشطروا على جدع خايب ياخدو منه قرشين.. ولية غلبانة ياخدوا منها سبت بيض؟ لكن يبيعوا البلد؟ هيه شروة.. خلاص بقى!

وظل الشيخ حسونة يتحدث مع الجالسين أمام الصيدلية.. حتى أقبل المساء.. وفي الليل سهر في نادي الموظفين حيث التقى بالقاضي الشرعي وموظفين آخرين من القرى المجاورة يعملون في عاصمة الإقليم.

وفي إحدى حجرات النادي كان بعض الأطباء ورجال النيابة والبوليس والري والمحامين يلعبون الورق.. والكؤوس تدخل ملأى وتخرج فارغة..

وكان القاضي الشرعي ينظر بامتعاض إلى خدم النادي وهم يدخلون ويخرجون.. ويقول في صوت راسخ وجرأة يخالجها الحذر الواضح:

ـ هؤلاء يا سيدي هم كبراؤنا.. لعنة الله عليهم.. خمر وميسر ومن يدري إيه كمان.. والله لقد زنت نساؤهم يا شيخ.. زنت نساؤهم والله.. أنا علشان كده لا أحب النادي ولا أحب كبراء النادي!

واقترح القاضي الشرعي على الشيخ حسونة والآخرين أن يجلسوا بعيدا عن هذه الحجرة وبعيدا عن الصالة التي تعج بقرعات حجارة الطاولة.

وجلسوا في حجرة بعيدة متواضعة الأثاث ليست كباقي الحجرات.

واقترح عليهم موظف بالمديرية أن يكتبوا برقية إلى الصحف التي تعارض الحكومة وأن يشرحوا في البرقية موضوع الزراعية.

وأضاف الشيخ حسونة أن ترسل برقيات أخرى إلى النادي السعدي فوافق الجميع.

وتحدث القاضي الشرعي عن أهمية إرسال برقيات أخرى إلى كَتّاب المقالات في الصحف.. فلم يعترض أحد.

وكتب القاضي الشرعي البرقيات.. وجمع الشيخ حسونة مالاً من الموظفين الجالسين معه في الحجرة.. ثم وقعوا البرقيات بأسماء أقاربهم الفلاحين في القرى التي تتأثر من شق الزراعية.

وحاول أحد الموظفين في استبسال أن يوقع باسمه وهو يذكر الآخرين بموقف الموظفين سنة ١٩١٩، ولكن القاضي الشرعي قال له: إن الحرص من حسن الفطن، وحكومة حزب الشعب كالغول الهائج مع الموظفين، وهي تتمسك بتنفيذ القانون الذي يمنع الموظفين من الاشتغال بالسياسة فلا داعي لتعريض النفس لخطر الفصل أو التشريد في بلاد بعيدة.

وأضاف القاضي الشرعي إن هذا حرص توجبه مصلحة العيال!..

وسكت الموظف راضيا عن نفسه، وهو يتسول ـ بعينيه ـ نظرات الإكبار!

وقام هو بنفسه إلى المحطة لإرسال البرقيات.

وبقي الآخرون يتحدثون عن اضطهاد المصريين لحساب الإنجليز واضطهاد الفلاحين في القرى المجاورة لحساب الباشا.

وعرف الشيخ حسونة بلاء القرية ضد لائحة الري الجديدة.. وهزته أنباء اعتداء الفلاحين على جسر النهر والترعة.. وقال وهو يصغي بزهو:

ـ بلد شهامة طول عمرها.. الله!.. دي ميتهم يا اخوانا.. دا حقهم ياخدوه بأي طريقة ما دام الحكومة بتسرقه منهم وتعطيه للباشا.

ولم يفسد زهو الشيخ حسونة ما سمعه من أنباء القبض وهمس لنفسه: إن هذا لا يعني شيئا، فالزعماء أنفسهم قبض عليهم.. ونفوا في مالطة وسيشل.. وكثيرون يموتون الآن بالرصاص في شوارع القاهرة والإسكندرية وطنطا والمنصورة وبني سويف وأسيوط!

ثم رفع صوته قائلا: إنه سيرسل برقية للنائب العام يشكو فيها رجال المركز لأنهم قبضوا على الرجال من قريته.

فأجابه موظف بالنيابة قائلا: إنه لا فائدة من هذا فالنيابة الآن في يد الحكومة.. والحكومة تقبض على الناس بلا حساب، وبعد القبض تبحث النيابة في القانون عن مادة تطبقها.. وتدافع بها عن إجراءات القبض.

ولكن الشيخ حسونة لم يقتنع بهذا الكلام.

وعندما انصرف آخر النهار قابل أحد أصدقاء ملاحظ البوليس فرجاه أن يجد طريقا للإفراج عن رجال القرية، ورجاه بصفة خاصة أن يتوسط كيلا يأمر بتعذيبهم ـ كما هو الشائع ـ حتى يتم الإفراج عنهم!

وغادر الشيخ حسونة فندقه المتواضع في الصباح الباكر، واتجه إلى المحطة بجوار الفندق، وأرسل باسم أهالي القرية برقية إلى النائب العام ووزير الحقانية مطالبا بالتحقيق في أمر القبض على رجال من القرية، وأرسل صورة البرقية إلى الصحف المعارضة.

ثم ركب عربة حنطور من المحطة، ومضى بها على الجسر إلى قريته، ولقد ظل على طول طريق الجسر، ينظر إلى النهر وإلى الحقول ويعجب لهؤلاء الذين يتركون الجسر الجميل المستقيم، ويقيمون بدلا منه سكة زراعية جديدة ملتوية لتمر أمام قصر الباشا، وتضحي الدولة في هذا السبيل بكثير من المال، وبكثير جدا من الأرزاق، وكأن المقصود هو خراب الفلاحين!!

وهمس لنفسه: ماذا لو اختار الباشا مكانا على الجسر ليبني عليه قصرا ؟!

ولكن الحظ السيئ جعل أرضه كلها بعيدة عن الجسر!

مع ذلك.. فهذه الدولة لا تبالي بشيء.. فهي دولة حزب الشعب!!

لقد فكر سائق العربة نفسه في الأمر.. والتفت يسأل الشيخ حسونة: لماذا تشق الحكومة سكة زراعية جديدة والجسر موجود على طوله الشجر والظل، وبجواره النهر والنسمة الحلوة؟!

وحين أجابه الشيخ حسونة بأن الباشا بنى قصره بعيدا عن النهر، مص السائق شفتيه وطوح بالسوط في الهواء وهو يقول:

ـ عارف.. يا سيدي ما أنا عارف! يا سلام على الافترا يا ناس!!..

وبلغ الشيخ حسونة القرية بالحنطور، ظل راكبا حتى بلغ دار محمد أفندي ليقيم بها.. فدار الشيخ حسونة مهجورة منذ نقل.

وتحركت النساء من وراء الأبواب يتأملن في عجب وقلق، مقدم حنطور إلى القرية.

وسيطر الرعب من جديد على القلوب!

فربما كان طارق جديد من طوارق الحكومة يدهم القرية.. ولكن كل عين كانت ترتد من داخل الحنطور، آمنة، لأنها لم تر الملابس الصفراء والطربوش الأحمر، والبندقية.. وكل ما يمثل المباغتة والكارثة والقضاء.

وعندما بلغ الشيخ حسونة دار محمد أفندي كانت مؤخرة الحنطور قد ازدحمت بالأولاد.. الذين لم يفلح السائق في هشهم عنها، بكرباجه وشتائمه الخارجة!

وعاد السائق بعربته وهو يشكر للشيخ حسونة الأجر السخي.. ودخل الشيخ حسونة دار محمد أفندي فاستقبلته ابنة عمه: أم محمد أفندي وقد حيرتها المفاجأة.

وغطى هو يده في كمه ومدها إلى ابنة عمه وانقضت على يده تقبلها.. وتقبل كتفه.. وأخذت تمسح يدها في جلبابها ثم تربت كتف الشيخ حسونة ونفسها تجيش وعيناها تزخران بالدموع.

وسألها الشيخ حسونة عن ابنها محمد أفندي أين ذهب في هذه الساعة من الصباح؟

فقالت له: إنه أخذ جحشته وركب إلى محمود بك يرجوه أن يذهب إلى المركز للإفراج عن دياب والرجال.

وإذ ذاك ثار الشيخ حسونة.. وضرب كفا بكف وأخذ يلعن غباء محمد أفندي.. فما شأنه هو بمحمود بك.. وما شأن محمود بك هذا بالإفراج عن الرجال؟!

واسترسل يقول: إن محمود بك هذا لا يمكن أن يصنع للقرية شيئا، وهو يستفيد من ارتباطه بالحكومة لا بالقرية، وكل همه هو أن يسلب القرية وينهبها، ولن يتأخر عن بيعها بنسائها ورجالها وأولادها وبناتها ببضعة جنيهات!

ولم تفهم أم محمد أفندي شيئا وأسرعت تحضر حصيرة نظيفة فرشتها على المصطبة في مدخل الدار، وأخذت تروح وتجيء في الدار وتنادي على جارتها.. ثم أمسكت بالإوزة التي ظلت تلقنها حبات الذرة، وذبحتها احتفالاً بمقدم ابن عمها الغائب حضرة الناظر.

وعندما أوقدت النار لتسخن الماء جلست أمام الكانون وظلت تنظر في الدخان المتموج وتحلم بأن يعود ابنها دياب ليأكل هذه الإوزة مع خاله الشيخ حسونة.

وتذكرت خبز القمح.. لقد نفد منذ يومين، وليس لديها دقيق، وهي لا تملك في القاعة إلا خبز الذرة.. ولم يترك لها ولدها دياب، ليحمل القمح إلى الطاحونة!

واستدعت فتاة من جاراتها وهمست في أذنها بكلمات.. وذهبت الفتاة إلى وصيفة وسألت أم وصيفة إن كانت تملك ثلاثة أرغفة من القمح أوأربعة.

وعادت الفتاة من عند وصيفة فارغة، فأرسلتها أم محمد أفندي مرة أخرى إلى امرأة شيخ البلد، وعادت من هناك تحمل قطعة من قماش نظيف قد لفت على الغرض المطلوب، على ثلاثة أرغفة بيضاء طرية من القمح.

على أن الشيخ حسونة لم يقعد طويلا عند ابنة عمه.. وقد تركها ليزور الدور التي قبض على رجالها.

وذهب أول الأمر إلى دار محمد أبو سويلم، وقبلت وصيفة يده، وسالت دموعها على ظهر كفه.. واهتز الشيخ حسونة وقبل رأس وصيفة ودعاها ابنته، وأكد لها أنه هنا كأبيها تماما.. ونادى أمها وشجعها وطلب منها أن تهتم بوصيفة وعرض عليها مالا فشكرته أم وصيفة، وفاضت دموعها، ولم تأخذ منه شيئا.. وقامت لتعد له القهوة، ولكنه اعتذر.. وظل واقفا حتى انصرف من دار محمد أبو سويلم وهو يؤكد لابنته وزوجته أن رجل البيت عائد إلى القرية على الفور.. وحدثته وصيفة وهو على الباب عن مسعى محمد أفندي عند محمود بك، فأعلن استنكاره لهذا المسعى وسخط على محمد أفندي، وعاد يؤكد أن الرجال عائدون إلى القرية لأنهم لم يرتكبوا جريمة لا لأن محمود بك يسعى لهم.

ومال على بيت عبد الهادي فشجع أهله، وزار الشيخ حسونة بعد هذا بعض الدور في الناحية الشرقية فواسى أهلها وحمل إليهم الطمأنينة وطلب منهم أن يتشجعوا ويحتملوا.. وانصرف من فوره.. بعد أن قبل الأولاد والنساء يده ومن ورائه دعاء حار بالستر والهيبة وطول العمر.

ثم اتجه إلى دكان الشيخ يوسف.

كان الشيخ يوسف في هذه الساعة من أول الضحى يستمع إلى حديث الشيخ الشناوي الذي عاد من دوار العمدة.

وقطع حديثهما مقدم علواني فقال له الشيخ يوسف بحنان: إنه اشتاق إليه في الصباح الباكر وأوشك أن يرسل إليه ولدا غير أنه فكر في أن يتركه ينام ليستريح من السهر في حراسة البطيخ.

وانتشى علواني بهذا اللقاء الذي لم يعرفه من قبل.. وقال للشيخ يوسف في صخب ضاحك: إنه هو أيضا كان يفكر فيه.

وكان علواني يحمل كيسا كبيرا مليئا بكيزان الذرة.. وكان يشد وسطه بحزام.. والجلباب من فوق وسطه منتفخ بالكيزان.

أخذ علواني يخرج الكيزان من «عبه» ويضعها أمام الشيخ يوسف ثم مال على الكيس الملقى على الأرض.. وبعد أن أفرغ الكيس كله، نقل بصره من الكيزان العديدة إلى الشيخ يوسف وهو يطالبه أن يخصم ثمن هذا الذرة من الحساب المتراكم عليه، ثم طلب منه علبة سجائر جاهزة.

وبهت الشيخ يوسف وصاح في علواني:

ـ رايح تشرب سجاير مكنة.. والله عال.. الرجالة يغيبوا عن البلد من هنا وأنت تنسقط على الدرة من هنا.. قول لي الدرة دا جايبه منين؟

وضحك علواني في ثبات.. قائلا:

ـ أنا جريء..

وفتح الشيخ يوسف عينه في دهشة وتساءل.. فأكمل علواني:

ـ أنا شهم.. أيوه.. لكن وحياة النبي ما فيهم درة واحد من أصحابي ولا من اللي كلت معاهم عيش وملح، ولا فيهم كوز من دار واحد محتاج!

وتردد الشيخ يوسف في قبول كيزان الذرة من علواني ولكن علواني ظل يغمره بكميات جديدة يخرجها من جيوبه، ومن صدره المنتفخ بالكيزان.

وصرخ الشيخ الشناوي في علواني:

ـ إيه يا واد يا عرباوي ده.. يا نهارك أغبر.. حرام عليك يا واد.. دا يوديك جهنم.. حرام عليك تقبل دا يا شيخ يوسف.. حرام قطعا..

فقال علواني باستخفاف:

ـ جهنم؟ وأنا أخاف من جهنم ليه؟ هيه جهنم دي يعني حاتبقى أكتر من اللي أنا عايش فيه؟! وهو أنا يعني يا سيدنا كنت لقيت الحلال وسبته علشان الحرام.. الله يسترك يا سيدنا.. فضنا من الحلال والحرام فضنا! وعيشتي اللي ما يعلم بها حد، دي تبقى حلال ولا حرام، هه.. ما تفتي!

ولم يجب الشيخ الشناوي.. وظل يستعيذ بالله.

أما الشيخ يوسف فقد أخذ يعد الكيزان التي غمرت البنك أمامه، وتناثرت على الأرض، ثم أخرج الدفتر الكبير وقبل صفحاته، وأمسك بقلم من الكوبيا وقال لعلواني:

ـ يبقي مخصوم منك ريال.

فقال علواني محتجا:

ـ ريال؟!.. دا حرام يا عم الشيخ يوسف.. أهه ده اللي حرام صحيح.. ما تتكلم يا سيدنا.. بقى دا بيع وشرا؟! دول يطلعوا أقله بتسع برايز وأنا مسامح كمان.. دا شقا الليل كله! ويا عالم!

فحجز الشيخ يوسف عدة كيزان ثم أعطاه علبة صغيرة من السجائر عليها رسم غزال أسود.. وصاح مصطنعا الغضب:

ـ طب غور.. خد الذرة بتاعك وانجر من قدامى.

فاستدرك علواني قائلا برجاء:

ـ لا.. لا.. طيب وأنا أعمل به إيه.. طيب احسبهم بست برايز.. طب بنص جنيه.

وظل الشيخ يوسف يهز رأسه في رفض.. فصاح علواني:

ـ طب بأربع برايز.. هه.. والله ما أنت حاسبهم بأقل من كده يا شيخ..

فقال الشيخ يوسف بصرامة:

ـ تلات برايز ما فيش غيرهم.. عاجبك والا لأ؟

واستكان علواني قائلا:

ـ طيب! الغرض!.. حلال عليك يا عم.. اخصمهم بقى من الاستجرار.. نزل الخصم من الدفتر ده.

وتأنف الشيخ يوسف وأخذ يكتب في دفتره الطويل العريض بينما كان الشيخ الشناوي يزعق:

ـ يا راجل حرام عليك يا راجل.. يا راجل شرفك أحسن من الحاجات دى!

فقال الشيخ يوسف بإهمال دون أن يرفع رأسه:

ـ دهدي.. ما بلا وجع قلب يا سيدنا.. ما تتشطر كده على العمدة.. فلقتونا يا أخي.. وحياة النبي دا أنت تاكلها والعة..

وروع الشيخ الشناوي وقال منزعجا:

ـ يه دا أنت خرمت.. اللهم طولك يا روح.. أنت حاتخوض؟

وحاول علواني أن يتدخل في الحديث فنهره الشيخ يوسف وأمره بأن يرجع بعيدا عنه، ووجد الشيخ الشناوي في علواني فرصة للانفجار، فتبعه بالشتائم واللعنات والوعيد بالنار.

وحين انتهى الشيخ الشناوي من شتائمه وغاب علواني عن عينيه التفت إليه الشيخ يوسف في هدوء، وقد سيطرت على وجهه الكآبة والصرامة، ولفحت الصفرة الشاحبة سمرته.

وأخيرا قال الشيخ يوسف:

ـ كمل لنا يا سيدنا بقى حكاية الراجل المؤذي ده.. الله يقطعك يا علواني وينكد عليك توهت منا الكلام! كمل لنا يا سيدنا كمل.. بقى يا ناس دا عمدة ده ولا شيخ منصر؟

وعاد الشيخ الشناوي يكمل الحديث الذي بدأه قبل أن يجيء علواني..

لقد كان الشيخ الشناوي عند العمدة في الدوار يقرأ له راتب الصباح من القرآن.. واعترف العمدة أنه ضاق بإهانات محمد أبو سويلم له أمام أهل البلد.. فمحمد أبو سويلم لا يذكره إلا بكلمة النجس.. ولهذا أبلغ اسمه مع الذين قطعوا الجسر ليؤدبه أحسن أدب!

ولئن أفرجت الحكومة عنه وعن الرجال الآخرين، وعاد محمد أبو سويلم يتحداه مرة أخرى وعاد عبد الهادي إلى غروره أو فكر محمد أفندي في أن يرفع رأسه متأثرا بعبد الهادي ومحمد أبو سويلم.. فهناك موضوع خضرة ولا أحد يعرف سرها وسيبلغ العمدة عن اكتشاف موتها قتيلة.

والمعروف أن محمد أبو سويلم طردها من بيته وضربها قبل موتها بساعات.. والمعروف أن عبد الهادي ضربها مرة وخاف من تأثيرها على وصيفة التي يريد أن يتزوجها.. والمعروف أن خضرة كانت على علاقة مع دياب وربما كانت قد حملت، وخشي دياب من الفضيحة!

وعلى أي حال فموضوع خضرة ما زال موجودا، وسيظل موجودا لمدة خمسة عشر عاما يعرف العمدة طوالها كيف يؤدب الذين يحاولون إهانته أو تحديه!

ولم يكد الشيخ الشناوي ينتهي من رواية هذا الكلام حتى ثار الشيخ يوسف، وسأل الشيخ الشناوي عما قاله للعمدة ردا على كل هذه الترتيبات، ومحاولات الإيذاء!

فأجاب الشيخ الشناوي في طيبة بأنه لم يقل له شيئا.

وإذ ذاك قال الشيخ يوسف:

ـ ربنا ما فتحشي عليك بحديث والا آية؟ والا مثل حتى؟.. بس ماسك لي في الحرام والحلال على الهايفة؟!.. بقى تسمع من العمدة الكلام ده كله وتسكت!.. بقى عمايل العمدة وملاعيبه ده ترضي ربنا؟ أنت بس تعترض في الهايفة؟.. ولا العمدة ده من أولي الأمر منكم؟..

واحتقن وجه الشيخ الشناوي وزعق:

ـ دا كلام إيه اللي أنت بتقوله!.. أنت بتكلمني كده ليه م الصبح؟.. يا أخي دا الإمام علي كرم الله وجهه بيقول: «من علمني حرفا صرت له عبدا..»! أنا قريتك في الكتاب قبل ما تقرا في الأزهر، تقوم تيجي تعمل معاي كده؟ إخص..!

وقبل أن تحتدم المناقشة، كان الشيخ حسونة يقف أمام الدكان يلقي السلام بابتسامة هادئة.. وانبثقت الابتسامات على مقدم الشيخ حسونة.. وسلم عليه الشيخ الشناوي بترحاب، وقفز الشيخ يوسف إلى

خارج الدكان في ابتهاج ظاهر غمر كل ضيقه، وعانقه طويلا.. ثم أخذ يهز يد الشيخ حسونة، ويسحب يده هو ليضرب صدره برفق، ثم يعود فيمسك بها يد الشيخ حسونة ويهزها بحرارة.. هكذا عدة مرات.. على وقع كلمات واحدة لا تتغير:

ـ سلامات!.. طيبون! إزيك كده؟..

وأخيرا تقدم الشيخ يوسف إلى بيته بجوار الدكان، والتفت إلى الشيخ الشناوي طالبا منه أن يجعل باله إلى الدكان.

ودخل الشيخ يوسف إلى بيته، وهو يدفع أمامه الشيخ حسونة في اغتباط.

وجلسا في مندرة الشيخ يوسف ذات الأرض المفروشة بالحصير والكنب المتمزق الغطاء.

وتأمل الشيخ حسونة لوحة كتب عليه «اتق شر من أحسنت إليه».

وقال الشيخ يوسف: إن محمد أفندي مر عليه هذا الصباح وذهب إلى محمود بك يرجوه أن يسعى في الإفراج عن الرجال.

ومرة أخرى لم يكتم الشيخ حسونة سخطه على محمد أفندي.. وعجب كيف يمكن أن يظل بعض الناس غافلين عن هذا الصنف من الرجال وعن حقيقة محمود بك ونواياه.

وبدأ يتحدث عن أيامهم القديمة في ثورة ١٩١٩ عندما كانوا فتيانا مثل محمد أفندي أوأكبر منه بقليل.

وتألق الشيخ يوسف وصاح:

ـ والله يا شيخ دانا عمال أفكر في الحكاية دي من كام يوم! أنا عارف البلد جرى فيها إيه! لا كنا بنفكر في واسطة ولا في شفاعة.. يا راجل دا إحنا كنا أيامها بنهجم عالإنجليز بمدافعهم.. لا رجا ولا خوف من حد..!.. هيه دي بلد يا حضرة الناظر!

وقبل أن يعقب الشيخ حسونة، دخل محمد أفندي وعلى وجهه بشاشة يخالطها القلق والاضطراب والشحوب.

كان ما يزال يلبس الطربوش والجاكتة والحذاء..

وقبَّل يد الشيخ حسونة ثم قعد يتنحنح..

ونظر إليه خاله في صمت.. وكان استقباله له واضح البرود..

وبعد قليل قال الشيخ حسونة موجها الحديث إلى محمد أفندي: إن البلد لن تستفيد شيئا من محمود بك.. فعلى الذين في رءوسهم عقول أن يتعظوا مما حدث في لائحة ماء الري وفي مشروع سكة الزراعية!

ولم يقل محمد أفندي شيئا.. وهز رأسه في موافقة.

ولاحظ الشيخ يوسف ضعف محمد أفندي، فانتهز الفرصة ليتكلم وهو آمن من الرد اللاذع.. وقال بسخرية:

ـ ناقص تروح تترجى العمدة كمان!

وقال محمد أفندي بصوت خفيض في لهجة مستكينة وهو يلقي نظرة امتهان على الشيخ يوسف:

ـ لا.. عمدة إيه بقى.. هو أنا كنت مشيت وراه في الانتخابات.. وللادفعت له اشتراك لجريدة الحكومة!

وأدرك الشيخ يوسف أن محمد أفندي يعرض بمواقفه في أوائل عهد حكومة حزب الشعب.. وكظم غيظه، والتفت في خجل إلى الشيخ حسونة، ولم يلتفت إليه الشيخ حسونة، وإنما قال لمحمد أفندي:

ـ عجايب؟! يعني تخاف من الحبل ولا تخافشي من التعبان؟! والعمدة إيه! ومحمود بك إيه! والباشا إيه؟!

ثم ارتفع صوته كأنه يقفز على الكلمات واسترسل يقول:

ـ والحكومة إيه والإنجليز إيه؟! مش كلهم واحد؟! سلسال واحد! كله سلسال زفر!

وارتبك محمد أفندي، وبان على وجهه أنه كان يجب أن يفهم كل هذا..

ولكنه حسب لبعض الوقت أن في مقدرة محمود بك أن يؤدي خدمة للقرية، ما دامت هذه الخدمة ستعود عليه ببعض المال.

ولم يعرف محمد أفندي ماذا يقول..

كان يؤمن أن خاله الشيخ حسونة يفهم من أسرار الحياة والناس أضعاف ما يفهم هو.. لقد آمن بهذه الحقيقة دائما منذ كان طفلا! وكلما عركت الظروف خاله، ازداد إيمانا به.. إن محمد أفندي يدرك أن خاله قادر على مقاومة الحكام، والكيد لهم، والوقوف أمام ما يريدون، وهو يعرف أن رجالا كخاله ومحمد أبو سويلم يملكون من الخبرة في المقاومة أضعاف ما يملك هو، فقد صنعوا الثورة ذات يوم.

ومهما يكن من ضيقه أحيانا برجل كالشيخ يوسف.. فهو يحتفظ في نفسه بخيالات بعيدة من ذكريات من الطفولة.. حين كان خاله الشيخ حسونة، والشيخ يوسف، ومحمد أبو سويلم يصرخون مع الرجال في الطرقات تحت خفق الفؤوس: ««يحيا العدل»!

وأراد محمد أفندي أن يقول شيئا يستنقذ به نفسه من الصمت والحرج، فطرد السعال بنحنحة قوية، وهو يقول:

ـ ما هو البركة في حضرتك.. يا حضرة الناظر..

فقال الشيخ حسونة بثقة وأمل:

ـ والبركة فيكو انتو كمان يابني.. الله هيه أرضنا لوحدنا؟ هيه مش أرضكم كمان؟! طب قول لي بس.. مين قالق بال الحكومة والإنجليز في مصر؟ مش اللي قدك وأصغر منك.. مش همه الطلبة وعمال العنابر؟! أنت ما بتقراش جرايد؟ مش باين عليك بتقرا.

وقبل أن يرد محمد أفندي قال الشيخ يوسف باستهزاء:

ـ جرايد؟.. جرايد إيه يا عم الله يسترك.. هي دي بلد بتاعة جرايد؟.. دي بلد دي؟.. قال جرايد؟! دا كل حين ومين على ما تقع في أيدنا جريدة! هم دول ناس؟ بقى ده جيل؟ هو حد من الجيل ده بيقرا جرايد والا فاهم حاجة؟ والله يا شيخ مارجالة إلا رجالة زمان!

فاعترض الشيخ حسونة:

ـ لا.. لا ياشيخ يوسف.. هيه البلد بتاعتنا لوحدنا؟! ما هي بتاعة أصغر واحد فيها كمان! وهو إحنا واخدين الأرض معانا، ما إحنا سايبينها للجيل الجديد.. لأولادنا! وبعدين أهو ربنا سبحانه وتعالى بيرث الأرض ومن عليها.. لازم يفهموا كده يا أخي.. واحنا فهمنا كده واحنا شباب.. أنا كان فكري برضه إن ما فيش فايدة خلاص.. لكن والله لو تشوف اللي بيجري في مصر لتنشرح! داللي بيتعرضوا للرصاص في مصر كلهم صغار في السن وفاهمين تماما يا شيخ يوسف أكثر منا في سنة ١٩١٩.

ـ على الله!..

ونظر محمد أفندي بإكبار إلى خاله الشيخ حسونة.. ولم يحول عنه نظراته!

ومن خارج الغرفة، رنت دقة فنجان على صينية قهوة ثم تلاها تصفيق يد صغيرة..

ولاحت ابنة الشيخ يوسف العجفاء من فتحة باب الغرفة.. وانتظرت أن يقبل أبوها ليحمل الصينية..

ولمع في ذهن الشيخ يوسف خاطر سريع.. وأومض وجهه وهو ينقل نظراته بين فتحة الباب ومحمد أفندي وقال بسرعة وهدوء:

ـ ادخلي يابنتى! ماحدش غريب.. تعالي سلمي على عمك الشيخ حسونة.

ودخلت الفتاة العجفاء، بوجهها الأسمر الجاف العابس كوجه أبيها وخديها المفرغين، وقوامها النحيل القصير، ونهديها الصغيرين، وجلبابها الأحمر يكشف عن ساقين مهزولتين!

وضعت الصينية أمام أبيها، وتقدمت إلى الشيخ حسونة.. فوضع يده في كمه وسلم عليها قائلا:

ـ باسم الله ما شاء الله.. دي بقت عروسة أهي يا شيخ يوسف..

واحمر وجه الفتاة، وبلعت ريقها، واختلج خداها الغائران.. فابتسم الشيخ يوسف وقال لها:

ـ دهدي؟ طب سلمي على محمد أفندي..

وتعثرت الفتاة، وهي تخطو إلى محمد أفندي.. ووقف محمد أفندي في مكانه وسلم على الفتاة دون أن يتقدم إليها.

وخرجت مسرعة مضطربة..

ثم ابتسم الشيخ يوسف وهو يصب القهوة، وينظر خلسة إلى وجه محمد أفندي قائلا:

ـ هه..

وقدم فنجان القهوة إلى الشيخ حسونة وهو يقول:

ـ قهوة تمام من إيد بنتي.. حاكم هيه شاطرة في كله.. قهوة وطبيخ وخبيز، غير بقى الصلاة والصوم والعبادة.

فابتسم الشيخ حسونة قائلا:

ـ ما شاء الله.. ما شاء الله.. ربنا يبارك لك فيها.. طبعا يا سيدي ما هي من ماعون طاهر.. ما أنت لازم أحسنت تأديبها!.. أدبني ربي فأحسن تأديبي..

وقدم الشيخ يوسف فنجانا آخر إلى محمد أفندي وهو يبتسم.. ولم يختلج وجه محمد أفندي بأي انفعال..

وذاب الحديث شيئا فشيئا..

وهم يرتشفون القهوة بصوت مرتفع.

لم يخرج الرجال بعد من سجن المركز!.. وما زال الشيخ حسونة مقيما في القرية، وقد زار العمدة، وتحدث إليه في أمر الرجال الذين يبيتون في سجن المركز وهدده لئن لم يتصرف من فوره للإفراج عنهم فسيعرف شغله.

ومر يوم.. ويوم آخر، والرجال لا يعودون!

وزار العمدة منزل محمد أفندي، ليرد على الشيخ حسونة زيارته، فأكد للشيخ حسونة أن مهندس الري وحده هو المسئول عن القبض على الرجال: فقد قلب الدنيا في المركز على رأس المأمور عندما وجد الجسر مقطوعا، وطالب بفصل عمدة الناحية إن لم يرسل إلى المركز كل الرجال الذين قطعوا الجسر.

فقال الشيخ حسونة بصوت هادئ ساخر:

ـ وهوه محمد أبو سويلم كان قطع الجسر يا عمدة؟ هه يا حضرة العمدة!

وقبل أن يجيب العمدة، وهو يبحث عن كلام يقوله، اندفع محمد أفندي يزعق بحسرة:

ـ والواد دياب كان عامل جريمة يا حضرة العمدة؟ الواد عمل إيه بس؟! حد عارف بيعملوا له إيه دلوقت في السجن؟!

ونظر الشيخ حسونة مغيظا إلى محمد أفندي، فأدرك محمد أفندي أن خاله يؤنبه على انهياره هكذا أمام العمدة.

ونكس محمد أفندي رأسه، فقال له خاله الشيخ حسونة:

ـ قوم استعجل القهوة يا محمد.. قوم يا محمد أفندي!

وإذ خرج محمد أفندي ليستعجل القهوة قال الشيخ حسونة بصوت هادئ مفعم:

السجن لا هو عيب ولا هو فضيحة؟! سعد انحبس! سعد نفسه انسجن، سعد كان محبوس وعدلي قاعد في سرايته بيتسامر مع الإنجليز!

وارتجف العمدة وهو يتمتم:

ـ أي نعم.. أي نعم يا حضرة الناظر.

ثم سكت العمدة.. وسكت الشيخ حسونة.

وأخذ العمدة يتأمل اللافتات المعلقة في منزل محمد أفندي، على حوائط المندرة الصفراء.. كان يجلس على الكنبة وأمامه لوحة من الجبس مكتوب عليها «الكريم لا يضام» وإلى جانبه لوحة أخرى كتب عليها

بخط أحمر متشابك ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ونقل بصره إلى لوحة ثالثة وأخذ يحاول أن يقرأ خطها.. وقرأ لنفسه «عز من قنع.. وذل من....» ثم تمتم قراءة بقية اللافتة «طمع.. وذل من طمع»..

وفاجأه الشيخ حسونة بزفرة طويلة، وشرع يدق عصاه على البساط الأحمر ثم أخرج ساعة جيبه، وبعد أن نظر فيها، أخذ يتأمل من الشباك أشعة الأصيل وقد بدأت تلف القرية بلونها البرتقالي الشاحب الذي يحمل إلى النفس فجأة كل معاني الذبول.

وقال الشيخ حسونة بصوته الهادئ:

ـ لما نصلي العصر قبل ما يبقى مكروه.

وقام إلى ركن الغرفة فأمسك بحصيرة ملفوفة.. ودخل محمد أفندي، فحمل عنه الحصيرة وبسطها أمامه.. وبدأ الشيخ حسونة يصلي، وبعد أن فرغ من الصلاة قال له العمدة:

ـ أستأذن أنا بقى.. سامحني في القهوة.

فنظر الشيخ حسونة مغضبا إلى محمد أفندي وهو يقول:

ـ فين القهوة؟..

وخرج محمد أفندي متلكئا، وهو يتمتم:

ـ بقى يحبس لنا دياب ونسقيه قهوة كمان؟! ما عنه ما طفح!

إياك يشرب السم الهارى!

وبعد مناقشة بين محمد أفندي وأمه قال لها:

ـ خالي محكم رأيه على القهوة..

ـ يا حسرتي!.. بقى جاي يشرب قهوة عندنا بعين وجسارة؟! يحبس لي ابني وأعمل له قهوة كمان؟!

وأخيرا حمل محمد أفندي القهوة، وصبها، وقدمها للعمدة ولخاله وهما صامتان.

وأخذا يشربان القهوة.. والعمدة من حين إلى حين يقول للشيخ حسونة:

ـ كل عام وأنتم بخير ياحضرة الناظر! بعودة الأيام.. إن شاء الله كده تشرف بلدنا على طول..

وأخيرا نهض العمدة لينصرف.

وشيعه الشيخ حسونة إلى باب الدار، والعمدة يقسم عليه في كل خطوة أن يبقى مستريحا.

وعندما كان العمدة يسلم على الشيخ حسونة، على بعد خطوتين من باب الدار، قال له العمدة:

ـ إن شاء الله الرجالة يطلعوا بكره، ويباتوا في دورهم.. حاكم زي ما انت عارف المأمور حاجزهم علشان يقابلوا أبصرها مين من الوُزَرة جاي يزور الباشا بكره، والوزرة ماشيين بعد الغدا على طول..

والمأمور قال لي: كده كلام بيني وبينك ـ إن الوزرة رايحين يمشوا من هنا ومساجين البلد يرجعوا البلد من هنا.

وهز الشيخ حسونة رأسه وقال:

ـ على خيرة الله.. أيوه الوزرة جايين يزوروا الباشا بكره صحيح!

وعاد إلى الدار فزعق في محمد أفندي وأمه لأنهما أخرا القهوة وقال إن هذا لعب أولاد صغار.. والأصول.. أصول!

فالعداوة شيء، وتقديم القهوة شيء آخر!

ولم يجب محمد أفندي.. بينما قالت أمه:

ـ مش هم دول اللي في الأول حطوا السم لأبويا وفي الآخر رموا ابني دياب في السجن؟ قطيعة تقطع دي عيلة.

فأجابها الشيخ حسونة بصوت مكظوم:

بلاش كتر لبانة يا أم محمد!.. يعني نتشطر على فنجال القهوة دا إيه الخيبة دي وقلة القيمة دي؟!

وساد الصمت لبعض الوقت.

وقعد الشيخ حسونة على المصطبة في مدخل الدار، وقعد بجواره محمد أفندي، بينما انصرفت أمه إلى الداخل.

ثم تساءل محمد أفندي عن هؤلاء الوزراء الذين سيزورون الباشا في ضيعته بالقرب من عاصمة الإقليم كما قال العمدة.

فقال الشيخ حسونة بصوته الهادئ: إن الباشا يدعو بعض أصدقائه من وزراء حزب الشعب ليزوروه في قصره الجديد، وسيشعرون طبعا بمتاعب الطريق، فيعجلون بشق السكة الزراعية التي تصل بين القاهرة وعاصمة الإقليم مارة بالسراي على حدود أملاكه الشاسعة.

ولكن محمد أفندي لم يكن يريد من خاله هذه الإجابة.. فتساءل عن علاقة هذا كله بالإفراج عن دياب والرجال.

وابتسم الشيخ حسونة وهو يقول: إن عليهم أن يحمدوا ربهم لأن المأمور لم يقبض عليهم جميعا ليكونوا في استقبال وزراء حزب الشعب!

وعلى أي حال فالمأمور قد تلقى الأوامر من المدير، والمدير تلقاها من وزارة الداخلية بأن يعد لوزراء حزب الشعب أكبر استقبال شعبى! استقبال يوشك الزحام فيه أن يخنق الوزراء!

ولاريب أن المدير قد أمر بإعداد كل المسجونين في سجون المراكز وهم آلاف، وأعد ملابس عادية للذين يرتدون ملابس السجن منهم، ليحشدهم كلهم مع رجال البوليس السري، والعمد ومشايخ البلاد

والخفراء.. وكل الذي يستطيع مأمورو المراكز أن يجمعوهم من الطرقات.. كل هؤلاء سيؤلفون الاستقبالات الشعبية الرائعة!

ولم يكد الشيخ حسونة يصل في حديثه إلى هذا الحد حتى تنبه إلى أن محمد أفندي لا يكاد يدرك شيئا مما يقول فصرخ فيه:

ـ أنت مش عارف إيه اللي حصل في الانتخابات؟ أنت يا أخينا مش تفهم الحاجات دي كويس علشان تنور الفلاحين؟ واللا بس شاطر تجري مرة وراء العمدة ومرة وراء محمود بن انجه هانم ومرة ورا البنات الصايعين.

وفوجئ محمد أفندي بهجوم خاله.

كان يعرف رأي خاله في سلوكه.. فأدرك أنه بعد ما مال بالكلام على سيرته، فلن يخلص منه أبدا!

فقال من فوره ليبعد بخاله عن هذه المنطقة الشائكة:

ـ ماهم الفلاحين عارفين كويس يا خالي.. بس أنا يعني كان قصدي أسأل يعني هو العمدة حايطلع دياب صحيح؟

فصفق الشيخ حسونة متعجبا..

ثم نظر إليه، وشرع يؤكد له أن العمدة لن يتوسط في الإفراج عن دياب والآخرين، إلا إذا كانت له مصلحة، أو إذا شعر على الأقل بأن سلطانه على الفلاحين مهدد..

وأقسم الشيخ حسونة إن العمدة لن يقوم بمسعى للإفراج عن أحد، ما دامت القرية ترجوه وتستعطفه.

***

على أن القرية مع ذلك ظلت ترجو العمدة وتستعطفه.. فلم يكد يعود إلى الدوار من زيارته للشيخ حسونة حتى وجد نساء يقفن على سور الدوار، وأخريات يجلسن على الأرض.. ولم تكد طلعته تهل عليهن، حتى أحطن به: يسألن في ضراعة وبكاء متى يعود الأب أو الزوج أو الولد؟!

ولم يجب العمدة وتابع سيره، وعبد العاطي الخفير يتبعه.. وهو دائما يحاول أن يبعد النساء عنه.

كان العمدة في الأيام الأخيرة قد تعود أن يسمع نساء يصرخن باكيات ضارعات أمام الدوار، وتعود أن يأمر الخفراء بإغلاق باب الدوار الخارجي.. ليمنعوا النساء من التسرب إلى فنائه.. ومنذ عاد الشيخ حسونة إلى القرية تحاشى العمدة أن يجلس على البسطة ذات البلاط الكبير في فناء الدوار، ولم يخرج أبدا في طرقات القرية إلا ليزور الشيخ حسونة ردا على زيارته!

وقابلته امرأة في الطريق وهو ذاهب إلى الشيخ حسونة، وسألته عن ابنها، فنهرها الخفير.. واعترضت طريق عودته فتاة أخرى تسأل عن أخيها فأسرع في سيره وترك الخفير يدفعها.. وتعلقت به عجوز فنحاها بعصاه.. وانقضت امرأة صغيرة حسناء وأمسكت بكم جبته وهزته وهي تبكي سائلة عن زوجها، ودفعها بقوة وانفجر يقول لها كلاما نابيا معرضا بولها على الزوج الغائب.. وحين تنحت عن طريقه مضطربة

الخطوات يتعثر حياؤها في دموعها.. أتبعها الخفير بكلمات مفضوحة وصورة زوجته تطلع فجأة أمام عينه، وظل الخفير عبد العاطي يزعق في وجه الزوجة الشابة الجميلة:

ـ جاتكو الغم؟ الغرابة إن أبوكي ممسوك راخر! اشمعنى مسك جوزك يعني هو اللي حارقك قوي وواجعك قوي؟! حاكم صنف النسا دا صنف دون.. الواحدة همها بس..

وضاق العمدة فالتفت إليه ونهره حتى لا يسير فيقول ما لا يصح أن يقول الخفراء أمام عمدهم.

على أن العمدة حين بلغ الدوار عائدا من زيارة الشيخ حسونة، لم يستطع أن يدخل من الباب..

كان أمامه حائط متموج قاتم من النساء يلبسن الجلاليب السوداء ويقفن أمام باب الدوار ويلوحن بأيديهن باكيات.

ولمح العمدة من بينهن فتاة بيضاء فارعة لا تلبس الجلباب الأسود كالأخريات.. وكانت تصرخ بحدة، وتقتحم الزحام حتى وقفت أمام العمدة تمامًا..

وحاول الخفير أن يبعدها، ويداه ترتفعان فوق رأسها وترتجفان من التردد.. فصرخت فيه الفتاة:

ـ إوعى تمد إيدك يا واد يا عبد العاطي.. كن إيدك جاك قطع إيدك.. ابعد دراعك كده إن شا الله تنصاب!

وسألها العمدة من تكون هي، وقبل أن تجيب قال عبد العاطي:

ـ دي بنت شيخ الغفر!

فصاح العمدة محنقا:

ـ شيخ إيه؟ هو لسه شيخ غفر؟ الله الله! بقى أنت غفير أنت؟ وغفيري الخصوصي كمان؟ طب يابن شلبية! حاكم انت ربايته.. ربابة محمد أبو سويلم!

فقال عبد العاطي مضطربا:

ـ شيخ الخفر اللي هو سابقا يعني يا حضرة العمدة.

وتقدمت وصيفة وفتحت صدرها متحدية ولوحت بيدها:

ـ أنا وصيفة بنت محمد أبو سويلم!.. إيه مش عاجبك يعني؟.. إيه بقي؟ مش قد المقام؟ فين أبوي؟ قول لي فين أبوي؟

وهز العمدة رأسه والأشعة الحمراء تنسكب من آخر لحظات النهار فوق دور القرية الداكنة وعلى وجه وصيفة الرائق.

وقال العمدة بهدوء مصطنع:

ـ طب مش عيب تشوحي في وشي وتزعقي لي كده.. وأنا أكبر من أبوكي؟!

فصرخت وصيفة بانفعال واضح، ويدها توشك أن تقتحم عينيه:

ـ عيب؟ أنت بتقول عيب؟ هو أنت خليت عيب.. ومش عيب عليك تحط أبوي في السجن؟

وقال العمدة في هدوء وخبث وهو ينظر في بدن وصيفة، وينقل نظراته بين وجوه النساء:

ـ طالعة لأمك تمام! حلوة قوي زي أمك.. ولمضة ونغشة برضه زي أمك.

وأدركت النساء ما يريد العمدة أن يقول.. وعرفن أنه يريد أن يشوه أم وصيفة ليذل البنت أمامه، ويكسر عينها، وعين أبيها..

وقالت امرأة باستنكار:

ـ وما لك أنت ومال أمها بقى؟ إش عرفك إن كانت نغشة؟ إيه ده بأه! وإنت كنت شفتها فين واللا عرفتها فين؟

وانطلقت امرأة تقول:

ـ والنبي لو شيخ الغفر هنا وسمعك بتقول كده ليطلق في بطنك عيارين على طول.. بقى كمان تتكلم على مراة محمد أبو سويلم.. بقى كمان.. هيه حصلت؟! يا عيني عليّ!

وقال امرأة ثالثة:

ـ يا اختي الراجل شاب ولسه عايب.. جاته ستين نيلة شايب وعايب.

وعندما كانت النساء يتحدثن باستنكار في وقت واحد، أمسكت وصيفة بجبة العمدة وهزته بعنف وهي تقول متشنجة في صراخ مفزع:

ـ بتقول إيه على أمي؟! ما لك ومال أمي؟! هات لي أبوي.. فين أبوى؟

وترنح العمدة ببدنه الهزيل داخل الجبة على هزات وصيفة العصبية.

وأوشك الخفير أن يفقد رأسه، حين رأى النساء يفاجئن العمدة بالشتائم، وهو يرتجف داخل جبته بين يدي وصيفة.

وارتفع أنين العمدة كالحشرجة بعد أن غاص صوته من المفاجأة:

ـ اضرب يا وله.. ساكت ليه يا غفير؟.. يا واد اضرب.. اضربوا يا غفر! سايبين نسوان البلد على عمدتكم.. سايبين النسوان يبهدلوا عمدتكم.. حايموتوني النسوان! يا نهار أسود بقى أروح قتيل النسوان!!

وتثاقل الخفراء في نجدته.

كانوا هم أيضا يفكرون.. فكرهم مع الرجال الذين يبيتون منذ عدة أيام في سجن المركز.

وكانوا يفكرون هم أيضا في الحقول التي حجزت عنها الحكومة ماء الري، وفي الأرض التي يمكن أن تأخذها الحكومة لتشق السكة الزراعية.. وكانوا يفكرون بصفة خاصة فيما افتراه العمدة على زوجة محمد أبو سويلم!! من الممكن أن يفتري على زوجاتهم أيضا.. ربما كان يقول على زوجاتهم كلاما أفظع!

وكانوا كلهم يعرفون أن العمدة هو الذي أملى أسماء الرجال للمأمور، وذهب بنفسه إلى المركز، ليقنع المأمور بالقبض عليهم على خلاف ما قاله لأهل القرية.

وكانوا يعرفون أن العمدة هو الذي أخذ العريضة من محمود بك وأوهم الناس أنها للري، ثم وضع الأختام بها مزورا على القرية أنها تلتمس شق طريق زراعي.

صنع كل هذا وباع البلد.. إرضاء لمحمود بك.. وللباشا!

وكان لهم في النهاية إخوة وأقارب وأبناء وأصهار بين الرجال الذين يبيتون في المركز.

وكانت لهم عواطف ومودات تعاني مأساة هؤلاء الذين يتلقون السياط على الظهور!

ولهم في حوض الترعة أرض ستنزعها منهم الحكومة لشق الطريق الزراعي!

وكانوا كلهم يتحدثون إلى بعضهم عن هذا العمدة الذي يصنع الكوارث للقرية، والذي يبيع أهلها وأرضها للحكومة، والذي يحاول أن يخضع رقاب الناس فيها عن طريقهم.. هم الخفراء!

لكم تمنى كل واحد منهم أن يرفع عصاه ذات يوم في وجه العمدة، ويحطم بها رأسه الخبيث الأشيب.. كما يحطم رأس الثعبان الأزرق!

ومع ذلك فقد ساروا إليه آخر الأمر لينقذوه من زحام النساء ومن يد وصيفة.

وهمس أحدهم متكاسلا ويقلد صوت العمدة:

ـ روحوا كلكم مرفودين.. رو.. حوا.. ك.. ولكو.. مرفو.. دين!

وكتم الآخرون ضحكاتهم..

وعلى حرارة ضحكاتهم المتكسرة الساخرة كانت تنفجر كل كراهيتهم للعمدة، وللذين يحكم العمدة باسمهم، وينفذ إرادتهم على مصائر الفلاحين.

وصرخ العمدة فيهم.. بصوت كالفحيح اللاهث:

ـ إنتو ماشيين على قشر بيض! قرب إنت وهوه.. اضرب يا واد اضرب.. طيب.. روحوا.. كلكم مرفودين.

وانفجرت ضحكات بعض الخفراء، بينما رفع عبد العاطي العصا وهوى بها على النساء.

وصرخت النساء واضطربن، وأمسكت وصيفة رقبة العمدة بيدها، فخبطها عبد العاطي بالعصا على ذراعها، وظل يضربها حتى تركت رقبة العمدة، واستدارت لعبد العاطي فأمسكت بجلبابه من عند طوقه.. ولكن عبد العاطي ركلها وضربها بالعصا على رأسها وكتفها.. وصرخت وصيفة وتركته، وهي تبكي من الألم.

وتذكرت أباها وهوانها بعده.

فاختلج كل بدنها بالعويل، وشرعت تنوح قائلة في نحيب متهدج إن أحدا لم يضربها من يوم ما كبرت.. ولا أبوها نفسه!

ولكنها اليوم تتلقى الركلات ولذع العصا من ذراع الولد الذي عينه أبوها بين الخفراء!

ومالت على الأرض.. والليل ينشر على أشعة الأصيل الحمراء ظلاله الداكنة الزرقة، فالتقطت حجرا شجت به رأس عبد العاطى.

وإذ رأى الخفراء دم عبد العاطي، رفعوا عصيهم وهشوا بها على النساء، وهم يتصايحون.. فابتعدت النساء.

وما زال العمدة يرتعش ويأمر الخفراء بأن يضربوا بآخر ما عنده من صوت!

وبدأت النساء يجمعن قطع الطوب من على الأرض ويقذفن بها الخفراء.

ورأى العمدة قطع الطوب تتناثر فأخفى رأسه في ظهر عبدالعاطي..

وكانت البهائم تعود من الحقول على ضباب المساء.. ومن وراء البهائم فتيات ونساء في ثيابهن المتربة السوداء: يلتقطن ما تلقي به البهائم ليصنعن منه أقراصا تصبح بعد جفافها وقودا يباع بكيزان الذرة.

كن إذ ذاك محملات الأيدي بالروث وفوق رءوسهن مقاطف مليئة، وهن يجرين من أمام الخفراء الذين أخذوا يضربون النساء بلا حساب.

وبدأت الفتيات يلقين بما في أيديهن في وجوه الخفراء.

والتقطت وصيفة مقطفا مفعما بالروث، وألقته بكل حنقها على رأس العمدة.

وذهل العمدة.. وتلطخ قفاه ووجهه كله وعمامته البيضاء وجبته.. وأخذته الرجفة وهو يمسح الروث عن عينيه، وظل يزعق:

ـ يا نهاركو أغبر ومنيل بنيلة.. آه يا غجر!! بقى يجرالي كده وإنتو واقفين.. ليلتكو زي وشكو.. روحوا.. روحو كلكم مرفودين.. دنا حاخلي ليلتكوا زي وشكو..

وجرى الخفراء كلهم إلى العمدة.. وإذ رأوا الروث يغمر وجهه قال أحدهم ضاحكا:

ـ دا ليلتنا.. أمال بقى حتبقى زي وشك يا حضرة العمدة.. كلها مسك!.

وانفجر الخفراء كلهم ضاحكين..

ووقفوا حول العمدة يمسحون ماتكوَّم على وجهه وعمامته وما تناثر على الجبة والقفطان.

بينما بدأ النساء ينصرفن مسرعات وقد شاعت فيهن الراحة.. وعلى الوجوه ضحكات من القلب.

وتركن العمدة يهذي من الغيظ..

ولم يعد أمام الدوار امرأة واحدة..

ومضت وصيفة متثاقلة، وهي تتحسس رأسها وكتفيها، وتخفي ألمها في نشوة الانتصار.

ورأت أن تتجه إلى دكان الشيخ يوسف..

وكان الشيخ يوسف إذ ذاك يقف داخل الدكان يضحك ملء فمه، وإلى جواره محمد أفندي بينما وقف علواني أمامه خارج الدكان.

كانوا كلهم يضحكون في نشوة ساذجة والشيخ يوسف يخبط كفا على كف قائلا:

ـ تسلم إيدك يا وصيفة!! صحيح بنت محمد أبو سويلم!! دي الحكاية ملت البلد كلها يا اخواتي.. لبس المقطف باللي فيه!! والله براوَه!

يا سلام يا جدعان.. دي عمرها ماجرت في البلد! حاجة حلوة صحيح.. لكن يعني ما يعملوهاش إلا النسوان.. ما كانتشي تيجي من راجل؟ !آه يا بلد!

وقطب جبينه لحظة، والابتسامة تفيض من فوق وجهه ثم أكمل:

ـ من النسوان؟! يعني البلد دي نسوانها طلعوا أجدع من رجالتها؟

واعترض علواني قائلا:

ـ واحنا يعني في إيدينا إيه وما عملناهش.

فأنبه الشيخ يوسف بقوله:

ـ بس يا واد يا عرباوى! في إيديكو إيه؟! طب اسمع..

ومال الشيخ يوسف على أذن علواني، وأخذ يهمس في أذنه أن يسطو على مخازن العمدة، ليسرق منها الذرة أو القمح بدلا من أن يتشطر ويسرق من مخازن الرجال الغائبين..

واضطرب علواني قليلا، والشيخ يوسف يغريه.

وأقسم له أنه سيحسب له كوز الذرة من مخازن العمدة بكوزين وكيلة القمح بكيلتين!

والتفت الشيخ يوسف وراءه ليتأكد أن محمد أفندي لم يسمعه.

ثم مد رقبته وأدارها خارج الدكان ليطمئن إلى أن أحدا على الإطلاق لم يسمع شيئا.

وعاد الشيخ يوسف يهمس لعلواني أنه سيكفيه أذى الخفراء.. خفراء السهر عند الدوار كلهم من رجال محمد أبو سويلم ولهم أقارب أعزاء يبيتون في سجن المركز.. وهم يتمنون أن يقفز على دوار العمدة من يخطف روحه لا غلاله فقط!

واقتنع علواني وهز رأسه..

ودار الشيخ يوسف إلى داخل الدكان، وسحب علبة كبيرة من السجاير ذات الغزال الأسود وقدمها إلى علواني قائلا:

ـ خد علبة سجاير كبيرة أهه.. اشرب يا سيدي سجاير ماكنة واتمتع ونزِّه نفسك! إن شا الله ماحد حوش.

وأشرق وجه علواني وضحك..

وناوله الشيخ يوسف كمية من الشاي وقطعة كبيرة من السكر.. فقال علواني:

ـ ناولني كمان حتة سكر ناول.

فرمى إليه الشيخ يوسف قطعة أخرى صغيرة وهو يتأفف:

ـ طب انجر بقى.. حاكم أنت عرباوي خطاف.. باأقول لك أنت شيخ غجر مش شيخ عرب.. وما يملا عينك غير التراب!

وضحك علواني وقال بجرأة:

ـ دهدي يا عم الشيخ يوسف؟ ما هو كله بالحساب! والا إيه؟

ثم تحرك لينصرف.. غير أن وصيفة كانت قد وصلت إلى الدكان، مع آخر امرأة تعود من معركة الدوار.

وعندما رآها الشيخ يوسف استقبلها مرحبا:

ـ عفارم عليكي يا وصيفة.. براوة عليكي يابنتى!

ولكنه فوجئ بنشيجها.. فلم تكد تراه حتى تقلص وجهها، وانفجرت في بكاء شديد كالعويل!

وشعر محمد أفندي بضيق يخنقه، ويطرد السكينة التي غمرت قلبه لبعض الوقت.. وفتح علواني فمه وعينيه ووضع أشياءه على بنك الدكان.

وتقدمت وصيفة، وأسندت يديها على البنك.. وألقت رأسها بين يديها وظلت تبكي وبدنها كله يهتز.

كانت لا تزال تعاني من أن رجلا ضربها لأول مرة في حياتها، وهذا الرجل هو أحد الخفراء الذين كانوا يحسبون لأبيها كل حساب، حين كان شيخا للخفراء وحتى بعد أن فصل!

وعلى الرغم من أنها قذفت العمدة بمقطف مليء بروث البهائم، فهي تشعر أن أحدًا لم يكن يجرؤ أبدا على ضربها، لو أن أباها هنا في القرية!

وهي بعد لاتفهم لماذا يقيم أبوها في سجن المركز!

إن كل ما تعرفه هو أن العمدة وحده أراد هذا.

وهكذا استمرت تنشج.. وتقطع دموعها لتساقط الكلمات.. ثم تحبس كلماتها لتسقط الدموع.. ولم يفهم منها أحد كلاما إلا كلماتها:

ـ صعبان عليّ قوي يابا الشيخ يوسف!

وأمسك الشيخ يوسف برأس وصيفة بحنان وأبوة.. ورفع ـ بين يديه ـ جبهتها بعينيها الزاخرتين بالدموع وما زالت على خدها تسيل القطرات.

وإذ نظرت إلى عيني الشيخ يوسف ورأت ما يملؤهما من حنان وإشفاق وحزن، عادت تضع رأسها بين يديها وتبكي وتشهق وتملأ المكان بنحيبها الفاجع الأنين.

واغرورقت عينا الشيخ يوسف هو نفسه بالدموع.. واخضلت لحيته.

ووقف محمد أفندي حائرا.. وقد غاض لونه.. وتذكر أخاه دياب واحتدمت في نفسه المشاعر المضطربة.. وحاول أن يتقدم إلى وصيفة ليقول لها شيئا ولكنه وقف في مكانه حائل اللون بلا حركة، ومرة أخرى رفع الشيخ يوسف رأس وصيفة بين يديه، وقال:

ـ بكره أبوكي يطلع يابنتي.. وأنا هنا أبوكي تمام.. أنا مش عاوز يصعب عليكي من حاجة أبدا.

فصاحت وصيفة وقد دفعت في عينيها الدموع:

ـ يضربوني يابا الشيخ يوسف؟! يضربني الواد ابن شلبية.. يضربني الواد عبد العاطي.. يعني عشان ما أبويا مش هنا.

وصاح الشيخ يوسف مستبشعا:

ـ الواد عبد العاطي؟! دا أبوكي خيره عليه وعلى أمه وعلى كل سلساله!! دا أبوكي اللي نزله غفير.. يا نهار أغبر يا عبد العاطى! يعني عشان ما أنت داير ورا العمدة؟! يا سنتك سوده يا عبد العاطي!

ومشى إلى داخل الدكان، فأخذ عصاه من على كتاب مفتوح على سيرة «أبوزيد الهلالي».

ثم انفلت إلى خارج الدكان.

وقال علواني:

ـ على فين يابا الشيخ يوسف؟ استنى أنت وأنا أجيب لك خبره..

ووقف محمد أفندي يقول بمرارة:

ـ بقى ماتجيش إلا من عبد العاطي!!

وطلب الشيخ يوسف من علواني أن ينصرف هو لحاله، وأقسم ألا يضرب عبد العاطي أحد إلا هو بنفسه.. بيده.

وتلكأ علواني وهو ينصرف، ولم يكد يمشي خطوة حتى التفت إلى الشيخ يوسف قائلا: إن عبد العاطي مقبل ويده على رأسه!

وتقدم عبد العاطي يسأل الشيخ يوسف أن يمنحه قليلا من البن ليسد بها جراح رأسه، وأن يبيعه روح النعناع لأن العمدة مغمى عليه في الدوار.

ووضع الشيخ يوسف عصاه على بنك الدكان.. ونظر طويلا إلى عبد العاطي وطلب منه أن يتقدم إليه.

وقالت وصيفة:

ـ أهو جه اللي ينشكّ في قلبه عبد العاطي..

وطلب الشيخ يوسف من عبد العاطي أن يتقدم أكثر فأكثر وعندما وقف تماما أمام الشيخ يوسف، هوى الشيخ يوسف بكفه على صدغ عبد العاطي.. ورنت الضربة في الفضاء.. وضع عبد العاطي يده على صدغه فوق مكان الضربة.. فهوى كف الشيخ يوسف على الصدغ الثاني، وهو يصيح فيه:

ـ بقى تضرب بنت أبوك محمد أبو سويلم؟! تعرف تضرب وصيفة يا قليل الخير!!

وذعر عبد العاطي، وارتبك.. وحاول أن يقول شيئا ولكن الشيخ يوسف زجر فيه:

ـ اخرس يا ولد.. اخرس!! أنت حا ترد عليّ ؟! عايز تبوَّأ فيّ والا إيه؟ ناوي تجحش في وشي؟ اخرس!

وخرس عبد العاطي.

ووقفت وصيفة تتأمله بارتياح، وبدأ الرضا يشيع في نفسها..

وبعد قليل سعل محمد أفندي، ورجا الشيخ يوسف أن يبيع عبد العاطي روح النعناع لينقذ حياة العمدة، فهذه مسألة إنسانية..

فالتفت إليه الشيخ يوسف محنقا:

ـ اسكت أنت يا محمد أفندي بلاش فلسفة كدابة.. بلا كتر إنسانية!! هوه العمدة عنده إنسانية! هوه فيه في قلبه رحمة! إلهي تنخطف روحه!

وكأنما وقع عبد العاطي ـ من كلام الشيخ يوسف ـ على حقيقة جديدة تمنحه الراحة.. وكأنه وجد آخر الأمر طريقا يمضي فيه مستريح النفس بعد طول ضلال.. فلم يكد يسمع كلام الشيخ يوسف عن العمدة حتى قال بارتياح:

ـ آي كده!! إلهي يا شيخ!! إلهي تنخطف روحه.. ده راجل سو طول عمره.. دا والله يا أبا الشيخ يوسف بعدما حشت عنه وانجرحت علشانه وهتيت على بنت أبويا محمد أبو سويلم.. بعد كل ده يقوم يدور فينا الضرب.. ويطيح فينا بالمركوب أنا وبقية الغُفرا!! وآدي يا سيدي آخر شقانا مع الأندال وتعبنا!!

وفجأة رنت ضحكات وصيفة في صفاء مشرق.. كأنها لم تبك أبدا.

وتألق وجهها كله، وفتحت صدرها.. وانثنت إلى الوراء.. وسطعت في نحرها الوضاءة.

واستغرقت في الضحك وهي تقول:

ـ إلا يا عم الشيخ يوسف! لو كنت شفته ساعة مالبسته ـ اسم الله على مقامك ـ مقطف المسكة!!

واختلطت الضحكات، وأسرف محمد أفندي وعلواني في الضحك.. وحاول كل واحد منهما أن يقول تعليقا تضحك منه وصيفة.

إلا أن الشيخ يوسف التفت إلى علواني وأمره أن يمضي من فوره إلى الحقل الذي يحرسه على الجسر..

ثم ناول عبد العاطي قليلا من البن، ونصحه أن يغسل الجرح ويضع عليه البن، ويربط رأسه بقطعة من القماش.

وانصرف عبد العاطي..

فتحرك الشيخ يوسف طالبا من محمد أفندي أن يحرس الدكان، وسيمضي هو بنفسه مع وصيفة إلى دارها.. وحين كان ينصرف أوصي علواني بأن يهتم بالسر الذي بينهما!!

وعرض علواني على الشيخ يوسف أن يستريح ويقعد في دكانه كما هو، وسيرافق علواني وصيفة إلى دارها، ولكن الشيخ يوسف زجره، وانصرف بوصيفة، فابتلع محمد أفندي كلمات كان يحاول أن يقولها.

وعلى باب دار محمد أبو سويلم طلب الشيخ يوسف من وصيفة أن تطمئن وأن تهدئ بال أمها فسيعود أبوها في الغد.

وعاد إلى دكانه على الفور.. فوجد بعض الفتيان يقفون على مقربة من دكانه في الطريق، يحكون كيف شرب العمدة «طاسة الطربة» بعد أن أفزعه هجوم النساء! فهم كانوا بعض الذين تعطلوا في القاهرة أو المدن القريبة، وعادوا منها ليعيشوا في القرية بلا عمل ولا أمل، ولا شيء غير الذكريات.

وكان الشيخ يوسف قد لاحظ وهو يمر مع وصيفة أنهم يسعلون معرضين به وبمشيته في الليل مع وصيفة.. على عادة أولاد البندر حين يجدون رجلا مع فتاة! ثم سمعهم يتغامزون عليه وهو عائد.. وكان يعرف جيدا منذ كان في القاهرة يدرس في الأزهر، ماذا يعني هذا النوع من التغامز والسعال المصطنع.. وما يمكن أن يعقبه من كلمات!

وانقض عليهم، فسأل واحدًا منهم ابن من يكون.. وماذا يصنع في القرية.. ثم سأل الثاني والثالث والرابع.. وأجابه الفتيان باستخفاف..

وهوى فجأة بكفه على وجه واحد منهم وهو يزعق فيه:

ـ بقى يا واد يابن مسعود مش عارف إن خالك محبوس في سجن المركز والعمدة هو اللي حبسه؟! بدل مانتم واقفين كده عواطلية ومسبسبين شعوركم زي النسوان، تتمهزءوا بالرايحة والجاية.. مش عارفين تشوفولكم شغلة؟ جاتكو الغم.. طب روحوا اعملوا حتى زي النسوان ما عملوا في العمدة!

ثم انصرف على الفور وهو يغلي، دون أن يسمع إجابة من أحد..

***

في اليوم التالي كان الشيخ يوسف أسعد إنسان في القرية..

فقد حمل إليه علواني كيسين كاملين من ذرة العمدة وكيسا من القمح.. ولما رأى الكمية أمامه كبيرة حاسب علواني عليها كاملة كما هي وتحلل من وعده بأن يحسب الكوز كوزين وكيلة القمح كيلتين.. واكتفى بأن يعطيه حقه كاملا هذه المرة..

أما العمدة فقد أحس أثناء الليل بدبيب أقدام ـ عند مخازنه ـ فوق حجرة نومه.. وحاول أن يستنجد بالخفراء فلم يصغ إليه أحد.

وأصبح مع الفجر.. فجمع الخفراء ليقول لهم:

ـ إنتم كلكم موالسين مع العيال العواطلية اللي راجعين من مصر والبندر.. طب والله لأرفدكم النهاردة كلكم.. إنتم فاكرينها بلد من غير عمدة؟!

ثم ركب بغلته والشمس لم ترتفع بعد عن الأفق الشرقي، وسار وراءه عبد العاطي.. ولم يكن من خفراء الحراسة في الليل. واتجه إلى الجسر من وراء الحقول خلال طريق آخر غير الطريق المعروف.

كان العمدة ذاهبا إلى عاصمة الإقليم في هذه الساعة المبكرة ليكون من أوائل شهود استقبال وزراء حزب الشعب.

ولم يحاول أن يصطحب معه أحدًا من القرية كما طلب المأمور.. فقد كان يعرف أن الذين بقوا من الرجال في القرية سيرفضون.. حتى الشيخ الشناوي الذي لم يرفض للعمدة طلبًا من قبل.. ربما رفضه هو الآخر!

ومن أجل ذلك فلم يشأ العمدة أن يرسل إليه أو يرسل إلى أحد غيره ليتجنب حرج إعلان العصيان.

وظل العمدة طول الطريق مهموما، يفكر في القرية المتعبة!

ومن يدري ماذا يمكن أن يحدث في القرية بعد؟

لقد أصبح من الممكن أن يحدث أي شيء فظيع.. ولقد بدأت الأشياء الرهيبة بالفعل.. أشياء لم تحدث من قبل أبدا!

النساء يضربنه بروث البهائم، وفتاة تهزه من جبته وقفطانه، وفتاة تخنقه.. وفتيان يسرقون الغلة والذرة من مخازنه!!

كل هذا يحدث.. يحدث دفعة واحدة بعد أن سجن الرجال!

لو أنه على الأقل يعرف من هو الذي سرق القمح والذرة من مخازنه!!

وحاول أن يسأل عبد العاطي، غير أنه تماسك، فيجب أن يبدو أمام الجميع ـ حتى عبد العاطي ـ وكأنه يعرف كل شيء!

ولم يكد يصل إلى المركز حتى دخل إلى المأمور.. فأحسن المأمور استقباله.. فقد كان واسع النفوذ بين عمد المركز.. كان أكثرهم قدرة على إرسال الهدايا، والخدم والخادمات، وفي ساعات الضيق كان أكثر العمد قدرة على نجدة من يستنجده من رجال المركز.

وهمس العمدة في أذن المأمور أنه يجب الإفراج بعد الاحتفال عن رجال قريته، وإلا فإن مكانه كعمدة سيضيع.

ووعده المأمور خيرا، وهو يقوم ويقعد ويرد على التليفونات وينهر الجنود ويسأل عن عدد الذين احتشدوا في كل شارع لاستقبال الوزراء.

وهمس العمدة في أذن المأمور:

ـ دي البلد هزلت مقامي عشان الرجالة المحبوسين! أقول لك إيه.. يعني أحكي عاللي بيجرى في البلد! وبعدين مقامي راح ينهزل خالص!

وأكد له المأمور أن الإفراج سيتم اليوم.. بعد انصراف الوزراء..

ولم تكد شمس العصر تميل إلى الشاطئ الغربي عند النهر الصغير حيث كان الشيخ حسونة، ومحمد أفندي، والشيخ الشناوي يصلون العصر في المصلى القائمة عند جميزة عبد الهادي.. حتى أقبل الشيخ يوسف مسرعا فقال لهم: إن أحد الفتيان العائدين من المركز أخبره أن الرجال قد أفرج عنهم، وأنهم عائدون على أقدامهم وقد سبقهم هو بحمارته منذ ساعة.

وتهللت الوجوه.. ولكن الشيخ الشناوي قال بيأس:

ـ يطلعوا؟! يا أخي.. بعدك!

وسأله الشيخ يوسف لماذا غيّر عادته وترك المسجد ليصلي العصر هنا عند الجميزة.

فأجاب الشيخ حسونة نيابة عن الشيخ الشناوي أن كل مكان يصلح لأن يكون مصلى.. وكل مصلى هي مسجد.. وقد جاءوا إلى هنا تحية لعبد الهادي الغائب!

وسأله الشيخ الشناوي بدوره لماذا ترك دكانه؟!

وقبل أن يجيب الشيخ يوسف حمل الأفق الصامت رجع زغاريد من بعيد.

وقال الشيخ الشناوي مضطربا:

ـ دهده يا إخواني؟! هي البلد جرا لها إيه؟ نسوانها ما لهم كده؟! بيزغردوا ليه؟ البر خد الاستقلال! والا يعني الرجالة رجعوا من سجن المركز؟!

وأسرع الشيخ يوسف نحو القرية وسبقه محمد أفندي ومن ورائهما الشيخ الشناوي والشيخ حسونة في خطوات سريعة.

كانت القلوب تخفق، ودقاتها تقرع الصدور، أسرع من وقع خطواتهم السريعة المتلاحقة، والبشر يضيء الوجوه.

وعلى أبواب القرية، كانت الزغاريد تتعالى، وصيحات الفرح تملأ الآفاق، والأطفال يرقصون في الطرقات.

كان كل شيء في القرية يرقص، والدفء يغمر الأفق، والأصيل ينسكب على القرية بألوان الورد..

وكانت النساء يزغردن ويغنين بلا انقطاع..

صحيح.. صحيح! لقد عاد الرجال!

ظلت القرية تتهامس - محزونة - بقصص عجيبة عن المدينة منذ عاد منها الرجال..

ويوما بعد يوم استطاع دياب أن ينصب طوله، رغم أن آثار الضرب ظلت على ظهره المتورم الممزق..

خرج «دياب » إلى حقله لأول مرة.. وفي الطريق امتدت عيناه إلى الحقول الواسعة الرحيبة من حوله، فامتلأت نفسه بالطمأنينة.. ورأى أعواد الذرة قد شبت على الأرض، فابتسم.

وما زالت الحقول الريانة الخضراء تحمل إليه أملا..

حتى بلغ حقله، فوجد اللوزات تتفتح عن القطن الجديد..

وكان القطن الغض يظهر من بين اللوزة كأنما هو حياة بأسرها تشرق دفعة واحدة.

وفاضت نفس دياب بالفرح، وأوشك أن يقفز.

وجاوز رأس الحقل، ومر بحظيرة الماشية التي تعود أن يلقى عندها خضرة وأحس ببعض الوحشة.

ولكنه اندفع إلى الحقل، كأنه ينتزع جسده من زحف الوحشة على صدره.. ودخل حقل القطن، وتحسس الأعواد الزاهية، والقطن ينشر أمام عينيه بياضا رائقا.

ثم انحنى على الأرض ونفسه تزخر بالحنين ، والإحساس بالمقدرة، فأمسك قطعة من الطين الجاف، وفركها بين يديه وترك ترابها يتناثر من بين أصابعه، والمشاعر المبهمة تغمر منه الجوانح إلى الحلق، وتهتز منه الأعصاب..

إنه ليشعر اللحظة بكثير من الأشياء.. أشياء لا يفهمها أبدا كل الذين ضربوه في السجن.. حتى المأمور!

كلهم لا يستطيعون فهمها، وهو نفسه لا يعرف ماذا يعني!

ولكنه يدرك على الأقل أنه لا يوجد من يستطيع أن ينتزعه من حقل القطن الذي وضع فيه البذور على مهل، ورواه متحديا أوامر رجال الري، وهوى فوقه بالفأس في الساعات الملتهبة من الحر..

لا أحد.. لا أحد يستطيع أن يقتلعه من هذه الأرض التي يغرس فيها قدميه.

وتذكر دياب فجأة كل ما صنعوه به في المركز: كيف أذلوه وحرموه الأيام الطوال من هذا الحقل!

وهز رأسه، وارتفعت أنفاسه.. ثم مسح بكفه المتربة دموعا تساقطت من عينيه، واختلطت بتراب الأرض.

أما عبد الهادي فهو لم يرقد في بيته حتى ينصب طوله كما رقد دياب.. وإنما خرج من أول يوم إلى طرقات القرية، يروي للناس ما صنعه أولاد البلد بالمأمور أثناء استقبال وزراء حزب الشعب..

كان عبد الهادي يرفع رأسه، ويفتح صدره أكثر مما تعود، وكانت نبرات صوته تعلو في زهو وتتخللها الضحكات دائما.

ومع ذلك فقد كان في كل جزء من بدنه أثر لضربة أو صفعة أو ركلة حتى لسانه وفمه.

ولم يجرؤ أحد على سؤاله عما حدث له..

كانت القرية كلها تعرف ما حدث للرجال: وكيف أكرهوا على شرب بول الخيل، وكيف حلقت شواربهم، وكيف هوت السياط على الوجوه والأبدان، وكيف كانوا يؤمرون بالجلوس على خوازيق.. وكيف كان الواحد منهم يضرب ويضرب إلى أن يفقد الوعي، ولا يبرح بعد هذا يضرب إلى أن يصيح إنه امرأة.

على أن الرجال العائدين من سجن المركز، يذكرون لعبد الهادي بفخار أنه لم يقل أبدا إنه امرأة.. ولم يشرب أبدا من بول الخيل، أو يجلس على خازوق.. إلا وهو في غيبوبة!

ولقد ظل يضرب بالعصي، ويركل، ويلهب بالسياط حتى أغمي عليه عدة مرات، وذات مرة عندما أغمي عليه أجلسوه على الخازوق وسندوه ورفعوه بعد قليل ورموه على الأرض، ثم فتحوا له فمه وصبوا فيه بول الخيل.. وعندما أفاق ظل يشتم ويتهدد فتكاثروا عليه وأوثقوه بالحبال، ثم حلقوا شاربه.

وهكذا صنعوا بمحمد أبو سويلم.. وأزالوا له شاربه الغليظ القديم الذي تستخفي شعراته السود في الشعرات البيض.

ومع ذلك، فقد شمخ عبد الهادي برأسه في القرية، وكتم آلامه في الضلوع، ومضى يحكي عن استقبال وزراء«حزب الشعب» ويذكر ما حدث للمأمور، ويطلق الضحكات..

في ليلة زيارة الوزراء، فوجئ كل من في سجن المركز، بشباب كثيرين، من المدينة يحشرون في الحجرات المجاورة.. كان بعضهم يلبس الجلاليب، والبعض يلبس البدل، وكانوا يهتفون ضد حزب الشعب، وتنطلق حناجرهم باسم مصر والحرية، والدستور، والأمة مصدر السلطات، والاستقلال.

وكانوا يستريحون من الهتاف أحيانا، فيتحدثون عن الإنجليز، والملك ذي الشارب المبروم، وما تصنع المصالح بالرجال!

وفي كل ساعة من الليل كانت حجرات سجن المركز تستقبل آخرين.

كانوا خليطا من طلاب المدرسة الثانوية، ومدرسة المعلمين الأولية ومدرسة الزراعة المتوسطة في عاصمة الإقليم، وكان من بينهم بعض الطلبة الذين يدرسون في الجامعة بالقاهرة.. والذين صنعوا هناك المظاهرات طول الشتاء، وقد أقبلوا في الصيف لينفقوا الإجازة مع أهلهم.

وكان من بينهم بعض التجار، وماسحو الأحذية، والباعة المتجولون، والمحامون، وعمال مصنع حليج القطن.. والذين يمشون في الطرقات بلا عمل ولا ذكريات ولا أحلام!

وعرف رجال القرية من خلال الأحاديث أسماء بعض التجار الذين يشتري منهم «الشيخ يوسف» حاجة القرية من البقالة.

كانوا كلما أقبلت عليهم جماعة جديدة استقبلوها بالهتاف والضحكات.

ومن خلال أحاديثهم فهم عبد الهادي كثيرا من الأسرار، فهم أن الإنجليز الذين يحكمون في مصر الآن، وأن هؤلاء الإنجليز والذين يستخدمونهم سيزولون تحت الضربات!

عرف أن كل شيء مصيره يتعدل، ما دامت مصر ترفض أن تستعبد.. وذهل عبد الهادي مما سمع.. وأحس بدفء خالص جديد يدب في أطرافه ويمنحه العنفوان.

وعجب للهجة الصافية التي يتحدث بها هؤلاء المحبوسون، وعجب ـ أكثر من أي شيء ـ لإيمانهم الخارق بأنهم سيطردون حزب الشعب، والذين وراء حزب الشعب.

وظل ينظر إلى محمد أبو سويلم فوجد عينيه تلتمعان.. ورأى شحوب دياب قد أخذ يزول والدم الأحمر يجري من جديد في سمرة وجهه.

وعاد عبد الهادي ومحمد أبو سويلم ودياب يتنصتون، ونظراتهم إلى بعضهم تحمل دعوة المشاركة والاهتمام.

وسمعوا المسجونين الجدد يتحدثون باستهزاء عن الرصاص والموت والحكومة في مصر.. وأحس عبد الهادي أن هؤلاء الناس هم أقوى من الحكومة في مصر.. الحكومة التي ترعش المدير والمأمور!

وقال أحد المسجونين الجدد: إن الحكومة لفرط ضعفها قد أمرت بأن يسجن كل الذين يشتبه في عداوتهم لحزب الشعب.. فأضاف زميل له أن مصر كلها عدو لحزب الشعب، والحكومة في مصر تأمر المديرية بأن تحبس أعداء حزب الشعب لأنها تعرف أنهم سيسألون الوزارة أثناء زيارتهم عن الدستور الذي ضاع، وعن الانتخابات الزائفة، وعن حريات هذا القريب أو ذاك الصديق، وحريات كل الوطنيين الشرفاء.. ماذا صنعت بها الحكومة؟!

وسيسأل الناس وزراء حزب الشعب عن الأزمة وماذا صنعت لها الحكومة.. وعن الحقول التي تخرب، والماء الذي يسلب، وعن الطعام والقماش، والمال الذي لم يعد يدخل الجيوب، وعن المصانع التي تفصل العمال بلا حساب.. وعن الأرض التي تستولي عليها البنوك!

كانت الحكومة تعرف أن الناس سيسألون وزراءها أثناء الزيارة عن الكساد والجوع، والأولاد الذين يردون من المدارس، والمرضى الذين لا يجدون أماكن في المستشفيات.. وعن حق كل إنسان في أن يعمل، وعن حق الكلمة في أن ترتفع، وعن كل ما يوفره الدستور، ويمنعه الإنجليز، والمسدس، وحزب الشعب!

وظل عبد الهادي ومحمد أبو سويلم ودياب يسمعون الأحاديث العجيبة من الحجرات المجاورة..

وهمس دياب في صوت كالأنين:

ـ آدي الفهم صحيح.. شوف ياخويا، ولا هامهم سجن.. يا نهار أزرق يابا محمد يا أبو سويلم.. أتارينا مش فاهمين أيها حاجة!!

وابتسم محمد أبو سويلم وعبد الهادي وألقيا على دياب نظرة مفعمة.. وسكت دياب، وأخذ يصغي باهتمام وتفتح إلى الأحاديث في الحجرات المجاورة.

وعند الفجر دخل المأمور الحجرة التي استلقى على أرضها العارية الصلدة بدن دياب ملتصقا بمحمد أبو سويلم وعبد الهادي ورجال من قريته، ومن قرى أخرى مجاورة، جاءوا كلهم من أجل مخالفات الري.

وتقدم المأمور في الحجرة يدوس بحذائه الغليظ أقدام الرجال بلا مبالاة.. ومن ورائه بعض الجنود بالبنادق التي تلمع في أطرافها السنكي.

ووقف المأمور قليلا، وتأفف من الرائحة.. وقام الرجال ووقفوا متلاصقين يحملقون في وجهه، وفي وجه الجنود من ورائه.. وإلى البنادق!

وقال المأمور: إن أصحاب المعالي وزراء حزب الشعب يشرفون المدينة بالزيارة في الساعة العاشرة تماما.. وحزب الشعب هذا هو الذي دفع الديون عن الفلاحين ، وجريدته هي الناطقة بلسان الشعب!

وقبل أن يستطرد المأمور، قاطعه فلاح من قرية مجاورة للمركز قائلا ببساطة: إن حزب الشعب دفع ديون محمود بك لا غير، وحاله الآن معدن بعدما كان لايلقى اللضى.. أما الفلاحون في قريته فحزب الشعب لا يدفع لهم الديون، وإنما يستولي على أرضهم ليشق فيها سكة زراعية يريدها الباشا!

واقتحم الحديث فلاح ثان من قرية مجاورة أخرى، فأقسم أن الحكومة حجزت على أرض عمه لأنه لم يدفع المال، بينما تركت أرض الخواجة صاحب الخمارة المشهورة في المركز.. وتدخل رجل ثالث، فضحك من كلام المأمور وقال له: إن الحكومة لا تدفع ديونهم وهم لا يريدون منها دفع الديون ويرجون المأمور أن يتوسط عند الحكومة حتى لا تسرق منهم ماء الري.

وكان المأمور ينقل بصره بين الرجال الذين يتكلمون وأيديهم تتحسس أجسادهم الممزقة من لذع السياط.. وكظم غيظه، وقال بهدوء: إن الفلاحين الثلاثة الذين تكلموا هم حمير لا تفهم.. وسيربطهم طول النهار في إسطبل الخيل.

قال المأمور كلامه هذا بهدوء تام، وأدار نظراته قليلا على وجوه الفلاحين الذين وقفوا مترنحين من كثرة ما لاقوا، ثم استمر يشرح بنفس الهدوء نظام استقبال الوزراء، ويعين مكان الفلاحين في هذا الاستقبال، فهم بعد ساعة سيخرجون تحت الحراسة ويوزعون على أرصفة الشارع في طريق موكب الوزراء إلى قصر الباشا من محطة سكة الحديد إلى نهاية المدينة.. وحضرة ملاحظ البوليس عنده أوامر بأن يعطيهم إشارة بيده عندما تقترب العربات التي تحمل الوزراء من المحطة إلى قصر الباشا، فإذا رأوا هذه الإشارة فعليهم أن يبدءوا الهتاف.

وإذ ذاك قاطعه رجل يسأل ببساطة:

ـ نقول إيه.. تحيا مصر؟ ولا يحيا العدل؟ ولا يحيا الوطن؟

وفي نفس الهدوء أشار المأمور إليه، وأكد له أنه هو أيضا سيربط مع الثلاثة الآخرين في إسطبل الخيل طول النهار.

وعاد يكمل بهدوء، فقال للفلاحين إن عليهم أن يهتفوا معا.. وأن يقولوا: «يعيش جلالة الملك المعظم.. يحيا حزب الشعب.. يحيا صدقي»!

واستمر المأمور يقول: إنهم بعد هذه الهتافات الثلاثة يجب أن يكرروا هتافهم «يحيا صدقي».. وعليهم أن يقولوا هذا الهتاف بنغم.

وبدأ المأمور يلقي هتاف «يحيا صدقي» بنغم متتابع راقص وهو يصفق بيديه على النغم.

وهمس أحد الفلاحين في أذن جاره أن المأمور يصنع كالطبالين تماما.

وابتسم الرجلان وحاولا إخفاء الضحك فرآهما المأمور.. وارتفع صوته وهو ينهمر عليهما بالشتائم والصفعات، وأمر الجنود الذين كانوا يقفون وراءه أن يضربوا الرجلين قبل ربطهما طول اليوم في إسطبل الخيل.

وقبل أن يترك المأمور الحجرة الضيقة ذات الرائحة النتنة صاح:

ـ أنا حتخنق من العنبر ده!! ياللا بأه.. هه.. عاوز أشوف كده فهمتوا والا إيه.. قولوا وراية: يعيش جلالة الملك المعظم.. يحيا حزب الشعب.. يحيا صدقي! ياللا معايا ع الواحدة: يحيا صدقي.. يحيا صدقي.

وترددت أصوات الفلاحين متكاسلة بلا نغم:

ـ فليحيا الملك.. يعيش حزب الشعب.. يعيش صدقي.

فضرب المأمور الأرض بقدميه في عصبية، وأخذ يصلح الهتاف، وصرخ فيهم أن يلوحوا بأيديهم وهم يهتفون، وأن يقفزوا ويرقصوا إن استطاعوا، لأنهم فرحون بزيارة وزراء حزب الشعب!!

وأقسم إنه لو ضبط واحدا منهم يهتف بلا سرور، أو متلبسا بالكسل، فمصيبته سوداء، وليلة بلده كلها طين!!

واستدار ليخرج، ولكنه توقف على فكرة التمعت في خاطره:

ـ لازم تهتفوا بنغم.. فاهمين يعني إيه بنغم؟! فيه طبل بلدي.. الطبل يزمر وانتوا تهتفوا وراه.. يعني تزعقوا وراه على النغمة يا غنم..أنتم زمان كنتوا بتقولوا إيه أيام الهوجة، مش كنتم بتقولوا: يحيا سعد.. تماما نغمة يحيا سعد!! وفي الانتخابات بتتنيلوا تقولوا إيه: يحيا الوفد.. مش كده؟ أهي يحيا صدقي تماما على نغمة يحيا الوفد.. قولوها على نغمة يحيا الوفد.. تمام.. مفهوم؟

وخرج مسرعا..

وشرعت جموع الفلاحين تتدفق من دار المركز، وقادتهم فصائل الجنود إلى أماكنهم على جانبي الطريق، والشمس تشرق على المدينة.

ولم تفتح الدكاكين أبوابها المعتاد.. وانتشر العساكر يمسكون أصحاب الدكاكين الصغيرة من أقفيتهم، ويجرونهم في الشوارع، ويأمرونهم بأن يفتحوا الدكاكين.. وكان العساكر يحطمون الأبواب أحيانا، ويفتحون الدكاكين بأنفسهم ويضعون عليها أعلاما صغيرة للزينة.

وعلى كثير من الدكاكين كانت الأعلام ترفرف، والأبواب مفتوحة، ولا أحد على الإطلاق في الدكان.

ومع ذلك فقد ظلت الشوارع نفسها خالية كأنما هجر المدينة أهلها.. وساعة بعد ساعة ازدحمت أرصفة الشوارع بالناس، وما زالت الشوارع خاوية، والشمس ترتفع، وأشعتها تحمر لحظة بعد لحظة.

وتعرف عبد الهادي ومحمد أبو سويلم ودياب إلى بعض الوجوه من بين الذين يزاحمونهم: وجوه جنود ضربوهم بالأمس أو أول أمس، ولكنهم الآن يقفون في الطريق بالجلاليب!

ولمح عبد الهادي وجه شعبان الذي غاب عن القرية منذ زمن، ولمح أحد رجال الناحية الشرقية عن بعد وجه صديق قديم من قرية مجاورة، كان قد حكم عليه بالسجن منذ ثلاثة أعوام في قضية تسمم ماشية العمدة.. ولكنه لم يكن يلبس ثياب السجن.

وفي الحق إن جوانب الطريق من محطة سكة الحديد إلى خارج المدينة كانت تزدحم بالمساجين والجنود.. وكلهم بالجلاليب..

وفي الطرقات البعيدة كانت موسيقى البوليس، وموسيقى الأحداث، والطبول البلدية، تمضي بلا انقطاع تجمع وراءها بعض الصبية، فيلتقطهم ملاحظ البوليس ويأمرهم بالدخول في الصفوف على جانبي الطريق الممتد من محطة سكة الحديد إلى خارج المدينة.

وامتدت اللافتات الكثيرة بعرض الشارع تحمل أبياتا من الشعر تحية لأبطال حزب الشعب..

ورشقت أسطح البيوت بنساء كثيرات ولوح المأمور من على حصانه الأبيض:

ـ زغرتي يا مرة منك لها!

وانطلقت من هنا وهناك الزغاريد.

وحين كان المأمور يمر بين الصفوف على حصانه الأبيض، صادف باعة الجرائد ينطلقون من المحطة وينادون على الصحف المعارضة.. فاستوقفهم وأمر رجاله بالاستيلاء على الصحف، ووضع البائعين وسط الصفوف بالقوة.. ليكونوا هم أيضا في استقبال وزراء حزب الشعب!

وأخذ المدير يروح ويجيء في عربته ومعه وكيل المديرية، وفي عربة أخرى كان الحكمدار يراقب الاستعدادات والابتهاج بالزيارة، ويشرف على وضع المخبرين أمام الصفوف هنا وهناك ليبدءوا بالهتاف.

وأصدر المأمور تعليماته إلى فرق الموسيقى والطبل البلدي بالوقوف في أماكن متباعدة على طول الطريق، وانطلقت الموسيقى تعزف والطبول تدق.. فيهتف رجل من الذين وضعهم الضباط أمام الصف، ويردد الآخرون الهتاف.

وصاح المأمور وهو يراقب الهتاف:

ـ علّوا أصواتكم شوية.. بحماس شوية كده.. هزوا أيديكو، واترقصوا علامة الابتهاج ياغنم.. اترقصوا واهتفوا ع الواحدة!

والشمس ترتفع، وترسل أشعتها حامية.. والمأمور يروح ويجيء ويأمر في لهوجة!

وطلب المأمور من بعض الضباط أن يذهبوا إلى كل المقاهي المفتوحة، فيسوقوا من عليها الناس إلى الاحتفال.

ثم انطلق المأمور إلى المحطة بحصانه الأبيض، فألقى نظرة على الأعيان والعمد.. وركض بحصانه على طول الطريق، وهو ينظر على الجانبين.. وهمس لنفسه:

ـ مفيش أحسن من كده.. استقبال شعبي مفتخر!! ما فيش مأمور عمل كده.. الواحد على الأقل يطلع من الاحتفال ده مساعد حكمدار.

ووصل المأمور إلى نهاية الطريق عند آخر المدينة، ثم لوى عنان جواده، وانطلق يجري به إلى المحطة قائلا:

ـ خلاص القطر قرب يوصل.. استعدوا تمام.. تعلّوا أصواتكم وتهزّوا أيديكم وتهتفوا عالنغم وتترقصوا من كتر الفرح.

ثم نظر إلى أعلى، على أسطح بعض البيوت وهو لا يزال يقول في لهجة آمرة:

ـ والزغاريد.. عاوزها ملعلعة.

***

وبعد قليل هبط وزراء حزب الشعب إلى المحطة، حيث كانت تستقبلهم العربات ومن حولها الأعيان والعمد، وعدد من الجنود.

وتحركت العربات بالوزراء تشق الطريق الرئيسي من المحطة إلى قصر الباشا، في ضيعته القريبة من المدينة.

ومضت العربات بضعة أمتار وسط هتافات «يعيش جلالة الملك المعظم، يحيا حزب الشعب، يحيا صدقي، يحيا صدقي».

كانت العربات تمضي على مهل، وفي اعتزاز، وعلى جانبي الطريق ترفرف الأعلام، فوق لافتات كبيرة كتب عليها بيت من الشعر الركيك، فيه ترحيب ومدح.

وتعالت الزغاريد من فوق أسطح البيوت والمأمور بكل كبريائه ورضاه عن نفسه فوق حصانه الأبيض إلى جوار العربات وهو يلوح بيده للنساء، وللذين يهتفون.

وقطع الموكب نصف الطريق، بين أرصفة زاخرة، وهنا وهناك رجل يهتف «يحيا صدقي» والآخرون يرددون الهتاف على وقع الطبل البلدي وموسيقى الأحداث.

وفجأة على نفس النغم، استرد الواقفون كلمات النغم.. أصل كلمات النغم.. كلماتهم التي تضطرم في الصدور..

وانفجرت من كل مكان هتافات مجتمعة:

«تحيا مصر.. تحيا مصر»!

واصطخبت المدينة كلها بالهتاف الممنوع، وارتفعت الأيدي، وسرت في الجموع حدة ضارية وغليان.

وتدفقت من الحواري والشوارع الخلفية مواكب عديدة متموجة تزحم الطريق الكبير الذي تمر به العربات، وأخذ الناس يتواثبون، وهم يرقصون على الهتاف:

«تحيا مصر.. يحيا الوفد»!

وازداد الناس التصاقا ببعضهم، فزادهم الالتصاق إحساسا بالقوة، وغمرهم شعور بالكبرياء والامتياز والظفر.

وأسرعت العربات بالوزراء، في نفس الطريق الذي كانت تقطعه على مهل باعتزاز.. وما زالت الأعلام تخفق فوق اللافتات المزدحمة بعبارات الترحيب.

واضطرب المأمور، وروع على ظهر حصانه أكثر مما روع وزراء حزب الشعب داخل العربات.

ولكز المأمور حصانه فوثب، واقتحم الجموع.. وتعالت الصرخات، وما زال الهتاف الممنوع يرج المدينة.. وأمر المأمور الجنود أن يضربوا الناس.. فارتفعت صرخات النساء من فوق أسطح الدور، وهن يلوحن بأيديهن في وجه الزائرين «أحيه عليه أحيه عليه»! وكأنهن يستقبلن جنازة شاب مات غريبا!

وذعر الحكمدار، فنزل من عربته مضطربا يصيح في الضباط الصغار أن يقبضوا على الناس، ونزل المدير من عربته مرتبكا فأمر بإطلاق الرصاص على المتظاهرين، وبالقبض على كل أهل المدينة!..

بينما وقف المأمور يلطم خديه وهو يميل بجزع قائلا بنغم جنائزي، على وقع صرخات النساء، كالنادبات تماما:

ـ ما رحنا في داهية كلنا.. أحيه علينا كلنا.. أحيه علينا.. أحيه علينا!!

***

ما زال عبد الهادي يروي هذه القصة كل يوم لأهل القرية، وهو يتحسس مكان شاربه الحليق، ثم يرفع رأسه ويقول:

ـ آدي إحنا طيرنا لهم المأمور والحكمدار كمان.

وقد ظل عبد الهادي يذكِّر محمد أبو سويلم بقصة الاستقبال والابتهاج، وبحالة المأمور عندما أطبقت عليه هتافات الرجال من على الأرض وصرخات النساء من الجو، فوقف يلطم كالنسوان!

وكان عبد الهادي يطلق ضحكات صافية راضية.. وهو يتحدث في هذا كله، ثم تلتمع عيناه، وهو يحكي ما سمعه من حجرة الطلبة والتجار الذين ألقوا في المركز ليلة الاستعداد بالاحتفال.

ما زال عبد الهادي يبدي إعجابه بسخريتهم من الذين وضعوهم في السجن، ويؤكد لأصدقائه في القرية، إن هذا الصنف من الناس لابد أن يكون قد تعلم أسرار الحياة من مظاهرات الشوارع في المدينة..

غير أن محمد أبو سويلم كان يسمع كل هذا ويتأمل الضحكات والزهو، وفي الأعماق من نفسه شعور مخيف بالهزيمة والضياع.

وعندما حاولت امرأته أن تهون عليه، واقتربت منه ذات ليلة لتدلك أورام بدنه المحتقن من كثرة الضرب، نحاها بضيق، وهو يهمس بإذعان بكلمات من موال حزين:

روح يا زمان روح وخللينا بغلابتنا

إحنا السبوعة وجت الأيام غلبتنا..

ثم أخذ يردد في حسرة أبياتا قالها أبو زيد الهلالي عندما هزمه دياب بن غانم، فأحنت امرأته رأسها، وتصعبت، وزفرت.

***

وطالما نادى محمد أبو سويلم وصيفة في الليل قبل أن ينام، وتأملها وهو يغالب الدموع ليعاود سؤالها في تأثر:

ـ بقى الواد عبد العاطي من دون الغفر هو اللي ضربك؟ يا سلام؟! عبد العاطي؟

وكثيرا ماتحسس محمد أبو سويلم شاربه الحليق في خجل تخالطه الزراية، كأنما هو عريان لايقوى على استرداد ملابسه من يد قوية!

وكثيرا ما لعبت أمام عينيه ـ كالعفاريت ـ صورة العساكر الذين أوثقوه بالحبال، ليحلقوا له شاربه، والمأمور يدخل عليه ليذله أمام رجال القرية والقرى المجاورة، ويطلب منه أن يقول: إنه امرأة!

لقد ظل ينظر إلى المأمور إذ ذاك والشرر يتطاير من عينيه.. ودون أن يقول كلمة، جمع كل لعابه وحنقه وكبريائه المهدرة، وقذف بها في بصقة كبيرة على وجه المأمور.

إنه لا يذكر ما حدث له بعد ذلك، فقد تشابكت أمام عينيه السياط والعصي والأحذية كلها تهوي فوق بدنه.. وأحس وهو ملقى على ظهره بحذاء المأمور يخبط رأسه ووجهه.. ثم غاب عن الدنيا.

وعندما كان هو غائبا عن الدنيا تماما في سجن المركز كان الولد عبد العاطي يضرب ابنته وصيفة أمام دوار العمدة.

وعلى الرغم من أن عبد العاطي ذهب إلى محمد أبو سويلم فقبل يده، ورأسه، وبكى في ندم، وطلب منه أن يضربه بالمركوب أو البلغة تأديبا له على ما صنعه مع وصيفة.. وعلى الرغم من أن وصيفة نفسها نسيت ما كان من عبد العاطي وقدرت عذره.. وعلى الرغم من أن أهل القرية حدثوه بإكبار عما لقي العمدة من وصيفة.. فإن محمد أبو سويلم ظل مطأطئ الرأس، كسير الصوت، مهزوما أمام نفسه، يذكر بالحسرة، أن ابنته وصيفة كانت تُضْرَب عند دوار العمدة، وهو غائب في السجن تحت أحذية الجنود.

لم يستطع أحد على الإطلاق أن يخفف عن محمد أبو سويلم وأصبحت كلمات التشجيع تزيده شعورا بالمرارة، والهزيمة!

لقد ضربوه في السجن كما لم يتخيل أبدا.. ولو أنه كان حصانا عند الحكومة لكانوا أكثر إشفاقا عليه.

إن المأمور الذي أمر بضربهم وبتعذيبهم لا يستطيع أن يقف في شارع المدينة ويفعل مثل هذا بحيوان.. بكلب أو بقط.. سيخجل من الأطفال والنساء، ويخاف من رؤسائه، ومن امتعاض الأصدقاء!

وربما طالبت بحبسه الجمعيات العديدة التي تدعو إلى الرفق بالحيوان.. ولن يستطيع على أي حال أن ينظر في وجوه أولاده الصغار، أو زوجته بعد أن يعذب حيوانا ما على هذا النحو!!

ومع ذلك فهذا الرجل نفسه ـ من يدري ـ ربما كان يروي بفخار لامرأته أمام الصغار كل ما صنعه بالرجال.

وربما مارست زوجته ـ وهي تسمع ـ إحساسا متفوقا بالامتياز والكبرياء!!

وهكذا ظل محمد أبو سويلم ـ خلال الوجيعة ـ يعجب لهذا الصنف من الرجال، ويتساءل لماذا قدر عليهم وحدهم في القرية أن يعانوا مثل هذا العذاب! ومع ذلك فلو أنهم تمكنوا من المأمور لما صنعوا به كما صنع بهم.. لو أنهم قبضوا عليه لعاملوه كما يعامل هو كلبه على الأقل: بحنان!

ولم يرق هذا الحال للشيخ حسونة ولم يخف ضيقه بمحمد أبو سويلم.

إن محمد أبو سويلم لم يلق أكثر مما لقي عبد الهادي أودياب، أو الآخرون، ومع ذلك فعبد الهادي يملأ القرية من أول يوم بحكاية استقبال وزراء حزب الشعب، ويقلد المأمور حين فاجأته الهتافات العدائية.. ويقلد دياب حين كان يقفز من الفرح ويشترك في الهتاف بظهره المنحني من كثرة ما ضرب.

ودياب نفسه يسمع هذا ويضحك، وهو يخرج إلى الحقل ويعود كما كان.. والرجال الآخرون عادوا كلهم يعملون، كما مضت بهم الحياة دائما.

فلماذا لا يتصرف محمد أبو سويلم كما تصرفوا؟!

لماذا يحمل هم الدنيا فوق دماغه؟!

إنه لم يعد يخرج إلى المسجد.. ولم يعد ينبسط لكلام الشيخ الشناوي، ولم يعد يستطيع أن يرفع رأسه ليكلم أحدًا.. حتى صديقه الشيخ حسونة!!

وهو يخرج إلى حقله في الفجر، ويقعد به طول النهار، ويترك وصيفة تحمل إليه غداءه هناك، ويعود مع أول الليل، ليعتكف في داره حتى الفجر، وهكذا يتجنب ـ على قدر ما يقدر ـ أن يراه أحد أو أن يرى أحدا!

كان الشيخ حسونة يفكر في هذا بعد صلاة العصر في المسجد، وحين خرج قال له محمد أفندي:

ـ تعال نشق عالقطن ياخال.. تحب حضرتك تشق عالقطن في حوض الترعة؟

فقال الشيخ حسونة:

ـ ياللا، ياللا نشق على محمد أبو سويلم كمان.

وسار الشيخ حسونة من القرية إلى حوض الترعة، في طريق ضيق تترامى على جانبيه الحقول.

وعلى جانبي الطريق، بدت أعواد القطن خضراء مغبرة، تترنح في هزال تحت البياض، وترتفع إلى جوارها في حقول أخرى أعواد الذرة، أو يمتد حقل صغير من البطيخ يحوطه لبلاب ذو أشواك، تقوم أسنانه وحدها بدور الحراسة.

***

كان الصمت يخيم على الحقول، وأشعة العصر الصفراء، تعطي كل شيء لونا شاحبا، وتجعل الظلال في الفضاء طويلة كالأشباح!

وقال محمد أفندي ليقطع صمت خاله:

ـ شايف ياخال؟ حضرتك شايف القطن عامل إزاي؟ الدودة ماخلتش السنة دي.. لكن قطننا باسم الله ما شاء الله صاحح وعال. أهه قدامنا.. أهه يشرح القلب!!

إن شاء الله يرمي كويس أحسن من قطن البلد كلها.. إن شاء الله يرمي زي قطن العزب والوسايا.

فالتفت إليه الشيخ حسونة ليقول بفتور:

ـ يرمي؟! يرمي ولا ما يرمي؟ وإيه الفايدة ما دام بالتراب؟ ما فيش فايدة.. سعد باشا قال مافيش فايدة.. شوف.. سيبك من الكلام ده كله.. هوه القطن راح ينصلح حاله أبدا؟ لما البلد ينصلح حالها يبقى القطن ينصلح حاله..

وسكت قليلا قبل أن يكمل:

ـ شوف.. اطرد الإنجليز واطرد حزب الشعب كمان ورجع الدستور، والقطن يبقى عال.. والا أنت لسه مش فاهم؟ يا محمد، الناس بيقولوا لك يا محمد أفندي.. خليك متنور وأفندي صحيح، اقرا الجرايد يا أخي.. سعد باشا قال ما فيش فايدة طول ما الإنجليز هنا.

وكانا قد بلغا حقل القطن، وانقبض محمد أفندي وهو يسمع تقريع خاله، وخشي أن يستمر في تأنيبه، حتى يصلا إلى حقل محمد أبو سويلم.. وكان محمد أفندي طوال الطريق يسير متخلفا عن خاله خطوة، تأدبا منه وخشية.. واستبق محمد أفندي خاله، وتقدم إلى حقل القطن، محاولا أن يغير الحديث:

ـ طب اتفضل حضرتك.. اتفضل هنا فوق الزريبة.. هوا حلو خالص.. داحنا صلحنا سطحها وخليناه مصيف صحيح.

وأبدى الشيخ حسونة رضاه عن اهتمام محمد أفندي وأخيه دياب بإصلاح سطح حظيرة البهائم ليكون مكانا صالحا للجلوس في الصيف.

ولكنه لم يتقدم.

وسمع دياب صوتهما، فرحب بهما من داخل حظيرة البهائم، وخرج يستقبلهما مسرعا، وسلم على الشيخ حسونة وقبل يده وهو يقول:

ـ الغيط نور.. الغيطان كلها نورت يا خال!

وابتسم الشيخ حسونة، وتابع سيره على الطريق الضيق إلى حقل محمد أبو سويلم، ومن ورائه محمد أفندي ودياب.

وقال دياب وهو يقترب من خاله:

ـ شايف القطن يا خال.. إحنا زارعين الحتة كلها قطن: غيطنا والغيط اللي إحنا راكبينه من الشيخ يوسف.. والله لو كان الغيط ده لسه مع صاحبه الشيخ يوسف كان طلع قطنه خايب، ودهبان.

وأسرع محمد أفندي وهو ينظر إلى أخيه محنقا، ويحاول أن يغير الحديث قبل أن يرد خاله، فقال:

ـ ألا ياخال؟

وسكت دياب، والتفت خاله إليه وهو ما زال يسير، وتنحنح محمد أفندي قليلا ثم استمر يقول في تحرج:

ـ ألا محمد أبو سويلم دا بقى حايفوق امتى ويرجع زي ما كان؟! دا مذلول قوي قوي ومهزوم قوي وحالته بقت حال.. يا ولداه.. حتى وصيفة بنته دهبت هيّه كمان وخسّت خالص.

فقال الشيخ حسونة باستنكار:

ـ عجيبة.. وأنت شأنك إيه يا أخينا؟! مالك أنت ومال بنته إن كانت دهبانة والاخاسة؟ هو أنت يا أخي بتوزنها؟؟ أما برود!!

وبهت محمد أفندي ولم يجب.. بينما حملق دياب وفتح فمه في دهشة كبيرة.

وسار محمد أفندي وراء خاله يهز المنشة وقد أحنى رأسه.. ومن ورائه سار دياب.

وعلى كوم سباخ مرتفع كان محمد أبو سويلم يستلقي تحت ظل شجرة التوت.. ورأى الشيخ حسونة مقبلا، فقام متثاقلا يرحب به، وأسرع الشيخ حسونة فصعد كوم التراب.. وحط نفسه إلى جوار محمد أبو سويلم.. وحاول محمد أبو سويلم أن يقوم ليجيء بغبيط ليفرشه على التراب ولكن الشيخ حسونة قال متبسطا:

ـ يا سيدي.. والتراب ما له؟.. ونحن منه وإليه.. وخلقناكم من تراب!

وضحك محمد أفندي وهو يجلس إلى جوار خاله.. وعلى مقربة منهما، عند منحدر كوم السباخ، جلس دياب بعيدا عن الظل في أشعة العصر الفاترة.

ونهض محمد أبو سويلم أخيرا، رغم الإلحاح عليه ألا يقوم، فقطع بطيخة كبيرة من حقل البطيخ الذي يستلقي تحت الكوم أمام أعواد القطن وضرب محمد أبو سويلم البطيخة بيده، وفحص عنقها، ثم رماها بثقة أمام الشيخ حسونة.

وأخرج محمد أفندي المدية من جيبه وفتحها بعناية، وشق البطيخة، ثم تركها مفتوحة ـ في الشمس ـ ليبرد قلبها الأحمر.. وبعد لحظات بدأ يقطعها وأعطى لخاله وللآخرين.

وفجأة قال الشيخ حسونة لصديقه القديم محمد أبو سويلم:

ـ قل لي يا محمد يا أخويا.. أنت مغموم كده ليه، وشايل الدنيا على رأسك؟! دا أنت حقك تفرح قوي وتنبسط قوي.. مش المأمور انتقل الواحات والحكمدار راح أسوان؟! يا راجل دا انت وبقية الرجال عملتوا عملة عمرها ماجرت.. دا انتم هديتم المركز.. قلبتم المديرية كلها.. وإن شاء الله برضه تقلبوا الحكومة.. بقى رجالة البلاد التانية اللي كانوا معاك عاملين زيك كده؟! ولا رجالة بلدنا ما كلهم يا أخي مبسوطين.. حد بيعمل زيك كده؟ وإيه يعني لما اتحبست؟! حبس إيه يعني؟! إيه الحبس يعني؟! وإيه يعني لما العساكر مدوا إيديهم عليكم لاهي رجولة من العساكر، ولا ضعف منكم.. يا راجل.. دا سعد اتحبس، واتنفى كمان.. وكل المجاهدين بينضربوا.. يا راجل فكر في اللي عملتوه.. حد كان يتصور أن الوُزَرة يحصل لهم كده!

وتألقت عينا محمد أبو سويلم، وتذكر منظر الوزراء داخل العربات والهتافات تطاردهم، وتذكر حالة المأمور ولهوجته، وترنحه وهو يلطم على وقع صراخ النساء، ويزعق كامرأة تندب، والحكمدار يشتمه في جزع، والمدير يهرول إلى الحكمدار ليشتمه هو والمأمور بينما الرجال على جانبي الطريق يموجون ويرقصون صائحين في نغم قاصف: «تحيا مصر.. يحيا الوفد»!

لكأن محمد أبو سويلم يذكر هذه الأشياء لأول مرة! لقد كان هو إذ ذلك يهتف مع الناس، والحرارة تدب في عروقه.

وعلى هذه الذكريات، شاعت في وجهه المصفر أول ابتسامة منذ عاد من المركز.. وقال برضا: إنهم حقا عملوا ما لم يعمل من قبل، وإنهم هزموا المأمور والحكمدار نفسه، وإنهم يستطيعون أيضا أن يهزموا العمدة.

فتحمس دياب وكان ينهش قطعة من البطيخ أعطاها له محمد أفندي ووقف في مكانه ورمى بعيدا قشر البطيخة ذات اللحاء الأبيض بعد أن أتى على الجزء الأحمر منها، وقال:

ـ عمدة؟.. عمدة إيه يا أبا محمد؟! سلامات يا عمدة!! بقى بعد اللي عملناه في الحكومة جاي تقول لي عمدة؟! وإيش يكون؟! ودا يستحمل إيه منا؟! وأيمان النبي لولا الملامة، لرميناه في البحر.. دا إحنا ندوّر الحكومة اللي في مصر.. مش تقول لي عمدة؟!

وضحك محمد أبو سويلم قائلا:

ـ يه.. يا واد يا واد.

وضع الشيخ حسونة أمامه قطعة البطيخ، ومسح يديه وهو يقول في أناة: إن كل ما حدث كان تجربة يمكن أن تعلم الجميع أشياء.. ومحمد أبو سويلم لا يجب أن يهتم بشيء فهو رجل عاش في الطين والثلج أياما طويلة عندما كان يحارب في الشام لسبب لا يعرفه، وترك هناك أصدقاء، ماتوا قبل الأوان دون أن يعرفوا لماذا يموتون.. وبعد هذا كله عاد من الحرب يحاول أن يبني له مستقبلا في القرية مع زوجته وابنته

الباقية من أولاده الثلاثة، ولم يمت لأنه عاد فوجد ولدين من أولاده قد أرعشتهما الحمى أياما قليلة، ونزفا مع البول دماء وصديدا ثم ماتا.. واحدًا بعد الآخر.

ولم يمت في الأيام الطويلة التي عاشها يزحف على بطنه في الثلج والوحل تحت الغازات السامة، وبين الرصاص..

ولكنه منذ عاد إلى القرية بنى بالفعل حياته الجديدة وخلف بنتا جديدة هي وصيفة، وجعل من الوحل والموت نفسه تجربة يفيد منها..

ورجل كهذا لا يمكن أن يضيق بشيء مهما يكن.. فالحرب والمصائب في الشام علمته كيف يكره ويقاوم الذين أرسلوه إلى هذه الحرب، ولقد أحسن مقاومتهم في ثورة سنة ١٩١٩.

والتعذيب في السجن علمه كيف يبصق في وجه المأمور..

وعلمه كل هذا كيف يهتف بحياة مصر في وجه وزراء حزب الشعب.

وسخنت دماء محمد أبو سويلم وهو يسمع هذا الكلام، وامتلأ بالزهو والشعور بالمقدرة.. وأحس أن الشيخ حسونة يوقظ في نفسه أشياء كانت توشك أن تموت، وشعر بأن ذكريات ما صنع في الأيام الماضية تدفعه إلى السيطرة على أيامه المقبلة، واستمر الشيخ حسونة يقول:

ـ يعني هما رايحين يحرمونا من الهوا؟! يا عم! حايحرمونا يعني من أوكسجين الهوا؟ خليها على الله!!

وسكت الشيخ حسونة قليلا ونظراته تمتد إلى الحقول الشاسعة الخضراء.. وسرت الرياح الفاترة بوشوشتها بين أعواد الذرة، وحمرة الأصيل تسكب ألوانها الشاحبة.

وأطرقت كل الرءوس، والنفوس تفيض بعديد من المشاعر المختلطة.

وفجأة قال الشيخ حسونة:

ـ شايفين الدرة دهبان إزاي؟ أهم الإنجليز.. الإنجليز بيرموا الدرة للخنازير في بلادهم والفلاحين مش لاقيين الدرة هنا.. وفي الأمريكتين...

وانتصب دياب مسروعا:

ـ للخنازير!.. الحلاليف هناك بياكلوا الدرة.. على كده بقى البني آدمين بياكلوا قمح في قمح.

ونظر الشيخ حسونة إلى محمد أفندي ليقول قبل أن يستطرد:

ـ يعني لو أنت بتقرا جرايد كان على الأقل دياب أخوك يعرف الحاجات دي.

ثم استطرد يكمل حديثه الأول:

ـ وفي الأمريكتين، بيحرقوا القطن وبيرموا البن في البحر بالقناطير وبيتلفوا قمح يكفي للقطر المصري كله.

فقاطعه دياب:

ـ دا على كده لو ماحرقوش القمح كنا ناكل عيش قمح في قمح بدل العيش الذكر اللي هاري كبدنا ده!! يا نهار أزرق! وكمان بيحرقوا القطن إلهي ينحرقوا! والبن راخر بيرموه في البحر ليه؟! طب يبعتوا لنا قنطارين بن.. خلي الشيخ يوسف يبحبح له حبتين.. خلينا نشرب القهوة من غير مناكفة.

وضحك محمد أبو سويلم.. وأخذ ينظر إلى الشيخ حسونة بإعجاب.

ولم يجرؤ محمد أفندي على التفكير فيما يقول خاله، ولم يستطع أن يسأله لماذا يحرقون القمح والقطن في الدنيا الجديدة، بينما لا يجد الناس في مصر قروشا يشترون بها الملابس، والفلاحون تتمزق أمعاؤهم من خبز الذرة الجاف.

لم يستطع محمد أفندي أن يوجه كلاما إلى خاله خوفا من هجوم خاله الذي لا يرحم! ولكن محمد أبو سويلم تساءل لماذا يحرقون القطن.. لماذا لا ينسجونه، ويبيعونه قماشا بقروش قليلة.. ولماذا لا يبيعون القمح للبلاد التي تأكل الذرة.. أو التي لا تجد ماتأكله؟!

وهز الشيخ حسونة رأسه، وفكر قليلا قبل أن يقول:

ـ لو عملوا كده مايكسبوش زي ماهم عاوزين.. فيه واحد كتب مقالة في جريدة صغيرة وكان بيقول في المقالة: إن العالم لو ماطمعشي في بعضه.. وكل واحد اشتغل والدول تبادلت مع بعضها، ده يدي قمح وياخد قطن، وده يبيع قماش ويشتري دره، ماكانش حد جاع، ولا يبقى فيه أزمة ولا إنجليز.. وكاتب المقالة ده بقى نزل نزلة جامدة على الإنجليز وصدقي وبرادع الإنجليز.. قامت الحكومة قافلة الجريدة وحابساه بتهمة العيب في الذات الملكية، ومحاولة اغتيال صدقي وقلب نظام الحكم كمان! شفت بقى؟!!

وتنهد الشيخ حسونة، وهو يسترجع ما قرأه.. ولكنه في الحق لم يكن قد فهم كل ما في المقال الذي يشير إليه..

وسكت.. وخيم على الجميع صمت، وهم شاردون في معنى نظام الحكم وفي أشياء أخرى كثيرة أثارها كلام الشيخ حسونة!

ومالت الشمس نحو المغيب، وبدأ الشيخ حسونة يتحرك، والإحساس بالراحة يغمره منذ رأى صديقه محمد أبو سويلم يضحك، ويتحدث ببساطة، ويسأل عما في الدنيا.. والدنيا الجديدة.

وأقبل غلام من القرية يجري، فسلم على الشيخ حسونة وقبل يده قائلا: إن الشيخ يوسف يريد منه أن يعود إلى القرية في الحال.

فقال محمد أبو سويلم بقلق وانفعال:

ـ دهدي!! خبر إيه كمان؟

وأجابه الغلام بذعر:

ـ أنا ما اعرفش أيها حاجة.. لكن يابا محمد الحكومة جت في دوار العمدة.. وحيباتوا الليلة ويقوموا من فجر الله علشان يدقوا الحديد بتاع الزراعية الجديدة!

كان واضحا أن الشيخ يوسف قد انزعج، فأرسل غلاما يستدعي محمد أبو سويلم والشيخ حسونة، منذ عرف أن رجال المساحة قد أقبلوا إلى دوار العمدة، لتحديد مساحة الأرض التي ستنزع ملكيتها من زمام القرية لشق السكة الزراعية.

وصاح محمد أبو سويلم:

ـ يانهار أغبر يا أولاد؟! تاني؟! أيوه يا سيدي، ما هم ماشيين في الزراعية زي المحرات في الأرض الطرية!! أيوه يا سيدي.. الزراعية مشيت خلاص وحصلت بلدنا.. الدور على بلدنا.. كلها يومين ويبططوا الأرض.

وغاض لون الشيخ حسونة وجف حلقه وقال: إن القرية قد جربت كل شيء على أي حال.. ويجب أن تفيدها التجربة.

لقد آن لها أن تستفيد من التجربة.

ونهض الجميع، وفي صدورهم تتزايل أشياء.

كان نبضهم يخفق بشدة وهم يقولون بأصوات رهيبة مختلطة: إن الأمور دخلت في الجد!!

حاول محمد أفندي أن يقول شيئا، ولكن الشيخ حسونة قال باقتضاب وصرامة:

- امشوا بنا.

وانفلت من على الكوم ومضى مسرعا في الطريق إلى القرية، ومن ورائه محمد أفندي ودياب.

ولحق بهم محمد أبو سويلم يسحب جاموسته، وصدره يعلو ويهبط.

كانت الأشعة الباهتة الهزيلة تختفي في ظلال المساء والنهار يموت بين أيديهم..

وتأخر دياب قليلا ينتظر محمد أبو سويلم، ثم زعق فجأة:

- يدقوا حديد الزراعية؟! بقى جايين يدقوا حديد الزراعية؟! هيه الحكاية خلاص؟ ياخدوا منا الأرض علشان يعملوا زراعية للباشا! سلامات يا باشا!! وأيمان النبي يا شيخ لأرميهم لك في الترعة، وحياة النبي لأزرعهم زرع بصل.. ياخدوا منا الأرض إزاي؟

وكان صوت دياب كلما ارتفع امتلأ بالحرارة..

ونظر إليه محمد أفندي متعجبا لجرأته أمام خاله.. ولكن خاله لم يقل شيئا..

وتقدم محمد أبو سويلم يسحب جاموسته ويضربها بكفه قائلا في حنق:

- حي.. حي ياللي تنديَبي أنت رخرة..

وتحركت الجاموسة من خلفه، فصاح:

- ياخدوا منا الأرض إزاي بقى يا حضرة الناظر؟! ياخدوها إزاي يا واد يا دياب؟! هيه لعبة يا وله؟! ياخدوها عشان سراية الباشا؟! شي الله يا باشا!!

فقال الشيخ حسونة بهدوء يخفي الغليان والألم والاضطرام والإثارة:

- يا سيدي.. إيش على بالهم يا محمد يا أخويا؟! هما كانوا شافوا من البلد إيه يسكتهم يا أبو سويلم؟! لازم البلد توريهم العين الحمرا.

فانفجر محمد أبو سويلم:

- شافوا من البلد إيه؟ دا كله ولسه ما شافوش؟؟

ثم استطرد متوعدا:

- طب ياما حايشوفوا..

وشرد لحظة ثم أكمل:

ـ طب لما أقول لك.. اركب من الفجر وروح عالمركز فهمهم أنهم مش أشطر من الإنجليز.. مش أقوى من الإنجليز.. قول لهم كده.. لا هم أكتر من الإنجليز اللي إحنا بهدلناهم، ولا إحنا أقل من أبهاتنا اللي بهدلوهم أيام عرابي، وإحنا هوه إحنا بتوع سنة ١٩١٩!! هه.. أنا هنا زي الجدار.. فهمهم كده.. ياخدوا منا الأرض؟!! ما يمكنش أبدا.. والله أبدا.. والله ما هم فاحتين إلا على رقابنا، جاهم حش رقابهم!! يا خي.. كانوا يفلحوا معانا في الانتخابات.. ما جابوا لنا الهجانة.. عملوا إيه؟ يا جدع قول لهم دا الإنجليز جم هنا حرقناهم بالحيا.. يا نهار أغبر على دول حكام وعلى دي حكومة!

وسكت محمد أبو سويلم هو الآخر، وأخذت صور الأيام الرائعة الماضية تطوف بكل خاطره.

حدث هذا أيام ثورة سنة ١٩١٩.. كانت مواكب الرجال تنطلق والقرية كلها تهتف «يحيا العدل» والفلاحون يرددون:

«يا إنجليزي يا حرامي أصولي»

«خدت شعيري وقمحي وفولي»

وكان الشيخ حسونة يرفع يديه ويلوح بأصبعه وهو يقول:

«وبالاستقلال أبشر»

فيردد رجال القرية:

«رغم أنف الإنجليز».

وكان الصغار والفتيات يتصايحون على أنغام راقصة:

«الله حي، سعد جاي.. نخ يا عدلي، اركب يا سعد»

وكانت الأمهات يناغين الأطفال بأغنية تقول:

«فاطمة مراتي.. قاعدة تدادي.. يحيا الأوطان».

كان كل شيء في الحقول، وتحت البيوت الداكنة، وعلى الطرقات المليئة بالتراب والوحل والذباب.. كان كل شيء يهتز وينبض ويعلن إرادة حياة جديدة في وجه أعداء الحياة.

وذات أصيل شاحب من أول الصيف، كان له مثل شحوب هذا الأصيل، هبط على القرية عشرون جنديا من الإنجليز تحملهم البغال، وتغمر رءوسهم وجباههم الطاسات النحاسية، وتبرز من جنوبهم فوهات البنادق والمسدسات والمدافع الرشاشة.

وعسكروا عند أول جرن وجدوه قريبا من جسر النهر.. وأخذوا يقتلعون أعواد القمح اليابسة من الحقول، ويقدمونها للبغال.

وفهمت القرية أن الإنجليز سيفسدون كل حقول القمح في حوض الجسر.

ولو أنهم تركوا حتى يدخلوا القرية في الصباح فسينتزعون من بيوتها الخبز والفضائل والرجال، والطعام، والدجاج وحلي النساء، والشرف، كما صنعوا في كل قرية ظللتها لعنتهم من قبل.

وسهر الشيخ الشناوي في المسجد مع الشيخ حسونة والشيخ يوسف ومحمد أبو سويلم.. وسهر معهم رجال آخرون، وأرسل إليهم العمدة يقول: إنه معهم ولكنه لايستطيع أن يظهر بالتأييد.. وفي الحق أنه كان في تلك الأيام يقف مع القرية دائما، ويغضي عن أوامر الحكومة بمهارة ومكر حتى لا يؤاخذ.

وفي الساعات الحالكة من الليل قبل الفجر، قام محمد أبو سويلم ومعه بعض الرجال والفتيان وغابوا قليلا في الدور ثم خرجوا كلهم إلى حوض الجسر.

كان كل واحد منهم يحمل قطة أو كلبا، عقد في ذيله شريط قماش مبللا بالبترول.

وزحفوا على البطون.. والقطط والكلاب تخمش بلا رحمة، وأيدي الرجال على أفواه الحيوانات الصغيرة، كيلا ينطلق نباح أو مواء أو صوت.

وظلوا يزحفون في صبر حتى أصبحوا أمام الحقول المحيطة بالجرن الذي يعسكر فيه الإنجليز.

وأوقد كل واحد منهم عود كبريت في الشريط المربوط بذيول الحيوانات، ثم قذفوا بها إلى حقول الحنطة، فانطلقت تجري بجنون، وتشعل اللهب في الأعواد اليابسة حول الجرن الذي يقيم فيه عسكر الإنجليز.

وفي لحظة، أصبح المعسكر كأنما هو عقرب كبير حاصرته دائرة كبيرة من لهب ودخان.

ولم يكد يقبل الصباح حتى كان الجرن هشيما يختلط ببقايا عظام محترقة..

ما زال محمد أبو سويلم يذكر تلك الأيام، وما زالت في الأصابع آثار عضة كلب أو قطة.. ومحمد أبو سويلم يذكر أن الشيخ حسونة هو الذي ابتكر هذه الفكرة لمقاومة الإنجليز.. وفي تلك الليلة لم يحاول الشيخ الشناوي أن يتحدث عن نجاسة الكلاب..

ومنذ ذلك اليوم لم يحاول الإنجليز أن يرسلوا إلى القرية رجالا آخرين!!

إن أهل القرية ليذكرون أن سعدا وأصحابه عادوا من المنفى بعد هذه الحادثة بأيام، وأن الذين حكم عليهم بالإعدام والسجن في مصر، أفرج عنهم بعد عودة سعد، وانطلقوا مع الحياة، في الحياة من جديد!

والشيخ حسونة يسترجع هذه الذكريات كلها، وهو يمضي في الطريق الغائم إلى القرية فتشرق في نفسه ثقة بالمستقبل.

كان الإنجليز في تلك الأيام أكثر قوة وأعظم بطشا.. أما الآن فما عساهم يصنعون بالقرية هم وحكومة حزب الشعب؟

وتمهل الشيخ حسونة في مشيه ليقول لمحمد أبو سويلم:

ـ أيوه يا محمد يا خويا كان غيرهم أشطر.. غيرشي الزهق بيخلي الواحد ينسى اللي فات..

فقال محمد أبو سويلم بصوته الذي عادت إليه طلاقته:

ـ باقول لك ما فيش فايدة من الكلام اللي بيعملوه دا كله.. سعد باشا قبل ما يموت قال لهم سيبكوا من الكلام ده.. قال لهم مافيش فايدة.. والله يا شيخ طول ما احنا واقفين لهم كده هه بربطة المعلم.. لا حكومة ولا عمدة ولا باشا ولا إنجليز، ولا أيها واحد يقدر يطول منا مطال..

وتحمس دياب وتدخل في الحديث:

ـ أيوه يابا محمد معلوم.. إحنا زي الجدار..

وهز الشيخ حسونة رأسه في رضا..

وتتابعت خطوات الرجال في صمت قطعته همهمة محمد أبو سويلم:

ـ أيوه يا دياب بس الزمن كاسر.. إيه..

وتنهد محمد أبو سويلم، وكأنما عاد إليه إحساسه بالهزيمة وهو يشيع بنظراته آخر شعاع من النهار.

وتمتم بصوت حزين:

دا أنا جمل صلب، ولكن علَّتي الجمَّال

لوَى خزامي وشيِّلني تقيل الأحمال

آه يا ولدي.. آه ولا تنِّي أقول آه..

ونظر الشيخ حسونة إليه في عتاب، والابتسامة تتسلل إلى غضون وجهه قائلا:

ـ ودا لزومه إيه يعني يا محمد؟ لزومه إيه بقى؟

وتدخل دياب قائلا بثقة:

ـ سلامتك من الآه يابا محمد.. دا أنت سبع.. إحنا السبوعة ومين يعادينا؟.. هه؟!

ثم توقف قائلا إنه عائد إلى الزريبة ليبيت مع البهائم.

وعاد دياب إلى الحقل، بينما تابع الشيخ حسونة سيره، ومن ورائه محمد أفندي، ومحمد أبو سويلم يجر الجاموسة.

وكانوا قد بلغوا مدخل القرية.. فرأوا الشيخ الشناوي مقبلا، وهو يدعك لحيته القصيرة البيضاء، وحبات مسبحته ترتطم ببعضها مرسلة الرنين المعهود الذي ينبه بيوت القرية إلى مقدمه.

وكان الشيخ الشناوي يهز رأسه، ويقلب يده في عجب.. وكان يسرع في خطوه إلى الجامع ليؤذن للمغرب.

وناداه محمد أبو سويلم، فاستدار الشيخ الشناوي إلى طريق حوض الترعة.. ووقف مكانه، وهو يكتم ضحكة، ويصيح:

ـ عملها الواد ابن اسمها إيه.. عملها الواد شعبان.. بالبلغة.. شوفوا ابن الحرام؟ ضربهم بالبلغة.

وتاهت كلماته في ضحكاته المتكسرة، فسأله الشيخ حسونة عن الخبر والسيرة وعن رجال المساحة.

فقال الشيخ الشناوي وهو ما زال واقفا في مكانه يضحك:

ـ الواد شعبان موتنا من كتر الضحك.. أما حتة دور.. ما بتوع المساحة خدوا ركايبهم وطلعوا عالجسر راجعين المركز، والواد بيجري وراهم بالبلغة.

فزعق محمد أبو سويلم بضيق:

ـ طوّل بالك يا سيدنا أمال لما نفهم إيه الخبر وإيه السيرة! هو إنت ما قابلتش الشيخ يوسف؟ دا بعت لنا إنهم بايتين هنا الليلة عشان يدقوا الحديد ـ من فجر الله ـ القوي.

وأجابه الشيخ الشناوي والضحكات ما برحت تنفلت مسترسلة من بين شفتيه، وتقطع كلماته:

ـ دهدي!! أنت مناكف ليه؟! ما قلت لك الواد شعبان المجذوب طاح فيهم بالبلغة.. باقول لك رجعوا المركز تاني هربانين من ضرب اللامؤاخذة.. تعال اخطف لك ركعتين تعال! تعال أحسن اتلوينا على المغرب.. ياللا نلحق المغرب.

فقال محمد أبو سويلم ببساطة وهو يشير إلى جاموسته:

ـ والجاموسة؟ تيجي رخرة تخطف ركعتين!

وأغرق محمد أفندي في الضحك، وابتسم الشيخ حسونة وطلب من الشيخ الشناوي أن يروي لهم ما حدث فالوقت لم يضع لصلاة المغرب.. غير أن الشيخ الشناوي لم يكن يستطيع أن ينتظر، وليس غيره من يقوم بالأذان.

ومضى الشيخ الشناوي مهرولا إلى الجامع.

ومضى الآخرون مع محمد أبو سويلم إلى داره ليترك الجاموسة قبل الذهاب إلى دكان الشيخ يوسف.

وأمام دار محمد أبو سويلم، وقف الثلاثة، وخرجت وصيفة من الدار على صوت أبيها، وألقت نظرة سريعة على الشيخ حسونة ومحمد أفندي..

وتنحنح محمد أفندي قليلا وهو يرى وصيفة تسلم على خاله، فتميل بقامتها الفارعة الغضة، وتضع شفتيها المليئتين على يد خاله.. وتمنى لو تلقى دسامة شفتيها ذات يوم على يده.. أو وجهه!

وجذب الشيخ حسونة يده بسرعة، وربت على كتف وصيفة ونظر إلى وجهها الرائق الجميل، وتنهد قائلا:

ـ ربنا يحميكي يابنتي.. ربنا يحميكي من شر الزمان.. ربنا يسترها وياكى.

وقالت وصيفة لأبيها بخفة:

ـ ما دريتش يابا عاللي جرى في دوار العمدة.. ما عرفتش الشيخ شعبان عمل إيه؟!

فتدخل محمد أفندي متظرفا وهو يصطنع الجرأة:

ـ هو شعبان بقى شيخ كمان؟! شعبان بقى شيخ؟! دي طبلت!

وضحكت وصيفة على استحياء، ورمت على محمد أفندي نظرة سريعة من عينيها الواسعتين الحلوتين، وهزت رأسها بشعرها الكثيف المنسدل تحت الطرحة الريفية السوداء.. وأخذت حبل الجاموسة من يد أبيها، ودخلت بها الدار، بينما كان الشيخ حسونة يفحص وجه محمد أفندي ويقول بتأنيب:

ـ جرى إيه ياسي محمد أفندي.. إحنا حانفتح محضر هنا ولا إيه؟! ما تمشي!!

واقترح محمد أبو سويلم أن يقعدوا في المندرة ليشربوا القهوة معا، ومن السهل إحضار الشيخ يوسف..

وتحمس محمد أفندي للفكرة، ولكن الشيخ حسونة نظر إليهم بانفعال قائلا:

ـ حاكم أنت ما تصدق حتة تقعد فيها وتلزق.. عاوز تلزق..

وبهت محمد أفندي لنظرة خاله، وكلامه.

فمشى خطوة إلى الأمام في الطريق.. وهز يده بالمنشة..

ومضى الثلاثة إلى دكان الشيخ يوسف.

ولم يكد الشيخ يبصرهم قادمين حتى خرج من الدكان مرحبا، ودخل باب البيت صائحا في ترحاب:

ـ أهلا وسهلا.. نورتم.. ولعي اللمبة نمرة عشرة يا بنت وهاتيها في المندرة.

فاستمهله الشيخ حسونة وجلس على دكة أمام الدكان، وقال محمد أبو سويلم:

ـ خلينا هنا نشم النسمة.. الشيخ حسونة آهو شبعان من المنادر في مصر!

وضحك الجميع.

وجلس محمد أفندي ومحمد أبو سويلم إلى جوار الشيخ يوسف على الدكة..

وتنحى علواني والفتيان الذين كانوا يقفون أمام الدكان.. وبدأ كل واحد منهم ينسحب في تردد وخجل والرأس منخفض، بعد أن سلم على الشيخ حسونة بانحناء، ويده تعلو وتنزل بين الصدر والجبهة.. من فرط الاحترام!

ووقف الشيخ يوسف داخل الدكان يروي ما حدث في دوار العمدة منذ لحظات:

فقد أقبل ثلاثة رجال من المساحة على العمدة، وطلبوا منه أن يبادر على الفور فيعين لهم بعض الخفراء الأشداء لحراسة الحديد الذي سيحمل إلى القرية ويدق في الحقول لتحديد الطريق الزراعي الجديد.

وعجب العمدة لهذا الطلب: لماذا يحضر من أجله ثلاثة رجال من المساحة، وفي إشارة تليفونية غِنًى عن الرحلة الطويلة من المركز على ظهور الحمير.

وسأل العمدة إن كان هناك شيء آخر.. فنشر أحدهم أمامه خريطة كبيرة لحوض الترعة، وفيها خطان ظاهران يحددان بينهما الطريق الزراعي الجديد.

وحاول العمدة أن يناقش الرجال، فأغلظ أحدهم له القول.. وكان العمدة يريد أن يسأل مرة أخرى إن كان هناك شيء آخر جاءوا من أجله، فهو لم يتعود بعد أن يحضر «الأفندية» من المركز لينشروا أمامه خريطة!

ولم يسترح الرجال لهذه اللهجة، فطلبوا من العمدة أن يسمع الكلام وينفذ التعليمات في صمت..

وحين بدءوا يستعدون للانصراف، ألح عليهم العمدة أن ينتظروا القهوة، ولكنهم صمموا على الانصراف بلهجة تحمل نوعا من الاحتقار للعمدة.

وتضايق العمدة، ولكنه ظل يتكلم بلا انفعال.. واستأذن لحظة وهمس في أذن أحد الخفراء بكلام.. وأنهى كلامه بتأنيب الخفير بصوت مرتفع لأن القهوة تأخرت، على أسياد البلد ـ رجال المساحة!

وحين عاد العمدة، قام رجال المساحة واستأذنوا في ضيق، غير أن العمدة ظل يلح ويستمهلهم حتى يشربوا القهوة.. وأخيرا.. جلسوا على مضض، بينما أخذ العمدة ينظر في الخريطة، ويسأل ليعطلهم عن الانصراف.

وأقبل شعبان فألقى السلام، ولم يرد عليه غير العمدة..

وارتاح العمدة لمقدم شعبان، وغمز له بطرف عينه..

ووجد شعبان الخريطة مفتوحة، وسمعهم يتحدثون عن الطريق الزراعي فسأل عن الأرض التي ستنتزع ليمر بها الطريق.. وصاح العمدة في شعبان بغضب مصطنع:

ـ اطلع من هنا يا شيخ يا مجذوب..

ثم غمز بعينه..

فتقدم شعبان، ومد نظره، ويده إلى الخريطة ووجم لحظة، ثم أطلق شهقة مفاجئة:

ـ يا حي يا قيوم! حي!!

ونظر إليه الرجال بتقزز.. وتعجلوا القهوة، لينصرفوا.

ولكنه اقترب منهم حتى أوشك أن يلتصق بهم، وسأل إن كانوا سيهدمون «مقام سيدي رمضان» القائم على رأس المقابر في حوض الترعة!

ولم يجبه أحد.

وأخذ ينظر إلى الخريطة أمام العمدة.. وسأله أين يقع ضريح سيدي رمضان بين هذه الخطوط المرسومة على الورق.

ونهره العمدة، وهو يغمز إليه بعينه خفية.

وابتعد شعبان قليلا، ووقف يهدر بقسم غليظ إنه سيضرب بالبلغة كل من يحاول هدم مقام «سيدي رمضان».

ثم انتفض كأنه في حلقة ذكر، وصاح قائلا إن عليه «العهد» لسيدي رمضان.. وأكمل:

ـ أعمل إيه في العهد؟! شي لله يا سيدي رمضان!! الفاتحة لسيدي رمضان ولسيدي البيومي ولسيدي المتبولى! لهم جميعا الفاتحة.

وبدأ يقرأ الفاتحة.. وقد بسط راحتيه أمام فمه..

ولاحظ أن رجال المساحة لايقرءون.. فلكزهم بعنف تنبيها إلى قراءة الفاتحة، وعاد يبسط راحتيه أمام فمه واستمر في قراءة الفاتحة.

وتضايق رجال المساحة، وطلبوا من العمدة أن يطرد هذا المجذوب، وأخذوا يلعنون «سيدي رمضان» والأسياد جميعا!

وقال لهم العمدة محذرا بحكمة مصطنعة: إن شعبان رجل من أهل الطريق، ولا أحد يعرف له بلدا!.. ونصح العمدة الرجال بتجنبه لأنه مبارك الدعوات.. وهو ـ على ذلك ـ مجذوب، وليس على المجذوب حرج!

وغمز العمدة بعينه خفية مرة أخرى لشعبان وصاح فيه:

ـ اطلع من هنا يا راجل يا مجذوب.. شوف لك بلد غير دي من بلاد الله.. امشي كده وأنت عامل زي غراب البين.. أنت حاتزعل الأفندية من بلدنا!

ولكن شعبان احتك بأحد رجال المساحة، وطلب منه أن يستغفر، لأنه شتم سيدي رمضان، وإلا نزلت عليه كرامة من سيدي رمضان، فانشل في مكانه!

ثم أمسك بيده كتف الرجل الآخر وأخذ ينهره بعنف، ويستعطفه ألا يمس مقام سيدي رمضان.. وألا يسمح لأحد أن يهد «المقام المبارك»!

وصاح فيه الرجل ودفعه في صدره:

ـ غور بقى يا أخي! ياك ينهد المقام على دماغك! قطيعة تقطعك أنت وسيدك رمضان.. غور كده حاتقطع البدلة اللي جايبينها بالتيلة.. يعني شايفنا مبسوطين قوي من الشغلة دي، جاي تقرفنا كمان!

وفجأة انحنى شعبان على الأرض، وهو يصرخ في تشنج:

ـ آه أنت بتخوض في سيدي رمضان؟! بركاتك يا سيدي رمضان.. كلهم بيشتموك يا سيدي رمضان!

ثم نزع البلغة من قدمه، وهوى بها على رأس الموظف.. وهو يقول متطوحا على نغمة الذكر كأنه في حلقة:

ـ «يا من يرى ولا يرى.. أعط البعوض جناحها!».

وروع الموظف من المباغتة العجيبة المهينة ودارت رأسه من شدة الضربة، وشعبان يهوي على رأسه بالبلغة الجامدة المؤلمة.

ووقف زميله يصيح:

ـ حوش ياعمدة حوش.. أنت المسئول عن ده كله.. أنت ماسك فينا نقعد عشان كده يا عمدة.. أنا فاهم خبث الفلاحين.. والله لأرفدك.. لا بد من رفدك يا عمدة! أنت كنت بتوشوش الخفير علشان ينادي له! أنا فاهم!

واستدار شعبان إليه، والبلغة في يده، وظل يجري وراءه بالبلغة الجافة القوية الجلد حتى ركب حماره!

وكان أول رجل ضربه شعبان، يقفز إلى حماره ويده على رأسه وهو يصيح:

ـ دي آخر خدمة الحكومة؟! بالبلغة.. والله لأخرب بيتك يا عمدة!! دا اعتداء على موظف أثناء تأدية وظيفته!! يعني أضرب بالرصاص دلوقت!

وكان الزميل الثالث قد اختفى منذ بدأ شعبان يرفع البلغة، فقد أدرك بتجربته الفخ الذي نصبه العمدة، فركب حماره، وجرى به إلى المركز.

وكان العمدة يخفي ضحكة وإحساسه بالظفر وهو يقول في ثورة مفتعلة:

ـ عيب يا ولد كده تهينهم في بلدنا! عيب كده ولو أنهم أهانوا العمدة كتير!! حوش يا غفير!!.. ما قلت لك يا سيدنا الأفندي من الصبح دا راجل على الله ومجذوب!! اسكت بقى يا واد يا مجذوب.. اسكت كفاية كده كسفتنا مع الأفندي.. هم الأفندية ينضربوا بالبلغة يا ولد.. دول عاوزين شبشب هوانمى!!

وقبل أن يبتعد الأفندية بحميرهم صاح العمدة في نفس اللهجة المفتعلة:

ـ امسكوه ياغفر.. امسكوه ودوه المركز.. اوعى يهرب منكم يا غفر! حاسبوا لايطير منكم أحس دا من أهل الخطوة! ما تخافوش منه.. امسكوه امسكوه.

غير أن أحدا من الخفراء لم يكن واقفا إذ ذاك.. فقد اختفوا جميعا بقدرة قادر.

وعندما كان الموظفون الثلاثة في الطريق إلى الجسر.. أطلق العمدة ضحكاته بحرية وهو يقول لشعبان:

ـ والله عفارم عليك يا شعبان! أيوه كده! متعنطظين كده، وما حدش طايقهم.. هما فاكرين إني أنا هفية.. خليهم يتعلموا إزاي يكلموا العمد! مش ديتها شكوى للمأمور الجديد.. يشتكوا للمأمور.

ثم همس العمدة لشعبان:

ـ اطلع أنت من البلد الليلة..

وترك شعبان الدوار إلى بلدة أخرى، واستعد العمدة للإجابة عن المأمور فيما لو سأله عما حدث.. سيقول للمأمور إن الرجل المجذوب ليس من القرية، وليس له فيها أرض ولا أهل ولا أحد يعرفه، وإنما هو سائل على الطريق، من أهل الله.. وقد حاول العمدة أن يمنعه أو يقبض عليه، ولكنه اختفى.. فهو من أصحاب الخطوة!

لم يكد الشيخ يوسف يروي للشيخ حسونة ومحمد أبو سويلم ومحمد أفندي ما حدث بين شعبان ورجال المساحة، حتى استغرق الجميع في الضحك.

وقال محمد أبو سويلم، وهو ينظر إلى داخل الدكان:

ـ أما العمدة ده عليه ملاعيب يا جدعان!! دا لو يشغل مخه دهه على الإنجليز كان يطلعهم من البر بالسياسة زي ما دخلوا بالسياسة..

وهز الشيخ حسونة رأسه، ولم يضحك، وقال بحذر:

ـ كلكم مبسوطين من الملعوب ده؟.. لكن أنا مش مبسوط! يعني العملة اللي عملها الواد شعبان عاجباكم كلكم، ولكن ما قولكم بقى إنها مش عاجباني؟! وبكره تشوفوا كلامي.. إن عشت راح أفكركم، وإن مت ابقوا قولوا الله يرحمه، كان بيحسب حساب كل حاجة.

وخيم على الجميع وجوم، وحذر، وقلق.

وكانت كلمات الشيخ حسونة عن احتمال موته قد هزتهم إلى الأعماق، ولم يجد واحد منهم كلاما يقوله.

ونظروا في حيرة إلى الشيخ حسونة.. وكانوا يعلمون بالتجربة أن ظن الشيخ حسونة لا يخيب أبدا، وأن كل ما يحسبه يلقاه، ولو بعد سنين!

وخالجت حيرتهم الكآبة، والمخاوف المبهمة..

وبعد قليل همس الشيخ حسونة:

ـ حاجة بالعقل: بقى العمدة يضرب رجال المساحة، ويخلي شعبان النجس هو اللي يضربهم؟ طيب قولوا لي إيه اللي جاب شعبان في البلد تاني؟.. إيه اللي يوجده في البندر يوم زيارة الوزراء؟

قولوا لي بس.. إيه اللي جابه في الوقت ده بالذات؟ الملعوب لسه حايتلعب يا أبو سويلم، ولسه شعبان له شغل كتير، وياعالم إيه الشغل ده؟!.. نوعه إيه؟! ما حدش لسه يعرف؟ دا لسه له دور..

وتهلل وجه الشيخ يوسف، واندفعت منه كلمات كثيرة يؤكد بها أنه رجل ذكي، يفهم الدور كله، وأنه بينه وبين نفسه قد فكر في الأمر، ولكنه لم يقل لأحد، لأن أحدا لن يهتم بما يقول.. ولكنه يعرف أن شعبان لا يخرج عن يد العمدة أبدا، وهو رجل ضائع استعمله العمدة قديما ليسمم بهائم أعدائه أو ليحرق دورهم.. وحماه العمدة دائما، ورسم له خطوات الهجرة من البلد كلما طاردته الشبهات!

وظل الشيخ يوسف يقول: إن شعبان هذا غادر القرية منذ أعوام عندما توالت العرائض إلى المركز تتهمه بإحراق حقل قمح يملكه أحد أعيان الناحية البحرية من أعداء العمدة، ولكنه عاد بلا مناسبة عندما كان الرجال غائبين في المركز، وفي يوم الاحتفال باستقبال الوزراء ظهر في المركز، ثم عاد مرة أخرى إلى القرية.

وحين عاد إلى القرية كان يلبس عمامة ذات شال أخضر يسميه «شرف سيدي رمضان» وأخذ يتردد على الجامع بانتظام، وهو لم يركعها من قبل، وظل يقول عن نفسه إنه وجد الهداية!

وعندما انتهى الشيخ يوسف من كلامه سكت الجميع.

وأخيرا قال محمد أبو سويلم، إن شعبان الذي لم يعرف أحد أبدا من هو أبوه، عاد إلى القرية في مهمة للعمدة، ربما ليحرق دار محمد أبو سويلم نفسه، أو ليسرق جاموسته، أو ليضع أمامها السم!

ثم هز محمد أبو سويلم رأسه قائلا:

ـ لكن دا بعده.. لا هوه، ولا عمدته!

ونظر الشيخ حسونة إلى محمد أبو سويلم وقال بخطورة: إن شعبان لم يعد من أجل شيء كهذا.. وعلى أي حال فسيظهر كل شيء بعد أيام.. ومن يعش ير!

وساد الصمت برهة، وأخذ محمد أفندي ينظر إلى خاله في إجلال. فهذا رجل يعرف كل شيء عن الأمريكتين، وفي مصر، وفي القرية.

وأخيرا انصرف الجميع إلى دورهم.

***

وباتت القرية في تلك الليلة تتحدث بإكبار عن شعبان، الذي ضرب رجال الحكومة بالبلغة.

وقال بعض الرجال: إن شعبان انصلح حاله وإنه أصبح الآن قوة تساعد القرية في موضوع السكة الزراعية.

وعجب آخرون من هذا التحول المفاجئ في شعبان..

ولكنهم وثقوا به إلى آخر حد..

وقال بعض النساء: إن عبد الهادي نفسه لا يقدر على ما عمله شعبان..

وكان شعبان من قبل رجلا يعيش في القرية، دون أن يعرف الحقول.. لم يحمل في يده فأسا، ولا أحد يذكر من أين جاءت أمه، فقد تزوجها إسكافي عجوز، كان يقيم بالبلدة، وبعد ستة شهور من الزواج مات الإسكافي، وبعد عام من موته ولد شعبان!

وغابت هي عن القرية يوما وعادت بفتاة أخرى وقالت عنها: إنها أختها.. وتركت لها ابنها شعبان.. وذهبت هي إلى البيوت التي تحجب فيها النساء، لتغسل، وتقدح الفرن للخبيز.

وعندما كبر شعبان حاولت أمه أن تعلمه صناعة أبيه، وأرسلته إلى إسكافي في قرية مجاورة، ولكنه لم يفلح وتعوَّد أن يسرق وهو سائر في الطريق، أن يخطف كوز ذرة أو أي شيء تطوله يده من هذا الحقل أو ذاك!

وحين خشن صوته ضرب أمه، وخالته.

وتزوجت خالته وتركت الدار، فظل يضرب أمه بلا سبب مفهوم.

وقد ترك القرية ذات يوم وهو فتى في السادسة عشرة، ووجد مركبا محملة بالقلل والبلاليص راسية على شاطئ القرية فرحل معها وغاب عن القرية ثلاثة أعوام ثم عاد ومعه الشباك والخطاطيف، وبدأ يصيد السمك.

وتزوج فتاة من القرية، وأنجب منها طفلة اسمها «ستهم» ولكنه هاجر وحده، ثم عاد بعد حين يعيش في القرية بلا عمل بعيدا عن زوجته وابنته «ستهم».

وبعد قليل ألفت القرية خروجه في الساعات الأخيرة في الليل ليصيد الذئاب.

وذات يوم فسدت بندقية من أحد الخفراء، فاقترح عليه شعبان أن يصلحها، وأصلحها بالفعل..

ومنذ ذلك اليوم، والقرية تنظر إليه في عجب..

إنه يعيش بين الحقول ومع ذلك فهو لا يعرفها، ولا يحبها، ولا يستطيع أن يعمل بها.. وهو لا يطيق أن يقيم في القرية سنوات متوالية!

وهو بعد، يتقن أشياء باهرة لا تتقنها القرية..

وكانت الفتيات يتحدثن عنه برعب، فهن يعرفن أنه إذا صادف فتاة وحيدة لم يتركها تفلت منه أبدا، ويجذبها إلى مكان يختبئ فيه معها، ويحذرها إن صرخت أو امتنعت عليه أن يقتلها كما يقتل ذئبا، أو سمكة كبيرة!

وكان شعبان طوال عهده في القرية يغيب عنها أحيانا لبضعة أيام، ثم يعود ومعه كميات من الحشيش يبيع منها علنا للراغبين من أهل القرية.. أو القرى المجاورة.

وكان يرسل الفتيات إلى مصر ليشتغلن خادمات، ولا يعدن منها أبدا، و«زنوبة» ـ أخت «خضرة» ـ التي عادت إلى القرية فيما بعد بلون نحاسي، ولحم مكتنز، وذهب على الصدر، وأحمر على الشفاه.. كانت «زنوبة» هذه التي عادت بحذاء ذي كعب وباسم جديد هو إحسان هانم، كانت «زنوبة» هي إحدى الفتيات اللواتي أرسلهن شعبان إلى المدينة.. وكانت من أهله!

وفي الحق أن أحدا لم يكن يعرف له مهنة واضحة فهو في النهار يصلح البنادق أو يبيع الحشيش.. وهو في الفجر يصيد السمك، أو يصيد الذئاب والثعالب ويسلخ جلدها، ويبيعه في المدينة.

فإذا أقيم في القرية أو إحدى القرى المجاورة مولد أو ذكر، وأقبل من بلاد بعيدة رجال صفر الوجوه، طوال الشعر، يتطوحون تحت البيارق.. إذا حدث هذا، انخرط شعبان في الموكب، وتطوح في حلقات الذكر، وهز نفسه في حركات متشنجة، وظل يتواثب حتى يصرخ بكلام مختلط لا معنى له، فيقول الناس عنه إنه «يضرب بالسوريانى».. وإنه وصل!

وشعبان رجل طويل نحيل البدن، غريب الحركة، عصبي الإشارة، في السمرة من وجهه أغوار كثيرة، كأنما حفرتها الدموع.. وهو نشيط سريع، يشيع السواد في أسنانه المتهشمة، يتلوى دائما، ويهز كل جسده إذا تكلم.. ولعينيه الضيقتين نظرات حادة وبريق أخاذ.

وهو بكل نحوله وطوله وبدنه الملولب ولونه الكالح ونظراته الخاطفة الملتهبة، كان يذكِّر الفلاحين بالثعبان الأزرق.

وكان هو نفسه يصفر للثعابين فتسيل ويمسكها ببساطة وهو يضحك قائلا:

ـ مدد يا رفاعي مدد.

والقرية تذكر أن شعبان دخل بيوتا في القرية ليخرج منها الثعابين، فأخرج الثعابين، ولبد هو..

وفي هذه البيوت عاشت بنات جميلات.

ومن أجل هذا، فقد ظلت بيوت كثيرة في القرية لا تسمح له بالدخول، وفضلت أن تعيش فيها الثعابين ولا يعيش فيها شعبان.

هكذا كانت سيرة شعبان في القرية..

ومنذ غادر القرية في السادسة عشرة وعاد إليها بعد عامين، ظل من بعد هذا أكثر من عشرين عاما يقيم في القرية لبعض الوقت يصفر للثعابين والنساء ويصيد الذئاب والسمك ويصلح البنادق، ثم يختفي فجأة ليعود وحده، أو مع سيارة من المشايخ والمجاذيب فيقيمون حلقات الذكر، ثم يختفي من جديد..

على أنه عندما غادر القرية لآخر مرة غاب طويلا ثم عاد فجأة يلبس الشرف الأخضر ويطلق على نفسه الشيخ شعبان، ويمسك مسبحة من خرز أسود، ويعتكف الساعات الطوال في المسجد.

وفي الأيام الأولى حاول أن يدخل بيت محمد أبو سويلم، ولكن وصيفة ردته عند الباب، وطلبت منه ألا يدخل ما دام أبوها ليس موجودا.. فألقى رأسه إلى الوراء وأرخى حاجبيه، ومد يده إلى صدر وصيفة بدعوى أنه يباركها وهو يقول بشهقة:

ـ الله..

ونفرت وصيفة بعيدا عنه، حين وجدت يديه تمتدان إلى صدرها ودخلت إلى وسط الدار، بعد أن أغلقت الباب في وجهه.. وتركته يجلس على المصطبة في شمس العصر.

وحين أقبل محمد أبو سويلم بعد المغرب، ووجده جالسا أمام المصطبة عامله بجفاء وسأله عما يريد منه.. ثم قال في غلظة: إن القرية ـ في عامها هذا ـ وسط المحنة ـ لن تقيم الموالد، فهي لا تملك أن تقدم طعاما للرجال المجاذيب الذين يقبلون تحت البيارق.. وطلب منه محمد أبو سويلم بعد هذا ألا يقعد على مصطبته، وأن يبعد عنه!

ولم يعد شعبان يفكر في دخول دار محمد أبو سويلم، أو الجلوس على مصطبته.

ثم بدأ يتردد على دكان الشيخ يوسف، ويقف أمامه مع الفتيان، يروي لهم عما شاهد في رحلاته ويضحكهم.. ويشرد قليلا ليدخل في حديث لا ينتهي عن السكة الزراعية الجديدة، ويعلن سخطه ـ بلا تحفظ ـ على العمدة الذي يكيد للقرية، ويقول كلاما جارحا عن العمدة العجوز، وزوجته الشابة!

وكان الفتيان يستمعون إليه حائرين أول الأمر..

وكان الشيخ يوسف نفسه ينظر في عجب إلى هجومه السافر العنيف على العمدة، وإلى لهجته التي لم يجرؤ أحد على التحدث بها من قبل حتى عبد الهادي!

وفي الحق إن الشيخ يوسف والفتيان الذين تعودوا أن يقفوا أمام باب دكانه كانوا يفكرون دائما فيما يعلنه شعبان من عدم اهتمامه بالعمدة، أو المأمور أو المدير، أوالحكومة نفسها.. فهم جميعا تحت مداسه! وكان شعبان يقول هذا دائما بأعلى صوت.

على أن شعبان قد وضع حدا لحيرة الفتيان فيه.. وبدأ الناس في القرية ينظرون إليه بوصفه بطلا صنع شيئا خارقا، لا يصنعه أحد غيره.

وظلت القرية أياما تمجد شعبان وهي تتحدث عن هجومه بالبلغة..

وخلال هذه الأيام كان الشيخ حسونة قد ذهب إلى المركز مرتين وعاد وهو مغموم.. فقد كلم بعض أصدقائه في المركز، وجلس في الأجزاخانة هناك مع صاحب الأجزاخانة، وتحدث إلى صديقه القديم القاضي الشرعي، وقابل المحامي الشاب الذي كان نائبا عن دائرتهم قبل أن يحكم حزب الشعب.. والتقى ببعض أهل القرى المجاورة الذين يعملون في المدينة كتبة في المديرية أو المساحة أو النيابة أو المدرسة الأميرية.. وعرف منهم أن السكة الزراعية ستشق بعد أيام، ولا فائدة من أي كلام ما دام حزب الشعب هو صاحب الحكومة!

وتأكد الشيخ حسونة من أن السكة الزراعية تتلوى كالثعبان لتتفادى أرض الملاك الكبار، أو المقربين من حزب الشعب.

وعرف أيضا أن أهل القرى المجاورة أرسلوا الوفود ومئات البرقيات والعرائض إلى الحكومة والصحف المعارضة.. ولكن الحكومة مصممة على شق السكة الزراعية مهما يكن من اعتراض.

وخلال الأيام التي تحدثت فيها القرية بإعجاب عن شعبان، كانت أيام الري الجديدة قد بدأت، وخرج عبد الهادي إلى الساقية يديرها في أول أيام الري، فلحق به شعبان يقول له: إن دياب وأولاد الناحية الشرقية كانوا يريدون ضربه، وأنهم على أي حال متربصون له ليقتلوه إن أدار الساقية إلى ما بعد المغرب.

وخلال هذه الأيام نفسها ذهب علواني فرحا إلى الشيخ يوسف وهمس في أذنه أن شعبان اتفق معه على قتل العمدة قبل أن تشق السكة الزراعية.. وأضاف علواني هامسا أن المأمورية سهلة، ولا تحتاج إلى أكثر من خمسة عشر جنيها يأخذ منها شعبان عشرة، وأن على الشيخ يوسف أن يشترك مع عبد الهادي ومحمد أبو سويلم ومحمد أفندي في دفع الجنيهات الخمسة عشر.. أتعاب قتل العمدة.. وسيقوم الشيخ شعبان بترتيب كل شيء.

وحين سمع الشيخ يوسف هذا، جزع وملأه خوف لا يعرف من أين انبثق، وزعق في علواني أنه لا يريد أن يسمع منه كلاما عن الشيخ شعبان هذا أو الشيخ قرد!

ووقف علواني أمامه مذهولا، فانقض عليه الشيخ يوسف يهزه من كتفيه، ويسأله بإلحاح وتأنيب عن كل ما يدور في الخفاء بينه وبين شعبان.

واعترف علواني للشيخ يوسف أنه روى لشعبان كيف سرق مخازن العمدة.. وإذ ذاك صرخ الشيخ يوسف:

ـ طيب غور من هنا يا عرباوي يا أهبل .. غور.. اوعى أشوف خلقتك.. جاتكو شوطة ما أخييكم! غور ما تقفشي قدامي كده زي العمل الردي!

وانصرف علواني في ندم وهو يتمتم:

ـ والله يا شيخ يوسف أنا برضه زي ماتقول كده قلبي مقبوض من الواد الشيخ شعبان ده!

فازداد الشيخ يوسف حنقا وظل يصرخ:

ـ شيخ إيه وهباب إيه؟!.. شخشخت عضامك من بدرى! غور باقول لك!

ولم يكد علواني يبتعد عن دكان الشيخ يوسف ويغيب ساعة حتى أمسك به بعض الخفراء، وذهبوا به إلى المركز.. للتحقيق معه في مقتل خضرة..

وعجب الشيخ يوسف عندما سمع هذا الكلام.. فلم يكن يتوقع أن تصح مخاوفه بهذه السرعة، وسأل نفسه: لماذا تثار قضية خضرة في هذه الأيام؟ ولماذا يقبض على علواني الآن؟ لماذا يتهم علواني بقتل خضرة؟!

لماذا يقتلها علواني؟

ولكن هل قتلت خضرة حقا؟!

ووثبت إلى ذهن الشيخ يوسف.. صورة شعبان، وتذكر ملاعيب العمدة.. فامتلأ بالحنق والغليان..

وتخايلت أمامه صورة لعلواني في الحديد وتخيله وهو يضرب بالكرباج، ويصب في فمه بول الخيل، ويلقى على الأرض ليدوسه العساكر بالأحذية الغليظة، ثم يحمل آخر الأمر إلى المشنقة فيصرخ لحظة بأنه بريء، ولكن الحبل يلف حول عنقه، فيهوي بلا حراك، وقد انطفأت منه الابتسامة، وغاض فيه كل شيء: الذكريات والأمل والحياة..

وفاضت نفسه إشفاقا على الولد العربي المسكين الذي لا أهل له في القرية ولا سكن، ولا أحد على الإطلاق يبكي عليه إن راح أو جاء..

ودعك الشيخ يوسف وجهه بيديه.. وتنهد..

وأحس بالفراغ من حوله فجأة.. وأسند وجهه بين راحتيه.

وعجب لنفسه: إنه لم يكن يعرف أن علواني عزيز عليه إلى هذا الحد.

وعندما رفع الشيخ يوسف رأسه من بين يديه كانت الدموع تملأ الغضون من وجهه النحيل!

لم ينس العمدة للقرية أن نساءها رمينه بروث البهائم ليفرج عن الرجال المحبوسين في سجن المركز.

وعاد الرجال منذ حين، يستقبلون الحياة المريرة والمعركة من جديد.

ومن الحق أن العمدة استطاع أن يجيد رسم خطة الانتقام، فاصطنع لنفسه مشعوذا نبذته الأرض فغاب سنوات، ثم عاد يحمل الشرف الأخضر، وكراهية الأرض التي خاب عليها، عاد يهذي بالأوراد والمدائح النبوية.

واتفق شعبان مع العمدة على أن يتخذ من المواقف ما يجعله بطلا يكسب الثقة التي لم يكسبها من قبل أبدا.

وبالفعل ضرب بعض رجال الحكومة في دوار العمدة، وجرى وراءهم بالبلغة.

وباسم هذه البطولة ـ الخارقة ـ استطاع أن يتحدث إلى الناس في القرية فيصدقوه، ويؤمنوا به.

وبدأ يختلق كلاما لا أصل له.. ليوقع الخلاف بين الذين يعانون من نفس المأساة ويحاربون نفس العدو..وليتعرف على اتجاهات الناس ضد العمدة، وعلى كل الأسرار.

وعرف شعبان أن علواني الفتى العربي هو الذي سرق القمح والذرة من مخازن العمدة.

وفجأة قبض على علواني بتهمة قتل خضرة.

وفجأة بدأ الأصدقاء يختلفون، ويتباعدون.

الأصدقاء الذين عاشوا معا أجمل سنوات العمر.. وتعذبوا معا، وما زالوا يناضلون كتفا إلى كتف دفاعا عن الأرض.

وعندما قبض على علواني أخذت القرية كلها تتساءل في عجب لماذا يقتل فتى كعلواني فتاة كخضرة؟

وقالت وصيفة: إنها عرفت خضرة جيدا، وقد حدثتها خضرة عن كل شيء.. ولا يمكن أن يكون علواني هو الذي قتلها.. لا يمكن! لا يمكن أن يكون هو علواني أو أي رجل غيره في البلد.

ونظرت أم وصيفة إلى الإوز يتدحرج وسط الدار، ورفعت عصا من القش هشت بها على الإوز، وظلت تسوقه بحذر حتى دخل كله حظيرة الماشية إلا إوزة واحدة.. فانقضت عليها وأمسكتها، وطلبت من وصيفة أن تحضر لها سكينا تذبح بها الإوزة قبل أن يجيء العصر، ويروح وقت الطبخ.. فالشيخ حسونة هو ضيفهم على العشاء الليلة!

وتلكأت وصيفة وهي تبحث عن السكين إلى جوار الزريبة في مدخل الدار، وعادت تقول لأمها إن علواني لايمكن أن يقتل خضرة.. وإذ ذاك انفجرت أمها تأمرها ألا تتحدث مرة أخرى عن علواني أو

غيره من الرجال.

واضطربت وصيفة قليلا أمام صراخ أمها المفاجئ.. ولكنها استعادت نفسها بسرعة، واستدارت إليها تسألها في غلظة، لماذا تصرخ هكذا في وجوه الناس؟!

وهمهمت الأم بصوت كسير:

ـ اللي ينقطع شعبان ابن ستهم شايع في البلد كلها إنك بقيتي زي خضرة.. لايفة على علواني شوط، وشوط على محمد أفندي، ولايفة على عبد الهادي ودياب كمان.

وشهقت وصيفة وضربت صدرها بعنف، وغاض لونها، وأجهشت بالبكاء وهي تقول:

ـ الشيخ شعبان؟.. الشيخ شعبان هو اللي قال كده.. جاه قطع لسانه! إن شاء الله ينصاب بريح النقطة!.. يا حوستي.. آه يا ناري لو أشوفه قدامي دلوقت!

وانفلتت إلى باب الدار، فصرخت فيها أمها تأمرها أن تعود، وتخرس.

وسكتت الأم قليلا، ثم قالت في إذعان والإوزة تزعق في يدها:

ـ اكفي عالخبر ماجور بقى.. لنا رب..

ثم كشفت رأسها ورفعت وجهها إلى فوق وهي تقول في ضراعة:

ـ يا رب!

وأجهشت الأم نفسها بالبكاء.. ومضت تسن السكين على حافة الجرة، والإوزة في يدها تزعق.

غير أن وصيفة لم تستطع أن تخرس، فقد ظلت تذهب وتجيء في وسط الدار، وعيناها على الباب المفتوح تنفذان إلى الطريق في انتظار مرور شعبان.

ومر عبد الهادي من الطريق، فتزايلت وصيفة، وتضرج وجهها، وشعرت أنها تكاد تقع من طولها.. ولم تعرف كيف تصنع.

ولمحها عبد الهادي، فتوقف، وقال بإهمال مصطنع:

ـ عواف يا وصيفة.

وراح لونها تماما، وشعرت بأذنيها تلتهبان، وبأنفاس ثقيلة حارة ترتفع متلاحقة من أعماق صدرها، وتخنقها.

ووقف عبد الهادي ينظر إليها وهي ترتعد:

ـ دهدي! خبر إيه؟ ما بترديش ليه؟.. ما لك؟.. ركبك عفريت؟ الله.. جرالك إيه؟ انتي عيانة؟ جاتلك الوريته؟

وفي الحق إنها كانت ترتعش، ووجهها محتقن تماما، كأنها مريضة بالملاريا.

واستطاعت أن تقول له آخر الأمر بصوت مجهد:

ـ روح يا عبد الهادي روح لحالك.. روح أحسن شعبان ولا حد يشوفني واقفة قدامك كده يبقى الكلام صدق! يبقى شعبان كلامه صدق!

وجرت إلى داخل الدار، وما زالت الدموع تنهمر من عينيها بلا توقف.

وأدرك عبد الهادي أن شعبان قال كلاما عنه وعن وصيفة، فمضى محنقا ينوي به شرا.

وعبد الهادي على الرغم من كل شيء، ما زال يفكر في الزواج من وصيفة.

ونضارة القطن الأبيض الجديد في الحقول تحمل إلى نفسه الفرحة والأمل، وهو يعتقد أنها تحمل إلى وصيفة نفس الأمل ونفس الفرحة.

فهو ينوي أن يجمع القطن بعد أسابيع قليلة، ليبيعه لأحد الخواجات الذين يزورون القرية في مواسم القطن، وعندما يقبض، يؤجل مال الحكومة ويدفع مهر وصيفة، ويتزوج.

وعبد الهادي يمضي منطويا على حلمه هذا السعيد، منذ عاد من سجن المركز، فقد كلم محمد أبو سويلم في الموضوع أول ليلة في السجن ونهره أبو سويلم، لأن السجن ليس هو المكان الصالح للاتفاق على الزواج، ولكن عبد الهادي كلمه مرة ثانية في طريق العودة، فوافق وأجله إلى ما بعد جمع القطن.

على أن عبد الهادي لم يكد يرى حال وصيفة، ويسمع ما قالته، ولم يكد يشعر بحيرتها وعذابها واضطرابها العظيم، حتى أقسم أن يكسر رقبة شعبان أمام دوار العمدة نفسه.

ومشى عبد الهادي ليضرب شعبان، ومن يتعرض له!

وحين كان يمضي مندفعا إلى دوار العمدة باحثا عن شعبان، مر في طريقه بدكان الشيخ يوسف، وسمع صوته يرتفع، محتدا على أحد الفتيان الذين عادوا إلى القرية بلا عمل.

كان الشيخ يوسف يلعن الولد وأباه وأمه، ويعيره بشعره الطويل كشعر البنات.. ويسخر من لهجته القاهرية المائعة كنسوان آخر الزمن، والفتى ينظر إلى الشيخ يوسف في إهمال، ويمر بيده المعروقة خلال رأسه العارية، ويطمئن على ثبات الخصلات المصفرة المصبوغة بالأكسجين في شعره الأسود اللامع، ثم يؤكد للشيخ يوسف أن شق السكة الزراعية الجديدة سيكون في مصلحة البلد لأنه يوجِد عملا لأولاد البلد العاطلين.

وظل الشيخ يوسف يصرخ:

ـ يا واد افهم.. بقى هيه الحكومة ناقصاكم؟!.. بقى هيه يعني لسه حاتدور على أولاد البلد العواطلية علشان تشغلهم في الزراعية! وما تجيبشي ليه من عواطلية البندر؟.. وعمال الطرق راحوا فين؟ هوه الشغل بالساهل كده؟! يا واد دا الناس بتجري عليه وتشقى وبرضه ما تلاقيش.. أنت مش كنت خدام في مصر.. تعرف تعمل إيه هنا؟! حاتمسح بلاط الزراعية؟ حاتطبخ في الزراعية؟ حاتشتغل إيه في الزراعية بس؟ تعرف تمسك فاس؟ تعرف تفحت؟ جاتكو وجع القلب زي ماوجعتو قلبي.. جاتكو زيحة تزيحكم.

ونظر عبد الهادي طويلا إلى الفتى.

كان وجه الفتى جامدا برونزيا.. وكانت عيناه زائغتين.. وكان يهز كتفه في رفض لكل مايسمع.

وقال له عبد الهادي باشمئزاز:

ـ والقيراطين بتوع أبوك ماهم حيروحوا في الزراعية يا حضرة لفندي يابو شعر يابتاع مصر يا اللي بتفهم! أرض أبوك حاتكلها الزراعية.. حاتكلوا منين أنتو والجاموسة؟ حاتشتري تبن للجاموسة ولاحاتشتري الطفح اللي بتطفحه من غير عرق.. حاتشتري المش والعيش الدرة.

ثم أكمل عبد الهادي مقلدا لهجة أهل مصر:

ـ ولا حاتشتري.. جبنا؟!

وضحك الشيخ يوسف طويلا، وضرب كفا بكف.. ثم هز رأسه قائلا:

ـ بقى بذمتك دول ناس؟ بقى دي بلد؟ يا خويا العيال العواطلية كلهم انقلب مخهم.. قلب مخهم الواد شعبان.. راكبهم عفريت اسمه الشغل.. الواد شعبان فهمهم إن الحكومة حاتشغلهم في الزراعية.. ما فيش غير ولدين تلاتة كانوا صنايعية في مصر هم اللي فاهمين الدور والباقي خلاص انقلب مخهم.

وزمجر عبد الهادي وهو يصر على أسنانه:

ـ شعبان؟ طب يا شعبان يابن ستهم.. والله لو كان عمرك أردب برسيم لأشحتره وألمه حبة حبة يا شعبان الكلب.. صبرك عليّ يا شعبان.

فقال الفتى وهو يتهيأ للانصراف:

ـ وما له شعبان؟.. الشيخ شعبان عمل عملة عمر البلد ما سمعت عليها ولا كانت تحلم بيها.. ضرب لكم رجالة الحكومة وكرشهم لوحده.. دي مش حلوة؟.. إداهم ضرب.

وكان الفتى يتحدث بلهجة قاهرية.

وضاق به عبد الهادي وقال بضيق وهو يقلده ساخرا بلهجته:

ـ حلوا.. إداهم ضرب.

ثم لكزه عبد الهادي وهو يقول مشمئزا:

ـ بس ماتتقصعشي كده زي الغوازي.

فصاح الفتى متحديا وهو ينسحب:

ـ ما حدش خرج من إيده يعمل اللي عمله الشيخ شعبان.. أنتم غايرنين من الشيخ شعبان.. دي شطة.

فهب فيه الشيخ يوسف:

ـ شطة؟ شطة إيه ياك تنشط رقبتك عن جتتك! ياك تنشط أنت واللي همصك.. اسمع يا واد أنت يا غازية.. اوعي تهوب ناحية الدكانة دي تاني؟ إيه يا خوية كلام العوالم ده.. إداهم ضرب؟ شطا؟ حلوا.. جاك حلا في شداقك!

ومشى الفتى النحيل الطويل، يهز رقبته الرفيعة، ويحني رأسه اللامع إلى الأرض، وعيناه الضيقتان ترسلان على التراب نظرات تائهة، وظهره مثقل بأحلام العمل والمال.. وكل ما يمنحه المال!

بينما أخذ الشيخ يوسف يصفق متعجبا لما دهى القرية منذ أقبل إليها شعبان هذا.

لقد جاءه منذ لحظات هذا الولد فظل يحدثه عن العمل الذي توجده الزراعية للعاطلين، وشرع بلا مناسبة يتحدث عن مقدرة عبد الهادي في لعب العصا، ويحاول أن ينال منها.. وزعم أنه هو نفسه يستطيع أن يلعب العصا خيرا من عبد الهادي وظل يرغي في هذا الأمر.

وعندما سمع عبد الهادي هذا الكلام ضحك طويلا.. فاحتد الشيخ يوسف عليه واستمر يقول لعبد الهادي إن البلد انقلب مخها وانقلب حالها.. ففي هذا الصباح جاءه رجل سمين قصير من الناحية البحرية وقال له: إنه سمع أن عبد الهادي عندما كان في سجن المركز، غافل أهل القرية المسجونين معه واتفق مع رجال الحكومة على أن يسهل مأمورية شق الزراعية، ما دام لا يملك أرضا في حوض الترعة ولن يصيبه ضرر، ولهذا فهو لم يضرب كالآخرين في سجن المركز، وأفرج عنه معهم رغم أنه هو الذي قطع الجسر أول الناس.. وعاد إلى القرية يضحك ولا يبالى.

وحين سمع عبد الهادي هذا، ضحك مرة أخرى.. ولكن الشيخ يوسف استطرد قائلا: إن الأمر لا يضحك، فشعبان هو الذي أقنع الرجل الأبله بهذا، وجاء الرجل بكل بلاهة يروي الأمر كأنه حقيقة!

وسكت الشيخ يوسف قليلا ثم قال: إن الرجل الذي يقول هذا الكلام عن عبد الهادي، دافع عنه عبد الهادي عدة مرات عندما حاول بعض جيرانه أن يهشموا رأسه الغبي، وحاول أن يعلمه لعبة العصا، ولكنه لثقل جسمه وثقل عقله، ولفرط غبائه لم يفلح!

وهز عبد الهادي رأسه قائلا بإهمال:

ـ هوه دي اللي اتكلم عني؟! عرفته.. يا أخي دا غلبان.. خليه ياكل عيش.. الله يسهل لك يابا الشيخ يوسف.. دول غلابة.. إن كان هوه، ولا الواد التاني اللي كان هنا دلوقت بيتقصع زي الغوازي.. دول ناس هفق لا هنا ولا هناك.. خليهم يقولوا.

ثم سكت عبد الهادي قليلا ليقول بثبات:

ـ إن ماكنتش أقطع جدرك يا شعبان أنت والعمدة النجس بتاعك.. ما ابقاش عبد الهادي.

وعاد الشيخ يوسف يعجب لما يصنعه شعبان.

فهو يتقرب من علواني، ويدخل عليه بأنه صديق، وأنه يريد أن يقتل معه العمدة لمصلحة أهل البلد.. ويطمئن إليه علواني، ويعترف له مفاخرا أنه سرق الذرة والقمح من مخازن العمدة.

وبعد هذا الاعتراف بقليل.. يقبض على العربي المسكين بتهمة قتل خضرة.

وتنهد عبد الهادي في إشفاق على علواني، ومص شفتيه قائلا وهو ينظر في الفضاء:

ـ يا ولداه عليك يا شيخ العرب.. والله كان مالي علينا البلد يا جدع!

واستطرد الشيخ يوسف يروي لعبد الهادي في عجب قصة فتيان آخرين أوقع بهم شعبان.

فمنذ أيام ثلاثة، جاء إلى الدكان بعض الفتيان الطيبين من الذين لفظتهم المدينة بعد أن طردتهم المصانع.. لم يكن شعبان قد أفلح في إقناعهم أن الزراعية يمكن أن توجد لهم عملا، فقد كانوا يخافون على الأرض، ويبحثون عن طريقة للدفاع عنها، وكانوا يعرفون أن كلام شعبان عن العمل ليس جدا.. فلن يستطيع واحد منهم أن يعمل في الزراعية.

لن يحمل واحد منهم الفأس ليحطم بها الحياة التي يتمتع بها أب أو أم أو أخ أو خال.

لم يكن عند واحد من هؤلاء الطيبين أي استعداد لأن يشق الزراعية.. لأن يدمر الأرض التي لعب عليها وهو صغير، والتي يعيش فيها عندما يطرده المصنع، والتي حيا عليها ويموت رجال ونساء تجري في عروقهم نفس الدماء!

وعندما كان هؤلاء الفتيان يبحثون عن طريق للدفاع عن الأرض، أقنع شعبان بعضهم بسرقة حديد الزراعية.. وحكوا للشيخ يوسف، أنهم اتفقوا مع شعبان على أن يأخذوا الحديد، ويتولى هو بيعه، وتقسيم الثمن عليهم.

ولم يكد يمضي يومان على هذا الحديث أمام الدكان حتى أرسل هؤلاء الفتيان جميعا إلى خفر البحر ليحرسوا جسور النيل من الفيضان في أماكن نائية، بلا أجر، ولا طعام، وتحت لهب الشمس وسياط الجنود!

ظل الشيخ يوسف يروي هذا بعجب، وهو يرثي للفتيان يتعذبون على الشطآن البعيدة.

ثم قال:

ـ آدي أول دفعة من غفر البحر.. ويا عالم بقى مين رايح في الدفعة التانية.. وغفر البحر إيه دلوقت يا أخواتي.. الكلام ده كان من شهر.. حد ياخد غفر بحر دلوقت؟.. آه يا حكومة!!

وغاض لون عبد الهادي فجأة.. ثم لمعت عيناه ودارت في رأسه الأفكار، إن العمدة يستطيع أن يجمع كل رجال القرية إذن ويرسلهم في تراحيل!

وفجأة تساءل عبد الهادي بلهفة وتحرق أين يمكن أن يجد شعبان الآن؟ ورد عليه الشيخ يوسف متسائلا إن كان شعبان قد ارتكب معه شيئا.

ولم يجب عبد الهادي.

وأمسك الشيخ يوسف بقلة كانت على أرض دكانه، ورفعها إلى فمه وشرب، ومسح شفتيه بظهر كفه وهو يقول:

ـ يا أخي يا عبد الهادي، ماحكاية إلا حكاية محمد أبو سويلم مع الشيخ حسونة.. دا الواد شعبان خبص البلد كلها.. أنت عارف منزلتهم عند بعض، ومع كل كانوا خلاص خسروا بعض لولا لطف ربك ذي الجلال والإكرام!

وأقبلت امرأة تشتري ملحا بكوز من الذرة، فقال لها الشيخ يوسف وهو يفحص الكوز الصغير:

ـ شوفي غيره.. دي قرقره دي مش كوز!.

فقالت له بيأس وحسرة:

ـ والنبي ماعندي غيره.. هوه حد لاقيه.

تمهل الشيخ يوسف قليلا وهويفحص الكوز.. وأخيرا هز رأسه ورمي الكوز إلى داخل الدكان فوق كيزان أخرى، وأعطاها الملح.

وعاد الشيخ يوسف إلى عبد الهادي يكمل له ما بدأه من حديث فيما حصل بين الشيخ حسونة ومحمد أبو سويلم.

وما حصل.. حصل بالأمس فقط في مندرة الشيخ يوسف نفسه إذ أقبل محمد أبو سويلم على الشيخ حسونة فوجده مغضبا.. وكان محمد أبو سويلم هو الآخر يعاني حرجا.

وبدأ الشيخ حسونة عتابه.. فسأل محمد أبو سويلم لماذا يشيع عنه ـ على الرغم من صداقتهما القديمة ـ أنه إنما ذهب إلى المركز لا ليسعى من أجل القرية كلها في مسألة الزراعية، وإنما ليقنع أصدقاءه هناك بأن يغيروا طريق الزراعية حتى لا تمر في حقله هو.

وانفجر محمد أبو سويلم في وجه الشيخ حسونة قائلا في استنكار:

ـ أنا قلت عليك كده؟.. كلام إيه ده يا رجاله.. سامع يا شيخ يوسف حضرة الناظر بيقول إيه؟.. بقى أنا أقول كده؟ بقى أنا أقول عليك يا شيخ حسونة إنك رحت المركز توالس مع الحكومة؟ بقى ده كلام يا جدعان.. ويدخل عقلك الكلام ده يا شيخ حسونة؟ يا حضرة الناظر!

وضاق الشيخ حسونة بلهجة محمد أبو سويلم فزعق:

ـ أيوه أنت قلت كده.. أنت حاتنأرزني يا أخي؟! أيوه أنت قلت!

فقال محمد أبو سويلم:

ـ دهدي!! قلت قلت.. اللي في قلعك انفضه بقى.. إن كان في قلعك ريح انفضه.. هه.. ما دام بتزعق كده، وعاوز تبوظ لنا المجلس.

فرد الشيخ حسونة في ضيق:

ـ أنا حابوظ المجلس.. هو أنا بابوظ المجالس.. أنا زينة المجالس مش حابوظ المجلس.. أما قلة أنسنة صحيح!

فهاج محمد أبو سويلم:

ـ أنا قليل الأنسنة؟ أنا يا شيخ حسونة؟! بقى كلنا بنقول عليك راجل متنور وبتفهم تقوم تتهمني أني قلت عليك كلام؟ على كده بقى تبقى أنت قلت كلام فاضي على بنتى!

وجن الشيخ حسونة من الحنق فصاح:

ـ أنا باقول كلام فاضي؟ أنا يا محمد؟! أنا قلت كلام على بنتك؟! دي مسخرة وشغلة عيال! لكن أنت مش غلطان! أنا اللي غلطان! أنا أستحق أكثر من كده اللي سبت أولادي لوحدهم ورجعت البلد دي، قال إيه علشان نقف يد واحدة في مسألة الزراعية.

وصعق محمد أبو سويلم قائلا:

ـ بقى أنا يا فلاح أفهم الدور وأنت اللي اسمك متعلم متنور لسه ماعرفتش؟ هو معقول أنك تقول كلام فاضي على بنتي؟ لكن ما قولك إن اللي بلغك الكلام اللي مزعلك بلغني برضه أنك اتكلمت على بنتي.. بقى يدخل عقلك الكلام ده يا حضرة الناظر؟! ياسنة مهببة يا أولاد!! مش شعبان اللي قال لك؟! هوه كلام شعبان خال عليك، وفتحت له صدرك؟! دا جه يكلمني، كنت حاقطع رقبته بالفاس زي تعبان الشراقي.. ما حاكم الواد جه قبل كده يقول لي: إن دياب مستحلف لعبد الهادي، وحايضربه بالعيار، من جرة عركة الجسر.. قلت له يا شيخ شعبان ما اصطلحوا سوا وضحكوا سوا وانضربوا سوا.. قال لي ولو يكن.. دياب بس مستني لما الذرة يطول كمان شوية وهو ومحمد أفندي مرتبين الشغلة على إيدي.. سألت دياب ومحمد أفندي حلفوا بتربة أبوهم أن الكلام ده ما حصل وما جري من أصله، وأن ما فيه بينهم وبين عبد الهادي أيها حاجة، بس قارشين ملحته حبه من يوم ماعرفوا أنه مستحلف لهم.. القصد تنتني وراهم وورا عبد الهادي لحد ماعرفت أن شعبان هو اللي مطلع الكلام.. والمصيبة أنهم في الأول ما كانوش راضيين يقولوا مين اللي قال لهم.. بس يقولوا بلغنا من واحد ما يكدبش.. تقولشي يعني قروا في الجرايد؟! عرفت بقى يا حضرة الناظر؟ إش حال لو ما كنتش أنت اللي قلت لنا في الأول إنك مقبوض من الواد شعبان ومش مستريح له؟ إش حال لو ما كنتش أنت اللي نبهتنا من الأول على شعبان ده؟ بقى أنا أقول عليك موالس مع الحكومة؟! يا نهار أزرق يا شيخ حسونة.. ويزلف لسانك كده دغري وتهب فيّ؟! هو اللي بينا إيه يا أولاد؟! عيش وطوب؟ هو الدم ده ميه؟! هيه العشرة دي إيه! داحنا أخوات ياحسونة وأكتر من الأخوات كمان، يا وقعة غبرة؟! يا شيخ دا أنا فاكر أنك أنت اللي حاتمشي ورايا وتاخد العزا فيّ وتشوف عيالي من بعدي!

واختلج صوت محمد أبو سويلم ، وتهدج.. ثم اختنق بالدموع.

وخفق قلب الشيخ حسونة في ندم، وحب، وهلع.. وجاشت نفسه بحزن مباغت.. واضطرمت عواطفه فجأة.. فقام مندفعا إلى محمد أبو سويلم وعانقه قائلا:

ـ معلهش يا محمد يا خويا.. أنا محقوق لك.. الخبص يعمل أكتر من كده!

وتعانق الصديقان، وسالت دموعهما واختلطت.

وعندما جلس محمد أبو سويلم قال:

ـ ملاعيب العمدة يا سيدي.. ملاعيب العمدة..

ثم دعا الشيخ حسونة على العشاء عنده.

***

ولم يكد الشيخ يوسف ينتهي من رواية هذه القصة لعبد الهادي حتى أقبل الشيخ الشناوي مهرولا إلى الدكان، ليقول لهم إن حوض الترعة يمتلئ بالحديد وأدوات الحفر، وإن شعبان هناك يقف مع الرجال الذين أقبلوا من البندر.

وبوغت الشيخ يوسف وعبد الهادي وترددت همساتهما:

ـ يا سنة سودة؟! طب وإيه العمل دلوقت؟

واستمر الشيخ الشناوي يقول: إنهم ألقوا بالحديد في حقل محمد أفندي وفي حقل يجاوره.

ولقد حاول دياب أن يعترض، ووقف في طريق الرجال، وحاول شعبان أن يهمس في أذنه، ولكن دياب نحاه بشدة، واندفع يحاول منع الرجال من المرور في حقله.. وكان محمد أفندي هناك، فناداه بانزعاج وأمره ألا يتعرض لأحد.. وانسحب دياب في إذعان، ووجهه يتشنج على دموع لا تنهمر، وقد اصفر لونه الأسمر، واخضر، وترك الرجال يدهسون القطن الأبيض النضر الذي يشرح الصدر ويسر الخاطر، وحين رأى دياب قطنه يهوي على الأرض، ويختلط بالتراب، رفع يديه وخبط بهما وجهه ورأسه، وأطلق صرخات يائسة ممزقة!

والتفت الشيخ يوسف إلى عبد الهادي قائلا في صوت كسير:

ـ شايف بقى، الحكاية وصلت لإيه؟! شايف بقى شعبان؟! ما خلاص!!

والتقطت امرأة في الطريق كلمات الشيخ الشناوي عن حديد الزراعية وأطلقت صرخة.. وترددت الصرخة، وخرج النساء من الدور يسألن عن الخبر.. وبعد قليل كانت القرية ترن بالصوت الفاجع يطلقه النساء.

وتجمع بعض النساء أمام دكان الشيخ يوسف، فصاح فيهن أن ينصرفن فرجال القرية يعرفون شغلهم مع حديد الزراعية.

ودفع الشيخ الشناوي عنه امرأة شابة، حتى لا تنقض وضوءه، وزعق في النساء اللواتي يلطمن ورفع عليهم عصاه، مهددا بالضرب..

ووقفت امرأة بدينة عجوز تشتم النساء بصوت حاد جاف:

ـ يا بلد سايبة.. هو أنتو ما لكوش رجالة؟ ما تسيبوا الرجالة يعرفوا شغلهم.. حاتطلعوا انتو تتحشروا في بتوع البندر اللي جايين مع الحديد.. عاوزين تتلزءوا في الرجالة الغرب؟! طب اطلعوا على حوض الترعة اتحكوا في الرجالة.. اطلعوا.

وغمر الحياء وجه النساء.. وبدأ بعضهن ينصرف في تعثر، بينما وقف الشيخ يوسف يضرب كفا بكف وهو يصيح:

ـ آه يا بلد ما لهاش لا كاسر ولا كسار!! قعدتي تحققي في الكلام، وشغلك شعبان في الكلام الفاضي والحكومة بتشتغل.. لها حق الحكومة تعمل فينا زي ما يعجبها.. ما تنجري يا ولية أنتي وهيه وتسيبوا التصاريف للرجالة.

وانسحب النساء الباقيات، وتجمعن في حلقات متناثرة على أبواب الدور! بينما أخذ الشيخ الشناوي يقول: إنه سمع أن شعبان سيعين شيخا للخفراء.

فأكمل الشيخ يوسف بنفس لهجته اللازدعة المحتدة.. إن كله جائز في البلد.. ثم انتفض صارخا:

ـ يا شيخ!! وهيه دي بلد.. بقى دي بلد.

أما عبد الهادي فقد سكت.

أخذت شفتاه تنطبقان على بعضهما في عصبية، واتسعت حدقتاه، وترددت أنفاسه في أنفه بصوت مرتفع، واختلجت عضلات خديه، وهو يصر على أسنانه، وظلت العروق تنبض على جانبي جبهته، وأخيرا نكس رأسه وأسنده على عصاه الطويلة.

وبعد قليل تحرك عبد الهادي لينصرف.. فطلب منه الشيخ يوسف أن يبقى لحظة، ولكنه صمم على الانصراف دون أن يقول إلى أين يمضي.

واتجه مسرعا إلى بيت محمد أبو سويلم.. وعلى الباب تلكأ قليلا، ولمح وصيفة تجلس على قالب من الطوب أمام الكانون، والدخان يتصاعد في حلقات كبيرة من حطب القش، وعيناها تدمعان.

وأوشك عبد الهادي أن يقف ليقول لوصيفة إن الرجال من المركز أقبلوا بالحديد لينزعوا الأرض من أبيها ومن الآخرين.

ولكنه هز رأسه ومضى.

فوصيفة تعرف الحكاية كلها.

ولا يوجد في القرية رجل أو غلام أو امرأة لا يعرف الآن أن الحديد جاء من المركز ليدق في الأرض المليئة بالقطن، وأعواد الذرة الخضراء.

كل إنسان في القرية يعرف أن الأرض لن تصبح ملكا للقرية.

وعبد الهادي لا يملك أرضا في حوض الترعة، فأرضه كلها على الجسر.. ولن ينتزعوا منه هو شيئا..ولكنه مع ذلك حزين ضيق الصدر، يكاد يتزايل إلى أغوار نفسه، فهو يعرف أنهم حين يعتدون على رجل واحد في القرية فكأنما ضربوا القرية جميعا.. ولئن اعتدى رجل واحد من القرية على الحكومة لأخذت به كل القرية، وإذا سكت هو اليوم وأرض محمد أبو سويلم ودياب تنتزع، فسيرمونه هو غدا في داهية بعيدة.

وما زال عبد الهادي يذكر أنه حين قطع الجسر ليروي أرضه لم يأخذوه وحده، إنما أخذوا معه محمد أبو سويلم.. وعذبوه وضربوه وأذلوه.. إن الحكومة تعودت أن تعامل رجال القرية كأنما هم رجل واحد، فهو منذ سمع بمقدم الحديد، يعاني في أعماقه كل مرارة النكبة.

إنه لا يستطيع أن يتصور حال محمد أبو سويلم، لو أخذوا منه القطن والذرة.

إن عبد الهادي في الحق يحب أرض القرية كلها: أرضه هو الذي اختلط عرقه بترابها، وأرض الآخرين.

وهو لايطيق أن يمسي ويصبح فإذا الأرض الريانة بالخضرة، تغدو أرضا صلدة جرداء يمر فيها الناس والعربات.

إن قوة خفية لا يعلمها تعصر قلبه كلما فكر في أن الأرض ستنتزع، وإن هذه القوة الخفية التي تعصر قلبه بلا رحمة لتدفعه الآن إلى أن يرفع عصاه ليجعل هذه الأرض على الدوام خضراء ريانة مزدهرة، تقدم للذين ينحنون عليها طول النهار طعامهم على الأقل!

وهكذا اندفع عبد الهادي، وقد تفجرت من أعماقه طاقة هائلة ينتفض بها بدنه.. طاقة تمكنه من أن يكسر الحديد على رأس العمدة، وشعبان، والحكومة.

واهتزت العصا في يده، وأحس بها عبد الهادي قوية حاسمة.. كالبندقية.. وانطلق راكضا إلى الحقول في حوض الترعة.. إلى المكان الذي كدس فيه رجال الحكومة حديد الزراعية.

وكانت أشعة النهار تصفر، والريح الفاترة تسري فيها أولى رعشات الخريف والغربان السوداء تحوم في الفضاء فوق الحقول!

وعلى رأس حقل محمد أبو سويلم فوق كومة من التراب، كان الشيخ حسونة ومحمد أفندي ودياب يجلسون.. بينما وقف محمد أبو سويلم ينظر إلى الرجال والحديد. وإذ لاح له عبد الهادي ناداه محمد أبو سويلم، فلم يرد عبد الهادي ومال عن الطريق، واندفع في الحقل إلى الرجال.

وأحس محمد أبو سويلم أن عبد الهادي يمكن أن يعتدي على الرجال، ففي هيئته الشر.. والشر يغني له!

وقفز محمد أبو سويلم من فوق الكوم، ولحق بعبد الهادي فأمسك به وطلب منه أن يجلس معهم فوق الكوم ليتراودوا.

ولم يذهب معه عبد الهادي إلا بعد أن قال له محمد أبو سويلم في همس:

ـ ما إحنا رتبنا الشغلة.. طول بالك أنت بس.. بالراحة.

وعلى الكوم جلس عبد الهادي محنقا.. ولم يحاول أن ينظر إلى أحد.

كانت كيزان مشوية من الذرة الجديدة، قد ألقيت أمامهم وهم يأكلون في ثبات.

وقدم إليه الشيخ حسونة كوزا من الذرة قائلا:

ـ خذ يا عبد الهادي.. دره زرع بدري أهه.. كله قبل ما تأكله الزراعية.

وأطلق محمد أبو سويلم ضحكات مثقلة.. كالزفرات!

وعلى كل الشفاه ترددت قهقهات متكسرة، تنبع من أعماق الحسرة.. من حيث تنبع الدموع والمخاوف والندم!

أما عبد الهادي فلم يضحك..

كانت عيناه تنظران إلى بعيد، ورجال الحكومة يقفون أمام الحديد الذي يطأ الزرع ويهشمه.. وإلى جوار الحديد يقف شعبان والخفير عبد العاطي.

وتمتم عبد الهادي ويده على عصاه:

ـ الواد شعبان إيه حشره؟! بقى هيه الحكاية كده!! على كده دا نازل شيخ غفر صحيح!

وقال الشيخ حسونة، بأناة كبيرة:

ـ يا أخي حلمك شوية.. ما تبقاش شراني.. كله يتعدل.. تتعدل.

فزمجر عبد الهادي بضيق:

ـ مين اللي حا يعدلها بس؟..

وإذ ذاك همس محمد أبو سويلم في أذن عبد الهادي بكلمات.. وبدأ قطوب وجهه ينفرج شيئا، فشيئًا.. وأخيرا أشرق وجه عبد الهادي وابتسم، وهو ينظر إلى محمد أبو سويلم والشيخ حسونة في أمل وإعجاب.

وهز عبد الهادي رأسه ونظراته تتألق.

فقال محمد أبو سويلم، باعتزاز وثقة وهو يضحك ببساطة:

ـ أمال يا عبد الهادي؟.. إنتو برضه لسه صغار.. حاكم أنا وحضرة الناظر نابنا أزرق في الشغلة دي.. من أيام الإنجليز يا وله.

***

وبعد صلاة العشاء بوقت طويل أطفئت الأنوار في دوار العمدة وفتحت القرية أبوابها التي أغلقها الليل.. ومن وراء الأبواب التي فتحت في حذر، تسلل الرجال في الطريق الضيق إلى حوض الترعة.

كانوا متشابهين: كلهم، يلبس الثياب السوداء! وكل شيء من ورائهم ساكن إلا الكلاب تنبح، وأمامهم حشرات الحقول تطلق أصواتها المختلطة في فراغ شاسع من الظلمات يخفق بنسمات يدب إليها البرد لأول مرة.

واقترب الرجال تحت شعاع النجوم من حقل محمد أبو سويلم ومن بينهم رجال كانوا منذ لحظات يشتكون المغص من حصوات في الكلى، ويعانون آلاما ممضة من التهاب البول.. ولكنهم مع ذلك مضوا في خطوات ثابتة: تتلاحق أنفاسهم والعزم في صدورهم أكيد قوي.. أقوى من الألم.

وهمس محمد أبو سويلم لرجل طويل مليء يسرع الخطى متقدما الصفوف:

ـ طول بالك يا عبد الهادي.. ارجع ورا أنت شوية أحسن يشوفوك يضربوا عيار نار!.. مش عاوزين عيار واحد ينضرب.

وتراجع الرجل الطويل في السواد.

وإلى جوار الزراعية في وسط الحقل، دعك شعبان عينيه، ورفع رأسه قليلا وهو ما يزال راقدا.. وقال:

ـ أعوذ بالله.. حاكم الحتة مسكونة.. سامع الوشوشة يا واد يا عبد العاطى!

العفاريت طلعوا النا!!

وسكت شعبان قليلاً، وصدره يخفق من الرعب ثم همس:

ـ حاسس بالنفس الملهلب يا واد يا عبد العاطي؟! العفريت!! العفريت!! واد يا عبد العاطي يا وله يا عبد العاطي!

ولكن عبد العاطي لم يجب.

وأخذ شعبان يتمتم بشتيمة لعبد العاطي، وقطع الشتيمة وأخذ يهمس بأوراد دون أن يجرؤ على رفع صوته في الظلام المترامي، بينما كان عبد العاطي يستلقي على الأرض غير بعيد عنه، وقلبه يدق في انتظار الرجال.

وتحسس عبد العاطي بندقيته وبندقية شعبان وأمسك البندقيتين بيده جيدا وتظاهر بالنوم العميق، وأخذ يطلق الشخير.. وفي لحظات كان الرجال ينقضون على الحديد.

ووثب شعبان ووقف مروعا وقد أدرك أنهم رجال لا عفاريت!

ثم انحنى على الأرض ليبحث عن بندقيته ولكن عبد العاطي كان ممسكا بها، وقد ماتت يده عليها، وهو راقد بلا حركة يطلق الشخير المرتفع، كما اتفق مع محمد أبو سويلم قبل المغرب.

وبدأ رجال القرية يحملون قطع الحديد، ويندفعون بها إلى الترعة القريبة، ويقذفونها في الماء.

فوجئ شعبان بالرجال ولم يفلح في انتزاع بندقيته من يد عبد العاطي فحاول أن يرفع قضيبا من الحديد ليهشم به رءوس الرجال.. غير أن عبد الهادي انقض عليه وسد فمه، ثم رفعه، وحمله على ظهره ـ كغمر الذرة ـ تماما.

وجرى عبد الهادي وهو يحمل شعبان في ضيق بالغ، ووقف أمام شاطئ الترعة وهزه قليلا بين يديه ثم قذف به إلى أعماق الترعة.. وكأنما هو قطعة من حديد الزراعية الذي أرسلته الحكومة لتفسد الأرض.

وحمل كل رجل قطعة فوق ظهره وأخذ يترنح تحتها قليلا في الظلام، وما أن يقذفها في الترعة حتى ينصب قامته، وهو يشعر بمثل القوة التي يتخيلها دائما حين يسمع قصة «أبو زيد الهلالى».

وتعالت صرخات شعبان من أعماق الترعة، وعلى شطها بعض الرجال يضحكون ويهددون شعبان بألا يعود وإلا قتلوه بالبلغة.. كالبرص!

وأطلق شعبان آخر صرخة وهو يتخبط على ماء الترعة قائلا في استغاثة «الحقونى!» فقال له أحد الرجال:

ـ خلي العمدة يلحقك.. خلي الحكومة تلحقك!

وعندما تأكد الرجال أن شعبان قد غطس تماما في الماء عادوا إلى رمي ما بقي من قطع الحديد والأدوات وهم يحسبون أن شعبان قد مات!

لم يتح لهم أن يعرفوا أن شعبان قد غطس قليلا كما يفعل الصيادون، ثم ظهر على سطح الماء بعيدا عن مكان الرجال، ليعيش في قرية أخرى!

ولم يكد الرجال يفرغون من إلقاء الحديد كله في الترعة، حتى عادوا وهم يتصايحون مغتبطين.

وكان عبد العاطي ما زال متناوما يطلق الشخير كما اتفق معهم.

وضحك محمد أبو سويلم قائلا:

جاتك الغم يا واد يا عبد العاطي.. تقولشي تعلب يا أخي؟ والله عفارم عليك! زي النمس تمام..

وضحك الرجال وبعضهم يقول:

ـ أي يا واد.. شخر كمان شخر!

وعادوا إلى الدور، يتنادرون بمنظر بعضهم وهم يحملون الحديد، وبمنظر شعبان وهو محمول على ظهر عبد الهادي، ثم وهو يهوي في الترعة.. ويضحكون بصفة خاصة من عبد العاطي الذي استمر يشخر حتى بعدما انزاح شعبان!

كانوا على طول الطريق يمشون في خفة مرحة، محمولين على رنين الضحكات وكأنهم لم يبكوا من قبل!

ولم يكد الرجال يبلغون دورهم، ولم تكد الأبواب تفتح لهم حتى انطلقت الزغاريد.

غير أن صراخا عميقا من بعيد مزق هرج الزغاريد.. وتصاعدت من عند الدوار صيحات هلع.. هذه الصيحات المروعة اليائسة المتتابعة التي تعلن دائما من خلال العجز والانهيار: موت إنسان!

ووجمت القرية لحظة ثم سرى النبأ أن العمدة العجوز مات.

مات في الثمانين .. وصاح أحد الرجال:

ـ كل ظالم وله نهاية.. ويصوتوا على إيه؟.. دا عمره ييجي مِيّة وخمسين سنة؟!

وانطلق صوت أب: يا ريتنا نعيش نص ما عاش!!

وزاحمه صوت آخر:

ـ أيوه.. كل ظالم وله نهاية.. كل ليل وله آخر ياولاد.. زغرتي يا بت.. أدي إحنا خلصنا من الزراعية ومن العمدة ومن شعبان سوا، في ليلة واحدة!

وذهل الباقون لبعض الوقت.. فلم يكن أحد في القرية يستطيع أن يصدق أن هذا كله يمكن أن يحدث في ليلة واحدة.

ولحظة بعد لحظة زحفت موجة كبيرة من الفرح تغمر القلوب.

وانطلقت الأكف تصفق على أنغام الزغاريد والنساء يغنين مع الرجال:

ياليلة بيضة الليلة دي
والفرح جانا الليلة دي

وهز محمد أبو سويلم رأسه والابتسامة تغزو وجهه وقال متأملا:

ـ ياولاد هو حد يشمت في الموت؟! لكن القصد.. مبروك عالبلد.. كل شيء وله آخر وتلقت القرية أول شعاع من الفجر وهي ترقص وتزغرد.. وينطلق فيها الغناء.. أصدق الغناء.

في مضيفة القرية، وقف أقارب العمدة يستقبلون المعزين.. ولبس شيخ البلد، ابن عم العمدة، عمامته،والجلابية الكشمير التي وضعت بعناية تحت المرتبة بعد أن ضربتها زوجته «بالجندرة».

وبعد صلاة العصر اتخذ شيخ البلد مكانه على رأس أقارب العمدة فقعد وحده من دونهم في منطقة الكراسي المذهبة الممتدة فوق بساط أحمر باهت يحتل مساحة ضيقة من أول المضيفة.

أما محمد أبو سويلم فقد اختار مكانه على دكة من الدكك الخشبية العديدة، انحط عليها الفلاحون وبقية المعزين من فلاحي البلاد المجاورة، في آخر المضيفة.

وكانت هذه الدكك مصفوفة على أرض المضيفة بلا بساط ولاحصير، وإلى جوارها فرشت الحصر، ووضع عليها الكنب البلدي الذي جمع من بيوت أعيان القرية.

كان شيخ البلد قاعدا على كرسي كبير مذهب في مواجهة باب المضيفة وهو يفكر بزهو فيما قاله المأمور على التليفون: أن يقوم هو بأعمال العمدة.. أن يكون هو نائب العمدة.

وبدأ يصنع تماما كما كان يصنع العمدة في مثل موقفه: فهو يقوم نصف قومة، أو يقف منتصبا أمام الكرسي، أو يمشي خطوات بعيدا عن الكرسي حسب مقام الرجل الذي يقبل للعزاء، وحسب رغبته في أن يبدو هذا القادم محترما أو نصف محترم!

وأحس شيخ البلد أنه الرجل الأول في القرية الآن.

ولكنه مع ذلك استرجع مواقف العمدة، وأخذ يقارن بين نفسه وبين العمدة الراحل.

كان العمدة رجلا آخر، أبيض الشعر، رهيبا.

وكثيرا ما كان يسلم على الناس وهو قاعد، ولا يقوم إلا للعزيز القوي، فإذا وقف ليستقبل أحدا قام معه الجميع.

أما شيخ البلد.. فهو يقوم، ويمشي، ويقعد، ولا أحد يشعر به!

وقرر بينه وبين نفسه ألا يترك الكرسي المذهب الكبير ليستقبل معزيا، إلا إذا شاهد إحدى عربات الحنطور مقبلة من المركز.

يجب أن يستعد ليكون عمدة.. بهيبة العمدة!

وألقى نظرة متعالية من كرسيه المرتفع إلى القاعدين على الدكك.

كانوا يسمعون الشيخ إبراهيم أشهر قارئ في الناحية، ويطلقون صيحات الاستحسان ويطلبون منه أن يعيد من الأول ويزيد.. كأنهم في مولد لا مأتم!

وقام إليهم شيخ البلد بنفسه.. وتحسس جلبابه الكشمير، ثم عقد يديه خلف ظهره، ووقف يهز بدنه النحيل، ويطلب منهم في حسم أن يسكتوا وأن يطفئوا السجائر، وهم يسمعون القرآن.

وأطفأ بعضهم السجائر.. ثم بدءوا يبتسمون، ويتبادلون النظرات، ويتهامسون!

وقال دياب لجاره في صوت منخفض:

ـ بيشخط قوي كده ليه؟ جرى له إيه شيخ البلد؟! يعني بقى من الحكام!

فأجابه جاره هامسا:

ـ أنا عارف ماله أصفر الوش ده؟.. دا كل حين ومين على ما واحد مقتدر ينقلب ونسمع الشيخ إبراهيم في المعزى! دا بقى له خمس سنين ما قراش في العب دا كله.

وما كاد شيخ البلد يعود إلى مكانه حتى ارتفع صوت الشيخ إبراهيم يرتل آية جديدة بأعذب نغم.

وصاح أحد الفلاحين من على الدكة:

ـ أيوه يا شيخ إبراهيم يا مشبع!.. والنبي تقراها لنا بالسبع وترنح كمان يابو خليل يا مقنع..

وابتسم الفلاحون من حوله وابتسم الشيخ إبراهيم نفسه وهمس فلاح آخر:

ـ آدي القراية صحيح.. أدي الصييت اللي بالمعنى.. مش الفقها بتوعنا إللي عاملين زي الضفادع.. آدي القرآن مش اللي بيقراه سيدنا!

وصاح الشيخ الشناوي وعلى وجهه أمارات احترام كبير للشيخ إبراهيم:

ـ صلوا عالنبي واسمعوا يا أولاد.. أيوه يا عم الشيخ إبراهيم ربنا يفتح عليك.

وأنصت الجميع بلهفة، بينما كان شيخ البلد يميل برأسه إلى أمام وجسده غارق في الكرسي الكبير المذهب.

كان يحاول أن يستمع إلى رجال جاءوا من المركز للعزاء، والشيخ حسونة يجلس بينهم، وكلهم يتحدثون بصوت خافت كالهمس..

لقد أحس شيخ البلد بأن عليه أن يشترك معهم في الحديث، أو على الأقل فليحسن السمع، ليتنور!

وسمعهم يتكلمون عن صحف تصدر في القاهرة ويغلقها صدقي، فتصدر في اليوم التالي باسم جديد.

وسمعهم يتذاكرون ـ بإكبار ـ أسماء رجال يعيشون هناك في القاهرة ولا يعرف عنهم الفلاحون كثيرا.

وهزته كلمات حارة قالها صاحب الأجزاخانة الكبرى.. كلمات عن طه حسين وجريدة الجهاد.. والجامعة.. وشيء اسمه الديمقراطية.. وحرية الفكر!

وتحرك شيخ البلد في كرسيه ومال بنصف جسده ورفع حاجبيه كأنما يريد أن يثبت في أذنيه، وفي قلبه، كل كلمة يسمعها.

وتكلم المحامي الذي كان نائبا عن الدائرة ـ قبل حكومة حزب الشعب ـ فجذب شيخ البلد كرسيه إلى أمام وأحنى ظهره وامتدت رقبته أكثر من قبل، وهو يقول بصوت هامس دون أن يحفل بقراءة الشيخ إبراهيم:

ـ سمعنا يا حضرة الأستاذ.. سمعونا الكلام الحلو بتاعكم ده.. إحنا مش داريين الدنيا ماشية إزاى!!

وتهدج صوت المحامي وارتفع قليلا عن الهمس ـ وهو يتكلم عما تصنع الحكومة بخصومها، فهي تهدد الموكلين في مكاتب المحامين، وهي تحاول أن تتلف أراضي خصومها وتخرب متاجرهم، وقد منعت الماء بالفعل عن مساحات كبيرة من الأرض، وأطلقت رجال البوليس يعذبون الفلاحين هنا وهناك.

واسترسل المحامي في صوته المتهدج يتحدث عن الأزمة التي لن تنفرج إلا إذا كانت في مصر حكومة ديمقراطية.. ثم استطرد يصف أعمال الحكومة الوحشية ويروي مارآه وماقرأه عن المظاهرات في المنصورة وطنطا وبني سويف والفيوم.. وكيف حاولوا هناك قتل زعيم الأمة عدة مرات فتلقى عنه طعنة السنكي نائب جريء اسمه سينوت حنا.

ومضى النائب يروي كيف حاولت الحكومة منع زعيم الأمة من رحلاته وحاولت اعتقاله في بيته ولكنه خرج متحديا سلطانها وسلطان الإنجليز، وشق صفوف الجند فاضطروه إلى النوم على أرصفة المحطات.. ومع ذلك صمم على أن يعلن إرادة الشعب ولتفعل القوة الغاشمة ما تشاء!

ولم يكد المحامي ينتهي من كلامه حتى اندفع الشيخ حسونة بصوت حار يذكِّره بتحطيم سلاسل مجلس النواب ويطلب منه أن يشرح بالتفصيل موقف ويصا واصف رئيس المجلس البطل الذي اقتحم دار البرلمان متحديا قوة الرصاص بعد ما أذاع النواب أنهم لا يعترفون بحل مجلس النواب ولا بإلغاء الدستور ولا بخرافة الدستور الجديد.. دستور حزب الشعب!

وبدأ المحامي يشرح في كبرياء، فاختلجت القلوب.

وهز شيخ البلد رأسه، وسحب الكرسي المذهب الثقيل، فازداد اقترابا من المحامي، وشعر بخفقات قلبه تتعالى.. وشاعت في نفسه حماسة يخالجها الأمل.

وامتلأ شيخ البلد إحساسا ببطولة الذين حطموا السلاسل، وناموا على أرصفة المحطات، وملئوا الشوارع في القاهرة وطنطا والمنصورة والفيوم وبني سويف، ولم يحفلوا بالرصاص.

وهز رأسه متحسرا لأنه لم يكن يعرف هذا كله، وكان يمشي وراء العمدة ينفذ سياسة الذين وضعوا الحديد على مجلس النواب، وأطلقوا الرصاص على الناس في الشوارع.

واضطربت نفس شيخ البلد قليلا وحاول أن يسأل المحامي عن كلام قاله المحامي ولم يفهمه هو.. كلام قاله المحامي عن وجوب إعادة الحياة النيابية، وإطلاق الحريات لتنفرج الأزمة الاقتصادية..

ولم يعرف شيخ البلد كيف يصوغ سؤاله.. ولكنه قال فجأة:

ـ طيب.. ويا حضرة الأستاذ إيه رأيك في القطن بقى؟ مش حايشوف له يوم زي زمان.

وهز المحامي كتفه بسخرية وقال مستهزئا: إن صدقي باشا اقتصادي جبار ذو كفاءات والإنجليز في حكمهم لمصر يعتمدون على أمثال هذه الكفاءات!

وأدرك شيخ البلد من ابتسامات السخرية ومن تجربته أنه لاصلاح للقطن ولا لأي شيء في مصر ما دام صدقي يحكم البر ومعه رجال يركبون ظهور الناس، ويهزون أرجلهم.

وأحس شيخ البلد أنه كان من قبل، يعرف شيئا كهذا، ولكنه كان فقط يريد أن يفهم من المحامي أين الطريق إلى الخلاص!

ولكنه سكت لحظة، وسكت المحامي والذين من حوله.. وصوت الشيخ إبراهيم يرتفع يتلو الآيات بالقراءات السبع ويعيد الآية الواحدة بأنغام ولهجات مختلفة، والفلاحون يتصايحون أكثر من ذلك من ذي قبل.. وقال أحدهم:

ـ الله الله يا شيخ إبراهيم! داحنا مش عايشين ياولاد.

فجاوبه آخر:

ـ آه يا شيخ إبراهيم.. إلهي يموت لنا كل يوم عمدة عشان نسمعك يا شيخ.

بينما ارتفعت من خارج المضيفة شتائم قاسية تصطحبها جلبة عربة حنطور.. ووقفت العربة بعيدا والشتائم تنصب على رجال يقفون أمام حبل طويل ربطت حمير المعزين بعيدا عن المضيفة.

وأخذ الرجال يجذبون الحمير التي حملت المعزين من بلاد بعيدة.. فواصلت العربة سيرها إلى باب المضيفة، بعدما انفسح أمامها الطريق من ركائب المعزين.

وقبل أن تقف العربة أمام الباب ارتفعت همهمة باسم محمود بك والمأمور، وهب شيخ البلد من مكانه، وجرى مسرعا إلى باب المضيفة وقد تخلى ـ فجأة ـ عن كل هيبته التي ظل يدخل فيها منذ دخل المضيفة.

وخرج وراءه إلى الباب محمد أفندي والشيخ الشناوي وبعض أعيان القرى المجاورة ليكونوا في استقبال المأمور ومحمود بك.

وهمس أحد الفلاحين لجاره في ذعر واضح:

ـ المأمور؟! يكونشي دري بحكاية حديد الزراعية؟!

فأجابه جاره بإهمال:

ـ دهدي.. ما يدرى!

وبدأ كل من في المضيفة يقف.. إلا المحامي الذي كان نائبا للدائرة فلم يتحرك لا هو ولا الذين جاءوا معه من عاصمة الإقليم، ولا الشيخ حسونة.

وهمس المحامي قائلا: إنه لا سلام مع رجال الحكومة أو رجال حزبها أو المتعاونين معها كما يعرف الجميع!

واستمر الشيخ إبراهيم يقرأ الآية التي كان يقرؤها.. وكان يقرأ «بالسبع»!

وعندما كان المأمور يخطو باب المضيفة، وهو يشد بدلته العسكرية على بدنه الغليظ المتكرش والفلاحون ينظرون إليه في حذر ورهبة، انطلقت الآية:

ـ ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

وقف المأمور في المدخل والكل ينظر إليه وإلى بدنه السمين وصوت القارئ يعيد:

ـ ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

وتقدم المأمور إلى منطقة الكراسي المذهبة، وإلى جواره محمود بك في طربوشه الفاقع الشاهق، وجلباب بلدي أبيض ينسدل هفهافا على جسده الفارع.

ومن ورائه الشيخ الشناوي ومحمد أفندي وشيخ البلد، وبعض أعيان البلاد المجاورة.

وبدأ الواقفون يتنحون عن أماكنهم للمأمور، ولمحمود بك.

وجلس المأمور في صدر المضيفة.. مكان شيخ البلد، عن يمينه محمود بك ومحمد أفندي.

وتنقل الناس من أماكنهم، وهبط بعض الذين كانوا على الكراسي المذهبة فجلسوا على الكنب، وترك بعض الذين كانوا على الكنب أماكنهم ليجلسوا على الدكك الخشبية، وذهب الشيخ الشناوي يجلس على دكة وسط الفلاحين.

وألقى شيخ البلد بنفسه على طرف كرسي أخضر مذهب عن شمال المأمور.

وشعر شيخ البلد بكبرياء وهو يجلس إلى جوار المأمور ومحمود بك.

واستلقت عيون الفلاحين على المأمور، والشيخ إبراهيم ما زال يرتل بالسبع، ويمد الكلمات الآتية:

ـ ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

وأحس المأمور بالأنظار تتجه إليه، ورفع هو بصره قليلا إلى القارئ ليجاوز الآية.. ولكن الشيخ إبراهيم كان مشغولا بإعادة الآية وترتيلها بأجمل ما يملك من صوت.. وبكل ما يعرف من طرق، وحيل!

أما شيخ البلد فقد ملأته الراحة، وهو يتأمل إلى جوار كتفه كتف المأمور.. وأخرج من جيبه علبة سجائر، اشترتها عائلة العمدة ليقدم منها للأكابر من المعزين.

ووقف أمام المأمور وقدم له سيجارة، وسيجارة أخرى لمحمود بك.

وعاد يقعد في مكانه على طرف الكرسي إلى جوار المأمور وهو ينادي:

ـ قهوة لسعادة المأمور يا جدع.

والشيخ إبراهيم ما زال يعيد في الآية:

ـ ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

وابتسم القادمون من المركز مع المحامى.

ومال المحامي على جاره وهمس في أذنه وأخفيا الضحكات، وهما ينظران إلى المأمور ومحمود بك، والآذان تلتقط كلمات الآية.

وسرت نفس الهمهمة في الفلاحين، وعيونهم محطوطة على المأمور وبدأ بعضهم يكتم الضحك.

وأحس شيخ البلد بحرج كبير..

ونظر إلى المأمور فوجده مقطبا ينفث دخان سيجارته بعصبية وأنفاسه تتردد عالية في منخريه.. وإلى جواره محمود بك محتقن الوجه من الغضب.

وهرول شيخ البلد إلى القارئ وهمس في أذنه:

ـ شوف لنا آية غير دي في عرضك.. عدي الآية دي بقى.. بلاش تقرأ بالسبع في آية ـ ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ دي.. لاحسن الناس بتبص عالمأمور.

ولكن القارئ نظر إليه بإهمال واستهجان، وثبتت يداه على صدغيه، وحاجباه يرتفعان بغضون جبهته، وانطلق يرتل:

ـ ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

وأخذت الهمسات الساخرة تتزايد بشكل ملحوظ في منطقة الكراسي المذهبة ذات القطيفة الخضراء الكالحة.

فصاح محمود بك في ضيق:

ـ خلاص يا شيخ إبراهيم؟! ما فيش في القرآن غير دي؟! من ساعة ما دخلنا وأنت عمال تلت وتعجن في الآية دي! همه مصلطينك؟!

وانفجرت الضحكات صريحة قوية من الجالسين على الدكك.

فوقف المأمور قائلا في صوت حاسم:

ـ صدق الله العظيم! طب يا أخي ماتقرأ آية وحشرناهم إلى جهنم يوم القيامة وفدا.

ورد المحامي ضاحكا:

ـ ما فيش في القرآن آية كده، أنتم حاتألفوا قرآن جديد ضد الوفد!

وسكت القارئ.. مغضبا.

وسكت الضاحكون من فوق الدكك.

وجلس المأمور صارم الوجه.

وخيم الصمت على الجميع لحظة.. ثم رفع المأمور يده.. ولوح بها للجالسين على الدكك وهو يقول:

ـ طيب يا بلد! مش انتو بتوع حديد الزراعية.. مش أنتو بتوع يحيا الوفد؟

فقال المحامي بطلاقة:

ـ ليسوا هم فقط! دي مصر كلها كده يا حضرة المأمور.. والا أنت زعلان علشان حكاية يحيا الوفد دي خدت في وشها المأمور اللي فات والحكمدار كمان؟! أمال الناس يعني حاتقول يحيا صدقي؟ حايقولوا يحيا حزب الشعب؟ ولا يحيا الإنجليز؟.. أنتم فاهمين أنكم رايحين تحكموا البلد بالحديد والنار؟! لا.. دا بعدكم يا حضرة المأمور!! هيه البلد دي بتاعتكم؟ أنتم فاهمين إيه؟ هيه بلد مين؟ دي بلدنا كلنا: بلد الفلاحين دول أولا!.. كفاية بقى شغل قطاع الطرق ده!!

وبهت المأمور.

بينما شاعت الراحة والثقة في قلوب الجالسين على الدكك فهزوا رءوسهم في رضا وهم ينظرون إلى نائبهم السابق وهمهموا:

ـ قول له؟! يمكن فاكرين إن البر ده بتاع حزب الشعب.

ولم يتكلم المأمور لبعض الوقت.

ولكنه لم يشأ أن يرد، حتى لا يدخل في مناقشة فيقلب المأتم إلى اجتماع سياسي.

وبعد صمت طويل متوتر قال المأمور فجأة بصوت كالنذير:

ـ من اللي رمى حديد الزراعية امبارح؟.

وهمس أحد الفلاحين:

ـ هو عزا دا ولا تحقيق؟!

فقال له جاره في سخرية هامسة بالمأمور:

ـ شوف شوف! ـ ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.. بس يابتاع ـ ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

وكتما الضحكات في كمهما.. بينما بقي الآخرون جامدين ينظرون إلى النائب السابق ثم إلى المأمور وقلوبهم تخفق من خشية المجهول.

وقف شيخ البلد وأقسم للمأمور أنه لا يعرف من الذي رمى حديد الزراعية، والخفير الذي كان يحرس الحديد يقول إن العفاريت أناموه، ورموا الحديد في الترعة.

ومضى شيخ البلد يقسم بأن العمدة المرحوم كان في صحة جيدة ولكنه عندما عرف الحكاية مات بحسرتها!

وقدم للمأمور سيجارة جديدة، متملقا.

ونهض المأمور من فوره قائلا:

ـ طيب أنا حاعرف أربي البلد دي وأخليها عبرة!

وانصرف وكرشه يهتز قبل أن يشرب القهوة ومعه سيجارة لم تشتعل وانصرف معه محمود بك وهو يهدد.

وقام وراءه الشيخ الشناوي مهرولا معتذرا وتبعه شيخ البلد.

وقام محمد أفندي يسير وراءهما مودعا فنظر إليه خاله الشيخ حسونة مؤنبا ولكنه لم يلحظ فناداه محنقا.. وعاد محمد أفندي إلى خاله على الفور فهمس خاله في أذنه بكلمات قارصة وأمره أن يحترم نفسه، وينحط على الكرسي بدلا من الهرولة خلف المأمور.

وركب المأمور إلى جواره محمود بك في العربة الحنطور، ووقف شيخ البلد وبعض أقارب العمدة على باب المضيفة يرفعون أيديهم إلى رءوسهم شاكرين للمأمور سعيه، ولكن المأمور لم يرد.

ووجهوا الشكر إلى محمود بك ولكنه لم يجب.

وعندما بدأت العربة تتحرك، أطل المأمور على شيخ البلد، وسلقه بالكلام!

ومضت العربة في طريق العودة والصغار والنساء أمام الدور يهمهمون في وجل واستغراب:

ـ الحكومة.. الحكومة كانت في المعزى!

***

وعاشت القرية بعد ذلك تتحدث لأيام عن مأتم العمدة بلياليه الثلاثة وعن الشيخ إبراهيم وعن زيارة المأمور وكلامه، وتطلق ضحكاتها وهي تسترجع حالة المأمور حين فاجأه في مدخل المضيفة.. صوت القارئ يرتل:

ـ ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

وكانت القرية تقطع هذه الأحاديث لتتكلم عن الليلة التي رمت فيها إلى الترعة بحديد الزراعية وشعبان.

وأصبحت تلك الليلة تسمى في القرية «ليلة الحديد».. ويوما بعد يوم صارت كليلة حريق الإنجليز ـ نبضا دافقا في همود القرية!

وظل دياب كلما التقى بعبد الهادي يذكره بصراخ شعبان حين ألقي مع الحديد في الترعة.. ثم يلعن شعبان، والعمدة والحديد.. أعداء القرية الذين تخلصت منهم القرية في ليلة واحدة.. بيضاء!

وكان الفلاحون كلما رفعوا رءوسهم عن الفؤوس يقلدون صوت المأمور وهو يتكلم عن ليلة الحديد، ويهدد بتأديب القرية، ثم يضحكون غير حافلين بما يمكن أن يصنعه هذا المأمور الجديد ذو الكرش الكبير والبدن الغليظ!

على أن الشيخ يوسف فقد اهتمامه بكل هذا.. وانشغل بالتفكير في أمر العمدة الجديد!

من يكون العمدة الجديد؟

يجب أن يكون من عائلة أخرى غير عائلة العمدة القديم!

إن عائلة العمدة القديم متفرقة متخاصمة، ولا أحد فيها يملك الزمام المطلوب من الأرض.. ولكن الشيخ يوسف يعرف أن هذه العائلة تتفق حتما على اختيار شيخ البلد.. فأفرادها يختلفون، ويضربون بعضهم، ويتخاصمون أمام المحاكم والواحد منهم لايطيق أخاه.. ولكنهم كالكلاب يجتمعون لينبحوا معا.. عندما يظهر غريب.

وتحدث الشيخ يوسف في الأمر مع محمد أبو سويلم، فقال محمد أبو سويلم بإصرار:

ـ والنبي شيخ البلد ما هو شايفها، لما حتى تنقلع عينه بشطية..

ولم يكن محمد أبو سويلم قد فكر بعد في رجل بالذات يمكن أن يصبح هو العمدة، ولكنه فقط كان يقول دائما:

ـ عايزين نبعد عن السلسال النجس ده.. قال بيقولوا إن أجواز بنات العمدة جم من البلد دي والبلد دي، واتفقوا مع العيلة كلها أنهم يسيبوا العمودية لشيخ البلد! يا أخي دا بعده! والله العيلة دي ماهي طايلاها تاني.

***

وذهب الشيخ يوسف إلى المركز ذات يوم فاشترى شالا جديدا لعمامته، وعاد بجلباب من الكشمير فلبسه، وظل يطوح أكمامه متخايلا، ويرفع ذراعه، ويكشف عن كم طويل لفانلة جديدة صفراء.

وقعد يوما مع الشيخ حسونة وأخذ يهز يده ليكشف عن كم الفانلة، ويتحسس الجلباب الكشمير والصديري الشاهي، ثم قال في ضعف:

ـ شايف يا حضرة الناظر؟! أهو كل ده للعمدية! يا سلام كده عليّ أنا بقى لو بقيت عمدة؟! دانا أنطلي في العمدية قوي يا حضرة الناظر! والنبي أنا مطلي فيها!! لما يقولوا لي كده يا حضرة العمدة، تبقى كده خايلة عليّ! شايف بقى لبس العمد.. هئ هئ.. أهو انته حضرة الناظر، وأنا حضرة العمدة!

وكانت ألفاظه تقتحم فمه في خجل وتردد.. وهو يحاول جاهدا أن يستر ضعفه في ضحكات متكسرة يسوقها إلى شفتيه.

ولم يسترح الشيخ حسونة لكل هذا فقال:

ـ خبر إيه يا شيخ يوسف؟! دي العمدية قلت عقلك! عمدية إيه يا راجل؟ عمدية إيه وهباب إيه اللي شاغل به نفسك؟! يا شيخ وفر فلوسك يا شيخ انت وهات بهم هدمتين للأولاد، بدل ما هم دايرين بهدومهم مقطعة؟ إيه اللي لبس عمد؟ كلام إيه ده؟ إيه الكلام الخايب ده؟!

وصدم الشيخ يوسف من هذا الكلام.. ولكن الشيخ حسونة كان حاسما جافا لا يجامل، ونظراته تنبعث في حدة واستخفاف!

وبعد لحظات من الصمت، تكلم الشيخ حسونة طويلا عن محمود بك وكيف يلعب بالقرية كعادته.. فهو ينتهز فرصة خلو العمدية ليشبع لعبا ويأخذ مالا من هذا ومن هذا ومن ذاك وفي النهاية يسعى ليكون هو نفسه عمدة.

وظل الشيخ يوسف يسمع في خجل.

ولم يعد يتحدث في أمر العمدية مع أحد.

وفكر في صمت أن يدبر مالا لمحمود بك كما صنع الآخرون.. ولكن عبد الهادي شعر به فسخر منه.. فأقسم الشيخ يوسف ألا يتكلم مرة أخرى في الموضوع.

وشطح فكره في علواني!

لو أن علواني في القرية لكان هو الوحيد الذي يطرب لتفكير الشيخ يوسف.. ولتحمس وهز ذراعيه ولصاح بكلمات كثيرة مختلطة تملأ النفس بالكبرياء والعزة والأمل!

إنهم هنا كلهم يكسرون النفس.. فأين علواني؟!

ولكن علواني الآن في سجن المركز!

ربما كانوا يضربونه ويسقونه بول الخيل.. بلا ذنب!

وعادت الحسرة على علواني تفيض في أعماق الشيخ يوسف وهو يستعيد في خياله كل ما صنعه العمدة الميت في القرية!

واسترجع موقف محمود بك من العمدة والقرية.

ووثبت إلى ذهنه صور عديدة لما ارتكبه محمود بك فقال لنفسه: إن الشيخ حسونه وعبد الهادي على حق!

ولكن المهم ألا يسمح لأحد من عائلة العمدة القديم بأن يكون عمدة.

وخلع الشيخ يوسف جلبابه الكشمير والفانلة الصفراء الجديدة والصديري الشاهي وعاد يلف عمته بالشال القديم ويجلس في دكانه يقرأ «سيرة أبو زيد الهلالى»، ويقف طويلا بالصفحات التي تروي صبر «أبو زيد الهلالى» على نكد الأيام.. ثم يمتلئ حماسا وهو يقرأ انتصار البطل بعد هزيمته، وسطوع نجمه بعد أفول!

***

ومضت الأيام بالقرية دون أن يعرف أحد فيها من هو العمدة الجديد.

وفي الحق إن أمر تعيين عمدة جديد لم يكن يشغل الفلاحين في الحقول، فقد كانوا يقولون لبعضهم إنه لا يهم أن ينكشح عمدة، ويجيء آخر، فالعمدة الجديد لن يرفع سعر القطن، ولن يعدل مواعيد الري، ولن يغير مشروع الزراعية.. ما دامت الحكومة في مصر باقية كما هي.. في يد حزب الشعب!

لم يكن أحد على الإطلاق يفكر فيمن هو العمدة الجديد إلا ثلاثة رجال أو أربعة يريد كل واحد منهم أن يكون عمدة.. ومن ورائهم قلائل يعنيهم الموضوع!

أما بقية القرية فقد كانت تفكر في موقف الحكومة بعد أن رمت القرية حديد الزراعية في الترعة، وفيما يمكن أن يصنعه المأمور بعد أن أنذر القرية في مأتم العمدة.

وقالت وصيفة لأمها إنها حلمت حلما أخافها..

وقاطعتها أمها منزعجة قبل أن تحكي الحلم:

ـ ما تفسريش في وشي! ربنا يجعله خير! ربنا يفوت السنة دي على خير! هيه يعني الحكومة حاتسكت على ليلة الحديد؟ ياما أنا مشغولة على أبوكي! يا عالم الحكومة ناوية تعمل إيه في رجالة البلد.. على الله السنة دي تفوت بس بالطول ولا بالعرض.

كان قد مر أكثر من أسبوع على ليلة الحديد، وبدأت عائلة العمدة تحتفل بالخميس الثاني لموته.

وحضر أزواج بناته من البلاد المجاورة..

وأمام مقبرة العمدة، التي تقع في أول الجبانة، منفصلة عن بقية المقابر، وراء أسوار تميز المقتدرين بعد الموت.. هناك أمام المقبرة، بعد صلاة العصر، جلس القراء وإلى جوارهم على الحصير.. أولادهم الصغار.

وأخذ القراء يطوحون رقابهم في حركات منتظمة متحمسة وهم يتلون في سرعة «سورة يس» و«سورة تبارك»..

وأخيرا قرءوا الفاتحة في صوت واحد، وهم يلتقطون الفطائر والتين البرشومي من يد شيخ البلد.. رحمة ونورا على العمدة.

وعندما انصرفوا همس شيخ البلد في أذن أحد القراء.. وطلب منه أن يذهب إلى الدوار ليتلو القرآن هناك من فوره، وسيقبل الشيخ الشناوي يسنده في القراءة، بعد صلاة العشاء.

وفي الطريق من الجبانة إلى القرية قال شيخ البلد للعائدين معه: إن المأمور أرسل إشارة تليفونية إليه ـ بصفته نائبا للعمدة ـ يخبره بأن الهجانة مقبلون إلى القرية، وأن التجول ممنوع بعد أذان المغرب.. ابتداء من اليوم.

وسكت شيخ البلد قليلا، فتجمع الناس حوله يسألونه في اهتمام عن الهجانة وعما يعني المأمور بكلامه «أن التجول ممنوع».

وقال شيخ البلد في لهجة آمرة: إن الهجانة مقبلون لحماية الأمن في البلدة، بعد أن اضطرب، وسترسل الحكومة مرة أخرى حديد الزراعية، وعلى أهل البلد أن يلزموا دورهم من المغرب!

وساد صمت تقطعه أنفاس تتلاحق من الرهبة.. ولم يكن في الفضاء غير شعاع العصر الشاحب، وغربان تطير هنا وهناك وهي تنعق!

ومشى شيخ البلد.. ويداه معقودتان وراء ظهره، وخيزرانته الطويلة تحت إبطه.

كان يسبق الناس في طريق العودة إلى القرية، وهو يقول بأنفة: إن هذه هي أوامر الحكومة، وهو يبلغها بصفته نائبا للحكومة.. وكل حي يعرف شغله!

وبعد قليل ارتفع صوت من ورائه قائلا:

ـ ويعني هجانة على إيه؟ إحنا عملنا جريمة! وحايعملوا لنا إيه الهجانة يعني؟!

والتفت إليه شيخ البلد، ورفع الخيزرانة الطويلة في يده قائلا:

ـ اسمع يا وله! واد أنت يا لمض! أنا هنا نايب الحكومة! أنت فاهم؟ بلاش لماضة! أنا ما عنديش غير ضرب الوطا.. فضك بقى من الزمان داكا! أيوه أنا حكمي حاجة تانية! سامعين كلكم يا بلد!.. أنا حكمي كده! باقول لكو أهه؟ أنا هنا نايب الحكومة ومسئول عن الأمن!

ثم اندفع شيخ البلد في طريقه..

وبدأت حمرة الأصيل تغمر الأشعة الصفراء.. آخر أشعة النهار، وشيخ البلد ومن ورائه الرجال والقراء يدخلون القرية.

ومن بعيد تعالت دفعة واحدة صرخات متوالية مفزعة.. واقتحمت الطريق جاموسة تجري، ومن ورائها حمار يضرب الفراغ برجليه الخلفيتين.. واصطدم غلام صغير أثناء جريه المضطرب بالوز يهرب.. فزعق الوز وصفق بأجنحته.. وامتلأ الفضاء بأصوات الذعر وماج صراخ النساء والأطفال والحيوان.. والكل يصيح:

ـ الهجانة وصلوا يا وقعة غبرا يا جدعان! الكرابيج اشتغلت في البلد! اجري يا وله.

وكان بعض الرجال يقبلون لاهثين صفر الوجوه.. فيختلطون بكل الأشياء الهاربة من أمام الكرابيج!

وخلال الكلمات المضطربة التي تساقطت من أفواه الهاربين عرف شيخ البلد ما حدث.

هبط رجال الهجانة بالكرابيج، ومروا على الزرائب في الحقول على الجسر فانهالوا ضربا على الفلاحين، وأمروهم بالرجوع إلى الدور.. ثم نزلوا إلى القرية يسوقون أمامهم الرجال والأطفال والبهائم، وأخذوا يضربون كل من يقابلهم في طرقات القرية ويأمرون الناس أن يلزموا بيوتهم.

ضربوا كل من قابلهم حتى الشيخ يوسف ضربوه وأغلقوا دكانه!

وذهل الرجال الذين كانوا مع شيخ البلد، وسيطرت عليهم حيرة جزعة.. بينما وقف شيخ البلد يحاول أن يحمل إليهم الطمأنينة، وما دام هو معهم فلن يمسهم أحد بسوء.. وهو نائب الحكومة كما يعرفون، ويعرف الهجانة!

وعندما كان شيخ البلد واقفا في مدخل القرية ثابتا يهدئ الرجال ويأمرهم أن ينصرفوا إلى دورهم آمنين، طلع الهجانة من زاوية الطريق، والكرابيج الطويلة تقرقع!

وهَمْهَم الرجال وعيونهم قلقة توزع نظراتها على الكرابيج السودانية الملفوفة بالسلك الأصفر، بينما تقدم شيخ البلد بخطوات ثابتة إلى الهجانة قائلا:

ـ أنا نائب الحكومة هنا! حاسب يا حضرة الشاويش كده وقول لي أنت اسمك إيه.

ولكن الشاويش الذي كان يتقدم الهجانة، رفع يده بالكرباج وفرقع به في الهواء ونهر شيخ البلد،، وأمره بأن يسرع إلى داره قائلا ـ باعتداد ـ إنه هو الشاويش عبد الله ولا كلام له مع أحد!

ووقف شيخ البلد يشرح للشاويش ولثلاثة جنود معه، أنه نائب الحكومة في البلد، ولكن الكرباج هوى عليه وظل يهوي، وهو يزعق، حتى اضطر آخر الأمر إلى أن يجري من طريق الهجانة، ليصل إلى بيته بجوار بيت العمدة عن طريق آخر!

وغاب شيخ البلد في زحام الرجال الذين جروا، وذعرهم يختلط بالسخرية قائلين:

ـ ضربوا نايب الحكومة يا جدع! اجري يا وله.. الحكومة ضربت نايب الحكومة!

وبعد لحظات كان كل رجل يسكن إلى داره وهو يرتعد من المفاجأة!

وعندما أقبل الليل كان الخوف قد أخذ يزايل النفوس وبدأت الصور تطوف بالرءوس حاملة الضحكات إلى الشفاه.

فقد أخذت القرية تضحك من قصة الشاويش عبد الله وشيخ البلد.

وكان جيران الشيخ الشناوي يضحكون وهم يذكرون إصرار الشيخ الشناوي على أن يخرج إلى الجامع لصلاة العشاء ولقاءه مع الشاويش عبد الله.. لم يكد الشيخ الشناوي يسمع فرقعة الكرباج في الهواء ويرى منظر الشاويش عبد الله، حتى جرى عائدا إلى داره وهو يلعن البلد وأهله والجامع والصلاة.. والذين يصلون في الجامع!

وفي الصباح كان الفلاحون يتحدثون عن حديد جديد أرسلته الحكومة للزراعية.

وكان علواني يعود من المركز بعد أن بان أنه لم يقتل خضرة.

وسمع علواني بما صنعته الهجانة فتساءل أين بات رجال الهجانة بالأمس؟

ولم يجد جوابا.. وعاد يسأل: أين شربوا الشاي؟!

ولاح سؤاله للناس في القرية غريبا حقا.

وتمنى علواني بينه وبين نفسه لو أنه كان ما يزال يملك الخيمة التي ورثها عن أبيه والتي كان يقيم فيها أول صباه.. ولكنه باعها منذ زمن، ليبيت في الحقول التي يحرسها! لو أنه كان ما يزال يملك هذه الخيمة ـ وراء دور القرية ـ لاستضاف فيها رجال الهجانة، وسقاهم الشاى!

وقال علواني:

ـ لو كنت أنا هنا في البلد ما كانش دا كله حصل.. حاكم دول عرب.. لكن مسيرهم ياخدوا عالفلاحين..

واستقبله الشيخ يوسف بحرارة، وسأله عن حاله وعما حدث له في السجن، ولم يحفل علواني بأن يحكي للشيخ يوسف، وإنما اهتم بمواساته لأن رجال الهجانة ضربوه.

وقف علواني طويلا مع الشيخ يوسف يطيب خاطره، على ما وقع له من الهجانة.

فقال الشيخ يوسف باشمئزاز وكبرياء:

ـ يا واد الزعما بتوع البلد انضربوا في بني سويف والمنصورة وانضربوا في مصر قدام البرلمان!

فقال علواني بلهجة مطمئنة:

ـ على كل حال دول عرب يابا الشيخ يوسف! دول مشايخ عرب.. عرب أجاود.. لكن اللي في المركز قالوا لهم اضربوا الفلاحين.. نزلوا ضرب في الفلاحين.. آدي الشغلة!

فأجابه الشيخ يوسف بوجيعة:

ـ إياك تنشغل في بطنك؟!.. شغلة إيه الغبرا د ي.. بيضربونا ليه؟ علشان الزراعية.. عشان كلام الباشا والحكومة يمشي على رقابنا؟ هه!.. وهيه الحكومة عاملة لهم إيه يعني لما يسمعوا كلامها قوي كده! لبستهم حرير؟ أكلتهم عيش قمح؟ مشت لهم المركب في الشراقي؟ جاتكو الغم عرب!! لو ما كانوش عرب، لو كانوا يعرفوا غلاوة الأرض وحلاوتها وشقاها، لو كانوا بيزرعوا ويقلعوا كانوا عذرونا.. بقى لو واحد منهم بيزرع وجات الزراعية خدت غيطه كان حايسكت! كانوا يعملوا إيه جاتكو عمل يطير عقلكم ياصنف العرب..

فقال علواني مهدئا له:

ـ معلهش يابا الشيخ يوسف.. بكره ياخدوا عالبلد.

فقال الشيخ يوسف وهو يتحسس آثار الكرباج تحت ملابسه:

ـ ياك تاخدكو غارة بحق جاه المصطفى يا شيخ.

ثم استرسل يقول في ندم:

ـ يعني لو أجرت القيراطين اللي حيلتي وفتحت الدكانة دي في مصر!! يا ريتني عملت كده وخلصت من وجع القلب ده! وهيه دي بلد تنسكن!

وفي تلك اللحظة بالذات.. كان الشاويش عبد الله يجلس في دوار العمدة يفكر في أبيه الذي تركه في الصحراء البعيدة جنوبي أسوان.

وكان يفكر في أمه ويحدث نفسه في ندم أنه ضرب في هذه القرية رجالا كأبيه، ونساء كأمه!

وضرب أيضا أطفالا صغارا كإخوته.. وكالأطفال الذين أحبهم في قريته.

كان الشاويش عبد الله ما زال يسأل نفسه لماذا ضرب هؤلاء الناس جميعا بلا رحمة؟!

لماذا جعل القرية كلها بالأمس تطوي يوما حزينا يائسا؟!

ولم يجب الشاويش عبد الله على نفسه.

وإنما قام ومعه رجاله عند الأصيل، واستعدوا للطواف في طرقات القرية عندما تغيب الشمس.

وقبل الأصيل كان الفلاحون يعودون إلى دورهم مسرعين يسوقون البهائم من حوض الجسر وحوض الترعة، ومن وراء البهائم فتيات حافيات يتزاحمن على التقاط الروث..

وعندما مر العائدون من الحقول بالمكان الذي ستشق فيه السكة الزراعية رأوا الحديد الجديد قد هشم مزيدا من الأعواد الخضراء وقد انحدرت على تراب الأرض قطع كثيرة من القطن الأبيض.

وزحفت الحسرة على النفوس.. وفي كل صدر يتردد سؤال حائر حزين: ما العمل؟

وقبل أن تغرب الشمس.. كان كل حي في القرية يغلق باب داره قبل أن يظهر في الطريق كرباج الشاويش عبد الله!

- ٢٠ -

ثم أقبل الخريف على قريتي!

ولم تكن الذرة الجديدة قد نضجت بعد في الحقول، بينما دور الفلاحين قد خلت تماما من الكيزان القديمة.

وكنت أجلس بعد كل عصر تحت ظل الجميزة على ساقية عبد الهادي، أفكر في المدرسة الثانوية التي سأدخلها لأول مرة بعد أسبوعين، وفي الحلمية الجديدة التي تملؤها همهمة حزينة من أمسيات الخريف، وأسترجع كل ما قرأت من كتب وروايات خلال إجازة الصيف.

وتعودت أن أرجع إلى بيتي.. والشمس تنحدر عبر النهر، إلى الأفق الذي يغيب وراء أشجار التوت المتوجة بطيور صغيرة بيضاء، تنطلق عند المغيب، لتجري هنا وهناك في الفضاء، وخفقات أجنحتها تذوب في همهمة المساء!

لم أكن أستطيع أن أنتظر على الجسر أبدا حتى تختفي الأشعة الحمراء فقد غضب أبي عليّ من أول الإجازة لأني تأخرت مرة على الجسر في انتظار وصيفة إلى ما بعد صلاة العشاء فأمرني ألا أبرح البيت وحدي طول الصيف!

وعندما جاء الخريف على قريتي كانت أعواد الذرة قد ارتفعت وأصبحت أطول من أي رجل!

وأعواد الذرة التي ترتفع مثقلة بالكيزان الجديدة على طول الجسر كانت تعني لنا نحن الصغار كل مخاوف المخبأ في الغيب وعديدا من قصص قديمة عن رجال أقبلوا من قرى بعيدة وتربصوا في حقول الذرة ليضربوا أحد أهل القرية بالعيار!

ومن أجل ذلك فقد كنت أبرح مكاني على الساقية، حين يتخذ الماء لونه الذهبي الداكن عندما تعكس صفحته شحوب الأصيل والظلال.

وكنت وأنا على الساقية أسترجع ماقرأت في الصيف.

كنت أسترجع دائما كتاب «الأيام» و«إبراهيم الكاتب» و«زينب».

وكنت أرى في قريتي أطفالا عديدين أكل الذباب عيونهم كالقرية التي عاش فيها صاحب الأيام.

وتمنيت لو أن قريتي كانت هي الأخرى بلا متاعب، كالقرية التي عاشت فيها «زينب».. الفلاحون فيها لا يتشاجرون على الماء، والحكومة لا تحرمهم من الري ولا تحاول أن تنتزع منهم الأرض أو ترسل إليهم رجالا بملابس صفراء يضربونهم بالكرابيج، والأطفال فيها لا يأكلون الطين ولا يحط الذباب على عيونهم الحلوة!

وتمنيت لو أن قريتي كانت هي الأخرى كقرية «زينب» لا ينزل فيها من الرجال والنساء بعد البول دم وصديد ولا يدهم أهلها المرض المفاجئ في جنوبهم فيتلوى الإنسان منهم لحظة، ويطلق صرخات يائسة فاجعة من حدة الألم.

ثم يسكت.. يسكت إلى الأبد!

وكانت قريتي هي الأخرى جميلة كقرية «زينب» وأشجار الجميز والتوت تمتد على جسرها وتلقي ظلالها المتشابكة على ماء النهر.

وكان النهر في الظهر يبدو تحت أشعة الشمس كصفحة من فضة، وفي الأصيل يبدو من ذهب، وفي الليل كان مختلجا قاتما يتسكع في طريقه إلى المجهول كالحياة في قريتي!

وفي حوض الترعة من قريتي ـ حيث تنتزع الحكومة الأرض ـ كانت الحقول مجللة بمساحات رائعة بيضاء من القطن، وعلى حوض الجسر تمتد السماء بلا نهاية فوق خضرة متموجة من حقول الذرة، تتراقص ذوائبها الشقراء.

وكان النساء في قريتي يحملن الجرار، كنساء القرية التي عاشت فيها «زينب» وكانت لهن أيضًا نهود.

ومن بينهن كانت وصيفة ضاحكة ريانة مفعمة بيضاء ممتعة تثير الخيال.. أكثر مما كانت «زينب». في الكتاب الذي قرأته!

ولكن وصيفة كانت شاحبة بعض الشيء.. كان شيء ما يحبس بعض الدم على وجنتيها، ويلقي على فتنة وجهها لونا من الذبول ويحبس كنوز جسدها الأنثوي وانطلاق نفسها مع الحياة.

على أن قرية «زينب» لم تعرف طعم الكرابيج، كما عرفت قريتي.

ولم تذق قرية «زينب» اضطراب مواعيد الري، ولم تجرب بول الخيل يصب في الأفواه.

ولم تعرف قرية «زينب» زهو النصر وهي تتحدى القضاء والإنجليز والعمدة والحكومة وتنتصر لبعض الوقت.

و«زينب» التي لم تكن أبدا على الرغم من كل شيء جميلة كوصيفة.. لم تذهب إلى قاعة الطحين ذات يوم لتعود إلى أمها باكية.. كما صنعت وصيفة عندما رأيتها لأول مرة بعد أن انقطعت عن رؤيتها طوال شهور الصيف!

***

كنت إذ ذاك قد سمعت عن الشاويش عبد الله وعرفت كثيرا مما صنعه بأهل قريتي.

وكنت أتخيله لكثرة ما سمعت عنه رجلا طويلا كالباب مليئا مثل كيس القطن، شديد السواد كهباب الفرن، أسنانه بيضاء كالجبن.. لا يضحك ولا يتكلم ولا يجيد غير الضرب بالكرباج!

وكنت أسمع أشياء عجيبة عنه، منذ هبط إلى قريتي.

فأهل قريتي يملئون حياتهم بالحديث عنه حتى أصبح الشاويش عبد الله جزءا من أمثال القرية وحكمها وتراثها.

فإذا جاءت إلى القرية بائعة بدينة سمراء تهامس الناس فيما بينهم: «الشاويش عبد الله»!

وإذا زعق رجل قالوا ضاحكين «يعني الشاويش عبد الله»؟!

والصغار في القرية حين يلعبون يلتقط أحدهم فرعا من التوت ويهوي به على زملائه قائلا «أنا الشاويش عبد الله!»، وربما وقف أمامه صغير آخر بفرع من التوت وقفز وتواثب قائلا: «طب وأنا عبد الهادي؟».

ولم يكن لعبد الهادي لقاء مع الشاويش عبد الله بعد، ولكن الصغار كانوا يتخيلون هذا اللقاء دائما ويتساءلون عمن يغلب!

وفي الحق أني ظللت أسمع قصصا غريبة عن الشاويش عبد الله.. ولكني لم أره.. فلم يكن يتاح لي أن أخرج من البيت طول الصيف، وأقبل الخريف وأوشكت الإجازة على نهايتها وسمح لي بالخروج وحدي على أن أكون في البيت، قبل أن يهبط المغرب على القرية!

وسمعت فجأة أن الشاويش عبد الله لم يعد يضرب أهل القرية، وشرع الناس يقولون عنه إنه رجل طيب.

وحكى لي أحد الأولاد أنه رأى الشاويش عبد الله يضحك!

وسمعت أيضا أنه زار الشيخ يوسف في داره وضحك معه، وأنه جلس ليلة مع الشيخ حسونة ومحمد أفندي وعبد الهادي على مصطبة محمد أبو سويلم فنادى محمد أبو سويلم ابنته وصيفة، وأمرها أن تحضر القهوة ولكن الشاويش عبد الله طلب الشاي فأعدته وصيفة، وعندما ذاقه الشاويش عبد الله تنهد بارتياح قائلا:

ـ يدوم الحماس يا عرب.

فضحك الجميع وانبسطت وجوههم، وأدركوا أنهم يجلسون مع واحد من الناس مثلهم!

وعلمت أن الشاويش عبد الله أصبح الآن يترك الشيخ الشناوي يذهب إلى الجامع لصلاة العشاء، ويسمح للشيخ يوسف بفتح دكانه حتى صلاة العشاء أيضا وأنه يجلس عادة على مصطبة محمد أبو سويلم ويأمر رجاله الثلاثة أن يطوفوا بالقرية ليدخلوا الناس الدور بهدوء ثم يعودوا إليه على مصطبة محمد أبو سويلم.

وتهامس بعض أهل القرية أن الشاويش عبد الله نوى الزواج من وصيفة وأنه لم يكلم أباها بعد ولكن الأمر مفهوم.. وقال الآخرون إنه تكلم معه واتفقا ولكن محمد أبو سويلم يكتم الأمر.

وشاقني أن أرى الشاويش عبد الله وأن أعرف كيف يتكلم هذا الرجل الذي ضرب القرية كلها بكرباجه لأول يوم أقبل!! وهل هو يضحك حقا؟!.. وهل يمكن أن يكون له كالآخرين زوجة وأطفال؟!

وأحسست بالحاجة إلى رؤية وصيفة.

ربما لأني لم أرها منذ زمن طويل أو لأني سمعت أنها ستتزوج من الشاويش الغريب.. أو ربما لأني مسافر عن قريب.

وعلى أي حال فقد ذهبت إليها ذات صباح.

كان الضحى يملأ طرقات القرية بشمس سبتمبر الفاترة والأنسام تهب على القرية رقيقة طلقة زفافه.. وكان باب دار وصيفة مفتوحا إلى آخره ككل الأبواب في القرية أثناء النهار.

وقبل أن أدخل إلى الدار سمعت أم وصيفة تستعجلها أن تعود من قاعة الطحين بما بقي من كيزان الذرة لتحمصه في الفرن وترسله إلى الطاحونة.. فقد انتهى الخبز!

وتقدمت أنا خطوة، وجاوزت عتبة الباب إلى داخل الدار، فزعقت الإوزة التي كانت تسير متمايلة إلى الباب، وصفقت بجناحيها قليلا!

وخرجت وصيفة من قاعة الطحين في آخر الدار ووجهها محتقن بالغيظ وفي عينيها دموع لم تنسكب بعد.

وسمعت صوتها يتهدج:

ما فيش دره للتحميصة يا أمه؟

وخفق قلبي فجأة وفتحت عيني فوجدت أم وصيفة قد شحب وجهها تماما.

ووثب إلى ذهني ماقاله لي أبي بالأمس عندما رفضت أن تصلح لي بدلة أحد إخوتي الكبار وبكيت في طلب بدلة جديدة أذهب بها إلى المدرسة الثانوية.. فقد نظر إليّ أبي إذ ذاك ـ بعطف حائر وهو يقول:

ـ يابني دا حتى اللقمة بقت نادرة.. بدلة جديدة إيه بس والناس بتشقى على لقمة العيش!

واستدرت على الفور، من دار وصيفة، ومشيت على مهل وأنا منقبض، حزين قبل أن أسأل وصيفة عن حكاية الشاويش عبد الله.

وعندما جاوزت العتبة إلى الطريق سمعت أمها تقول بإذعان:

ـ طب كتفي الوزة دي ودوري بها على حد يشتريها أهي تجيب كيلة درة.. شوفي كده محمد أفندي ولا الشاويش عبد الله! يا رب.. لنا رب.

وازدحمت نفسي بمشاعر عديدة مختلطة.. وفكرت في ربها هذا متى يملأ القاعة بالطحين.. ويجود عليّ بالبدلة الجديدة!

متى؟ وكيف؟..

وتذكرت أن قاعة محمد أبو سويلم لن يدخلها الذرة هذا العام.. فالذرة الجديدة في حقله بحوض الترعة ستبتلعها الزراعية وستبلع أيضا حقل القطن.

وتمنيت أن أرى عبد الهادي على الفور وأن أتحدث إليه ولكني لم أستطع في ذلك الضحى أن أراه.

وعدت أقلب صفحات رواية «زينب» و«إبراهيم الكاتب» ولكني لم أجد أبدا ما يحمل العزاء.

لم أجد مأساة قريتي.. وتمنيت أن أصنع كالشيخ يوسف وألتقط نفسي الشاردة من خلال قراءة كتاب كبير أصفر يروي قصة البطولة والصبر كرواية «عنترة» أو «أبوزيد الهلالى»!

***

وفي الأصيل عندما كانت الظلال المليئة بالهمسات تغمر الأشعة الحمراء، انحدرت أنا على الجسر عائدا إلى القرية كعادتي.

كنت أفكر في أشياء كثيرة لا أتبينها، والوحشة تنزاح إلى صدري فتغشاه مع ظلال المغرب، وأحلام بالمجهول تضطرم هنا وهناك في الأعماق مني.

أحلام يختلط فيها أبطال القصص التي قرأتها بمظاهرات القاهرة، بالمدرسة الثانوية، ووصيفة، والممثلين الذين أحبهم، وجارات لي في الحلمية الجديدة.. وذكريات العذاب الذي لقيه الرجال في سجن المركز!

كان الناس قد عادوا بالبهائم من الحقول.. تماما كما أمرهم الشاويش عبد الله.

ولم يعد في طريق الجسر غيري.. والمساء.

ومن بعيد ارتفع صوت قوي جاف على نبرات حزينة:

نار الحطب دوم ولا نار المحبة يوم

نار الحطب تنطفي ونار المحبة تدوم

كان هو عبد الهادي يخرج من حقل الذرة الذي يستلقي تحت الساقية من وراء بطن الجسر، وفي إحدى يديه حزمة من الحطب الجاف ويده الأخرى تسند إلى ظهره حملا من الذرة مليئا بالكيزان.

وألقى عبد الهادي حمله أمام الجميزة دون أن يقطع غناءه، وبدأ يخلع الكيزان من أعوادها.

كنت أنا قد سرت خطوات على الجسر في الطريق إلى القرية، وإذ رأيت عبد الهادي ناديته فرحا بلقائه.

وطلب مني أن أعود وأقعد على الساقية قليلا ليشوي لي كوزين، ولكني صممت على الذهاب إلى البيت فما ينبغي أن أتأخر على الجسر حتى يقبل الليل.

وصحبني عبد الهادي ومضينا إلى القرية.

وفي الطريق علمت منه أن الشاويش عبد الله طالع إلى الجسر، في حلق المغرب، بعد أول لفة في القرية.

واهتزت نفسي، وتمنيت لو عدت إلى الجميزة لأسهر قليلا مع الشاويش عبد الله.

وطلبت من عبد الهادي أن يستأذن لي أبي.. فأعود معه.

وبعد المغرب كنت أطلع الجسر مع عبد الهادي وأجلس إلى جوار الساقية. كان كل شيء من حولنا ساكنا.. وعبد الهادي يحدثني عن سفري القريب ويقول وهو يصفق بيديه:

ـ شي الله يا مصر.. أمانة يا شيخ تسلم على مصر.. بقى محمد أفندي يروح مصر ويرجع زي ما هو.. حتى ما يقول لنا شيء أو حاجة عن مصر؟ آه لو كنت أنا اللي رحتك يا مصر؟ حاكم اللي بنى مصر كان في الأصل حلواني.

واستمر يقول ـ نشيطا ـ في نغم، وهو يرفع حاجبيه، ويبتسم:

دا اللي بنى مصر كان في الأصل حلواني.

ولم أفهم بالتحديد ما يحبه عبد الهادي في المدينة الكبيرة المصطخبة التي أعيش في مدارسها بين واجبات الحساب واللغة الإنجليزية وعصي المدرسين!

وحاولت أن أحدث عبد الهادي قليلا عما رأيته في شوارع المدينة التي يحسب أن الذي بناها حلواني.

وحاولت أن أحدثه عن الذين يسيرون في الطريق واجمين.. وعن التلاميذ الذين يذهبون إلى المدرسة بأحذية ممزقة يدارون فيها رتوق الجوارب.. عن البنطلونات المفتوقة، والبدل الناحلة، والرصاص في الشوارع!

ولكني وجدت نفسي أحدثه عن وصيفة وأحكي له كيف بكت لأنها لم تجد في قاعة الطحين ذرة.

وقطع عبد الهادي ابتسامته، وقطب.. وأطرق برأسه لحظة، ثم رفع وجهه ونظر إلى الظلال التي تلقيها أشجار التوت على الشاطئ المقابل للنهر وتختلط هناك بعتمة السماء.

وأخيرا قال بصوت خفيض:

ـ يا عم ما الدنيا كلها اتنيلت بنيلة.. حد عارف إيه أخرتها.. دا الناس من الجوع قربت تاكل بعض! والحكومة شاطرة تبعت لنا هجانة تدخلنا الدور من قبل أذان المغرب! طب ما هي الناس بيسرقوا في النهار عيني عينك! حد بيسرق بالليل.. يا شيخ والله دا الناس بتسرق الدرة الأخضر من الغيطان ويحمصوه وياكلوه فريك.. قال الحكومة بعتالنا عساكر؟ طب تبعت لنا دره! وهو يعني الضرب دا حايشبع الناس على رأي الشاويش عبدالله!

ووجم عبد الهادي قليلا ثم استطرد قائلا:

ـ يا ولداه يابا محمد أبو سويلم! طب دا مش طالع له السنة دي لا درة ولا قطن! الزراعية واخداه كله.. ويعيش منين دا يا إخواتي؟ قال حاياخد تعويض! وعلى مایاخد تعويض ياكل منين؟ وحايعمل إيه بفلوس التعويض؟ حايتاجر! والا يعني حايتاجر؟ حايعمل إيه بالفلوس بعد ماخدوا الأرض؟ حايشتري أرض ثانية.. ومين في البلد يبيع أرض؟!

ثم وجم قليلا.. ونظر في الظلمات هامسا لنفسه:

ـ آه يا حكومة.. يا حكومة بلا معنى.

واسترسل يقول متمتما بأبيات من موال أدهم:

يا حكومة دانا الأدهم.. والأدهم أجيبه منين

يا حكومة دانا الأدهم قتل لي م العيال ولدين

وسكت عبد الهادي وأخذ يهمهم بشفتيه همهمة حزينة ثم انطلق يروي لي قصة أدهم الذي دوخ الحكومة وتحداها ولعب عليها.. وكان يهاجم الكبار ويأخذ من مخازنهم ويعطي للفلاحين الفقراء.

وظل عبد الهادي ينظر أمامه إلى الظلال المنعكسة على ماء النهر الداكن وعاد يقول في حزن كأنما يحدث نفسه:

ـ والله خسارة يا أدهم.. خدوك خونة يا جدع! ما كانوش يقدروا يمشوا زراعية في بلدك أبدا وياخدوا الأرض كده غصبن عن حبة عين الناس الجعانة! دا لما الدرة شح على أيامك انسقطت على مخازن الوسايا وخدت القمح ووزعته على اللي مش لاقيين.. يا خسارتك يا جدع.. قتلوك غدر يا بطل!

وأخذت عينا عبد الهادي تلتمعان، وصوته يختلج.

ونهض واقفا وهو ينشد بنغم حزين فقرات من موال أدهم تحكي عن صراعه مع الحكومة ورجال الحكومة.

وبعد أن انتهى عبد الهادي هز رأسه قائلا:

ـ صحيح.. صحيح منين أجيب ناس لمعنات الكلام يحكوه.

وفجأة رمى كيزان الذرة على الحطب دون أن ينزع منها أغلفتها وسألني إذا كنت آكل كوزا بخيره، حتى يأتي الشاويش عبد الله والجماعة، فاقترحت عليه أن ينتظر.

وإذ ذاك أمسك عودا تشيع في خضرته حمرة خفيفة ونزع قشرته بأسنانه وذاق بلسانه ماتحت القشرة.

وقال لي:

ـ خد مص العقلة دي، أحلى من القصب.

وتناولت منه عود الذرة، ومال هو على كوم الحطب وأشعل عودا من الكبريت.. ونفخ في الحطب.

ثم مشى قليلا بعيدا عن الجميزة إلى الجسر وأخذ يتأمل الطريق ولكنه لم يستطع أن يتبين أحدا وقال لنفسه هامسا:

ـ ولا ساروخ ابن يومه! الجسر فاضي خالص.. يا خوي الجماعة غابوا ليه؟

كانت حقول الذرة تمتد بأطرافها الصفراء في حوض الجسر تحت بصر عبد الهادي وهو ينظر في الفضاء القاتم الواسع، وأنسام الخريف تسري بين أعواد الذرة، وتحدث فيها أصواتا كالوشوشة..

وتنهد عبد الهادي، وهو ينظر إلى الأرض الواسعة المفعمة بالكيزان، ومن ورائها تبدو من بعيد حقول القطن في مساحات بيضاء يظللها الغروب.

وتنهد عبد الهادي، وعيناه معلقتان على حقول الذرة وقال:

ـ معلهش يا وصيفة.. كل شيء وله أوان يا وصيفة..

وعاد يجلس تحت الجميزة، قلقا لغياب الشاويش عبد الله والجماعة.

ولكن انتظاره لم يطل فقد سمع من بعيد همهمة عرف من خلالها ضحكات علواني.

وقام إلى الجسر وأخذ ينظر في الظلام.. واستطاع أن يميز بياض جلباب محمد أفندي فصاح:

ـ الجسر منور يا رجاله.. أتاري الجسر منور كله ومزهزه! مراحب يا عرب.. يا عرب.

وحملت إلينا أنسام المغرب كلمات خافتة قالها الشاويش عبد الله. كان صوته هادئا مفعما حنونا.

وتمنيت لو أن الشاويش عبد الله تكلم مرة أخرى.. ولكن محمد أبو سويلم زعق من بعيد وهو يضحك:

ـ دهدي يا عبد الهادي.. أمال فين الراكية يا جدع.. تكونشي جايب لنا درة من التحميصة.

وكان عود الكبريت الذي أشعله عبد الهادي قد انطفأ داخل الحطب، وتركه عبد الهادي ينطفئ بلا كلمة!

وارتفعت الضحكات من بعيد وقال الشيخ يوسف:

ـ ولع الراكية ياجدع ولع.. مستني إيه.. عايزينه درة بخيره.

وحمل عبد الهادي كيزان الذرة من على الحطب، ثم أشعل عودا من الكبريت.. ورفع الحطب قليلا، ووضع العود، فاشتعلت نار صغيرة، وأخذ ينثر أعواد كبريت غير مشتعلة في أماكن متفرقة من الحطب.. وسرت النار بعض الشيء.. وتوقدت العيدان الأخرى فقال بسرور:

ـ أهي النار كلها دقت أهه..

وبدأ يرمي على النار التي ارتفع لهيبها، كيزان الذرة الخضراء دون أن ينزع الأغلفة ليكون الذرة بخيره.. وتمتم ضاحكا:

نار الحطب دوم ولا نار المحبة يوم

وكانوا قد أقبلوا، فقال علواني مبتسما:

ـ سلامتك من المحبة ونار المحبة يا عبد.

وقال محمد أفندي بانطلاق محاولا أن يصنع نكتة من القرآن:

ـ ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾!

ثم أخذ يطلق قهقهة سريعة متلاحقة وهو ينظر إلى الشاويش عبد الله ويلكزه.

فابتسم الشاويش عبد الله.. وإذ ذاك تعالت ضحكات محمد أفندي.

وسلم عبد الهادي على الشاويش عبد الله وزملائه العساكر الثلاثة.. ثم سأل:

ـ أمال فين حضرة الناظر؟

وأجابه محمد أفندي إن خاله الشيخ حسونة لم يستطع الحضور.. لأنه مسافر غدا بأول قطار يقوم من المركز في الفجر.

فقال عبد الهادي:

ـ والله خسارة؟ المسامحة خلصت دغري.. أمال يا أخوية مدرسة بلدنا مابتشتغلشي ليه؟

فقال محمد أفندي:

ـ دهدي.. ما بكره تشتغل.. مدرستنا ومدرستهم حايشتغلوا في يوم واحد.

وضحك عبد الهادي باستخفاف:

ـ يا عم أنتم بتشتغلوا إلا في العيش القمح والحلاوة الطحينية.

وابتسم محمد أبو سويلم، وهو يقول في ابتسامة تقطر بالمرارة:

ـ أي والله! اشتغلوا أنتو في الرز المعمر يا عم، وإحنا مش لاقيين نشتغل في المش والعيش الدكر!

وابتسم الشاويش عبد الله والجنود الثلاثة، وضحك محمد أفندي وقهقه علواني.. وتقدم إلى الساقية ورفع من على كتفه الحرام المخطط، وفرشه على خشب الساقية قائلا:

ـ اتفضلوا هنا على كبير الساقية.. اتفضل هنا يا شاويش عبد الله عالكبير.. اتفضلوا.

وحين جلس الشاويش عبد الله والعساكر، قال علواني مستدركا وكأنه نسى شيئا:

ـ لكن قول لي بس يا أبا محمد.. أنتو مش لاقيين العيش والمش ليه؟ أمال إحنا يعني نقول إيه؟ يعني اللي زي حالاتي ده يقول إيه؟!

ولم يجب محمد أبو سويلم. فالتفت علواني إلى الشيخ يوسف وقال له كأنه يكمل حديثا سابقا معه:

ـ هو انته يابا الشيخ يوسف مش ناوي عالعمدية برضه؟.. وحياة مقام الشاويش عبدالله ما ينطلي فيها يا شيخ كده ويخيل غيرك أنت.. آه ياحضرة العمدة.. ياما أنت مطلي كده في الكلمة دي!.. يا حضرة العمدة!

وكان الشيخ يوسف إذ ذاك يشد جلبابه إلى أعلى من على ظهره ويمسك بأطرافه من تحت ويتهيأ للجلوس على كبير الساقية، فتوقف فجأة ليقول في صرامة:

ـ ما تجبشي سيرة العمدية دي تاني يا واد يا علواني.. قطيعة تقطع العمدية وسيرة العمدية!.. أنا باقول لك أهه.. إن كنت تجيب سيرتها تاني يا واد انت يا عرباوى.

وتوقف الشيخ يوسف عن الكلام فجأة، وأحس أن لسانه سقط حين قال يا عرباوي.. وتحرج، وتنحنح ثم جلس على الفور وهو يرفع يديه ويلوح ويقول للشاويش عبدالله وزملائه العساكر:

ـ أهلا يا عرب.. مراحب يا عرب.. دا احنا ما لناش بركة غيركم يا عرب.. اللهم صلي وسلم وبارك على النبي العربي سيد الخلق أجمعين! منورين النزل كله والله يا مشايخ العرب!

وابتسم الشاويش عبد الله، ورفع يده إلى جبينه شاكرا، بينما أخذ علواني يقهقه صائحا في ظفر واعتزاز وجرأة:

ـ أيوه كده يابا الشيخ يوسف انعدل.. عرفت بقى أننا إحنا الخير والبركة؟! مش عنتر كان عربي.. وأبوزيد الهلالي عربي.. والزير سالم كان إيه؟.. أيوه اتوزن كده.. بقى تقول لي يا عرباوي ويا شيخ الغجر.. بطل بقى!

وتضايق الشيخ يوسف من لهجة علواني وكظم غيظه.

فتمتم عبد الهادي وهو يقلب الذرة على النار بعصا طويلة.

ـ وأدهم يا جدع ما هو فلاح!

كان اللهب ينعكس على وجه عبد الهادي البرونزي.. وعيناه تتألقان.. واتجه علواني إلى حيث يجلس عبد الهادي أمام النار، ثم جلس مستندا على مقدمة قدميه دون أن يمس الأرض بجسده وأمسك بطرفي جلبابه من ناحيتين متباعدتين وأخذ يرفع يديه ويخفضهما بسرعة والجلباب يحدث قرقعة يتدفق منها مع كل هزة هواء يزيد النار اشتعالا.

وبدأت الكيزان تطقطق واسودت أغلفتها الخضراء.. فمد عبد الهادي يده إلى النار واختطف كوزا.

وصرخت أنا إذ ذاك في عبد الهادي محذرا أن تحرق النار يده فضحك، وهو يسحب يده من النار وفيها كوز ملتهب وقال لي بهدوء:

ـ يعني هيه النار حاتعمل فينا إيه؟ يا سيدي ياما انشوينا! سيبك بقى من شغل مصر ده.. خلينا هنا.. هنا في وسط الحريقة.

وخفق صوته الساخر على نبرات حزينة.

وحياني الشيخ يوسف وكان قد انتبه لوجودي إذ ذاك وطلب مني أن أجلس على كبير الساقية غير أني ترددت شاكرا وظللت أقف مكاني بجوار الجميزة.. أرقب النار، وأرى إن كان الشاويش عبد الله يبتسم أو يتكلم.. كالناس!

وهمس الشيخ يوسف في أذن الشاويش عبدالله.. وسمعت اسمي واسم أبي وإذ ذاك ناداني الشاويش عبدالله.. وتقدم فأخذ بيدي وأجلسني إلى جواره.

وغمرني الفرح وأنا أجلس إلى جوار الشاويش عبد الله، ولم أستطع أن أقاوم فضولي.. فتحسست الكرباج المثبت في وسطه.. ومد هو يده مبتسما ورفع الكرباج قليلا وتركني أمسك بمقبضه المعروق بالسلك وأنا أضطرب بين الرهبة والإشفاق.

ورأيت وجه الشاويش عبدالله يبتسم.. كان وجهه الصامت مليئا بالابتسام.. وكانت قسماته هادئة، وشفتاه مطبقتين على طيبة خارقة وعجبت أن يكون هذا هو الرجل الذي ضرب قريتي منذ أيام!

وراعني أن يكون هذا الكرباج الذي أمسكه بيدي هو نفسه الذي شوى ظهور النساء والرجال والأطفال!

وسألني الشاويش عبدالله في أي مدرسة أنا، فقلت له: إنني داخل المدرسة الثانوية بعد أيام.

فقال مبتسمًا: إن له أخًا مثلي كان يريد هو الآخر أن يدخل المدرسة الثانوية في أسوان.. ولكن الشاويش لا يظن أن هذا ممكن!

وسكت الشاويش، وشردت عيناه في الظلام.

وتقدم عبد الهادي منا بعد أن قشر كوز الذرة، وقدمه إلى الشاويش عبدالله والدخان يفيض ويتموج من حباته البيضاء.

وأمسك الشاويش عبد الله بالكوز الملتهب وقدمه إليّ.. فاعتذرت شاكرا ولكنه ألح، وفي النهاية.. قضم الكوز وأعطاني قطعة كبيرة منه.

وإذ أمسكت بالكوز لذعتني حرارته، فتركته يهوي من يدي وأنا أداري حرجي.. فابتسم الشاويش عبدالله وأخذه من على الأرض، ومسحه بيده ببساطة، وقدمه إليّ قائلا: إنني يجب أن أتعود على النار.. فالحياة عندما نكبر تصبح كلها من نار!

وابتسمنا جميعا.

وأخذ عبد الهادي يقدم كيزانا أخرى للشاويش وللذين من حوله.. وظلت الأيدي تتداول الكيزان الملتهبة.

كانوا جميعا يقضمون الذرة، وهم يلهثون ويوحوحون من سخونته، ويضحكون.. ومن حين إلى حين ترتفع كلمة ثناء على عبد الهادي والذرة التي تشبه كيزان العسل.

وسرح خيالي في كل ما صنعه الشاويش عبدالله بقريتي.. وهممت أن أسأله: لماذا صنع كل هذا عندما أقبل في أول يوم؟

لماذا ضرب النساء والعجائز والأطفال والرجال؟!

ولكني أخذت أتأمل الشيخ يوسف وحبات الذرة تختلط بشاربه وهو منهمك في القضم.. وحاولت أن أسأله كيف صالح الشاويش عبدالله.. ومتي.. وكيف شرب الشاويش عنده الشاى!

ولكن الجميع كانوا صامتين يأكلون الذرة، ولا شيء يرتفع غير وحوحة الأنفاس.

وقطع صمتنا غناء يقبل من مركب بعيد يمر بالنهر الصغير:

يا بهية وخبريني عاللي جتلوا يس

والتفت الشاويش عبدالله إلى النهر وأخذ يرقب الضوء الخافت الذي يبتعد.

كان المركب قد جاوزنا دون أن نشعر به ومضى يتابع رحلة الليلة تحت ظلمات واسعة.. إلى بلاد لا نعرفها نحن في قريتنا!

وتذكرت جلستي مع وصيفة في أول الصيف في هذا المكان بالذات، والمركب الذي مر.. ووصيفة تضع قدميها في الماء، وتسألني عن مصر، حالمة بأن يحملها مركب ذات يوم إلى مصر.. أو أن تصبح فتجد أمامها جرة مليئة بالنقود.

وفجأة ألحت عليّ صورتها عندما خرجت من قاعة الطحين تبكي وتقول لأمها إن الذرة لا تكفي بعد للطعام!

وزحفت على صدري كآبة غامضة.

وكان الصمت جليا لا يخفق فيه غير نغم بعيد من المركب الذي يختفي في الظلمات.

وفجأة ارتفع صوت حزين بالقرب مني يتمتم:

اشمعنى جفاهم أبيض وجفانا جالوص طين

واشمعنى الخير حداهم.. وإحنا شحاتين!

كان هو الشاويش عبدالله.

وكان لصوته رنين عميق كأنه نبضات قلب موجع.. وعلى الرغم من أن أنغامه وطريقة نطقه كانت غريبة علينا، فقد كان في صوته الهادئ رجع رهيب كأنما هو تلخيص كل آلام قريتي وكل المخاوف من المجهول.

ولكن عبد الهادي لم يسكت ليترك الشاويش يكمل الغناء بأنغامه الغريبة علينا، بل وقف عبد الهادي يصيح:

ـ أيوه يا شاويش عبدالله أيوه.. أي كده.. قول كمان يا سيدي قول.. قل لنا والنبي «عطشان والنيل في بلادنا».. قول يا شيخ! وحياة النبي لتقول كمان موال أخضر من بتوع بلدكم!

وقطع الشاويش عبدالله همهمته، وأطلق ضحكات متكسرة، ودهمه الخجل فسكت، وترك نظراته المفعمة تضرب في الليل العريض الرحب.

وقال علواني وهو يقف بعيدا عن النار:

ـ سامع يا عم الشيخ يوسف؟ سامع يابا الشيخ يوسف المغني؟ مغني عرب! سامع؟ اللي يدور عليك دلوقت يلاقيك محتار. مسكين محتار.

فقاطعه الشيخ يوسف بضيق:

ـ أم؟ مسكين؟! يا أخي جاك سكينة لما تحش رقبتك! ما تسكت!

وضحك علواني واستمر يقول بصوت مرتفع:

ـ معلوم.. محتار.. دهدي! بقى أنت كان ظنك إن حضرة الشاويش عبدالله يبقى في قلبه ريحة الغنا؟.. بقى أنت كنت تفتكر كده؟ لكن يا عم.. الحق عالكرباج!!

وضحك علواني بعصبية، ومسح الشاويش عبدالله جبهته من الحيرة، ولم يقل شيئا.. ولكنه أطلق بلسانه وشفتيه طقطقة استنكار بينما انفجر الشيخ يوسف محنقا:

ـ جرى إيه يا واد يا علواني؟! جاتك الغم ما أبردك؟! دهدي! ما بلاش السيرة الغبرا دي.

فقال محمد أبو سويلم:

ـ ما هو الشاويش عبد الله ما كانش علمه أن الدور حايقلب بصحوبية.. كان لسه غريب علينا! لكن دلوقت بقى.. خلاص.. ما هو بقى من الرفقة العزاز.

وساد الصمت.

ولم يعد يرتفع غير صوت الجمرات التي تتآكل، وعلواني يغرس إبريق الشاي في النار.

ومن بعيد على الشاطئ الآخر كانت ساقية تدور، وترسل في الليل صريرا خافتا يختلط بالأنين.

وتنهد الشاويش عبد الله.. والتفت وراءه إلى ناحية الساقية على الشاطئ الآخر.

وشعرت كأن الشاويش عبد الله يطوي نفسه على سر كبير.

وحاولت أن أسأله.. ولكني لم أستطع.

فقد سعل محمد أفندي ليقول كلاما وكان يسكت طول الوقت.

ولم أسمع ما قاله محمد أفندي، ولكني سمعت أحد العساكر يرد عليه بهمس قائلا:

ـ إن النيل هناك في بلادهم واسع جدا حتى لكأنه أب لهذا النهر الصغير.. غير أنهم هناك لا يعرفون السواقي ولا الحقول: فالنيل يجري مندفعا وسط الرمال والصخور في صحراء لا حقول فيها ولا خضرة ولا حياة.

والتفت الشاويش عبدالله إلى العسكري الذي يتحدث مع محمد أفندي وسأله إن كان يشعر بوحشة هنا وسط هذه الجنة لأنها بعيدة عن أهله!

ولم يجب العسكري.. ولكنه أطلق زفرة عميقة مشحونة:

ـ هيه!!

وتمتم الشاويش عبدالله بكلمات خافتة لم يكد يسمعها أحد.. كلمات تبينت منها ضيقه الحزين لبعده عن أمه وأبيه، وحنقه لأنهم جاءوا به إلى هنا ليذل قرية لم يعرفها أبدا من قبل، وليس بينه وبين أهلها عداء!

وعرفت من تمتمته أنه حين تعرف فيما بعد على الذين ضربهم أول يوم ظل ساهرا طول الليل يحرقه الندم، حتى لقد بكى بدموع العين.

وهزتني كلماته التي غرقت في التنهدات.

وألح عليّ شعوري بأن الشاويش عبدالله يملك سرا غريبا.

وحاولت أن أسأله عن أشياء كثيرة وقبل أن أبدأ الكلام سألني هو إن كنت أعرف الإنجليزية.. ولم يتركني لأجيب، فقد طلب مني في همس أن أعلمه الإنجليزية.

وسكت أنا.. وسكت هو.

على حين كان إبريق الشاي يفور وعلواني يرفع عنه الغطاء قليلا فتصعد منه الفورات تملأ المكان الصامت تحت ظلمات الليل.

وفجأة.. وجدنا أمامنا أحد الخفراء ينادي بانزعاج:

ـ يا حضرة الشاويش عبدالله

وانتفض محمد أبو سويلم يسأله:

ـ خبر إيه يا واد يا عبد العاطي؟!

فقال عبد العاطي بانزعاج:

ـ المأمور جه!

ووقف الجميع في حيرة، إلا الشاويش عبدالله.. فقد نهض متثاقلا، وقال لعبدالعاطي:

ـ طب.. روح أنت.

ووقف عبدالعاطي يحك قفاه.. وقال متحرجا:

ـ دانا كان غرضي أقول لك يعني.. إنه.. يعني.. طايح في البلد ومعه تلات عساكر بالخيل نازلين ضرب في الخلق! وكان.. يعني جاي يتمم عليكو انتو.. ولما لقي شوية أولاد بيلعبوا قدام دكان الشيخ يوسف.. قال.. يعني القصد.. قال حاجات وحشة على حضرتك يا حضرة الشاويش!.. ما بلاش تيجي أحسن وأنا أقول له إنكم في بلد تانية!

وكان عبد العاطي ما يزال يحك قفاه.

فنهره محمد أبو سويلم قائلا في انفجار:

ـ ما بلاش هرش في عرق الهيافة ده يا وله!.. عمال تحك في قفاك ليه.. جاتك الغم!

وابتسم الشاويش عبدالله لعبد العاطي بحنان:

ـ يعني المأمور لقي القتيل؟!.. طب بس روح أنت.

وانصرف عبدالعاطي مضطربا.

ووقفنا جميعا ننتظر ما يصنعه الشاويش عبد الله..

والتفت إلينا الشاويش، وطلب من زملائه العساكر أن يصحبونا إلى دورنا، وأن يلحقوا به عند الدوار.

وانصرف.. مرتفع القامة، والكرباج في يده وخطواته راسخة في الأرض المتربة، ورأسه شامخ ينظر إلى السماء.

ومضينا وراءه في كبرياء ننتظر في قلق: ما يكون!

والقمر يرتفع في دائرة من الأفق الشرقى.

قعدت أفكر فيما يمكن أن يحدث بين الشاويش عبد الله والمأمور الجديد.. والليل الطويل يمضي بي!

ولكني في الصباح قمت مع الشمس، وذهبت إلى عاصمة الإقليم، وعدت.

وفي القرية بدأت أسمع ماجرى في الليل بين المأمور والشاويش.. كان الناس يقولون كلاما غريبا، ويقطعون كلامهم أحيانا، ليطلقوا ضحكات ساخرة من المأمور وهم يتذكرون يوم دخل في مأتم العمدة والشيخ إبراهيم يقرأ ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾!

وسمعت الشيخ يوسف يقول: إن مايجري في هذه القرية ماجرى أبدًا وما كان.. حتى الشاويش عبد الله الرجل الطيب خرج عن حده أول يوم هبط فيه القرية، ولقد عاد إليه هدوءه لبعض الوقت، ولكنه حين قابل المأمور ركبه ما يركب القرية كلها.. فقد عاد من الجسر يهز طوله، والمأمور يسأله من على ظهر الحصان عن سبب غيابه وهو لا يجيب!!

وترك المأمور يشتمه وهو لا يرد.. وفي آخر الأمر تأخر خطوتين، ورفع الكرباج ولسع به المأمور، وعاد يلسعه حتى شواه!

ورأيت علواني يزيط وهو يتكلم بفخر عن شهامة العرب، ويحكي لبعض الشبان كيف أمسك الشاويش عبد الله بالمأمور ورماه عن ظهر الحصان، ومرغ به الأرض!

وسمعت عبد العاطي الخفير يقول: إن الحكاية غير هذا، وإنه وحده يعرف الدور.. ولا أحد غيره يعرف ماهو الدور.. ولكنه لا يريد أن يحكى!

أما الشاويش عبد الله نفسه فلم يعد يتكلم.. فقد ظل صامتا يسمع ما يقوله الناس عنه وهو يبتسم، وعيناه تنظران في الفراغ!

وعندما تكلم لأول مرة بعد صمته الهادئ الطويل، قال: إنه حزين لأن الشيخ حسونة سافر وترك البلد..

ثم سكت الشاويش قليلا واستطرد يقول: إنه يخاف أن يذهب هو الآخر من البلد، ولا يراها مرة أخرى!

وفي الليل، كان الشاويش عبد الله يجلس مع زملائه العساكر وبعض رجال القرية على مصطبة محمد أبو سويلم بلا كلام بين الصمت والحذر والمخاوف.

وجاءت إشارة تليفونية من المركز تستدعي الشاويش عبد الله وصاحبيه.. وأدركت القرية أنهم لن يعودوا بعد.

وفي الصباح، قبل أن يرتفع شعاع الشمس كان رجال الزراعية يملئون حوض الترعة ويهوون بفؤوسهم ومعاولهم على الأعواد المثقلة بالقطن والذرة.

بينما اجتمع على الجسر رجال من القرية يعانقون الشاويش عبد الله، وعلى الوجوه لهفة وجزع!

وزعق علواني وهو يبكي وصوته يفيض في النشيج:

ـ آه يا خسارتك يا شاويش عبد الله.. آه يا زين العرب.. يا بطل! آه ياخسارة الرفقة العزاز!

ومسح الشاويش عبد الله عينيه وركب.. ولم يقل شيئا..

وتمتم الشيخ يوسف بصوت متهدج:

ـ بقى البلد دي ما لهاش نصيب دايما كده!!

ومضت الركائب بالشاويش وأصحابه وهي تثير وراءها دوامة من الغبار.

واختنق صوت محمد أبو سويلم وهو يقول:

ـ وداد مش وداع!

ولكنه وداع!

فالشاويش عبد الله لم يعد إلى القرية أبدا..

ذهب الشاويش عبد الله وأصحابه من طريق الجسر، وجاء إلى حوض الترعة رجال يدهسون الزرع ويهشمون الأعواد!!

***

وبعد العصر أقبل من المركز ثلاثة جنود وصول من بوليس المديرية، وقالوا إنهم مقيمون في دوار العمدة حتى يستأجروا مكانا يجعلون منه نقطة بوليس!

ورنت كلمة نقطة البوليس في القرية كضربة مفزعة!

وبدأ العجائز في الدور يتذكرون أيام السلطة العسكرية والحرب.

وذهبت امرأة عجوز إلى الشيخ يوسف تسأله إن كان عساكر النقطة سيأخذون البهائم والدجاج والبيض والسمن والدقيق من القرية ويربطون الرجال في سلاسل وحبال ويسوقونهم أمامهم زاعمين أنهم متطوعون ثم لا يعود الرجال بعد هذا إلى القرية إلى آخر الزمان!

ولم يجبها الشيخ يوسف.. ولكنه نظر إلى علواني الذي كان يقف أمامه وقال مضطربا:

ـ آدي أخرة العمايل السودة.. آدي أخرة مناكفتنا ويا الحكومة! أهي النقطة جاية أهه! إلهي تجيلهم نقطة على عينهم! إلهي يا شيخ ينصابوا بريح النقطة!.. آدي أخرة شهامة العرب وهباب العرب.. زعلان قوي علشان الشاويش عبد الله؟.. بتعيط عليه علشان ما كان بيديك قرش بعد ما تعمل له الشاى! إياك يعيطوا عليك من بدري!

فقال علواني بضيق:

ـ خبر إيه.. إيه الكلام ده.. قرش إيه؟ يعني خدت حريتك في شتيمة العرب دلوقت.. أنت راخر كنت بتعيط الصبح وانت بتطوق الشاويش عبد الله! ولا دا كان ضحك!! ماتخليني في اللي أنا فيه.. يا أبا الشيخ يوسف!.. بقى أنا بقول لك اشتري نعجتين وأنا أسرح لك بهم تقوم تقول لي عرب ونقطة وعفريت أزرق!! والنقطة يعني حاتعمل لنا إيه أكثر من اللي إحنا فيه؟ هه؟ إياك انت خايف على العمدية!

ثم التفت علواني إلى العجوز التي تسأل وقال لها:

ـ روحي يا ولية انتى! النقطة حاتعمل لنا إيه؟ دا المفلس يغلب السلطان.. وإيش ياخد الريح من البلاط؟!

وذهبت العجوز وبقي علواني يحاول أن يقنع الشيخ يوسف بأن يشتري غنما يقوم هو على رعيها، وتطرح فيها البركة!

كان يفكر في عمل.. أي عمل بعدما باع شيخ البلد حقل البطيخ الذي كان يحرسه طوال الصيف.

وقال علواني وهو ينصرف يائسا من عند الشيخ يوسف:

ـ وقلت إيه بقى؟ يعني أروح لمين؟ لا أبويا محمد أبو سويلم عاوز يشتري غنم ولا عبد الهادي فايق للغنم ولا حد خالص.. يا ناس دا ما فيش من نبي إلا ورعى الغنم..

فقال الشيخ يوسف مغضبا:

ـ أنت حاتلخبط في الحديث الشريف كمان.. الحديث يقول: ما من نبي إلا ورعي الغنم! لكن الكلام ده مش في البلد دي!! أنت حاتحط راسك براس الأنبياء؟! مرة تقول إنك من نسل الإمام علي، ومرة تحط راسك براس الأنبياء والمرسلين؟! دا إيه يا ناس؟ روح يا شيخ روح وخليني في همي.. جاك ريح لما ينفضك!

***

وبقي الشيخ يوسف وحده يفكر!

إنه يعرف أن النقطة عندما تدخل بلدا لا ترعى لأحد وقارا إلا الذين لهم رجل في الحكومة.

ونقطة البوليس هذه تقضي على كل أمل له.

فما دامت المديرية فكرت في نقل نقطة البوليس إلى البلد، فهي طبعا لن تفكر في تعيين عمدة!

ومن الحق أن الشيخ يوسف كان قد عدل عن التفكير في أن يكون عمدة.. ولكن حلمه بالعمدية كان يغزو رأسه في بعض الأحايين.

على أن الشيخ يوسف لم يكن هو الرجل الوحيد الذي يخشى على منصب العمدية من وجود نقطة بالبلد.. فشيخ البلد هو الآخر كان يكتم أحزانه.. ويداري.. ولكنه آخر الأمر وقف على ناصية طريق في

القرية، يشكو لمحمد أفندي من وجود نقطة في البلد.. فهذا يعني ضياع هيبته كنائب للعمدة، وهو يعني أيضا أن الحكومة قد عدلت عن تعيين عمدة.

وتحشرج صوته وهو يقول:

ـ من هنا ورايح كل واحد حايقول ياللا عالنقطة! بقى فيه حد يستجري ييجي يقول يا عمدة وللا يا شيخ البلد؟!.. والله رحنا بلاش ياولاد!

وفي دار محمد أبو سويلم وقفت وصيفة تخبط صدرها وتقول لأمها: إن نقطة البوليس جاءت للبلد.. وياما يجرى من عساكر النقطة!

وشردت وصيفة وأمها تقول في حسرة:

ـ لو كان لكي بخت كان قعد لك الشاويش عبد الله!

أما عبد الهادي فقد جلس أمام داره يجز على أسنانه، وتتقد عيناه وتحدث معه محمد أبو سويلم قليلا عن الرجال الذين يحفرون الزراعية.

وسكت محمد أبو سويلم بعد هذا وظل عبد الهادي ساكتا.

ولحظة بعد لحظة أخذت الأصوات تفيض في الحلوق.

بينما كان عبد العاطي يقف أمام الدوار فارغ القلب.. إنه لا يعنى بشيء من هذا كله.. فسواء جاءت الهجانة أم نقطة البوليس، وسواء عينوا في القرية عمدة جديدا أم لم يعينوا.. فإن هذا كله لن يزيد أو ينقص من القراريط الأربعة التي يملكها على الجسر، ويزرعها ذرة في الصيف وفولا في الشتاء.. وهو يأخذ مرتبه كخفير ويعيش بلا حلم.. إلا خيالات غامضة تطوف بعقله من حين إلى حين فيصرخ وحده: «ربنا يستر.. يا منجي!».

وعبد العاطي يريد أن تدوم له اللقمة.. ولقد يشرد أحيانا فيتمنى أن يحدث شيء ما يهز حياته فيطلق ضحكات لا تثقلها المرارة ولا الذكريات ولا القلق الغامض.

وتطلع عبد العاطي إلى شباك الدوار، وكانت أرملة العمدة تقف وراءه.. وهي امرأة صغيرة تزوجها العمدة على كبر ولم تنجب منه!

كانت تلبس السواد، ولا تخرج إلى الطريق، ولا يدخل عندها رجل.

وهي لم تر الطريق منذ حملها العمدة من بيت أبيها إلى بيته الكبير، إلا بعد أن مات زوجها العمدة، فتعودت أن تقف في الشباك تتأمل الناس، وتتكلم مع عبد العاطى.

ورفع عبد العاطي رأسه وحاجبيه مغازلا ـ وفي ذهنه صورة أولاد البندر حين يغازلون ـ وترك صوته يرتفع مغنيا بخفة:

سراية يا سراية بدي أنزلك غفير

غفيرمن غير ما هية علشان خاطر الجميل

ورنت ضحكة أرملة العمدة وتمايلت، بينما وقف شيخ البلد يزعق محنقا:

ـ علشان خاطر الجميل؟! جميل.. جميل مين يا اخواتي؟! إيه يا واد يا عبد العاطي؟ جميل إيه إياك يبرك عليك جمل ما تقوم! البلد كلها في إيه يا اخويا وأنت في إيه؟! تعالى هنا.

وجرت أرملة العمدة من الشباك إلى الداخل.

وتقدم عبد العاطي من شيخ البلد باستخفاف، ورفع شيخ البلد يده ليصفعه ولكن عبد العاطي أمسك بيده يد شيخ البلد وقذفها بعيدا وهو يقول:

ـ اوعى تقرب ناحيتي؟! تضربني بالكف على صدغي ليه؟ ليه يعني؟! ما حدش له ضرب عليّ؟ بقى ما صدقنا نخلص من العمدة تيجي أنت كمان تضربنا؟!

واهتز شيخ البلدمن الغيظ وهو يحس بيد عبد العاطي قوية تكاد تهرس يده.. ووقف يصيح في مرارة:

ـ يا واد يا واد!! خلاص بقى فجرتوا! ما هي النقطة جاية.. ولا عاد فيه عمدة ولا نايب عمدة! ماحدش بقى ليه قيمة ولاسيمة! آه يا غجر.. طب والله لأوريك، أصل إحنا بلد تخاف ما تختشيش.

وانصرف عبد العاطي باستخفاف من أمام شيخ البلد، وعندما اختفى تماما زعق معرضا بيوم رمي النساء عمدتهم بروث البهائم:

ـ خبر إيه يا شيخ البلد؟! نخاف إيه؟! أنت باين عليك عاوزلك مقطفين جلة زي المرحوم!!

وجلس شيخ البلد أمام داره في مواجهة الدوار يهز رأسه تحت شعاع العصر الهزيل الشاحب.. وهو يتمتم بالشتائم.

وعندما أقبل المساء على قريتي، كانت أبواب الدور مغلقة ولا صوت يرتفع.

لا شيء إلا الرهبة من داخل الدور، والحذر، والخوف من المجهول!

وطرقت أرجل الخيل أرض القرية تحمل خمسة رجال في الطرابيش والملابس الصفراء المشدودة والبنادق!

كانوا أربعة من العساكر على أحصنة بيضاء يتقدمهم على حصان أسود رجل بدين أحمر الوجه، في بدلة عسكرية صفراء مفتوحة من على رقبته، وعلى وسطه حزام من الجلد معلق به مسدس واضح للعيون!

ومن شقوق الأبواب والنوافذ أخذ رجال القرية ينظرون إلى الخيل والرجال.. وتهامس الأطفال في ذعر:

ـ والحكومة!! الحكومة نزلت البلد بالخيل!

وارتفعت همهمة من كل دار والعيون ترتد من على وجه الصول الأحمر.

ـ يا نهار أسود.. الراجل ده شكل الإنجليز!.. دي سنة مطينة!

وانتهى الصول والعساكر من سيرهم إلى دوار العمدة ونزلوا عن الخيل وجلسوا في المندرة الواسعة التي أعدها شيخ البلد لمبيتهم، بعيدا عن مكان الحريم في الدوار.

وحمل إليهم الطعام من داخل الدوار.. حمله عبد العاطي، وهو يبتسم.. ولكن الصول نظر إلى الصينية المغطاة بغطاء من الخوص، وقال: إنه لا يأكل طعاما عند العمد.

فأعادها عبد العاطي بلا كلمة إلى داخل الدوار، وعندما حاولت أن تأخذها منه المرأة التي ناولتها له من داخل الدوار، لكزها عبد العاطي ودخل بنفسه، إلى مكان الحريم ووضع الصينية أمام أرملة العمدة.

ووقف ولم يتحرك.

وبعد قليل ناداه شيخ البلد فلم يجب.

ونادى الصول بصوت أجش رهيب:

ـ يا غفير.. يا واد انت يا غفير!

فأقبل عبد العاطي مرتبكا.

ونهض الصول بعد أن استراح قليلا، ونهض وراءه العساكر الأربعة فطافوا بالقرية ومن ورائهم عبد العاطى.

كانت الطرقات خاوية لا حياة فيها كالأرض الخراب.. وشعر الصول في أول الطواف بما يملك من هيبة فامتلأ رضا عن نفسه، وظل يتقدم في طرقات خالية بين أبواب مغلقة لا يرتفع من ورائها صوت.. ولا شعاع!

وخطوة بعد خطوة كان قد ألف رضاه عن نفسه، وبدأ يستشعر إحساسا جديدا.

كان صامتا.. ومن ورائه العساكر والخفير صامتون.

وأحس في القرية الهامدة المظلمة بوحدة مقبضة، فوضع يده في جيبه وأخرج علبة السجائر، ووجدها فارغة.

وسأل إن كان في القرية بقال يبيع السجائر.

وجرى عبد العاطي إلى دار الشيخ يوسف وطلب منه أن يفتح الدكان بأمر الصول، وأن يجهز كل ما عنده من أنواع السجائر ليختار منها الصول.

وقام الشيخ يوسف مترددا في وجل ففتح الدكان وأعد علب السجاير في ضيق وتوجس!

وعندما مر الصول بالدكان.. اختار علبة على عجل، ودون أن يسأل عن ثمنها أعطى الشيخ يوسف قطعة فضية بقرشين.

وحملق الشيخ يوسف في القطعة الفضية وسكت، وشيع الصول بنظرة طويلة ولم يفكر في أن يطالبه بالباقى!

ونظر الصول إلى العلبة وفتحها وأشعل سيجارة وأطلق دخانها من بين خياشيمه، وانطلق مع الدخان من بين شفتيه صوت مرتفع كصوت الكبش المعلوف.

وعندما عاد الصول من دورته، جلس في الدوار على كنبة كبيرة، ووقف العساكر، حتى أذن لهم أن يجلسوا.. ثم أعطى عبد العاطي قطعة فضية بعشرة قروش وطلب منه أن يشتري حلاوة طحينية وبيضا وأرغفة من القمح!

ولم يكن في القرية أحد يبيع أرغفة القمح!

وذهب عبد العاطي يخبط على باب الشيخ يوسف مرة أخرى وطلب منه حلاوة طحينية، وروى له حكاية البيض وأرغفة القمح!

فتناول الشيخ يوسف القروش العشرة من عبد العاطي وقال متشفيا:

ـ هو سرقني في قرشين صاغ حق علبة السجاير.. والله لأسرقه أنا في أربعة! والله لأعمل اللي عمره ما اتعمل في البلد.. حابيع عيش قمح!

بقى ياخد علبة سجاير بقرشين صاغ.. ويا عالم.. يمكن يطلعوا برانى!!

وخرط الشيخ يوسف قطعة من الحلاوة الطحينية قضم منها بأسنانه حتى استوت حروفها، وأعطى عبد العاطي قطعة أكلها عبد العاطي متلذذا سعيدا، ثم مص أصابعه من آثارها.. ولف الشيخ يوسف ماتبقى من قطعة الحلاوة ودفع بها إلى عبد العاطي.. ودخل إلى الدار، وعاد بأربعة أرغفة يابسة من القمح، وأربعة أرغفة من الذرة.. وعدة بيضات!

وانصرف عبد العاطي فقدم الحلاوة والبيض والأرغفة للصول، وحين رأى الصول الأرغفة الجافة ثار في عبد العاطي.. فأرغفة القمح مقددة، وقال له وهو يرمي بالخبز في وجهه إنه لم يطلب ستة أرغفة من الذرة.. وسكت قليلا وبرم شاربه المصبوغ اللامع ثم قال:

ـ اسمع يا ولد.. أنت من بكره.. تشوف لي واحدة تكون نضيفة.. واحدة تخبز وتطبخ.. فاهم؟!

فقال عبد العاطي وهو ينظر إلى خاتم ذهبي كبير يشع فصه الأخضر في أصبع الصول:

ـ والله يا حضرة لفندي ما عندناش الحاجات دي هنا.

فقام الصول محنقا وقام معه شيخ البلد، وتقدم الصول من عبد العاطي وضربه بالكف على صدغه وهو يصرخ:

ـ أنت واد لمض قليل الحيا.. والله لأربيك.

وطرب شيخ البلد وقال:

ـ قوي! دا نجس عديم الربابة.. ربيه يا حضرة الأفندي!

وعاد الصول يجلس على الكنبة وهو يسأل عبد العاطي:

اسمع يا ولد.. أنت أمك اسمها إيه؟

وحملق عبد العاطي مستنكرا وهو يقول:

ـ أمي؟ وإيش دخل أمي في شغل الغفر بقى! اش دخل أمي في الحكومة؟!

وارتفع صوت شيخ البلد يقول:

ـ اسمها زهانة.. أمه اسمها زهانة يا حضرة لفندى.

فغمغم عبد العاطي وهو يحملق في وجه الصول وشيخ البلد:

ـ لا ما اسمهاش زهانة!.. زهانة دي مين؟! دي باين أم شيخ البلد!!

فقال الصول متوعدا:

ـ طيب يابن زهانة ولا هبابة! القصد! ادخل هات العشا اللي جوا وتعالى؟! بعد العشا أعرف شغلي وياك.

ودخل عبد العاطي فحمل الصينية من جديد، وحاولت أرملة العمدة أن تسأله عن شكل الأفندي الذي يجلس في المندرة، ولكنه حمل الصينية وهو يقول لنفسه بغيظ:

ـ أهه شكله معفرت وراكباه العفاريت كلها! قال واحدة نضيفة تخدمه قال؟! أنت فاكرنا إيه يا حضرة الصول؟! أنت فاكرنا إيه يا أفندي!!

وقبل أن يعود عبد العاطي بالصينية، الْتَهم الصول قطعة كبيرة من الحلاوة الطحينية.. ولم يسترح لطعمها.. ثم التهم قطعة أخرى.. ولف القطعة الصغيرة الباقية باشمئزاز، وعبد العاطي يدخل الصينية..

ووضع عبد العاطي الصينية أمامه على منضدة من الرخام مخدوشة السيقان، وحمل الإبريق والتشط، وصب على يد الصول.

وقبل أن يصب على يد العساكر قال له الصول:

ـ خد الحلاوة اديها للبقال وقول له دي حلاوة مزنخة وزي الزفت!! وخد عيشه ده والبيض رجعه له وهات منه العشرة صاغ وقل له لو باع حلاوة زي دي مرة ثانية حاخرب بيته.

ومضى عبد العاطي يحمل ما بقي من الحلاوة ويحمل الأرغفة والبيض وهو حائر فيما يقول للشيخ يوسف.. وفي الطريق فتح ورقة الحلاوة وقضم قطعة أخرى.

وخبط على باب الشيخ يوسف وهو يقول لنفسه مقطعا من موال:

خبطت عالباب قال لي الباب يا وعدى!

وعندما فتح له الشيخ يوسف أعطاه الحلاوة والبيض والأرغفة وبلغه رسالة الصول.

وتناول الشيخ يوسف الأشياء من عبد العاطي متكدرا، وتحسس قطعة الحلاوة قائلا في صوت خافت مرتعش:

ـ ياليلة غبرا؟! بعد ماطفح اللي طفحه يرجع لي الباقى! وهو باقي حاجة من الحلاوة!! ما لهفها كلها؟ خد ادي له البريزة أهه الله لا يبارك له فيها.

ثم مضى يلعن النقطة ورجال النقطة والزمن الذي جاءت فيه، وأهل البلد جميعا.

وهمس عبد العاطي وهو ينصرف:

ـ وقال إيه.. عايز واحدة تخدمه! فاكرنا مغفلين؟!

فقال الشيخ يوسف وهو يغلق الباب:

ـ بكرة يلاقي عشرة! حاكم دي بلد! بلد ما يعلم بيها إلا ربنا!

وانصرف عبد العاطي وهو يفكر في الصول وما يصنعه.

وبلغ الدوار فدخل المندرة متباطئا.

وعلى باب المندرة وجد شيخ البلد يمسك بالإبريق ويصب على يد الصول، والصول يتمخط ويتمضمض ويبصق!

ونظر عبد العاطي إلى شيخ البلد بشماتة.. ودخل المندرة فوضع القروش العشرة على الكنبة ورفع الصينية في صمت.

وعندما كان الصول يمسح فمه بالفوطة الحمراء ذات الخطوط الصفراء المتشابكة خرج عبد العاطي بالصينية على رأسه فسأله الصول:

ـ قال لك إيه البقال؟! إداك الفلوس من سكات ولا برطم؟! قال إيه؟

فقال عبد العاطي باستخفاف:

ـ الفلوس أهي عالكنبة.. وهو بيسلم عليك!

وجلس الصول يدخن سيجارة.. وكانت خياشيمه تطرد الدخان بصوت مرتفع، وكان يشخر كدكر البط السمين.

وأخذ يلعب في أسنانه، ويتجشأ.. وبعد قليل تمطى وتثاءب ونظر إلى الكنبة وهو يقول:

ـ الواحد ينقلب بقى ياخد له تعسيلة على الكنبة دي وزي ما تيجي تيجى!

ثم نادى بصوت حاد:

ـ وأنت يا عسكري أنت وهوه خدوا بالكم كويس.. واحد يقف هناك على باب الدوار والباقيين يلفوا البلد! واللي يتخايل بحاجة من ناحية المركز يكح.. واللي يسمع الكحة من بعيد يكح جامد.. وأنت يا عسكري ياللي قدام الدوار أول ماتسمع كحة تيجي جري تصحينى!

وهمس لنفسه:

ـ يمكن البيه المأمور يمر الليلة.. دا لو الود وده كان حرق البلد دي وخلص!

وخرج العساكر.. وشيخ البلد.. والصول يخلع حذاءه، ثم ألقى ببدنه على الكنبة.. وتمطى.. وتصاعد شخيره بسرعة.

كان راقدا بملابسه العسكرية ولكنه قام فجأة يحك جلده، ويفحص الكنبة ويشتم الفلاحين وبيوت الفلاحين وعمد الفلاحين.

وحاول أن ينام مرة أخرى، ولكنه قفز من على الكنبة يحك جلده، ويخلع سترته ويفتش في جسده عن الحشرات التي لسعته.

***

وفي الصباح رحت مع أبي إلى عاصمة الإقليم لدكتور العيون.. وكنت على طول الطريق أفكر في المدرسة الثانوية التي سأدخلها بعد أيام قليلة.

وبعد أن انتهيت من زيارة طبيب العيون، مضت بنا العربة الحنطور حتى وقفت أمام باب المديرية.. وفكرت قليلا في الحديث الذي كان يدور دائما بين طبيب العيون وأبي.

كان طبيب العيون عضو شيوخ سابق كافح مع سعد.. وكان يقول لأبي دائما إنه لا الإنجليز، ولا الملك فؤاد، ولا حزب الشعب، ولا المدافع، ولا كل مصانع السلاح الأوروبية، ولا كل قوى العالم تستطيع أن تخرس صوت شعب مصر أو تحكمه على الرغم منه!

ستظل الأمة مصدر السلطات على الرغم من كل شيء.. وسيظل الشعب مصرا على أن يكون صاحب الكلمة! ولربما أفلحت البنادق في أن ترهب، ولكن الرصاص لن يخرس صرخات العدل والحرية.

ولقد تفلح القوة الغاشمة في أن تنتزع الأرض من الفلاحين، وفي أن تزحم السجون بالأحرار، وفي أن تصنع الأزمة فلا يفكر أحد إلا في اللقمة.. ولكن الناس يدركون أن الحرية هي التي توفر الطعام، وأن الدستور هو الذي يضمن الحقوق، وأن اختيارهم الحر لمن يحكمون، هو الذي يضمن شروطا إنسانية للحياة!

وكان طبيب العيون يقول ساخرا: إن حزب الشعب قد وضع دستورا وصنع برلمانا.. ولكن لا أحد في مصر يعتقد أن هذا هو برلمانه، ولا أحد في مصر يثق في كلمة يقولها نائب من حزب الشعب حتى لو كانت كلمة حق!.. ذلك أن شعب مصر يدرك أن حزب الشعب خدعة أريد بها تضليل الناس ليقضي فيهم قضاء العدو!

وكان دكتور العيون يقول هذا كله وهو يضع في عيني شيئا لزجا على مرود زجاجي.

وتركني الطبيب ونظر إلى أبي وهو يكمل قائلا: إن المهم ليس هو ما يقوله الحاكم، فالكلام كثير، ويستطيع الطاغية البارع أن يقول أجمل كلام.. وإنما المهم هو باسم من ينطق الحاكم! لحساب من يعمل! والذي يحدد هذا كله هو أن نعرف من هو الذي اختار هذا الحاكم! وكيف تم الاختيار؟ والرجل الحافي في الحقل والشارع يدرك هذا أكثر مما يدركه أرباب الكفاءات.. ومن أجل هذا فهو لا يثق إلا في الذي يختاره للحكم بإرادته الحرة.. وهذا عدل.. لأن الذين يختارهم الشعب ليحكموه يعتمدون دائما فيما يواجهون

على الإرادة الخالقة لملايين الناس، ومن هنا تنبثق فيهم القوة والصلابة.. ثم إنهم يجعلون مصلحة الملايين التي انتخبتهم هي مقياس ما يأخذون وما يدعون وما يصدرون من قوانين!

ثم قال الطبيب: إن الطلاب الذين يتظاهرون في مصر يدركون هذا.. وهم أقوى الناس وأنبل الناس في هذه الأيام!

***

كنت ـ ونحن نقف بالعربة أمام باب المديرية ـ أفكر في هذا الكلام الباهر الذي قاله طبيب العيون، وحاولت أن أحدث به عم كساب سائق العربة ولكنه قال لي فجأة: إن أبي دخل إلى المديرية ليسعى في دفع نقطة البوليس عن القرية.. وسكت قليلا ثم التفت إليّ وقال في صوت رهيب: إن وجود نقطة بوليس في البلد مصيبة كبيرة.. فالعساكر إن أقاموا، خسرت كل البنات.

وكان وجهه النحيل الأصفر يختلج ورموش جفنيه تخفق.. وكان واضحا لي أن السائق يعاني إحساسًا زريا بالخجل والعار والمهانة والعجز..

لم تكن له في القرية أرض، ومع ذلك فقد كان مهتما بالزراعة ولم تكن له أسرة ولا بنات.. وعلى الرغم من هذا فقد كانت كلماته عن خسارة البنات تقطر بالمرارة والهزيمة والحنق.

واندفعت كلماته في عروقي بحرارة لم أحتملها، ووثبت أمام عيني فجأة صورة وصيفة وتخيلتها هي الأخرى تخسر!

وصيفة.. والعساكر؟

ولم أحتمل الفكرة.. وزايلتني البهجة والثقة والكبرياء.. وكل ما شعرت به منذ لحظة، وأنا أسمع كلام طبيب العيون، وشعرت بأشياء ملتهبة تقف في حلقي.

واستمر السائق يقول لي: إن البلد فقيرة، والبنات والنساء لا يجدن المال ولا الذرة، ولا أحد في القرية يعرف القرش بينما العساكر يملكون القرش!

وسكت قليلا، ثم قال لي في رهبة: إن العساكر يجب ألا يقيموا في البلد، فربما اصطادتهم البلد واحدا بعد واحد.. ربما استفردت البلد بواحد منهم فلم تتركه إلا ميتا.. وعلى أي حال فيجب أن يعرف رجال المديرية أن الناس لا يسكتون عادة على الهوان إلا إذا كانوا يدبرون انتقاما!

وسكت السائق عم كساب قليلا، وهو يهز رأسه وينظر إلى الفضاء ثم عاد يقول لي:

إنه يعرف كل شيء.. فقد عاش في الإسكندرية وكان يعمل سائقا للحنطور أيام الحرب وعرف ما يصنعه الجنود الأجانب عندما يهبطون مدينة كبيرة فقيرة.. وهو يعرف ما يمكن أن يصنعه عساكر يملكون القرش في قرية صغيرة تنتزع الأرض من أهلها.

وتنهد قليلا واستمر يقول: إنه اشتغل في مائة شغلة، فكان سائقا على عربات الحنطور، ووقف خفيرا في الدريسة، وعاملا في العنابر، وعاملا في النسيج، وعندما قامت الثورة اشترك فيها وهو عامل في الإسكندرية.. وبعد الثورة اشترك في إضرابات العمال.. وسجن من أجل الإضراب وذاق المر!

وفي السجن لقي عمالا يفهمون أشياء لم يكن يعرفها، ومنهم تعلم كثيرا من الأسرار.. وخرج من السجن فعاد يبحث عن عمل، وحاول أن يشتغل.. فلم يجد أحدا يرضى.. لأنه سجن مرة من أجل الإضراب، فعليه أن ينتظر السنوات حتى ينظف صحيفة السوابق، وهو ينفق هذه السنوات في القرية يسوق العربة الحنطور ويدخر المال، متأكدا أنه في يوم ما سيعود إلى الإسكندرية ليستأنف حياته هناك من جديد.. وهو يعلم أن الرجل يجب أن يرفع رأسه دائما ويجب أن يدرك أن في الإمكان دائما أن يبدأ من جديد.. هكذا علمه الذين لقيهم في السجن!

وعجبت لكلام عم كساب.. ووجدته مثل كلام طبيب العيون: يفتح العقل على كثير من الأشياء!

وعندما سكت هو، كنت لا أزال مبهورا بالدوامة الرائعة التي هي حياته.

وتذكرت أن النساء في قريتي لا يملكن القرش حقا.. وعادت تلح عليّ صورة وصيفة عندما لقيتها في أول الصيف، وفرحتها وأنا أعطيها قطعة نقود فضية، وقولها لي وقدماها في الماء تحت ساقية عبد الهادي إنها تتمنى أن تصبح فتجد زلعة من النقود.. وألحت عليّ صورتها عندما خرجت منذ أيام باكية من قاعة الطحين لتقول إن كيزان الذرة الباقية لا تكفي للطحين!

ما زال رنين فاجع من كلماتها، يسيل من أذني إلى أعصابي ويهزني حتى البكاء!!

إن السائق الذي يخاف على بنات القرية من العساكر يفهم كل شيء حقا.. يفهم كل شيء عن العساكر والبنات الفقيرات.. تماما كما يفهم طبيب العيون كل شيء عن الأزمة والبرلمان والانتخابات وحزب الشعب!

أيمكن أن تخسر وصيفة حقا؟!!

وحاولت أن أقول شيئا.. ولكن عم كساب سائق العربة فاجأني بقوله وهو يتنهد:

ـ يا خسارة يا محمد أبو سويلم.. يا خوفي عليكي يا وصيفة!

ووثب من مكانه المرتفع في العربة ودخل المديرية مسرعا دون أن يرى اضطرابي لكلامه المفاجئ.. أيفكر عم كساب في وصيفة أيضا؟

أيمكن أن تفكر فيه وصيفة؟!

أيمكن أن تحب وصيفة هذا الرجل الهادئ النحيل ذا الوجه الجاف والشارب الرمادي القصير؟!

إن الشعرات البيض تبدو واضحة في شاربه وشعره الطويل المتناثر من تحت طاقيته الصوف.. إنه رجل لا يتكلم، وهو يعيش في صمت مع حصان العربة، ولا أحد على الإطلاق يعرف عنه شيئا.. فهو لا يسهر على مصطبة محمد أبو سويلم ولا يكاد يذهب إلى دكان الشيخ يوسف.. ولا يكاد يكلم أحدا.

أيمكن أن تتزوج وصيفة هذا الرجل الذي يقرب عمره من عمر أبيها، والذي اشتغل مائة شغلة، وعاش في الإسكندرية قبل أن تولد هي، وحبس وهي طفلة؟!

وبرزت أمامي صورة عبد الهادي.

ولكن لماذا لا يبادر عبد الهادي فيقرأ الفاتحة على وصيفة!

ونظرت إلى بناء المديرية الأصفر ذي الشبابيك الرمادية.. وعاد بي فكري إلى ماقاله طبيب العيون عن الرجل الحافي الذي يجب أن يختار حاكميه، واختلط كلام الطبيب في رأسي بما قاله عم كساب عن الإسكندرية وعن حياته هناك، وعن قدرة الإنسان دائما على أن يبدأ من جديد!

ورأيت عم كساب يقبل ضاحكا من داخل فناء المديرية.. وعلى أسنانه المهشمة السوداء بريق خاطف.. كان يسرع إليّ وهويضرب الأرض في ثبات بحذائه الكبير القديم وقال بفرح طيب:

ـ مبروك.. خلاص.. النقطة غارت.. حايخلوها داورية تيجي بعد المغرب وتمشي من الفجر.. يا سلام يا كساب.. كان قلبك حاسس يا جدع! والله العظيم دا الحكومة عاملة الحكاية دي خوفا من البلد! شالت النقطة خوفا من البلد! مش حكاية وسايط.. جاتكو رزية! آه لو كنا طوحنا الزراعية كمان.. لكن معلهش يا واد!

وراعني أن عم كساب ذا الشعرات البيضاء يقول لنفسه يا ولد تماما كما نقول نحن الصغار عندما نحدث أنفسنا.. وعجبت لاهتمامه بالزراعة وهو لا يملك أرضا في البلد.

وقفز عم كساب إلى المقعد المرتفع في مقدمة العربة.. وبعد قليل أقبل أبي مبتسما بحمد الله.

وانطلقت بنا العربة، وارتفع صوت عم كساب على فرقعة كرباجه في الفضاء يطلب من الناس في الطريق العام المزدحم أن يوسعوا السكة.

كان ملآن بالنشوة، وفي قعدته المشدودة زهو الانتصار.

وعدنا إلى القرية والضحى لم يغمر الحقول بعد بشعاعه الساطع.

وعلى الجسر في الطريق إلى القرية وجدنا محمد أبو سويلم يسير وإلى جواره وصيفة.

وأوشك قلبي أن يثب في ضلوعي.

وألقى أبي السلام على محمد أبو سويلم وناداه وطلب منه أن يركب معنا العربة.

وتوقد وجه وصيفة وضحكت الغمازات في خدودها والتمعت عيناها.. وظل قلبي يخفق.

وكانت وصيفة تمسك في يدها رغيفا من القمح مطويا على طعمية تفوح رائحتها.

وتردد محمد أبو سويلم قليلا ولكن أبي ألح عليه، وتقدم محمد أبو سويلم فسلم وركب في الكرسي المقابل.. وتقدمت وصيفة وحاولت أن أفسح لها مكانا إلى جواري ولكن أباها قال لها ببساطة:

ـ اطلعي جنب عمك كساب..

وركبت وصيفة إلى جوار عم كساب السائق.. وما زال قلبي يدق ويتابع تموجات شعرها المسترخي تحت البيشة السوداء مستلقيا على ظهرها البديع.. وهمست لنفسي لو أن وصيفة أكلت أرغفة القمح دائما كبنات القاهرة، لكانت أجملهن..

وساد صمت قطعه محمد أبو سويلم بالسؤال عن حكاية نقطة البوليس.. فاندفع عم كساب يقول مبتهجا: إن النقطة لن تقيم في البلد.. وأكمل أبي قائلا: إنها نقلت من البلد لتصبح مجرد داورية تجيء وتروح كل ليلة بعد المغرب.

وتنهد محمد أبو سويلم بارتياح..

وسألته أنا مترددا لماذا كان في المركز ولماذا يعود إلى القرية ماشيا؟

ونظر إليَّ أبي مستنكرا.

ولكن محمد أبو سويلم ابتسم في هدوء، وقال إنه كان يزور ابنته المقيمة مع زوجها في المركز، بعد أن باع الجحشة لأحد الذين يشتغلون مع زوج ابنته في مدرسة الزراعة المتوسطة.

ثم سكت قليلا وشرد فكره في ابنته التي تزوجت في المركز، وقال في حيرة: إن زوجها مسكين فهي تلد له باستمرار وبلا توقف!.. ثم همس قائلا:

ـ جاتها رزية! عمالة تزرب له عيال!.. لو كان أمال ربنا يفتكرهم بالرزق زي ما هو مفتكرهم بالعيال!.. إلا بس عمالين يخلفوا كل سنة حنك جديد مفتوح ومافيش اللقمة اللي تسده!

ووجمنا جميعا، بينما أطلق محمد أبو سويلم الزفرات.

ومضت بنا العربة في صمت، وعيناي على وصيفة.. ورأيتها تنظر إلى عم كساب وخدها المكور يلمع بالحمرة تحت الشمس، بينما الخفقات من قلبي تكاد تحطم ضلوعي..

وخشيت أن يسمع أبي ضربات قلبي، وأخذت أبلع ريقي.

وسمعت همهمة بين وصيفة وعم كساب.

وقبل أن نبلغ القرية قطع محمد أبو سويلم الصمت بقوله:

إن الأنفار الذين يشقون الزراعية وصلوا إلى زمام محمد أفندي، فهم الآن يحفرون في أرض الشيخ يوسف التي يضع محمد أفندي يده عليها، وربما حفروا في أرض محمد أفندي غدا.. وفي أرض محمد أبو سويلم نفسه بعد غد.

واقترح أبي على محمد أبو سويلم أن ينجو بمحصول القطن من الزراعية فيجمع منه ما يستطيع جمعه قبل أن يدهسه الرجال!

ورحب محمد أبو سويلم بالفكرة، وتحمس لتنفيذها بلا مناقشة، وطلب من عم كساب أن يقف ليحاول جمع بعض الأنفار من على الجسر يساعدونه في جمع القطن.

ونزل محمد أبو سويلم وأنا أعجب له كيف لم يدعك رأسه، ويقلب الفكرة الجديدة قبل أن ينفذها كما يصنع المدرسون في المدرسة، وكما علمونا دائما ألا نتعجل ففي العجلة الندامة وفي الأناة السلامة.. وكيف لم يقنع بما قسم له ما دام المقسوم هو أن تلتهم الزراعية قطنه.. وأخذت أدير في رأسي كلمات تعلمناها في دروس الدين والتهذيب.. كلمات تقول: إن القناعة كنز لايفنى!!

ولكن محمد أبو سويلم كان قد ترك العربة، وقفز عم كساب من مقعده العالي ووقف أمام وصيفة ومد إليها يده لتقفز مستندة إلى يده، ولكنها لم تمد يدها.. واحمر وجهها وارتبكت ثم وضعت قدمها على العجلة، فتحركت العربة، وأوشكت أن تسقط فأمسكها عم كساب من خصرها بيديه، وأنزلها بسرعة.. ووجهها كالورد!

ولفحني غيظ مبهم واختلجت أجفاني المثقلة بمرهم المس.. وأنا أحدق في بدن وصيفة بين يدي عم كساب!

وعندما هبطت على الأرض انحنت في دلال وغندرة، وهي تبتسم.. والغمازات الشائقة ترقص في وجهها!

وعاد عم كساب يفرقع الكرباج في الفضاء، ويطلب من الحصان في صوت نشيط أن يسير!

وبلغنا الدار ولم نكد نهبط من العربة حتى ذهبت أبحث عن عبدالهادي.. وما زالت اللفحات الغامضة تثقل على صدري!

***

أمام دكان الشيخ يوسف وجدت عبد الهادي ومحمد أفندي وعلواني يقفون، والشيخ يوسف محتقن الوجه.

كان محمد أفندي يقول: إنهم دهسوا الزرع وقطعوا الأعواد الخضراء بلا رحمة، والشيخ يوسف يجيبه بأن هذا كله لا يعنيه ولا يهمه أبدا أن يدهسوا الزرع أو يحرقوه، فهو ليس زرعه، وهو لايستفيد من هذه الأرض التي يضع عليها محمد أفندي يده، وما دامت الأرض مرهونة تحت يد محمد أفندي فما شأنه هو؟ إن كل مايشغله حقا هو متى يأخذ التعويض عن الأرض ما دامت الأرض المرهونة ما زالت ملكا له.

وكان محمد أفندي يقول له: إنه لا يستحق إلا نصف هذا التعويض لأن الزرع ملك لمحمد أفندي، والشيخ يوسف يزعق في محمد أفندي قائلا: إنه يستحق التعويض كاملا، فالأرض ما زالت أرضه والتعويض الذي تدفعه الحكومة عن نزع الملكية حق له وسيدفع منه ديونه لمحمد أفندي على بلغة قديمة!

ولم يكن هذا الحديث كله يعجب عبد الهادي.

ولم يجز على أسنانه، وأنفاسه تتردد قوية في أنفه ثم يقول للشيخ يوسف:

ـ خلينا نكلم بالراحة يا شيخ يوسف وما نغلطش في بعض! اتكلم كويس مع محمد أفندي.

واحتج علواني على طريقة الشيخ يوسف التي تغضب الناس فصاح فيه:

ـ يعني يا واد يا عرباوي أقفل الدكانة وأشتري لك غنم عشان تنبسط؟!

وأبدى الشيخ يوسف عجزه عن فهم ما يريده محمد أفندي منه.

فتطوع علواني بأن يقول مصرحا:

ـ سيبكوا من الكلام ده.. بقى يابا الشيخ يوسف.. بقى حقيقة ربنا كده يا عم الشيخ يوسف أنت ما حقكش تبيع حاجتن تخلق لأنفار الزراعية! آدي اللي عايزه محمد أفندي.. هه أنا قلتها لك أهه بالمفتشر!

وأزاح الشيخ يوسف عمامته من على مقدمة رأسه وحك منبت الشعر ثم دفع العمامة ذات الشال الكبير المتسخ فغمرت جبهته، واستندت إلى حاجبيه وأخذ ينظر طويلا إلى علواني ويهز رأسه، وأخيرا قال له باشمئزاز:

ـ ما أبيعش لأنفار الزراعية إزاي يا واد ياعرباوي؟ طب داهما اللي روجوا الدكان! عجايب.. أمال أفتحها يعني على الشكك؟! على بكوز فلفل، وبيضة وملح، وورقة دخان على الحساب؟ دا أنفار الزراعية دفعوا لي إمبارح بس قد اللي دفعته البلد كلها في شهر! ودا لسه أول يوم.. يا هادى! طب دا أنا كنت لسه باقول وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.. قال كنت زعلان من الزراعية!.. زعلان ليه؟ حتة الأرض اللي عندي، وحاخد بدلها فلوس أفك ضيقتى! أزعل ليه بقى؟! وعلى كل أهي كانت مرهونة، ولما الحكومة تاخدها أحسن لي ألف مرة من سيبانها كده غيري يتمتع بها.. آدي باب.. وتاني باب الأنفار بيقبضوا ويشتروا كل حاجة بالفلوس.. يعني حايروجوا البلد كلها ويملوها خير! أزعل من الزراعية ليه بقى!!

ولم يحتمل عبد الهادي هذا الكلام فزعق في الشيخ يوسف:

ـ كده على طول بين يوم وليلة غيرت رأيك؟! كدهه القرش قلب مخك.. أمال قريت في الأزهر إيه ونيلت إيه؟! يا أخي افتكر مشايخ زمان اللي قريت عنهم، كانوا بيعملوا إيه مع الحكومة.. ما حدش من جدودنا قال لك على اللي عملوه أيام عرابي؟! نسيت عمايلهم في الخديو والإنجليز؟ نسيت كلامهم على اللايحة؟ بقى أنت بعد اللي عملته سنة ١٩١٩، وبعد ماوقفت ضد حزب الشعب تيجي تخيب نفسك كده؟!

وغاض وجه الشيخ يوسف،وارتعشت شفتاه ونظر إلى عبد الهادي محنقا ولم يقل شيئا.. ولوح علواني بذراعه ليتكلم، فصرخ فيه الشيخ يوسف:

ـ هس!

ولم يهس علواني بل زعق موجها الكلام لعبد الهادي:

ـ يا أخي يا عبد الهادي دي الفلوس تقلب العفريت.

فانفجر الشيخ يوسف يقول لعلواني:

ـ إياك تنقلب ما تقوم.. اسمع يا واد انته اوعى تيجي هنا تاني!

فقال عبد الهادي وهو يتحرك:

ـ والله يا شيخ ماحد جاي لك هنا تاني.. دا انت راجل غلس وقلبك ردي!!

واندفع الشيخ يوسف يقول:

ـ اسمع يا عبد الهادي، أنا ساكت وباقول لنفسي يا واد اقصر الشر، أنا باقول لك يعني!! أنا يعني باعمل كده عملا بقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت آية: ٣٤) آه.. أنِت مالك ومالي يا أخي.. الله! أنت شريكي؟ جرى إيه؟! ما كل واحد بيقول ياللا نفسي.. أنت ما لك أنت وما للزراعية يا أخي؟.. إيش حشرك فيها؟.. لا لك أرض هناك ولا حاجة.. هوه شكل للبيع يعني؟ ثم يعني لما أنا ما أبيعش لأنفار الزراعية ما هم حايشتروا من غيري من بلد تانية.. ويعني افرض أن الزراعية مش عاجباني.. حا أعمل إيه؟ إيه العمل يعني؟ يعني إحنا اللي حانوقفها.. مارميتو الحديد في الترعة، وأهي مشيت برضه على رقبة أحسن واحد! إحنا حانقف قصاد الحكومة؟ ما الشاويش عبد الله عمل شملول.. أهو جاب النقطة! جاب العسكر!!

فاحتد عبد الهادي قائلا:

ـ نقطة إيه وعسكر إيه؟ طيب خليهم يعمروا في البلد كده! غيرشي همه بيستهيفوا اللي زيك!.. ما الواد عبد العاطي حكى لي على حكاية الحلاوة الطحينية والسجاير وخيبتك مع الصول.. اسكت اسكت بقى بلاش كلام خايب.. يا راجل دا انت بتقول كلام يفرس!! يا نهارك أغبر يا شيخ يوسف الله يخيبك يا شيخ!

وتدخلت أنا في الحديث، وقاطعت عبد الهادي قائلا: إن النقطة رحلت من البلد وأنها ستكون مجرد دورية.

وتهللت الوجوه.. ومضيت أنا وسط الاستفسارات أحكي كل ما أعرف من الأمر.

وقال محمد أفندي للشيخ يوسف:

ـ إيه رأيك بقى؟! قدرت الحكومة تحط نقطة بوليس غصبن عنا؟! وحياة النبي يا شيخ لو قعدت النقطة لكانت شافت الويل، نقطة بخطرنا أهلا وسهلا لكن غصب عنا.. يا أخي بعدك!

وبهت الشيخ يوسف، وتزايل، فاندفع محمد أفندي يقول:

ـ أنت يا شيخ يوسف مش قلت من قيمة جمعة إنك مش رايح تكلم حد من بتوع الزراعية.. حتى كنت ناوي ما تردش السلام.. إيه اللي خلاك تبيع لهم دلوقت؟!

فقال الشيخ يوسف متزايلا ببرود:

ـ دهدي! آه قلت! قلت ورجعت.. حد شريكي؟ وأنا إن ما بعتش ما غيري في بلاد تانية رايحين يبيعوا لهم.

فقال محمد أفندي بازدراء:

ـ إيه اللي قلت ورجعت؟! إيه اللي غيرك في بلاد تانية حايبيعوا لهم؟! ما يبيعوا.. لكن انت ما تبيعش! تخلي الأنفار يطفحوا الكوتة رايحين جايين.. قطيعة يا شيخ تقطع الزراعية واللي جلب الزراعية واللي يسلم على بتوع الزراعية!

ونظر إليه الشيخ يوسف قائلا:

ـ هيه! تقدر تقول الكلام ده قدام محمود بيه؟ تقدر كده تطلع الزراعية وتقول كده.

فثار محمد أفندي ولعن محمد أبو سويلم وقال: إنه مستعد لأن يضع أصبعه في عين محمود بك هذا.

ومضى يقول معرضا بالشيخ يوسف: إن محمود بك بعد ما عمل في مسألة الزراعية ومسألة حبس الرجالة، أصبح لا يهم أحدا ولا يهتم به أحد في البلد، إلا من يرجو أن يكون عمدة!

وقال الشيخ يوسف لمحمد أفندي وصوته يرتعش.

ـ والله ما أنا مستعني كلامك! مش حارد على الكلام الفاضي، مش رادد على حد من أصله.

ثم دس يده فأخرج كتابا سميكا أصفر وبدأ يقلب صفحاته في فتور ويقرأ.

وقال علواني مستنكرا:

ـ وبتقرأ قصة أبو زيد الهلالي ليه بقى؟.. سيب أبو زيد وعنتر والحاجات دي لنا إحنا.. سيبها لعبد الهادي! اقرأ لك مولد بقى، ولا عدية يس..

وضحك عبد الهادي فجأة بانطلاق.. وأكمل محمد أفندي ضاحكا:

ـ والا اقرأ جريدة حزب الشعب!

وكظم الشيخ يوسف غيظه ولم يرفع رأسه عن الكتاب.

وعندما انصرف محمد أفندي وعبد الهادي وعلواني، رمى الكتاب في ضيق، وأخذ يلعن غيرة البلد.

وبعد قليل دخل إلى داره بجوار دكانه، فلبس الجلباب الكشمير الذي اشتراه من أجل العمدية، ولبس الفانلة الصفراء ذات الأكمام الطويلة، والعمامة بشالها الجديد الأبيض الفاقع.. وخرج من باب داره يفتح صدره متحديا، وإن كان في أعماقه ليشعر بالهوان!

وعاد إلى دكانه، وصمم على أن يذهب إلى محمود بك ليتفق معه على السعي لتعيينه عمدة مقابل نصف المبلغ الذي سيأخذه من الحكومة تعويضا عن أرضه المنتزعة للزراعية.

وعندما يصبح عمدة.. فهو قادر على أن يعرف شغله مع عبد الهادي، ومحمد أفندي وحتى مع محمد أبو سويلم.. وعلى أي حال فلا بد من تأديب الولد العرباوي علواني في أول يوم لتعيينه عمدة!!.. لماذا لايعيد موضوع خضرة، ويسلطه على علواني.. وعلى عبد الهادي ومحمد أفندي إن لزم الأمر!

وظل ينظر أمامه في الطريق، واستهيأ له أن الذين يمرون يتحاشون النظر إليه، ونكس رأسه.. ونظر في دفتر الحسابات..

***

انصرف محمد أفندي إلى حوض الترعة ليرى ما صنع الرجال بحقله، وكان طوال الطريق يفكر في محمود بك هذا.

إن محمدأفندي ظل يعتقد أنه من الممكن أن يصنع هذا الرجل شيئا للبلد، ودفع له من جيبه الخاص مالا وانتظر أن يفاجئ القرية بأنه ألغى الزراعية أو أفرج عن رجالها ليسترد محمد أفندي ماله من أهل

البلد.. ولكن محمود بك لم يصنع شيئا.. وضاع على محمد أفندي مادفعه ولم يجد في نفسه استعدادا لأن يقول لأحد إنه دفع مليما لمحمود بك، وداري الأمر في قلبه، وكتم فيه احتقاره لمحمود بك، وأخذ في كل مناسبة يعلن هذا الاحتقار.

ولم يكد محمد أفندي يصل خارج القرية في الطريق إلى حوض الترعة حتى كان علواني وعبد الهادي يسيران وراءه.. واندفع هو إلى حقله.

أما عبد الهادي وعلواني فقد كانا يسيران على مهل يتحدثان.

وقال عبد الهادي لعلواني إنه نوى بعد أن يبيع القطن أن يشتري غنما يرعاها علواني، وطلب منه أن يعتبر نفسه شريكا في الغنم نظير رعيها.

وطار علواني من الفرح وقال في أمل:

ـ يا سلام.. أقله الواحد يلاقي حتة يبات فيها! يا شيخ دا الواحد من عزم مافيه كان قرب يفكر إنه يشتغل في الزراعية.. لكن والله بقيت مستعيب قوي وصعبانة عليّ نفسي يا عبد الهادي!.. يا نهار أسود.. دي الحوجة تكفر صحيح يا أخواتى!.. إن ما كناش إحنا نشيل بعض بقى بس يبقي إيه العمل؟ يعني الواحد يعمل زي الشيخ يوسف؟! يا خسارتك يا شيخ يوسف بقى بعدما تقرأ دا كله، وتحفض شعر عنتر وأبو زيد، تقوم تبيع لأنفار الزراعية!! دا كان حقك تقطع رجل اللي ييجي منهم ناحية الدكان!

وطلب عبد الهادي من علواني أن يقيم عنده وأن يساعده في جمع القطن حتى يشتري الغنم.. ثم ابتسم عبد الهادي قائلا لعلواني:

ـ بس اوعى يا علواني تعمل في الغنم دي زي ماكنت بتعمل في غنم البيه.. ما أنت اللي قلت لي.. نعجة تشط والّاحاجة تتوه.. الأمر ما يخلاش.

وأكمل علواني ضاحكا:

ـ أي أي! والا خلفة كده تتدارى والا حاجة تقع!!

ثم سكت فجأة، وأكمل وهو جاد:

ـ لا.. لا يا عبد الهادي! الكلام ده يصح مع البيه بس.. لكن بقى أنا أعض فيك.. إحنا نعض في بعض!!

وطابت نفس عبد الهادي، وقال وهو ما يزال يضحك:

ـ يا واد دا كلام.. أنا باقولك كلام ضحك!

وحاولت أن أكلم عبد الهادي قبل أن يبلغ الطريق المؤدي إلى حوض الترعة لأعود أنا إلى دارنا، ولكن علواني سبقني بقوله:

ـ استنى يا عبد الهادي! حا أطلع كده من غير عصاية؟ لما أجيب عصاية أحسن الأولاد بتوع الزراعية يقبحوا علينا بكلمة! ولا يغنوا أو يألسوا.. والا يهرءوا.. حاكم أنا عارف بتوع البندر دول!..

وذهب علواني، ووقف عبد الهادي ينتظره متكئا على عصا قصيرة غليظة في يده.. ووجدت الفرصة مناسبة للحديث مع عبد الهادي عن وصيفة، ولم أعرف كيف أبدأ فسألته بلا مقدمات.. لماذا لا يتزوج وصيفة؟

وقال بانطلاق:

ـ على ما ترجع في المسامحة الجاية تلاقيها معمرة الدار.. تلاقيها منورة وشايلة عيل على كتفها يا جدع! سافر أنت بس مطمن.. اطمن قوي.

وضحكنا ولم أقل شيئا.

ثم سألني عبد الهادي متى أسافر؟ فقلت له إنني مسافر بعد أربعة أيام.

فقال لي بأسف:

ـ ياخسارة مالحقتش أقول لك المواويل اللي كنت عايز تسمعها مني في أول المسامحة! راحت المسامحة في ملاعيب العمدة وافترا الحكومة.

ثم همهم:

ـ الجايات كتير.. بكره الدنيا تروق.. والنكد ينزاح.

وسكت.

وشردت في الإجازة التي ذهبت، والدراسة التي تبدأ بعد قليل، وكنت أشعر بانفعالات مبهمة عديدة تضطرم في الأعماق مني.. والأسى الغامض يملأ صدري.

وارتفع صوت عبد الهادي حزينا مفعما يغني:

بكره السفر يا حبايب خلي بالكم معانا.

ياللي علشانكم سالت مدامعنا

واسترسل عبد الهادي يغني إلى آخر الموال، بينما كان علواني يقبل بعصا طويلة وضعها على كتفيه وأسند إليها قفاه ورأسه، ومضى علواني مع عبد الهادي إلى حوض الترعة..

وفي حوض الترعة كان محمد أبو سويلم يسوق بعض الأولاد لجمع القطن ووقف مع ابنته وصيفة على رأس حقله.. وغير بعيد منهم وقف محمد أفندي ودياب..

كان الرجال يعملون بهمة ورئيسهم يراقب، وهم يتقدمون في الحقول أكثر مما توقعت القرية.. وكانوا قد فرغوا من كسر الأعواد في أرض محمد أفندي وتقدموا إلى زرع محمد أبو سويلم، ودياب يزعق، ويكاد يشق جلبابه وأخوه محمد أفندي واجم لا يكاد ينطق!

وبدأ الرجال يدهسون أرض محمد أبو سويلم ويكسرون الأعواد بأقطانها، والمعاول في أيديهم تخبط.

وأحس محمد أبو سويلم بعقله يطير وهو يرى قطنه يهوي أمامه ويختلط بالتراب.

وأطلقت وصيفة صرخة مروعة مشحونة باليأس!.. وكانت فتيات من القرية يحملن صفائح الماء من الترعة ويخطون وسط الرجال يضحكن للكلمات البذيئة.. وطلبت إحداهن من وصيفة أن تصبر وتعقل، وأن تأتي لتشتغل وتأخذ ثلاثة قروش في آخر كل نهار، فتشتري كل ثلاثة أيام كيلة من الذرة!

وأخذ محمد أبو سويلم ينقل نظراته بين القطن الذي يهوي على التراب، ووصيفة، والفتيات!

إن شقاءه الأسود يجد عزاء في هذا القطن وحده.. ولكنهم يدهسونه بلا حساب.. ولقد باع الجحشة ليشتري بثمنها ذرة، ولكنه في حاجة أيضا إلى ثمن القطن.. وهو ينتظر أن يهبط أحد الخواجات فيبيعه المحصول بأي ثمن.. كما تعود الخواجات في آخر كل صيف! فإن لم يستطع محمد أبو سويلم أن يظفر من كل عمله طوال العام بذرة أو قطن.. فمن أين يستطيع أن يعيش!. لو أنه تركهم يدهسون القطن فسيترك لهم وصيفة كالأخريات تغني مع الرجال الغرباء بكلمات نابية، تضحك للألفاظ البذيئة، ويجذبها هذا وذاك! ومن يدري؟!.. ربما غابت في أحد حقول الذرة ودخل وراءها رجل أو رجلان أو ثلاثة!.. فقد رأى محمد أبو سويلم بعينيه فتيات يصنعن هذا.

فتيات كن لا يستطعن أن يرفعن الرأس أمام رجل غريب.. من فرط الحياء!

وتقدم محمد أبو سويلم إلى رئيس الأنفار، وطلب منه أن يؤجل حفر الحقل يوما حتى يجمع القطن.

وقال رئيس الأنفار.

ـ يعني نبطل لك شغل الحكومة علشان تجمع انت القطن بتاعك؟!

ثم التفت إلى الأنفار قائلا:

ـ افحت يا واد افحت! همتكم شوية.

كانوا كلهم من بلاد بعيدة متفرقة.. وقد تعود رئيس الأنفار أن يجمعهم ويسرح بهم في عمليات كثيرة.

وعاد محمد أبو سويلم يحاول أن يشرح لرئيس الأنفار ولكن الرجل أزاح طربوشه المعفر إلى وراء ومشى في ضيق وهو يمسح كرشه المسترخي تحت الجلباب الواسع السمني اللون، ودعك وجهه الحليق المتكور، ثم تنخم وبصق، ومسح شاربه الرمادي الأشعث النافر الشعرات وقال لمحمد أبو سويلم في حسم: إنه لا يستطيع أن يتأخر يوما واحدا فالحكومة تحاسبه باليوم، وهي تستعجل الزراعية، وقد أزف موعد التسليم المحدد!

وقال محمد أبو سويلم:

ـ يا سيدنا لفندي حرام عليك.. وهوه يوم حا يعمل إيه للحكومة؟.. إيه يعني لو تتأخر الزراعية يوم.. طب دا يوم الحكومة بسنة؟ اشمعنى جاية تتدأر وتحبكها في الزراعية؟ يا فندى!! يعني ترموا لنا شقا السنة بحالها في التراب كده قدام عنينا؟! يا سنة سودة يا أولاد!.. يعني نطلع في آخر المواخر من غير درة ولا قطن.. يعني يطلع حباب عنينا طول السنة وبعدين لا نطول لا أبيض ولا أسود.. إلهي تسود عيشة الحكومة يا شيخ!.. هيه دي كمان مشيخة الغفر؟! ما كفاية بقى؟ رايحين فين.. هيه الحكومة رايحة فين؟ عاوزة إيه تاني بعد اللي عملتوا فينا!!

وإذ ذاك صرخ فيه رئيس الأنفار:

ـ بس اخرس..

وصاحت وصيفة في حسرة:

ـ يا خرابك يا با.

وحملق رئيس الأنفار بعينيه المنتفختين في وصيفة، ومرت يده من فوق جلبابه وأخذ يمسح بطنه، ويحك مهبط كرشه في حركة نابية، ورفع حاجبيه وغمز بعينيه لوصيفة.

ثم أمسك بالشحم المتدلي من تحت ذقنه، وقال لمحمد أبو سويلم:

ـ وزعلان ليه؟.. ويعني انت كنت حاتبيع القطن بكام يا خي؟ يعني قطن الدايرة؟ ما كان الخواجة حايلهفه منك بالتراب! ما تخلي بنتك اللي دايرة تصوت دي تيجي تشتغل في الزراعية! دي الزراعية جاية لكم مصلحة بس انتو اللي بهايم!.. دانا مشغل اتناشر بنت من بلدكم، وبيوتهم انفتحت!

ثم التفت إلى وصيفة ويده على مهبط كرشه وعينه تغمز وقال:

ـ هه يا قمورة!.. ما تيجي تشتغلي يا بت.. باين عليكي جامدة وكويسة.. حاديها خمسة ساغ مش تلاتة زي التانيين؟ إيه رأيك؟

وتقدم إلى وصيفة وقد رق صوته، وما زالت يداه في حركات فاضحة تعبث من فوق الجلباب وقال لها:

ـ إيه رأيك يا حلوة؟.. إيه يا عروسة!..

ودار رأس محمد أبو سويلم واشتعل كل جسمه وتخيل ابنته تقف كالأخريات مع رجال غرباء تضحك لمعاكستهم، وتتمايل بصفيحة ماء على رأسها، وتدخل حقل الذرة في انتظار رجل!

ولم يحتمل محمد أبو سويلم أفكاره، وأوشك أن يهوي على رأس الرجل.. ولكنه قبل أن يقول كلمة سمع ضحكة فتى غليظة الصوت.. ورفع صاحب الضحكة قامته من على المعول فبان وجهه، كان هو نفس الفتى الذي مشى وراء شعبان ذات يوم، وطرده الشيخ يوسف من دكانه لأنه حاول أن يقول كلاما غير طيب عن عبد الهادي.. ولكن الشيخ يوسف لم يعد يطرده في هذه الأيام، بل فتح له صدره.

واهتز محمد أبو سويلم وهو يسمع ضحكة هذا الفتى واختلج عبد الهادي من الحنق.

وظل الفتى يضحك وهو يقول في سخرية:

ـ والله وصيفة تستاهل بريزة كمان! ولو دخلت الدرة حاتلم كمان بريزة يوماتي على الله!.. بس عبد الهادي ما يفرطش فيها!

وقفز عبد الهادي على الفور، وقد ارتفعت العصا في يده وخبط بها رأس الفتى فوقع على الأرض ساكتا.

وتحرك رئيس الأنفار في مكانه مرتبكا.. ووقف الأنفار جميعا وقد رفعوا المعاول في أيديهم.

وابتعدت الفتيات ووقفن إلى جوار وصيفة وقالت إحداهن:

ـ اوعى حد يقرب من عبد الهادي.. دول ولاد بلد واحدة يعرفوا خلاصهم مع بعض.. خلي عبد الهادي يأدبه.. جاه قطع لسانه ما أبرده واد كلح!

وكان محمد أبو سويلم يقف على رأس الفتى الواقع على الأرض وفي يده جاروف التقطه من أحد أنفار الحفر.. وتقدم علواني يهز عصاه واندفع دياب بالفأس ومن ورائه محمد أفندي.. ووقف الأولاد الصغار الذين جمعهم محمد أبو سويلم لجمع القطن.. وقفوا يترقبون وفي أيديهم الطوب.

وزعق محمد أبو سويلم في أنفار الزراعية بصوت رهيب:

ـ اللي حايمد أيده حاكسرها له.. اللي حايقطع عود قطن حاقطع رقبته!

ونظر رئيس الأنفار مروعا وسط صيحات التهديد التي ارتفعت من محمد أبو سويلم، وتتابعت من علواني ودياب وعبد الهادي ومحمد أفندي، ونقل بصره إلى النساء اللواتي يشتغلن معه ويأخذن القروش منه، فوجد في يد كل واحدة حجرا تتهيأ لرميه على رأس من يتعرض لأولاد بلدها!

وقال رئيس الأنفار متلجلجا، ويداه ترتفعان في توسل:

ـ الله.. الله.. بسم الله الرحمن الرحيم! خبر إيه يا رجاله!.. أنتو لامين بعض كده نسوان ورجاله وجايين تخربوا الدنيا!.. أنتو عاملينها مخصوص علشان تلموا علينا البلد! لا حول الله، طب وأنا ما لي؟ وإحنا ما لنا.. دي زراعية الحكومة!

ثم التفت إلى الأنفار قائلا:

ـ طب بطلوا.. بطلوا ياولاد!.. بطلوا حفر بقى.

ومشى قليلا وهو يمسح جبهته ووجهه متمتما:

ـ يا تيجي الحكومة تحرس الزراعية بتاعتها يا مافيش زراعية!

واتجه إلى الطريق منكس الرأس حتى أصبح أمام الفتيات.

ولم تنخفض أيدي الفتيات بالأحجار.. كن ما زلن على استعداد لقذف كل طوب الأرض على رءوس الرجال الغرباء الذين يحفرون الزراعية.. على رءوس نفس الرجال الذين كانوا يضحكون ويختفون في الذرة معهن منذ ساعات!.

وجاوز الرجل الفتيات واتجه إلى القرية.. وترك عمال الزراعية يرمون بمعاولهم إلى الأرض، وينسحبون في سرور واضح.

وبدأت الضحكات ترتفع بينهم وهم يشيعون المقاول الذي جلبهم من بلاد بعيدة وظل في كل مناسبة يتشطر عليهم، قائلا: إنه سبع!

وفجأة حين ظهرت له العيون الحمراء وقف يرتعش وزاغ.

وجلس الأنفار بعيدا عن الأرض التي سووها من قبل وأخذوا ينظرون إلى الرجل الذي سقط تحت عصا عبد الهادي وهو يتحرك محاولا أن يقوم.. ولم تنقطع ضحكاتهم أبدا!

***

أما محمد أبو سويلم فدخل إلى حقل القطن، ومن ورائه الأولاد الذين جمعهم من القرية.. ودخل معه دياب وعلواني.

وعلى الطريق أمام الحقل وقف عبد الهادي يقول لوصيفة.

ـ اقعدي يا وصيفة أنتي هنا على رأس الغيط.

وفرش أكياسا فارغة جلست عليها وصيفة، تنتظر مايجيء به الذين يجمعون القطن.. ثم تقدم في الحقل..

وتحرك محمد أفندي قليلا.. ثم تردد لحظة ولكنه عاد إلى القرية..

والتفت عبد الهادي إلى الفتيات اللواتي يشتغلن في الزراعية قائلا:

ـ ياللا يا بنت أنتي وهيه كل واحدة تربط وسطها بنسيرة تيل وتخش تجمع في عبها..

واندفعت الفتيات يقطعن أعواد التيل من على حافة حقل القطن ويقشرنها جاعلات من القشرة الطويلة حزاما.. وأخذن يوسعن الجلابيب السوداء من على الصدور المتهدلة المترجرجة ليضعن فيها مايجمع من القطن.

واندفعن إلى الحقل يلتقطن من على الأعواد الخضراء كل حملها من القطن الأبيض ويضعنه في الصدور: فصا على فص.

وصنع الأولاد نفس الشيء..

وانطلق صوت إحداهن بالغناء:

علاية.. علاية

فايت على دارنا سلم ولا اتكلم .. علاية

وردت الأخريات في فتور: علاية

فقالت وصيفة وهي تقف على رأس الحقل:

ـ لا مش كده..

وتقدمت إلى حقل القطن وارتفع صوتها حنونا صافيا يغني:

يا لولي بمرجان عالميه يعوم

والكف المحني

هو اللي قتلني

والشاعر يغني

على سود العيون

يا لولي بمرجان عالميه يعوم

ورددت الفتيات وراءها بنشاط:

يا لولي بمرجان عالميه يعوم

بينما جلجل صوت عبدالهادي وهو يروح ويجيء في الحقل:

ـ أيوه.

وتقدم من الفتيات صائحا في مرح:

ـ خدي الفص ده يابت.. اوعي توقعي حاجة عالأرض أحسن أخلي وقعتك غبرة.

وقالت إحدى الفتيات بعبث وهي تنظر إلى وصيفة:

ـ وقعتك شهد يا عبد الهادي.. مش كده يا وصيفة؟!

واحمر وجه وصيفة، وضحك عبد الهادي وهو يقترب من وصيفة.

وصاح محمد أبو سويلم من بعيد:

ـ خبر إيه يا عبد الهادي؟ إيه اللي غرزك في وسط البنات كده زي جحش البنات؟ ما كفاية عليك شيل البنات ليلة الفرح!

وضحك عبد الهادي وضحكت البنات والأولاد.

وكان عبد الهادي إذا راقته عروسة في ليلة الزفاف، ظل يترقب الجمل الذي يسير بهودجها حول البلد وسط الزغاريد.. حتى إذا برك الجمل أمام منزل الزوجية ليتقدم أحد أقارب العروس فيحملها إلى الدار كالعادة، اقتحم عبد الهادي الزحام، وحمل العروس وسط صياح الطرب وأغاني النساء.

وقالت إحدى الفتيات ضاحكة وهي تغمز لوصيفة:

ـ والنبي يا عبد الهادي لأخلي علواني هو اللي يحمل عروستك!!

وضحكت وصيفة.. ورنت ضحكاتها البسيطة الرائقة!

وقطع محمد أبو سويلم الضحكات واستمر يزعق في خفة قائلا لعبد الهادي:

ـ ما تيجي يا جدع تاخد بالك من بقية الجميعة! وإنتي يا بنت يا وصيفة ما تطلعي على رأس الغيط تعبي القطن اللي يجيلك.. خليكي عند الأكياس.. إيه اللي حشرك هنا!

وترددت الضحكات في الحقل.. واحمر وجه وصيفة، ونكست رأسها، وألقت نظرة سريعة على عبد الهادي وهي تترك الحقل لتقف عند الأكياس.

وخفق قلب عبد الهادي، وأشرقت أمامه الدنيا لحظة، وأحس بحاجة لا تقاوم إلى أن يغني، ويضحك في زحام من الناس.

وقال علواني مداعبا:

ـ أيوه ما تيجي هنا يا عبد الهادي! أنا جريء!

وغمرت الضحكات غناء الفتيات بينما كان يرتفع من بعيد غناء عمال الزراعية في نغم غريب عن القرية.

وأخذ الذين يجمعون القطن يترددون من الحقل إلى الأكياس التي تقف عندها وصيفة: يفرغون ما حملوا تحت الجلابيب المنتفخة، ويعودون ليلتقطوا فصوص القطن من على أعوادها في خفة وسرعة وحذر!

ولم يكد يجتمع تحت قدمي وصيفة ملء كيس من القطن.. حتى نادت أباها أن يقبل لكبس القطن في كيس.

ولم يجبها أبوها..

وترددت قليلا، ثم اضطرب صوتها ونادت عبد الهادي ، وطلبت منه أن يضع هو القطن في الكيس لأنها وحدها لا تستطيع.

وقال محمد أبو سويلم في ابتسامة.

طب روح يا عبد الهادي أنت! هه!.. روح حط القطن في الكيس! والله اللي انجمع ما ييجي نص كيس!

***

واستدار عبد الهادي إلى وصيفة، ومضى بين أعواد القطن.. وأمام عينيه ترقص الحقول كلها والأشياء، وفي صدره وأذنيه تتجاوب كل الأنغام التي أحبها.

وقبل أن يبلغ عبد الهادي مكان وصيفة ارتفع من ناحية القرية صوت أجش:

ـ أنتو قاعدين تغنوا! قاعدين تغنوا وسايبين البنات تجمع القطن.. تجمعه بفلوسي؟! وأنتوا قاعدين تغنوا؟! قوم أنت وهو افحت انفتحت لكم تربة.

وتهامس العمال من بعيد وهم يقومون متثاقلين.

ـ إياك تنفحت لك ألف تربة أنت واللي جابوك!

كان هو رئيس الأنفار يقبل من القرية يمسح كرشه، ويدعك وجهه وقد مال طربوشه على جبهته، وتطوحت فتائل زره في خيلاء!

ومن ورائه أقبل الصول، يركب حصانه، وخلفه العساكر يمشون.. وروعت وصيفة.. وقعدت!

وبعد قليل عادت فوقفت.

ولم يتحرك عبد الهادي من مكانه.

واقتحم حصان الصول حقل القطن، فصرخت الفتيات.

وذهلت وصيفة فلم تستطع أن تقول كلمة، بينما اضطرب الأولاد وجروا هنا وهناك.. وصاح الصول يأمرهم ألا يتحركوا وسأل:

ـ من فيكم صاحب الغيط؟! من محمد أبو زفت؟!

وتقدم منه محمد أبو سويلم، ورفع رأسه متماسكا.

وعاد الصول يسأل:

ـ الله.. فين الواد أبو هباب!

فقال محمد أبو سويلم في صوت هادئ حزين:

ـ أنا محمد أبو سويلم.. وما تشتمنيش كده قدام بنتي! .. أنت تحب حد يشتمك قدام بنتك؟!

واهتز الصول على حصانه ووضع يده على مسدسه وقال:

ـ أنت فاكرني رئيس الأنفار؟! كلمة واحدة وأضربك بالرصاص.

وابتسم محمد أبو سويلم في ثبات، ولكن عبد الهادي صاح:

ـ رصاص؟ يعني تاخدوا أرضنا وتضربونا بالرصاص كمان؟! طب ورِّينا كده! ورينا الرصاص ده.

وانهمرت الكلمات من فم علواني قائلا لعبد الهادي:

ـ تسلم يا عبد الهادي!

وقال دياب لعبد الهادي في إكبار وحماسة:

ـ أيوه يا جدع قل لهم زي ما قال الأدهم:

وإن عشت يا حكومة لألبسكم طرح وشيشان

وقال علواني للصول متحديا:

ـ رصاص إيه يا حضرة لفندي؟ وإحنا كمان ما إحنا بنضرب بالرصاص!

وتبعه دياب بانفجار وهو ينقل بصره بين الصول ورئيس الأنفار:

ـ ما بيقولوا النقطة غارت من البلد قاعدين ليه بقى؟ ده اللي قدر عليه رئيس الزراعية! جايب لنا الحكومة بخيلها تضربنا بالرصاص؟ طب تورينا الرصاص كده؟ لما نشوف مين اللي حيغلب.

قولي يا حكومة كده وإحنا نقول:

وبهت الصول ورفع يده عن مسدسه، وسال عرقه على الشارب المصبوغ بالسواد فأخرج منديلا يجفف به وجهه.

والتفت محمد أبو سويلم إلى عبد الهادي وعلواني ودياب وقال بهدوء:

ـ بس يا أولاد.. اسكتوا انتو لما أشوف إيه العبارة! لما نشوف أخرتها إيه.

ونظر إلى الصول قائلا:

ـ أنت عايز مني إيه ياحضرة الأفندي؟

فقال له الصول:

ـ أنت بتخالف أوامر الحكومة وبتتعدى بالقوة على أملاك أميرية.

وزعق دياب:

ـ أميرية؟ أميرية يعني إيه؟ دي أرضنا إحنا؟ بقت ميري من أمتى!

واستمر الصول يقول:

ـ اطلع من الأرض دي يا أخينا وسيب الرجالة يفحتوا!.. اطلع أحسن لك!

فقال محمد أبو سويلم بحرارة:

ـ قطني يا أفندي! قطني! شقاية! أنا با قول لهم استنوا النهاردة بس.. ياخدوا النهاردة راحة لحد ما أجمع شوية القطن.. دي فيها إيه!

وهرش الصول رأسه وقال:

ـ تقدرتدفع تأمين؟! تدفع جنيه يعني؟!

فأسرع علواني يقول:

ـ إحنا قادرين ندفع تمن كيلة درة لما حندفع السخام ده اللي بتقولوا عليه؟

ـ واستدرك محمد أبو سويلم قائلا للصول:

ـ ما أدفعشي حاجة! تأمين ده إيه؟ أدفع لمين؟ حتاخدوا الأرض وأدفع لكم فلوس كمان؟ مين ده اللي حياخد الجنيه!! إياك تنجن!

فقال الصول وهو ما زال يهرش رأسه:

ـ ادفع يا راجل الجنيه.

فقال محمد أبو سويلم:

ـ دا مش مال؟ يعني أدفع ضريبة المال؟ يا سيدي احبسونا والا احجزوا علينا.. مابندفعشى مال للحكومة دي.. والحكومة عارفة!!

ونزل الصول من على الحصان، وترك حصانه لأحد العساكر.. وسار إلى محمد أبو سويلم قائلا بهمس:

ـ ادفع جنيه يا راجل أنت تسلك أمورك.. خليك نبيه وحِرِك!.. تقدر تدفع جنيه والا لأ؟

ورأى دياب حصان الصول يميل برأسه ليأكل أعواد القطن، فقال للعسكري بضيق:

ـ ما حوش اللي ينديب ده كمان!

ونهره العسكري ولكنه ظل يزعق، بينما كان محمد أبو سويلم يقطع همس الصول ليصيح:

ـ يعني عايز تاخد جنيه وتسلك الشغلة؟! برطلة يعني؟! لأ مفيش.. أجيب منين الجنيه ده.. أجيب فلوس منين يعني علشان أبرطلك؟!

وامتقع وجه الصول، واصفر وصرخ فجأة:

ـ أنت يا راجل انت ما بتفهمش! أنت يا راجل بتقول كلام فارغ.. اسمع أنت بتتعدى على ملك الحكومة وبتحرض البلد على كده! انت مش عارف إن الحكومة حتدفع لك تعويض.. يعني ما لكش حق في القطن دا! أنت بتسرقه من الحكومة..

فزعق محمد أبو سويلم:

ـ أنا باسرق الحكومة والا هي اللي بتسرقنا؟!

وهوى الصول على وجه محمد أبو سويلم بكفه.

ورنت الضربة في فضاء الحقول، وترنح محمد أبو سويلم على الأرض التي ظل راسخا عليها مدى خمسين عاما.. وبوغتت وصيفة.. فانفجرت صرخاتها متوالية مفزعة كأنما انشقت في أعماقها الهاوية.. وانطلقت تدعو بشلل اليد التي امتدت على أبيها.. وتستغيث بالناس أن ينقذوا أباها والقطن.

وذعر الصول واضطرب لحظة.. وأمر العساكر أن يضربوها، واتجه إليها وظهره إلى محمد أبو سويلم، وظل يشتمها وينعتها بألفاظ مخيفة لم تسمعها هي من قبل!

واضطرمت في صدر محمد أبو سويلم انفعالات ملتهبة.. وبدأ يعاني شعورا زريا يعصر قلبه، وهو يقف عاجزا أمام رجل يضربه قدام ابنته، ثم يشتمها ويطعنها بكلمات جارحة فاضحة!

وجحظت عيناه، ونظراته ملتصقة على ظهر الصول، ورقبته الغليظة..

وارتفعت يداه، وتشنجت كفاه حول رقبة الصول الغليظة المتدلية الشحم كرقبة الثور، ولكن العساكر أحاطوا به وأمسكوا بذراعيه في عنف.. وجذبوه إلى وراء.. واستدار الصول، فضربه في صدره بحذائه العسكري الثقيل.. وأمر العساكر أن يحبسوه هو ومن معه من الرجال في غرفة التليفون بدوار العمدة حتى ينتهي أنفار الزراعية من عملهم في حقله.

وتحرك العساكر بمحمد أبو سويلم، وبقية الرجال، وتركوا القطن ملقى على الحصير.

ومضى الصول في المقدمة على حصانه، واندفعت وصيفة تمسك بالصول فدفعها في بطنها بقدمه.

ووقعت وصيفة على الأرض..

وعندما وقفت كان الصول ما زال في المقدمة والعساكر يمضون بأبيها والرجال.. وكان الصول يهمس لأحد العساكر أن يرسل خفيرا ليأخذ القطن في كيس لأنه حق الحكومة.

ومشت وصيفة وراءهم تلطم، والنساء اللواتي يعملن في الزراعية يصرخن ويدعون على الصول بالخيبة وقصف العمر والنقمة!

والتفت الصول إلى وصيفة والنساء يشتمهن ويأمرهن بالعودة..

ووقعت عيناه على وجه محمد أبو سويلم ووجوه الرجال فرأى من وراء الشحوب اضطرام المرارة والحقد..

وارتجف.. وشد جسده وتقدم..

وطاردته أصوات النساء ودعاء وصيفة أن تشل يداه..

ودهمه خوف مباغت من الغيب وأوشك أن يصرخ ويأمر بإطلاق سراح الرجال.. ولكنه نظر إلى أمام وتحسس شاربه المصبوغ وتقدم من ورائه صراخ النساء وشحوب الرجال، والحقد المضطرم..

وأمام باب حجرة التليفون نزل من على الحصان دون كلمة، ووضع الرجال في الحجرة، وعندما أغلق عليهم الباب.. أدار الصول ظهره إلى الباب وصراخ وصيفة يملأ نفسه مختلطا بكلام محمد أبو سويلم: إن الرجل لا يجب أن يهان أو يشتم أمام ابنته!!

وتزايل الصول إلى أغوار نفسه وارتعد!

ولكنه سعل في شدة، ورفع قامته.

ولاحت أمامه صورة سريعة لابنته، وللمأمور!.. لو أن الله انتقم منه استجابة لدعاء النساء فيه وانتقم منه فأوحى للمأمور أن يضربه أو يشتمه أمام ابنته!

وارتعش من جديد.. ولكنه خبط الأرض بقدميه، ووقف ثابتا لبعض الوقت ثم نادى شيخ البلد وأمر بألا يسمح للرجال بمغادرة حجرة التليفون.

وغاض صوته وهو يقول: إنه راجع الآن إلى المركز وسيعود إلى القرية في الليل.. ولن يقيم في القرية بعد، وإنما سيمر عليها كل ليلة!

وقفز إلى ظهر الحصان وقفز من ورائه العساكر.. على خيولهم. وتقدم به الحصان منكس الرأس.

وعندما غادر القرية ومضى به الحصان على الجسر، كانت تدوي في أعماقه كلمات محمد أبو سويلم «أنت تحب حد يشتمك قدام بنتك».

وعادت صورة ابنته تطوف أمامه، وزحف عليه إحساس مرهف بالعار!

وامتلأت أذناه برجع صرخات وصيفة، وانتفض أمامه كيانها الذي يتلوى من الألم، ويدعو عليه في جزع أن تشل يده.

وكان يشكو من ضغط الدم.. وارتجف برعب هذه المرة!

وفكر في أن يعود، فيأمر بإخراج محمد أبو سويلم والآخرين من حجرة التليفون.. ولكنه ترك الحصان يتقدم به إلى المركز.

ومضى الحصان متهدلا منكس الرقبة.. ومن فوقه الصول يهتز على وقع خطواته دون أن يرفع وجهه.. وعندما رفع رأسه وهو يقترب من المركز سقطت من خديه على الأرض دمعة كبيرة.. دمعة ندم.. وإشفاق من المصير.

***

وقف عبد العاطي أمام حجرة التليفون يخبط كفا على كف ويزعق في الخفراء من حوله:

ـ بقى أبويا محمد أبو سويلم ينحبس في أودة التلافون واحنا اللي نحرسه؟! يا نهار أغبر يا رجالة!.. بقى شيخ الغفر يجرى له كده؟! بقى شيخ الغفر يجرى له كده؟! وعبد الهادي كمان؟! يا سلام يا أولاد! يا سلام على بدع الحكومة!

ولم يتكلم أحد من الخفراء.

كانت وجوههم داكنة، حزينة وكانوا يرسلون ـ في بطء ـ أنفاسا ثقيلة مفعمة بالحسرة.

وأخيرا قال رجل منهم:

ـ يا أخي بس إياك ما تجيش إشارة من المركز يطلبوهم هناك!

ولاح هذا الخاطر للجميع مروعا حقا، فبادر عبد العاطي قائلا:

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ!

وعاد الصمت يخيم على الجميع، والعيون ملقاة على الباب الخشبي القديم البني الذي حشر وراءه محمد أبو سويلم وعبد الهادي ودياب وعلواني ومعهم عامل التليفون.

وصاح علواني من الداخل:

ـ آه يا حكومة! من يوم ما نزلتي البلد وأنا قلبي بيطب.. لكن برضه كل شدة وتزول.. دا أبو زيد انحبس يا حكومة وفي الآخر طاح في اللي حبسوه.

ورنت من وراء الباب الخشبي ضحكة عبد الهادي ودياب.

ولم يسمع أحد صوت محمد أبو سويلم.

وارتفع صوت عبد الهادي يقول لعامل التليفون:

ـ وانت حابس نفسك معانا ليه.. يا جدع اطلع أنت وإن جت إشارة من هنا ولا هنا حاخدها لك أنا.

وعندما كان عبد الهادي يتكلم من وراء الباب، كان عبد العاطي الواقف في الحراسة يقول لزملائه الخفراء:

ـ دا الصول من جبره عاوزني أجيب له هنا القطن اللي انجمع من غيط أبويا محمد.. قال دا قطن الحكومة؟! عاوز يحطه في بطنه يا عم!! ابلعي يا حكومة ابلعى!

وتحرك عبد العاطي متثاقلا إلى حقل محمد أبو سويلم.

وفي الحقل وجد رجال الزراعية يهوون بسرعة عجيبة على أعواد القطن.. واختلج وهو يرى القطن الأبيض يسقط على الأرض، وهمهم لنفسه:

ـ ما فيش رحمة! يا سلام!

وعندما بلغ كيس القطن وجد محمد أفندي يجلس وراءه.. وحيدا ورأسه بين يديه.

وربط عبد العاطي الكيس الذي لم يكد يمتلئ، وبدأ يحاول أن يحمله على ظهره قائلا لمحمد أفندي إن الصول يريد أن يأخذ القطن للحكومة.

وقال له محمد أفندي:

ـ ارمي الكيس في دارنا.. أنا حشتريه وأدفع فلوسه لدار أبوك محمد.. يا راجل ماعندهمش ريحة الدرة.. وابقى قول للصول إنك على ماطلعت الغيط مالقيتشي القطن.

ورمى عبد العاطي الكيس، وأطلق أنفاسا تحمل التعبير عن الراحة.

واقترح على محمد أفندي أن يجمع هو الآن مايستطيع من القطن قبل أن تدهسه أقدام عمال الزراعية.

وقبل أن يجيبه محمد أفندي كان عبد العاطي يلتقط الفصوص ويضعها في صدره بعد أن ربط خصره بحبل من التيل وجده إلى جوار الكيس.

ونادى على الفتيات اللواتي يعملن في الزراعية، فأقبلن عليه يساعدنه في حماس كبير، تاركات عملهن في الزراعية.

وزعق رئيس الأنفار فيه فقال محمد أفندي بمكر وهدوء:

ـ سيبهم!.. دا حضرة الصول اللي عايز كده.. عايز ييجي يلاقي القطن في الدوار!

وحملق رئيس الأنفار قليلا ثم تمتم:

ـ طب يا سيدي.. يعني أدفع الأجرة للبنات ويشتغلوا في جمع القطن؟! طب يا سيدي.. ما دام حضرة الصول عاوز كده!.. أمره!

واستطاع عبد العاطي والفتيات أن يملئوا الكيس.. وأخذ عبد العاطي يدك الكيس بقدميه والبنات ممسكات بأطراف الكيس.

وعندما انتهى من دك الكيس ربطه قائلا بسرور:

ـ بقى قنطار أهه بزيادة! ياللا يا بت اسندي على ضهري اسندى.

ورفع الكيس بمساعدة الفتيات ومحمد أفندي.. وسار به مقوس الظهر حتى بلغ دار محمد أفندي فوضعه على المصطبة في مدخل الدار صائحا لنفسه:

ـ والله عفارم عليك يا محمد أفندي.. والله مرجلة يا جدع! أي كده!

ومضى عبد العاطي إلى الدوار فروى للخفراء وللمحبوسين ما كان من أمر القطن.

وقال محمد أبو سويلم بصوت خفيض:

ـ لك الشكر يا محمد أفندي..

أما محمد أفندي، فقد عاد من الحقل منكس الرأس مثقلا بالأفكار.. كان يرتب في ذهنه كلمات يكتبها في تلغراف إلى النائب العام يشكو فيه من القبض على رجال من القرية وحبسهم بلا سبب..

ولم يفكر في أن يلجأ إلى محمود بك هذه المرة.. ولاحت له صورة محمود بك كريهة كالصول، وكالذين أمروا بأن تشق الزراعية في وسط الأرض وتنتزع الحقول وتسحق أعوادها الخضراء!

وقرر أن يرسل صورة من التلغراف إلى الصحف التي تهاجم الحكومة.. وإلى كل الكتاب الذين تطاردهم الحكومة.. وفكر في أن يرسل صورة أخرى لوزير الحقانية، وصورة رابعة لرئيس محكمة الاستئناف.. ولنقيب المحامين!

ولكنه تذكر أن الحكومة أغلقت نقابة المحامين.. هكذا قرأ في إحدى الصحف منذ عام!

وحين استقرت في ذهنه كلمات البرقية.. أسرع في مشيه، ولم يفكر فيما يمكن أن يحدث له.. وفي ذهنه أن يضع عليها توقيع أهل البلد.

ووصل داره، واندفع إلى أمه، فطلب منها أن تذبح إوزة وأن تخبز «طرحة» من طحين القمح، وأن تحضر الصينية، وترسلها إلى الرجال المحبوسين في الدوار.

وكانت أمه ـ كنساء كثيرات في القرية ـ تبكي، وتقطع بكاءها أحيانا لتعري رأسها وترفع يديها إلى السماء وتدعو لابنها دياب وللرجال!

وصعد محمد أفندي إلى حجرته فوق السطح.. ونزل مسرعا يتحسس جيبه، بعد أن لبس الحذاء والطربوش والجلباب البلدي الكشمير.

واندفع إلى بيت محمد أبو سويلم.. وقابلته في الطريق فتاة فحاولت أن تهذر معه، ولكنه انفجر فيها يلعنها ويلعن الذين خلفوها.

واحمر وجه الفتاة واضطربت وقالت لنفسها:

ـ ماله كده.. ياه.. دا أنا عمري ما شفته مطهوم قوي كده.. عمره ما كان كده!

وأمام باب محمد أبو سويلم وقف محمد أفندي ينقل نظره بين نساء باكيات يجلسن من حول زوجة الرجل..

كانت كل واحدة منهن تروي الأحلام المخيفة التي رأتها في أول الصيف.. وكانت إحداهن تقسم أنها عندما رأت الصول ورجاله يدخلون البلد على ظهور الخيل، تأكدت أنه ما دامت الحكومة دخلت البلد فواقعة البلد زرقاء!

ولم يسمع محمد أفندي صوت وصيفة.. ولم يستطع أن يتبين وجهها بين النساء.. واضطرب محمد أفندي، وشعر بدموعه تكاد تخنقه.. وعادت الكلمات التي أعدها للبرقية تلتهب في ذهنه وانبعثت من

أعماقه كلمات جديدة ملتهبة واتخذت في فكره مكان الكلمات القديمة، وفكر في أن يوقع هو بنفسه البرقية وليجر ما يجري، وأخيرا لاحت له وصيفة.. خرجت من قاعة في داخل الدار ومشت إلى أمها.. ورآها لا تكاد تستطيع أن تثبت خطوتها.. وكانت تتحسس بدنها، وتتوجع.. وكان خدها متورما، وعيناها مقروحتين وفي أجفانها ذبول، والصفرة الشاحبة تغمر وجهها كله.

وناداها محمد أفندي فمشت إليه بانكسار، ولم تكن تستطيع أن ترفع عينيها.

ووقفت على الباب معه بلا مبالاة، صفراء كأنما عروقها توقفت عن النبضات .

وسألته عما يريد بصوت مبحوح.

وكان محمد أفندي هو نفسه كسيرا، متعب القلب، تحمل نبرات صوته تهدجا حزينا كالنشيج.

وقال لها: إنه اشترى القطن الذي جمع من حقل أبيها، وهو يريد أن يعطيها ثمنه..

وفتحت وصيفة عينيها لحظة.. ثم نكست رأسها قائلة:

ـ لما أشاور أمي.. بعدين يا محمد أفندي لما أشاور أمي.. والا لما...

ثم غاض صوتها وسط الدموع.. وتوقفت قليلا ثم استمرت تقول وقد اتخذ صوتها رنين النادبات:

ـ والا لما أقول لأبويا..

وانهارت في البكاء..

واستدار محمد أفندي.. ومشى، وصدره يعلو ويهبط، والدم يغلي في عروقه.. وركب الجحشة وركض بها إلى المركز ليرسل البرقية..

***

وحاولت أنا أن أتحدث إلى وصيفة، ولكني لم أستطع.

دخلت دارها مقتحما الزحام الحزين من النساء الجالسات على الأرض: الرءوس في الأيدي، والجلابيب السوداء تغمر المكان.. ووجدت وصيفة بينهن ترقد على رجل إحداهن.

وملأني المنظر بالرهبة.. ولم أجد كلاما أقوله، وعدت من فوري إلى داري، أعد للسفر.. فقد كان عليّ أن أرحل بعد يوم واحد إلى المدرسة الثانوية في القاهرة.

وحاولت أن أكلم إنسانا عن وصيفة.

ولم أجد غير عم كساب.. سائق العربة الحنطور.

ولكن عم كساب، لم يرد أن يتكلم.. كان يدخن سيجارة من سيجارة، ويتنهد، ويهز رأسه.

وعندما تكلم آخر الأمر قال لي: إن محمد أبو سويلم مهما يحصل له فهو يقدر على أن يبتدئ من جديد!

ولم يكن هذا هو ما أريده من عم كساب.

غير أن عم كساب لم يقل لي غير هذا، ثم قام يمسح ظهر الحصان وأخذه إلى النهر.

ودخلت إلى أمي فوجدتها تمتحن السلال.. وتختار منها سلة كبيرة لتضع فيها ما أحمل إلى القاهرة من زاد، وملابس.

ولم أقل شيئا وخرجت إلى الطريق.

ووجدت نفسي أندفع إلى دكان الشيخ يوسف.

كان يجلس في داخل الدكان ومعه الشيخ الشناوي يقرآن معا خطبة الجمعة التي سيلقيها الشيخ الشناوي بعد يومين.. كانا يقرآن من كتاب أصفر قديم تعود الشيخ الشناوي أن يقرأ منه خطب الجمع.

وكان الشيخ يوسف يلبس العمامة ذات الشال النظيف الأبيض والجلباب الكشمير والفانلة الصفراء.. وكل ما اشتراه ليكون عمدة..

وكان يقف أمام الدكان شاب حافي القدمين ينظر إليهما مبهورا.

ورأيت الشيخ يوسف يرفع رأسه عن الكتاب ويقول في سرور:

ـ أيوه يا شيخ شناوي.. أيوه يا سيدنا.. ابقى زعق شوية وأنت بتخطب في الحتة دي.. أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم.. يعني العمدة.. هه.. يعني اللي ما يطاوعنيشي وأنا عمدة يبقى كافر وابن كافر كمان!

ثم استطرد في زهو وخفة:

ـ أنا راجع من عند البيه محمود دلوقت.. وهوه معشمني بالعمدية خالص.

وانخفض صوته وهو يقول:

ـ وحياتك أنت دا لاهف له النهاردة اتنين جنيه كده عالصبح..

وقال الشيخ الشناوي بطيبة:

ـ يا سيدي ربنا ينجح مقاصدك بحق جاه المصطفى عليه الصلاة والسلام.. الفاتحة للنبي ولأهل البيت.. الفاتحة!

وقرأ الشاب الواقف على الدكان الفاتحة معهما.. وعندما انتهوا من قراءة الفاتحة وأكفهم مفتوحة، مسحوا وجوههم بكفوفهم..

والتفت الشيخ يوسف إلى الشيخ الشناوي قائلا:

ـ حاكم دي مش بلد يا سيدنا.. دي بلد عاوزة الربابة.. إن ما كنت أأدبهالك تمام!.. شوف يا أخي محمد أفندي بيعمل إيه.. يخلي الراجل في الحبس ويلعب بعقل البنت ويديها قرشين.. قال إيه.. قال اشترى الشوية القطن اللي الصول حجز عليهم.. المصيبة أن الصول خادمهم.. وأنا شايفه بعيني دي!.. البت

جات شاورتني من قيمة شوية قلت لها اوعي لنفسك.. أحسن لها تروح تشتغل في الزراعية بدل محمد أفندي ما ياكل بعقلها حلاوة.. ماهي بلد خبص!..

وقبل أن ينفرج تقطيب الشيخ الشناوي عن أي كلمة، تدخل الشاب الذي كان يقف أمام الدكان حافي القدمين.. فقال:

ـ كلام إيه ده يا شيخ يوسف؟! يا جدع دا شاري القطن بحق وحقيق.. بقى كل حاجة تلوعوها كده؟! بقى وصيفة حيتلعب على عقلها؟! ومحمد أفندي خلاص بقى انهبل يعني؟ يا راجل اختشي!.. يا راجل حط في عينك حصوة ملح.. يا جدع اتنحرر كده وما تقلبشي العمل الحلو تخليه عمل سو.. عيب عليك!.. بقى انت شفت القطن بعينك رايح للصول؟! والله إنك كداب في أصل وشك.. ومن كتر الكدب القطن ما فاتش من على دكانتك من أصله! أنا شايفه بعيني ده اللي تنقلع، داخل دار محمد أفندي! يا خبر أسود يا أخواتي على دا كدب!

وانفجر الشيخ يوسف في الشاب.

كدب؟! اخرس قطع لسانك أنت واللي نفضك.. غور يا واد من قدامي، إياك تنقلع عينك! هوه أنت يا معوض عاوز تمهزأني؟ دا كلام تقوله لي؟ دا كلام تقوله لواحد مقامه عالي زيي؟ جاتكو البلا في ملافظكم.. بلد حلاليف!.. هوه يا واد يا معوض علشان عبد الهادي ما طلع لك جاموستك من البير تقوم تمشي وراه!!! والله لأربيكي يا بلد!

وقال معوض وهو ينصرف:

ـ أنا ماشي ورا عبد الهادي! عبد الهادي ما اتحبس وأنت عمال تجري عالعمدية! والله يا شيخ ما يخشعك غير عصايتين من عبد الهادي!

ومضى الشاب.

وبقي الشيخ يوسف يهتز من الضيق.. وأخذ الشيخ الشناوي يقول:

ـ الأكادة الواد ده عليه كدب؟! بقى هوه شاف القطن داخل دار محمد أفندي.. إذا كنت انت شايفه رايح للصول!

ولم يعلق الشيخ يوسف، وأحس برغبة في ألا يتحدث مرة أخرى في موضوع القطن.. فهو في الحق لم ير القطن يحمل إلى الصول وهو يعرف أنه كان يكذب منذ لحظة، وأن الشيخ الشناوي يكذب الآن ليجامله.

وعاد الشيخ الشناوي يقرأ خطبة الجمعة بصوت مرتفع.. ويرفع عينيه عن الكتاب أحيانا ليسأل الشيخ يوسف تفسير جملة من الجمل العديدة التي ظل يقرؤها سنوات.. ويسمع لما يقوله الشيخ يوسف بإعجاب.

وتركت أنا الدكان.. وعدت إلى داري، أختلط في هرج الاستعداد للسفر.

وانصرف النساء من عند أم وصيفة وهمست وصيفة لأمها بأن محمد أفندي يزعم أنه اشترى القطن ويريد أن يدفع لها الثمن، ولكن الشيخ يوسف أكد لها أن هذا لم يحصل وهو ينصحها ألا تأخذ مليما واحدا

من محمد أفندي.

وشردت أمها قليلا قبل أن تقول لها:

ـ له حق أبوكي الشيخ يوسف.. الناس تقول إيه؟! ناخذ فلوس من محمد أفندي ليه؟

فاستطردت وصيفة تقول لأمها إن الشيخ يوسف نصحها أيضا أن تشتغل في الزراعية، وهو مستعد للكلام مع رئيس الأنفار..

ولم تتردد أمها في أن تقول لها:

ـ قومي روحي له يشغلك.. الدرة اللي اشتريناه بتمن الركوبة مش راح يقضي كمان خبزتين.. بس إياك يدوكي أجرة حلوة!

ثم دمعت عيناها وهي تقول:

ـ آه ياما تشحططنا من بعدك يا محمد!

وذهبت وصيفة إلى الشيخ يوسف تسأله إن كان يجب أن تشتغل في الزراعية؟!

كانت تشعر في أعماقها بالهزيمة وتود ألا تذهب لتقف مع الرجال الغرباء الذين يقولون أي كلمة بلا تحرج.. ولقد فكرت في أن تذهب مع أمها للإقامة مع أختها في عاصمة الإقليم، ولكنها لم تقو على أن تترك القرية وأبوها محبوس في الدوار.

وقال لها الشيخ الشناوي متطوعا: إنها يجب أن تعمل في الزراعية ولكن عليها ألا تتكلم مع الرجال الغرباء.

وتحمس الشيخ يوسف قائلا: إن الرجال الغرباء لن يأكلوها.. ووعدها أن يكلم رئيس الأنفار بعد العصر لتستلم عملها من الصباح والعمل هناك بسيط وهو يغنيها عن مد اليد لمحمد أفندي، وعن سؤال اللئيم!

ووقفت وصيفة تنظر في التراب، وتتخيل نفسها تحمل الماء للرجال الذين يسحقون زرع أبيها!!

وجاشت نفس وصيفة، ولم تستطع أن ترفع رأسها، ولكن الشيخ الشناوي ظل يكلمها ويدعو لها بالبركة.. ولم يتوقف الشيخ يوسف عن إلحاحه عليها أن تعمل لتحافظ على سمعتها التي يهددها أخذ المال من محمد أفندي.

وعندما رفعت وصيفة رأسها، وأدارت عينيها المغرورقتين في وجه الشيخ يوسف.. رأت وجهه قد اصفر فجأة..

وسمعت من ورائها صوتا قاصفا يقول:

ـ إيه الكلام دا اللي بتقوله عليّ يا شيخ يوسف! إيه الكلام ده اللي قلته لمعوض؟!..

والتفتت وصيفه وراءها لتجد محمد أفندي يطير الشر من عينيه.

كان يقف أمام دكان الشيخ يوسف لأول مرة منذ وقت طويل.. ويتحدث بانفعال دون أن يلقي السلام.

وكان محمد أفندي قد تعود أن يمر على الدكان دون أن يرمي السلام وهو يقول لنفسه: إن الشيخ يوسف أصبح لا يستأهل من الواحد أن يرمي عليه السلام!

لم يجب الشيخ يوسف..

وقال محمد أفندي مرة أخرى:

ـ ما تنطق!

كان محمد أفندي قد ذهب إلى المركز فأرسل البرقيات وعاد على الفور دون أن يضيع دقيقة، وهو بعد أن كتب برقية الاحتجاج، عاد يشعر بأنه قوي.. قوي إلى حد أنه يستطيع أن يواجه كل من في المديرية بكلام قارس شديد.

وتدخل الشيخ الشناوي متعجبا:

ـ خبر إيه يا محمد أفندي؟.. أنت ما لك جاي كده ناوي شر؟.. ما ترمي السلام يا أخى!

ولكن محمد أفندي لم يلتفت إليه، وظلت عيناه ترمي الشرر في وجه الشيخ يوسف.

وانسحبت وصيفة مضطربة.

وانفجر محمد أفندي في الشيخ يوسف:

ـ أنت يا راجل انت مش حاتبطل اللَّت بتاعك ده؟! بقى الراجل مرمي في الحبس وإحنا عايزين نشوف مصالحه تقوم تروح تقول للبت الكلام ده؟! أهي أمها مش راضية تاخد تمن القطن؟! يعني يعملوا إيه؟ ياكلوا منين! آه يا راجل يا ضلالى!

وقال الشيخ يوسف مرتجفا:

ـ اسمع بقى لما أقول لك.. سيبك من الكلام ده! أنتوا شايلين مني كلكو ليه.. يعني يامشي وراكو ياتسيبوا عليّ تشرمطوني؟.. الله.. يا أخي كل واحد بيقول ياللا نفسي.. خالك الشيخ حسونة ما راح يسعي في المركز لحد ماخلى الزراعية تحود بعيد عنكو.. هيه خدت من أرضكو إلا حتة زيق لا هنا ولا هناك.. أنا عارف أنكو متغاظين من جريي ورا العمدية.. يعني أسيبهالكو؟! والله ما اني سايبها؟! اشمعنى أنتو بتجروا ورا مصلحتكو؟! دهدي!

وعاد محمد أفندي يزعق وهو ينظر باشمئزاز إلى الشيخ يوسف:

ـ كلام إيه دا يا راجل أنت بتهبل بتقول إيه؟! مصلحتنا إيه يا راجل يا ضلالي يا عديم المروءة يا قليل الطهي!.. أنت اللي عمرك ما فكرت إلا في روحك.. اسمع أما أقول لك.. التخبيط الفاضي بتاعك ده لازم تبطله أحسن والله والله العظيم تلاته وعزة الله يا شيخ.. قسما بالذات العلية ما عندي لك من هنا وجاي غير البلغة.. هه!!

والله والله أَنَدّغَك البلغة!

ووجم الشيخ يوسف.. وفتح فمه وحملقت عيناه.. كأنه قدَّر أن محمد أفندي يمكن أن يجعله يمضغ البلغة بالفعل!

ولو سحب عليه محمد أفندي المداس فلن يستطيع أن يقول شيئا لأن البلد كلها أصبحت ضده!

واندفع محمد أفندي بعيدا عن الدكان إلى الطريق.. فوجد عبدالعاطي يقف بعيدًا ومعه الصينية بالطعام.. الصينية التي حملها من دار محمد أفندي للرجال في الحبس!

وصاح عبدالعاطي بطرب:

ـ والله عفارم يا محمد أفندى! آي كده.. يكون في علمك يا شيخ يوسف.. من هنا ورايح ما عندناش غير البلغة ندوبها على دماغ اللي ما يعجبناش! نِنَدَّغْها له!

ووقف الشيخ يوسف يتمتم وهو يرتعش.

ـ طيب.. بكره كله يخلص يا بلد!.. بس تيجي العمدية وأنتو تشوفوا! صحيح يعني إيه ضرب البُلَغ.. يعني إيه نَدْغ البلغ!

بينما تابع عبدالعاطي سيره بالصينية.. وفتح غرفة التليفون ووضع الصينية على الأرض، ورفع الغطاء الخوص، فتصاعدت رائحة الإوز المحمر وأرسلت أرغفة القمح دخانها..

وانقض علواني على الأرض، وجلس بجوار الصينية وهو يزعق فرحا:

ـ عيش سخن وظفر.. ياولد!

يدوم الحماس يا جدعان!.

ثم لكز دياب واستمر يصيح:

ـ كل يا وله عيش قمح كل.. الواحد ما بيدقهوشي حتى لو مات من العيا.. اشتغل في الظفر يا سيدي اشتغل!.. ياك يا شيخ نقعد هنا كمان شهرين تلاتة.. اشمط الوز اشمط.. كل وانبسط يا جدع.. كل وانجلي يا دكر!

وضحك الجميع، وقال عبد الهادي:

ـ بس نطلع احنا وأشتري لك الغنم وأنت تشبع عيش طري يا شيخ العرب!

وحكى لهم عبدالعاطي ما دار بين محمد أفندي والشيخ يوسف.. فضحك محمد أبو سويلم، ونظر دياب إلى الجميع بزهو قائلا:

ـ شايفين الشهامة!

فقال عبد الهادي بإعجاب:

ـ والله شهامة صحيح.. أهو كده يا محمد أفندي.

واستمر عبد العاطي يصف لهم منظر الشيخ يوسف عندما هدده محمد أفندي بضرب البلغ.. كان الشيخ يوسف إذ ذاك يلبس الفانلة الصفراء ذات الأكمام الطويلة، والجلباب الكشمير الواسع، والعمامة الجديدة ذات الشال النظيف.

وصاح علواني، وهو يضع في فمه لقمة كبيرة ملفوفة من رغيف القمح:

ـ هو الشيخ يوسف يعني لابس العمة كده على طول ومعرضها ليه؟.. معرضها ليه بقى.. غرضه إيه.. غرضك إيه يا شيخ يوسف.. غرضك تبقي عمدة؟ يعني غرضك تقبض.. طب روح ما انتش قابض!

وضحك عبد العاطي طويلا وضحك الرجال..

ومال علواني على عبدالعاطي هامسا:

ـ الوز ده عاوز شاي.. شوف لك تصريفة بقى في الشاى!

وقام عبد العاطي.. ووقف يفكر قليلا، ثم حك رأسه.. واتجه إلى الدوار.

ووجد أرملة العمدة.. وحين رأت عبد العاطي نادته باسمة.. كانت تلبس قميصا أسود قصير الأكمام مفتوح الصدر.. وغرس عبدالعاطي نظراته على ذراعها السمين الأبيض، ونحرها المكشوف وصدرها الرجراج.

وطلب منها أن تأذن له في عمل الشاي للرجال، فرحبت وسألته أن يسير وراءها إلى حجرتها لتعطيه السكر والشاي.. والتمعت عيناها، واضطرب عبد العاطي.

وبدأ عبد العاطي يحدثها عن علاقة الرجال بالشيخ يوسف، وإصرارهم على ألا يشتروا منه، وروى لها ما حدث بين محمد أفندي والشيخ يوسف، ورنت ضحكاتها، وتثنت.. ودخلت حجرتها ونادت عبد العاطي.

وتحرج شيخ البلد الذي كان يجلس أمام باب الدوار.. ونادى عبدالعاطي وظل يناديه، ثم قرع باب الدوار بعصاه وهو ينادي عبدالعاطي محنقا.. وعاد عبدالعاطي يسأله عما يريد في ضيق واضح فانقض عليه شيخ البلد يشتمه قائلا:

ـ إيه اللي مدخلك هنا؟.. اوعى تاني مرة تخش هنا من غير أمري.. حتى لو نادوا عليك من جوه.. أما برود!.. كنت تقدر أيام المرحوم العمدة تهوب ناحية جوه؟ جاتك الغم ما أبردك!.. أنا هنا زي العمدة تمام.. يعني العمدة تمام.

وهمهم عبدالعاطي وهو ينصرف فقال شيخ البلد:

ـ اوعى تبوأ فيّ.. انجر.. ما تنحش كده!.. انتو فاكرين إن ما لكوش عمدة!.. هيه بلد من غير عمدة؟.. أمال أنا هنا بانيل إيه!..

وابتعد عبدالعاطي وهو يقول:

ـ عمدة عمدة.. دا عامل عمدة.. ودا عامل عمدة.. جاتكوا الغم في العمدية بتاعتكم!

وقضت القرية نهارا مضنيا من القلق والانتظار.. وعندما احمرت الذوائب الصفراء من حقول الذرة تحت شمس الأصيل، هبط على الفضاء ضباب سبتمبر ينشر الناموس في قريتي، وخيوطا دقيقة تهبط على الوجوه ولا تراها العيون.

وكان أبي إذ ذاك في عاصمة الإقليم..

وأخذت أنتظر عودته بالبدلة، والقرية تنتظر عودته بالأنباء..

ياترى متى يخرج الرجال؟

وغابت الشمس وراء أشجار التوت على الشاطئ الغربي، ورأيت الشيخ يوسف مقبلا من ناحية عزبة محمود بك، وكمه الواسع مشمر عن الفانلة الصفراء التي بدأت تتسخ.. واندفع إلى داره وطلب من امرأته أن تغسل الفانلة وشال العمامة، قائلا لها: إن محمود بك وعده خيرا، وانتخابات العمدية غدا في الصباح بالمديرية.

وعدت إلى داري، أرسل عيني إلى الجسر، وأذناي تحاولان التقاط صوت العربة الحنطور..

كانت البهائم كلها قد عادت من الزرائب على الجسر، والطريق فارغ لا شيء فيه.. حتى ما تلقيه البهائم من روث كانت النساء قد فرغن من جمعه ووضعنه في المقاطف على رءوسهن، ومضين إلى الدور.

وأخيرا أقبلت العربة الحنطور، ورأيت عم كساب يجلس على مقعده في العتمة، مرتفع الرأس مفتوح الصدر، والابتسامة تملأ وجهه.

وهبط أبي من العربة يحمل لفة، وأخذتها منه وقلبي يدق، وفتحتها بسرعة، وتأكدت أنها هي البدلة التي أصلحت لي، واندفعت بها إلى أمي التي كانت قد وضعت الإوز المحمر والأرز المعمر والفطائر في سلة كبيرة، وشرعت تبحث عن قطعة من الخيش والقماش لتغطي السلة الكبيرة.. ورأيت فتاة تعمل في الدار تقبل بالمسلة والخيط، وعلى رأسها اللمبة الصفيح.

وأخذت أمي البدلة فرحة، وتأملتها بسرور، ثم وضعتها بعناية كبيرة في حقيبة الملابس وطلبت مني ألا أخرج لأني يجب أن أتعشى وأنام.. فالعربة الحنطور ذاهبة بي في الصباح لأركب قطار العاشرة إلى القاهرة.. إلى المدرسة الثانوية!!

وكنت أنا أعاني خيبة أمل وحسرة لأني لم أحقق حلمي ببدلة جديدة!

غير أني اندفعت إلى الطريق.. ورأيت عم كساب قد حل الحصان من العربة، ومضى في خطوات ثابتة مبتسما.

وسألته إلى أين يمضي، فقال لي مبتسما إن البلد تخلصت من الصول، فهو لن يرى البلد مرة ثانية.. أما الرجال المحبوسون في الدوار فالمديرية تعد إشارة تليفونية للإفراج عنهم الليلة.

وكان عم كساب يمشي بخطوات راسخة، وأنا إلى جواره أرفع رأسي إليه وأسمع كلماته تنساب مطمئنة من فمه المبتسم..

واستطرد عم كساب يقول لي إن الدنيا كلها مقلوبة في المديرية من أجل المحبوسين.. فالبرقية التي أرسلتها البلد إلى مصر هزت الحكومة هناك، والكتاب الذين تضطهدهم الحكومة هاجموها ـ في صحف المساء ـ لأنها تقبض على الناس وتسجنهم بلا تحقيق وبلا جريمة!

كان عم كساب يشمخ برأسه وهو يتكلم.. وحاولت أن أقول له إن محمد أفندي هو الذي أرسل البرقية، فوجدته يعرف ويتحدث بإعجاب عما صنعه محمد أفندي.

وهمهم:

ـ أهه اللي عمله محمد أفندي ده كويس. مش يجري لي ورا محمود بيه!.. أهه ده الكلام.. أهه ابتدا يفهم! إحنا ياما شوفنا وياما جربنا.. هيه الحكومة تيجي إلا بالسك!.. دا لو محمد أفندي شاف اللي شفناه في إسكندرية وغير إسكندرية ما كنشي عمره فكر في الجري ورا البهوات والرجوات.. هيه.. أيام!.. الناس ما بتتعلمشي بالساهل!

وبدت لي كلماته دسمة مثقلة بالذكريات والتجربة، وبفهم أسرار من الحياة لم أعرفها بعد.. أنا الذي تعلمت في المدرسة وعرفت كيف أرسم القارات الأربع، وفهمت خطوط الطول والعرض واتجاه الرياح في الدنيا وسر غليان الماء!

وتابعنا سيرنا..

وفجأة وقف عم كساب أمام باب مفتوح، ودخل!

ودهشت أنا، وتقدمت وراءه.

كان عم كساب يدخل دار محمد أبو سويلم دون أن يتنحنح كما هي العادة أو يقول «يا ساتر» «يا أولاد» كما هي عادة الذين يدخلون بيوتا غير بيوتهم في قريتي.

وكان مدخل الدار مظلما، تتكسر على جدرانه الظلال الشاحبة، ومن بعيد في آخر الدار يشع ضوء لمبة صفيح.

وكانت الدار ساكنة تماما كأنما فارقها أهلها.. وأصبح عم كساب في وسط الدار فنادى على وصيفة.

وتقدمت وصيفة، مرفوعة الرأس، بخطوات حريصة واللمبة الصفيح على رأسها تلقي شعاعا باهتا على وجهها الحزين.

وابتسمت وصيفة تحت الشعاع الخافت، وخفق قلبي بشدة، وأنا أرى التماع عينيها، وتألق وجهها بالغمازات.

وقال لها عم كساب بصوته الهادئ:

ـ أبوكي طالع الليلة يا وصيفة.. إحنا مستنيين إشارة من المديرية الليلة.

واهتزت وصيفة، وأمسكت بيدها اللمبة الصفيح.. وسرت الرقصة الفرحة في بدنها كله وانطلقت تقول ورأسها يهتز في نظرات مضطربة إلى كل ما حولها:

ـ صحيح.. والنبي.. أزغرت يعني.. زغرتي يا أمه!

وتحركت وصيفة، ونقلت خطواتها في اضطراب ضاحك، ثم انقضت عليّ وقبلتني في جبهتي.

وشعرت بدفء شفتيها الدسمتين على جبهتي، وبملمس جسدها الفائر الممتلئ يطوق بدني الصغير.. وغمرتني سعادة مفاجئة، واختلجت وارتفعت دقات قلبي!

وانطفأ المصباح من يد وصيفة بينما ارتفع صوت أمها مقبلة من الزريبة ويداها متسختان بالروث وهي تقول:

ـ إلهي يبشرك يا كساب.. إلهي يجعل في دخلتك علينا قدم السعد بحق دي المغرب.

ودهمتني الحيرة وأنا أسمع هذه الكلمات.

وأخذت أنظر في الظلام أمامي.. وانبثق ضوء خاطف لعود كبريت وأوقد عم كساب المصباح بالعود بين أصبعيه، ويده الأخرى تهتز على كتف وصيفة في ابتسام مطمئن!

وسيطرت عليّ الحيرة..

فأنا لم أر من قبل أحدا في قريتي يضع يديه على كتف وصيفة.

ولم أر من قبل وصيفة تنظر إلى رجل من قبل في قريتي، وفي عينيها هذا البريق.

كان واضحا أنها تنظر إلى عم كساب في إكبار وعرفان.

وارتمت نظراتي على شعره الرمادي، وشاربه القصير الذي تنفر منه الشعرات العديدة البيضاء.

ولم أستطع أن أحتمل التفكير فيما يمكن أن يكون بينهما.

وقفزت أمامي صورة عبد الهادي بوجهه الضاحك، وصدره المفتوح الذي يقول عنه أولاد القرية إن فيه شعرة الأسد تخرق الصديري!

وظللت أنظر إلى وصيفة في صمت، وتذكرت جلستنا على الجميزة في أول الصيف، وتمنيت أن أجلس معها الآن وحيدين.. وتمنيت لو ألقت نفسها عليّ مرة أخرى وقبلتني.. وكان دفء قبلتها على جبيني قد بدأ يسري في دمي باللهب.

وقلت إني مسافر إلى مصر من صباح غد..

ولكن وصيفة لم تلتفت إليّ.

ظلت عيناها تنظران إلى عم كساب والابتسامة تتألق على وجهها كله.

وهبط علي خجل مباغت.. وتمنيت لو وجدت نفسي بمعجزة ما بعيدا عن عيني وصيفة.

ولم أطق أن أتحرك أمام عينيها وأمضي.. ولكني نزعت قدمي بصعوبة وأنا أمضي.. وسمعت همهمة من عم كساب.

وعندما كنت أغادر عتبة الباب إلى الخارج ارتفع صوت وصيفة مختلطا بصوت أمها:

ـ طريق السلامة.. اقرأ لنا الفاتحة في مصر.. إلهي يمتعك بشهادة الخدامة!

وتسمرت على الباب.. وحاولت أن أستدير لأقول شيئا.. ولكني وجمت لحظة، ونفسي تجيش، وتحركت.

وسمعت عم كساب يقول في صوت هادئ حاسم:

ـ لأ.. مافيش شغل في الزراعية.. سيبكوا من كلام الشيخ يوسف والشيخ الشناوي.. أنا باقول لأ.. أوعي تشتغلي في الزراعية.. اوعي تروحي ناحيتها!

ووصلت دارنا فوجدت أمي تنتظرني على العشاء.. ولكني لم أتعش.. ودخلت لأنام، وعندما وضعت رأسي على الفراش، ووجدت نفسي وحيدا في الظلام.. انحدرت من عيني الدموع في صمت.. دون أن أعرف على التحقيق لماذا أبكي!

وظللت أبكي وأنا أكتم صوتي في خوف من أن يدخل أبي أو أمي أو أحد إخوتي الكبار فيحسبني أبكي.. من أجل وصيفة!

***

وفي الصباح كنت أعد نفسي لركوب العربة الحنطور.

وقبلتني أمي، ووضعت في يدي بضع قطع فضية من ذات العشرة قروش، وطلبت مني أن ألتفت لدروسي وأن آخذ بالي من روحي.

ووضع عم كساب كل ما أحمل من زاد أمامه في العربة الحنطور، وألقيت نفسي إلى جوار أبي وأخي الأكبر.

وظل أبي وأخي الأكبر يتحدثان طول الطريق عما تصنع الحكومة بالقرية والناس، وسمعت أخي يتكلم بحماس عن مقالات الكتاب.

وبقيت أنا شاردا طول الطريق.

وتعجب أبي لأن المديرية لم ترسل إشارة ليلة الأمس للإفراج عن الرجال فقال أخي: إن هذه الحكومة لا كلمة لها، وهي لا تصنع شيئا لمصلحة الناس إلا عن خوف من انفجار الناس.. وعلى أي حال فيجب أن ينتزع منها المصريون كل ما اغتصبته منهم.

وسكت أبي.. وأخذت أنا أنظر بإعجاب إلى أخي الذي يدرس في سنواته النهائية بكلية الطب.

وكنت شاردا طول الطريق..

وعندما اقتربنا من المدينة الكبيرة داعبني أبي وأخي قائلين: إنني أصبحت الآن رجلا في المدرسة الثانوية ويلبس البنطلون الطويل..

وتردد في حلقي صوتي الذي كان ما يزال ناعما، وقلت كلمات أغالب بها شرودي!

وذهب أبي وأخي إلى المديرية.. وانطلق بي عم كساب إلى المحطة لأنتظر هناك. وفي فناء المحطة وقفت أنتظر ووقف معي عم كساب.. كنت على طول الطريق أفكر في المدرسة الثانوية التي سأدخلها، وفي إضرابات طلابها.. وكانت صور مما جرى في الصيف تغمر أفكاري على الدوام.

لم أستطع أبدا أن أنحي عن عيني صورة وصيفة وهي تبتسم في عيني عم كساب.. وأحدثها أنا عن سفري فلا تجيب إلا بكلمات دعاء بعد أن تركت بيتها.

وكانت صورتها تختلط بصور عديدة لها أثناء الصيف، وصورتها وهي تضع قدميها في الماء وتهمس في حلم أنها تتمنى أن تصبح فتجد «زلعة مليانة برايز» ثم همسها لي أنها تتمنى أن يحملها مركب في الليل إلى مصر لتعيش هناك.. وصورتها وهي تخرج من قاعة الطحين صفراء مخطوفة لتقول لأمها إن الذرة لم يعد يكفي.. وفوق هذه الصور جميعا كانت تعصر قلبي صورتها بعد أن وضع أبوها في حجرة التليفون..

لم أستطع أبدا أن أنحي عني صورتها تلك.. ولقد أغمضت عيني ودعكتها.. ولكني كنت دائما خلال زحام الصور أرى وصيفة راقدة في وسط الدار، مقرحة الجفن، متورمة الخد، مبحوحة الصوت، كسيرة مهزومة شاحبة.. ومن حولها النساء في السواد!

وحاولت أن أهز رأسي لأنفض عنها زحام الصور.. ولكن الصور ظلت تلح عليّ.. ورفعت صوتي أكلم عم كساب وهو يرفع الزاد من العربة ويضعه على رصيف المحطة.

وسألته إن كانت وصيفة اشتغلت في الزراعية فقال لي: إن مكسورة الرقبة اشتغلت صباح اليوم!

قالها ببساطة، بصوته الهادئ النابض بالغيظ المكتوم..

وأشعل سيجارة..

ونظرت في عيني الرجل، فلم أستطع أن ألتقط نظرة.

واضطرم بي ألم غامض، ودهمتني المخاوف المبهمة، وتذكرت يوم وجدنا وصيفة عائدة مع أبيها من السوق فركبت إلى جوار عم كساب.. وأوشكت أن تقع وهي تنزل فحملها عم كساب وأنزلها!

أيمكن أن تكون وصيفة قد أصبحت كالأخريات!

أيمكن أن تذهب إلى الزراعية فتضحك للكلمات البذيئة، وتغني بلا تحرج، وتتقصع وسط الرجال، وتدخل الحقل أحيانا وراء هذا الرجل أو ذاك!

ولم أستطع أن أتحمل وحدي ثقل هذه الأفكار، فسألت عم كساب إن كانت وصيفة يمكن أن تخسر!

وسكت.. وهز رأسه!

وارتمت نظراتي عند رأسه الرمادي الزاخر بالشعيرات البيضاء.

وخيل إلي أن عم كساب يمكن أن يكون عما لوصيفة اكتشفته فجأة! وشاع في تقاطيع وجهه حنو غريب.. وكسر عينيه، وبدت نظراته التائهة مشحونة بالعطف الأبوي.. وبالرغبة في السيطرة على المستقبل من أجل طفل صغير عزيز لا حيلة له!

وخطرت في فكري كلمات له قالها عندما قيل إن نقطة البوليس مقبلة إلى البلد.. وعدت أذكر فرحته الظافرة حين علم أنها لن تجيء!

إن عمال الزراعية هم أيضا ـ كالعساكر ـ يملكون القرش، وليس عند بنات البلد ذرة ولا مال، والقرش يمكن أن يقلب رأس أي واحدة!

وأخذت أنظر إلى وجه عم كساب الذي يفيض بالحنان والإصرار.

وتمنيت أن يقول لي كلاما يحمل الطمأنينة إلى نفسي، وأمام عيني صورة وصيفة عندما خرجت من قاعة الطحين مروعة.

وسألت عم كساب مرة أخرى إن كانت وصيفة يمكن أن تخسر.. وهززته بيدي مستجديا منه كلمات مطمئنة.

ولكنه بعد صمت طويل قال لي:

ـ أيوه سألتنى.

ثم تنهد وقال:

ـ الجوع كافر!

وحاولت أن أقول شيئا أدفع به زحف الاضطرام على حلقي.. ولكني اهتززت تحت المخاوف المبهمة.. ولم أستطع أن أقول شيئا.

وتحرك عم كساب إلى العربة الحنطور.

وتركني واقفا على رصيف المحطة، ومضى يفرقع بكرباجه طالبا مني أن أنتظر على الرصيف حتى يذهب إلى المديرية فيعود بأبي وأخي الأكبر.

وظللت وحدي مبهورا من عم كساب.. معجبا بنظراته الثابتة، وصوته الهادئ وكلماته الخاطفة المحملة دائما بالذكريات والتجربة.

وعادت إلى ذهني صورته مع وصيفة يوم ركبت إلى جواره، وقفز إلى الأرض وأمسك خصرها بذراعيه لتنزل.. ثم ما صنعه بالأمس وهو معها في وسط الدار.. إنه يصنع أشياء لا يصنعها الآخرون في القرية، ويقول كلاما لا يقوله أحد.

واضطربت رأسي بصور مختلطة، وتذكرت خضرة.

أيمكن أن تصبح «وصيفة» ضائعة كخضرة بعد أن ضاعت منها الأرض.

أيكون بينها وبين عم كساب شيء كالذي كان بين دياب وعلواني وخضرة!

وملأني الضيق.

وعدت أفكر في أن وصيفة ربما أعجبت بعم كساب.. ربما تزوجته.

وحتى هذا الخاطر لم يرحني.

وتمشيت على رصيف المحطة وأنا أقول لنفسي إن عم كساب يكاد يكون في عمر أبيها.

وظللت أمشي على الرصيف الذي بدأ يمتلئ بالناس والسلال والمقاطف.. ووجدت شريط سكة الحديد يمتد أمامي إلى بعيد.. إلى بعيد جدا في خطين متوازيين يلتقيان على مرمى العين.. وكنت أعرف أنهما لا يلتقيان أبدا.. وإنما هكذا تخدع الصورة عيون الناس.

وفاضت نفسي بأحلام المدرسة الثانوية، وما أصنعه في القاهرة وزخرت أعماقي بمشاهد مظاهرات الطلاب في العام الماضي تطالب بالدستور والاستقلال والرصاص فوق الرءوس.. وتوالت في قلبي الخفقات واهتزت أمامي صور المواكب النابضة بالهتاف والوعيد.

وقلت لنفسي لئن سقطت الوزارة وعاد الدستور.. فسيعود محمد أبو سويلم شيخا للخفراء ويعود الشيخ حسونة إلى القرية، ويرتفع الحجز عن أرض كثيرة في القرية.. ويروج الناس!

وظللت أروح وأغدو أنقل عيني من الفضاء الواسع إلى شريط سكة الحديد، إلى فناء المحطة، حيث تستلقي من ورائه المدينة في الزحام.

وبعد قليل عادت العربة.

كان عم كساب على مقعده المرتفع يشد جسده.. ويضحك.

وهبط أبي وأخي.. ودخلا ليقطعا التذاكر ويسألا عن موعد القطار بالتحديد.

وبقيت أنا على الرصيف، وعم كساب يسلم عليّ مودعا.

وقال لي وهو يضحك: إن إشارة تليفونية أرسلت الآن إلى القرية وفيها أمر بالإفراج عن محمد أبو سويلم وعبد الهادي ودياب وعلواني.

وسكت لحظة، وهو ما يزال يبتسم، ثم أطلق ضحكة مرتفعة، وأنا أنظر إليه مندهشا فقال لي:

ـ أما حصل حتة دور في المديرية دلوقت!.. مش الشيخ يوسف ومحمود بك وقعوا في بعض؟! ياسيدي كان فيه لجنة شياخات علشان عمدية بلدنا.. وأجلوها.. القصد.. يا سيدي عمك الشيخ يوسف كان فاهم إن محمود بيه راح يساعده في العمدية.. لبس اللي على الحبل كده، ولبس الجزمة الكشف والعمة الجديدة وراح لك عالمديرية ومعاه راجلين تلاتة من البلد، وشيخ البلد معاه كمان تلاتة أربعة.. دخلوا لقيوا محمود بيه قاعد.. والشيخ يوسف بقى فاهم إنه معاه وعمال يديله في فلوس ويخطف من هنا ويدبر من هنا ويدفع له على أمل إنه حيساعده في العمدية.. بس يا عم ويلاقي لك محمود بيه مرشح نفسه للعمدية ورئيس لجنة الشياخات بيسأل: تنتخبوا محمود بيه؟

ثم كتم عم كساب ضحكاته.. واستمر يروي كيف اعترض الشيخ يوسف على ترشيح محمود بك وأعلن في غلظة أن البلد كلها لا تحب محمود بك فهو يلعب بالناس ويأخذ منهم المال ليقضي لهم الشغل، ولكنه يعمل لنفسه ولا ينفذ وعوده! وإذ ذاك انقض محمود بك فضرب الشيخ يوسف بالرجل في صدره وخبطه كفا على عمامته فطارت.

وخرج الشيخ يوسف يسب ويلعن، وخرج وراءه أهل البلد وأقسموا كلهم بالطلاق ألا ينتخبوا محمود بك.. واقترح الشيخ يوسف أن يوحدوا الكلمة ويتفقوا على رجل واحد فاقترح شيخ البلد أن ينتخبوه هو قائلا للشيخ يوسف في ود:

ـ ما إحنا أخوات برضه وأوامرك كلها أمشيها لك.. وكفاية عليك انت الدكان يا شيخ يوسف.

ووافق الشيخ يوسف.. وحاولوا الدخول مرة أخرى على لجنة الشياخات.. ولكن اللجنة أجلت اجتماعها عدة أيام، فانصرفوا والشيخ يوسف يقسم أن يشكو محمود بك ويطالبه بما أخذ من مال.. ولن يسكت إلا إذا وضعوا محمود بك في الحديد!

وملأني السرور وأنا أستمع لما يقوله عم كساب، وضحكت كثيرا.. وتمنيت لو أني أعود إلى القرية اليوم فأقضيه فيها وأعيش فيما يكون هناك ثم أسافر في اليوم التالي.

ولكن اليوم التالي كان الجمعة، وأمي لم تكن تحب لأحد منا أن يسافر يوم الجمعة..

وشردت فيما يمكن أن يحدث الآن .. سيعود الشيخ يوسف مغيظا، فيجد القرية تزغرد فرحة بالإفراج عن الرجال، ويمضي هو فيروي لهم ما حدث من محمود بك ويعانق محمد أبو سويلم وعبد الهادي.. وربما عانق علواني ودياب.. وربما بكى من الندم، وعانق محمد أفندي، ثم فتح دكانه، وأرسل إلى علواني بالشاي والسكر.. ووقف داخل دكانه المفتوح، يصفق ويقول: «آه يا بلد».. وبعد هذا يحك رأسه، ويلبس العمامة القديمة، ويخلع كل ما اشتراه ليكون به عمدة ويفتح كتاب «عنتر» أو «أبو زيد» ويقرأ فصولهمسا في صوت مرتفع!

وجاء أبي ووراءه أخي الأكبر، فطلب من عم كساب أن يستعد لوضع أشيائنا في القطار لأن القطار قادم.

وتحرك عم كساب بحقيبة في يد وسلة كبيرة في اليد الأخرى.. ومضيت أنا وراءه أنظر في الفضاء إلى وجه القطار الأسود الذي بدأ يزحف من بعيد.

وقال عم كساب مهمهما:

ـ بالسلامة.. إن شاء الله الإجازة الجاية تلاقي دار جديدة على الزراعية، وماكينة.. وتلاقي وصيفة منورة الدار!

وباغتتني كلماته.. واتسعت عيناي، وسألته طالبا منه أن يقول في سرعة كل مايعني..

وقال لي ببساطة: إنه قرر أن يشتري أرضا على الزراعية من بقايا الأرض التي نزعت ملكيتها، فيبني عليها دارا جديدة.. فإذا أخذ محمد أبو سويلم التعويض عن أرضه التي نزعت شاركه عم كساب في بناء ماكينة طحين تكسب تماما، وتمنح لمحمد أبو سويلم من المال والحياة الموفورة أكثر مما كانت تمنحه الأرض.

ووقف القطار، فصعد عم كساب بالحقيبة والسلة وأنا وراءه أسأله إن كان حقا سيتزوج وصيفة.

فقال لي إنه اتفق منذ زمن .. ثم تمتم:

ـ لما أرجع البلد حاجرها من الزراعية على ملا وشها.. زراعية إيه اللي بتشتغل فيها؟!.. دا أنا حاخبيها! هي ماكينة الطحين تكسب وحش!

وعدت أذكر ما كان يقوله لي عم كساب دائما.

كان دائما يقول لي: إن الرجل يجب ألا يقع.. وإنه يجب في أي ظرف أن يتعلم كيف يبدأ من جديد!

وحاولت أن أتصور ما يمكن أن يصنعه عبد الهادي حين يعلم أن عم كساب سيتزوج وصيفة.. لقد قال لي عبد الهادي أيضا: إن وصيفة ستعمر داره، وأنني سأعود في الصيف القادم لأجدها تنور الدار!

وخيل إليّ أن عبد الهادي لن يرضى بالزواج من وصيفة بعد أن اشتغلت في الزراعية ولو ساعة واحدة.. ولكني في الحق أشفقت عليه، ورثيت له.

ونزل عم كساب بسرعة ولم أقل له شيئا.

وحضر القطار، فوقفت مع أخي في النافذة فسلمنا على أبي.. وقبلنا يده عدة مرات، ونفوسنا تجيش، وقبلنا أبي، ودعا لنا بالستر ونجاح المقاصد.

وصفر القطار.

ورنت نغماته الموحشة في أذني.. وفاض في أغواري الحنين وكل مايثيره الوداع!

ومضى يشق بنا طريقا طويلا بين الحقول.. حقول واسعة يغمرها بياض القطن، وخضرة كيزان الذرة.. تماما كالحقول التي تركتها في قريتي تهوي تحت المعاول.

وعندما انتهت حقول الذرة، بدأت تلوح لنا حقول واسعة من البرسيم الصغير.. وجدت فتيات كثيرات يتناثرن هنا وهناك منحنيات على الأرض يلتقطن من حشائش الحقول.. كنت أعرف أنهن يجمعن السريس والجعضيض وعنب الديب وأصنافا أخرى من النباتات، ليأكلن بها الخبز الجاف.. فهكذا كانت الفتيات والأولاد يصنعون في قريتي.

وظل القطار يشق بنا الأرض دون توقف.

وبدأ يدخل محطات صغيرة تقوم عليها القرى يقذف بركاب ويلتقط آخرين.. ويتحرك منها.. ورأيت طريقا زراعيا يوازي خط السكة الحديد.

والتفت أخي الأكبر، وقال لي: إن التلاميذ الصغار يقفون على الزراعية الجديدة في انتظار سيارات الأوتوبيس لتعود بهم من المدرسة الابتدائية في مدينة قريبة.

وسكت أخي قبل أن يقول لي إن بلدنا يجب أن ترسل أولادها الصغار على الزراعية الجديدة إلى المدينة فستمر بها سيارات الأوتوبيس.

وظللت أنظر من شباك القطار وفكري في قريتي.. وتوقف القطار عند إحدى القرى، وسمعت أغنية حزينة تتردد نغماتها من إحدى طرقات القرية:

يا رب أقابل حبيبي عالزراعية
مالعصر للعصر باطلع ع الزراعية

وتحرك القطار.. وتاهت مني كلمات الأغنية.. فنظر أخي إليّ مبتسما وهو يقول لي:

إن هذه القرية تغني للزراعية، وقد دخلت الزراعية في حياتها وغنائها.. وسكت أخي ثم استطرد يقول: إنه ما دامت الزراعية قد جاءت، فهي تدخل في وجود الناس، ويحسن أن يسيطر عليها الناس.

وقلت له: إن عم كساب سيبني ماكينة للطحين على الزراعية.

فاستمر أخي يقول لي: إن الأرض التي بقيت لمحمد أبو سويلم لن تصلح للزراعة بعد، ومن الممكن أن يبني عليها ماكينة بمبلغ التعويض مشتركا مع كساب، ويستطيع من إيراد الماكينة أن يؤجر أرضا أخرى أكبر من التي كان يزرعها.

واستطرد أخي يقترح أن يبني الناس على الزراعية بيوتا جديدة نظيفة.

ولم يقل لي كيف.. وعندما سألته سكت.

واستمر القطار يمضي بنا في ضجيج رتيب منتظم .. وعندما لاحت لنا القاهرة بقبابها.. ورأينا من بعد ثلاثة أهرامات في بياض الضباب، بدأ أخي يحدثني عن هذا العام الدراسي.

وزخرت في صدري صورة المدرسة الثانوية، وإضرابات الطلاب.. بينما كان قلبي ما يزال ينبض بحزن على وصيفة وعبد الهادي وقريتي.

وعندما وصلنا القاهرة، وتركنا القطار، توالت دقات قلبي، وأحسست بدمي يصرخ بي وينادي على أشياء مجهولة لا أستطيع أن أتبينها.

ودخلت وراء أخي في زحام المندفعين إلى ميدان المحطة، ومن ورائنا الشيال.

وركبنا عربة حنطور إلى بيتنا في الحلمية الجديدة..

ودخلت بنا العربة من شارع إلى شارع، والسائق يفرقع بالكرباج ويلقي شتائم لم أسمعها في القرية في كل شهور الصيف..

واحمر وجه أخي، ورأيته ينظر إليّ بطرف عينه، ليرى إذا كنت قد فهمت الشتائم التي يلقيها السائق.

والحق أني كنت قد سمعت هذه الشتائم طوال أربعة أعوام من شوارع الحلمية الجديدة، ومن تلاميذ المدرسة الابتدائية.

وملأني إحساس عجيب.. فقد شعرت ـ في حب بالغ ـ أن أخي يريد أن يحمي أذني من هذه الكلمات التي يلقيها السائق على الناس في الطريق.. وكأنه يريد أن يمارس إلى آخر حد مسئوليته في تربيتي.. هذه المسئولية التي بدأ يحسها منذ ودعنا أبي في المحطة.

ولكنني كنت وأنا جالس إلى جوار أخي أفتح عيني على طرقات القاهرة، مفتونا بالضجيج، والعربات تجرها الحمير، والسيارات الفاخرة المتعددة الألوان، والنساء في الفساتين، والرجال بالبدل، والترام، والحفاة في جلابيب غير زرقاء والعساكر!!

وهزتني المرائي العديدة التي طال عنها غيابي أربعة أشهر من الصيف وكأني أرى لأول مرة مدينة لم أعرفها من قبل.

وازدحمت عيني بعشرات الآباء والأمهات والأولاد الصغار يتنقلون بين المتاجر.

وهمس أخي قائلا:

ـ دخول المدارس!

ورنت كلماته في أعماقي بواقع غريب.

وتقدمت بنا العربة في الزحام الذي يختلط بأحلامي.

وشاهدت بوضوح أحلامي تموج بزحام الناس.

وظلت العربة تمضي بنا في شوارع القاهرة.. وعروقي تنبض بأشياء عديدة من قريتى.

أشياء لم أستطع أن أنساها أبدا..

تمت بحمد الله

الفهـــــرس

_ ١ _
_ ٢ _
_ ٣ _
_ ٤ _
_ ٥ _
_ ٦ _
_ ٧ _
_ ٨ _
_ ٩ _
_ ١٠ _
_ ١١ _
_ ١٢ _
_ ١٣ _
_ ١٤ _
_ ١٥ _
_ ١٦ _
_ ١٧ _
_ ١٨ _
_ ١٩ _
_ ٢٠ _
_ ٢١ _
_ ٢٢ _